
العماد
مصطفى طلاس
سيف الله
خالد بن الوليد

سيف الله



دمشق : منطقة المزة (3) ـ حي الجلاء (5) شارع كعب بن مالك
(طلعة الإسكان سابقاً) بناء رقم (2) ــ ص.ب : 16035
هاتف: 6618013 - 6618961 تلفاكس: 6618820 ـ برقياً: طلاسدار
Website:www.dartlass.com E-mail:info@dartlass.com

مكتبة دار طلاس ـ برج دمشق ـ مقابل وزارة الداخلية ـ هاتف: 2319558

ريع الدار لهيئة مدارس
أبناء و بنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

العماد الركن مصطفى طلاس

دبلوم أكاديمية الأركان العامة المسماة «فورشيلوف»



الطبعة الرابعة ٢٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل

ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم

لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله

يوف إليكم وأنتم لا تظلمون

سورة الأنفال: الآية «٥٩»

« خَالدُ سَيفٌ مِن سُيُوفِ اللّهِ ..
وَنِعْمَ فَتَى العَشِيرَة »

الرَسول العَرَبي

«١» مسند الامام احمد ص ١٧٤

"أَمَّرَ خالدٌ نَفسَهُ يَرحَمُ اللهُ أبا بَكرٍ هُوَ كانَ أعلَمُ مِنّي بِالرِّجالِ"[1].

"عمر بن الخطاب"

"1" قال هذه العبارة عمر عندما بلغه ما عمل خالد في بلاد الشام.

تاريخ الطبري ج: ٣ ص: ٩٨

لقد شَهِدت مائَة زحف أو زهاءَها
وَما في بَدني مَوضع شِبر إلّا وَفيه ضربَةٌ
بسَيفٍ أو رميَةٌ بِسهمٍ أو طعنة برُمح.
وَها أنذا أموتُ عَلى فراشي حتف أنفي
فلا نامَت أعينُ الجُبَناء .

الإهداء

إلى الفدائي الأول في الثورة الإسلامية عكرمة بن عمرو بن هشام
بن المغيرة الذي كان لاستشهاده مع رجاله كافة في موقعة اليرموك
أكبر الأثر في النصر المؤزر الذي أحرزه العرب على الروم .

مصطفى طلاس

مقدمة

يعد سيف الله خالد بن الوليد فتى بني مخزوم من المع الشخصيات العسكرية التي ظهرت في عصره وحتى الف سنة لاحقة وبالتحديد حتى جاء نابليون بونابرت الذي سار على خطى خالد فطور الحرب الحركية وأبدع في استخدام الخيالة في المناورة السريعة لحسم المعركة.

ولقد شغفت بسيف الله منذ طفولتي وعندما دخلت الحياة العسكرية زاد حبي لخالد وتقديري له وعندما كتبت غزوات الرسول العربي أوائل السبعينات صممت أن أخص خالداً بكتاب مستقل... ولكن ظروف العمل لم تتح لي التفرغ للتصدي لهذه المهمة الصعبة حتى صدر كتاب الجنرال أ. أ. أكرم الباكستاني الجنسية عن خالد بن الوليد باللغة الانكليزية بعد حرب تشرين التحريرية واصدرت التوجيهات بان يترجم الكتاب فورا من قبل هيئة التدريب في القوات المسلحة الى اللغة العربية ولاقى الكتاب اقبالا من الرفاق العسكريين ولا غرو في ذلك فالجنرال أكرم عسكري محترف ولذلك فقد سبقت عواطفه نحو خالد وتعصبه له عقله نحو عمر بن الخطاب امير المؤمنين.. وكانت دهشتي بالغة عندما علمت أن ضباطنا بدأوا يتعصبون لخالد ويتجنون على عمر بحكم التعاطف المهني عند ذلك وجدت أن لا مندوحة من التصدي لهذا التيار وتقديم كتاب جديد للقراء العرب عن خالد بن الوليد فيه كل حسنات كتاب الجنرال أكرم مع مخططات أفضل للمعارك الحربية التي خاضها خالد وتحليل دقيق لعبقريته الحربية في الفصل الاخير من الكتاب.. كما عللت بشكل موضوعي سبب اقالة خالد وعزله عن امارة الجيش وارجعت ذلك لاسبابه الحقيقية لان عمر

ابن الخطاب مؤسس الدولة العربية الاولى فوق كل الشبهات كما ان الرسول العربي قال في معرض تقديره للفاروق : « لو كان نبي من بعدي لكان عمر » [1] .

وفي الختام انني أضع هذا الكتاب بين أيدي رفاق السلاح في الاقطار العربية كافة وكلي أمل في أن يقتفي جنودنا العرب خطوات خالد سواء في شجاعته أم في مناورته على الاعداء . أم في ايمانه الذي لا يتزعزع في امكانات الامة العربية في بلوغ النصر عندما يتدافع ابناؤها لنيل الشهادة لعلنا نتمكن من غسل وصمة العار التي الحقها الغزاة الصهاينة في تاريخنا العربي الحديث والله من وراء القصد .

العماد الركن مصطفى طلاس

---

(١) رواه الامام احمد في مسنده والترمذي والحاكم في مستدركه عن عقبه ابن عامر ورواه الطبراني عن عصمة بن مالك (منتخب كنز العمال) .



فتى بني مخزوم

«كنت أرى لك عقلا ، رجوت أن لا يسلمك الاّ الى خير»

الرسول العربي (ص)



١ ـــ مولده ونشأته :

في السنة الخامسة والعشرين ، قبل الهجرة أي عام ٥٩٧ ميلادية ، ولد فتى بني مخزوم سيف الله خالد بن الوليد – كان أبوه الوليد بن المغيرة سيداً من سادات قريش ، وجواداً من أجوادها ، وكان يلقب بالوحيد .. أرخت قريش بوفاته لاكبارها اياه – وبعد أيام من ولادته أرسل الى احدى القبائل العربية كما جرت العادة لدى أسر قريش النبيلة .. وكان لهواء الصحراء والتغذية الجيدة دور أساسي في الصحة الجيدة التي اكتسبها الفتى ولللياقة البدنية العالية التي تمتع بها طوال سني حياته .. وعندما بلغ الخامسة من عمره عاد الى منزل أبويه في مكة .

أصيب خالد في طفولته بمرض الجدري اصابةً طفيفة لم تؤثر على وسامته ، فظل الفتى الأكثر حظوة لدى صبايا الجزيرة العربية . وعندما بلغ أشده أدرك بشيء من الكبرياء أنه ابن زعيم ، فقد كانت للوليد مكانة مرموقة بين سادات قريش ، فهو عدلها يكسو الكعبة عاماً وتكسوها قريش بأجمعها عاماً آخر [١] . وأم خالد عصماء هي لبابة الصغرى بنت الحارث بن حرب وهي أخت أم الفضل بنت الحارث أم بني العباس بن عبد المطلب وأخت ميمونة زوج الرسول العربي (ص). وفي مُرّة يجتمع نسب الرسول الكريم ونسب بني مخزوم [٢] .

---

(١) السيرة الحلبية . ج : ١ ص : ٣٤٧ .

(٢) جوامع السيرة لابن حزم ص : ٣ .

وبنو مخزوم بطن من عشرة أبطن من قريش انتهى اليها الشرف قبل الاسلام. فكان في بني مخزوم القبة وأعنة الخيل، أما القبة فكانوايضربونها ويجمعون فيها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فهي قيادة الفرسان في الحروب. .

وتتجلى مكانة بني مخزوم بين قريش ، أنهم بنوا وحدهم ربع الكعبة الذي بين الركنين الأسود واليماني ، بينما بنت قريش كلها ما تبقى من الكعبة .

تكفل الوليد بتنشئة خالد وبذل جهده لكي ينمي فيه المناقب العربية الحميدة كالشجاعة والفروسية والكرم والنخوة والنجدة والشهامة ..

تعلم خالد وهو ما زال طفلا ركوب الخيل وأتقن بسرعة فن الفروسية كأحسن فرسان بني مخزوم . وكان يعطى خيلاً صغيرة السن ليروضها حتى تصبح صالحة للركوب وللحرب .. وبطبيعة الحال لم تكن الخيل هي واسطة الركوب الوحيدة في ذلك الوقت بل كانت هنالك الجمال ، سفن الصحراء ،ومن كان فارساً سهل عليه جداً ركوب الجمل ..

لم يكتف خالد بالفروسية وحدها بل تعلم مهارات القتال كافة اضافة الى استخدام جميع الأسلحة المعروفة في ذلك العصر .. وكان يتفوق في استخدام الرمح خاصة ، على صهوة الجواد ، كما كان يتقن استخدام السيف للمبارزة سواء أكان مترجلاً أم راكباً .

. وعندما بلغ خالد سن الرجولة كان طوله يزيد على ستة أقدام ، وبدا عريض المنكبين واسع الصدر مفتول العضلات قوي البنية نحيل الخصر وكانت لحيته الكثة تملأ وجهه فيغدو كالأسد المهيب ، لذلك لا غرو اذا أصبح شخصية محبوبة تحظى باعجاب الناس وتقديرهم في مكة .

كان لخالد ثلاثة أخوة واختان . أما إخوته فهم : الوليد (على اسم أبيه) وعمارة ، وعبد شمس ، وأما الاختان فهما : فاخته وفاطمة .

كان الوليد رجلاً ثرياً [1] . لذلك لم يكن خالد بحاجة للعمل ليكسب رزقه فانصرف الى تعلم مهارات ركوب الخيل والمبارزة .. وبسبب هذه الخلفية من الثراء ، شب خالد على الكرم واشتهر عنه ذلك في قبيلته . وقد رافق خالد قوافل التجارة أكثر من مرة الى بلاد الشام وزار المدن التجارية الكبرى فيها والتقى هناك بالعرب الغساسنة والانباط وبالفرس والرومان .

كان لخالد كثير من الأصدقاء يرافقهم واخوته الى الصيد وركوب الخيل . وكانوا يقرضون الشعر ويشربون الخمر.. ومن أبرز أصدقائه عمرو ابن العاص وعمرو بن هشام بن المغيرة (أبو جهل) وابنه عكرمه .

لم يكن الوليد أباً راعياً لأولاده فحسب .. بل كان أيضاً مدربهم العسكري ومنه تعلم خالد أول دروسه في فن الحرب .. تعلم كيف يتحرك بسرعة في الصحراء ... وكيف يتقرب من قرية معادية.. وكيف يهاجمها .. كما تعلم أهمية المفاجأة وأخذ العدو على حين غرة .. ومطاردته عندما يلوذ بالفرار..

عندما بلغ خالد سن النضج .. غدت الحرب هاجسه الرئيسي الذي سيطر عليه سيطرة كبيرة .. كانت أفكاره عسكرية .. وكان طموحه أن يحقق النصر.. وكان استعداده النفسي والفيزيولوجي يؤهله لذلك .. كان يصبو الى خوض معارك كبيرة .. والى احراز انتصارات عظيمة يكون هو بطلها الذي يثير اعجاب الناس وتقديرهم جميعاً .. لقد وطد العزم على خوض الحروب وتحقيق النصر واهراق الكثير من الدماء ويبدو أن القدر كان معه في كل ما يصبو إليه .

عندما هبط الوحي على الرسول العربي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب كان خالد في الرابعة والعشرين من عمره ولم ينضم الى صف النبي بل لزم جانب والده وموقفه من الدين الجديد.. وكان رد فعل الوليد الاول

---

(١) — ابن هشام — ج : ١، ص : ٣٦١

هو الكرامة المضطربة .. وقد صاح بانفعال « لماذا تنزل النبوة على محمد ، ولم تنزل علي ، أنا أكبر قريش منزلة وسنا ، وكذلك يوجد ابن مسعود زعيم قبيلة ثقيف ، وبالتأكيد هو ، وأنا ، أعظم رجلين في المدينتين » .

وقد نزلت الآية القرآنية التالية بحق الوليد وفيها اشارة واضحة اليه « وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم [1] » .

بعد مغادرة الرسول العربي (ص) مكة الى يثرب (المدينة المنورة) بثلاثة شهور حضر الوليد الموت فاستدعى ابناءه وقال لهم: « يا أولادي أوصيكم بثلاثة أشياء فاحرصوا على تنفيذها . الأول هو نزاعي الدموي مع (خزاعة) فاثأروا لي . وأقسم بالله انني أعلم أنهم ليسوا مذنبين ، لكنني أخشى أن تلاموا بعد هذا اليوم . أما الثاني فهو مالي الذي تجمع من الفوائد واستحق لي مع ثقيف واعملوا على استيفائها منهم . والثالث هو أنني أستحق التعريض أو الذم من « أبي أزيهر » لقد تزوج هذا الرجل ابنة الوليد ثم تركها دون أن يعيدها الى منزل والدها .

وبعد أن أنهى الوليد وصيته لفظ أنفاسه الأخيرة ودفن بموكب مهيب يليق بزعيم كبير في قريش . [2]

عاش خالد فترة هدوء في مكة خلال السنوات التي تلت موت أبيه ، وتمتع بحياة هنيئة من جراء الثروة التي يملكها . وسافر الى سورية مع قافلة تجارية ضخمة ووصل الى مدينة بصرى هذه المدينة التي سيزحف اليها بعد عدة سنوات كهدف عسكري .

٢ — خالد ومعركة أحد :

كانت « غزوة بدر » أول لقاء كبير بين المسلمين وأعدائهم المشركين اذ صمدت قوة صغيرة من ثلاثمائة وبضعة عشر مسلما كالصخرة أمام ألف

---

(١) — سورة الزخرف الآية (٣١).

(٢) — من الجدير بالذكر أن انجال الوليد نفذوا وصية والدهم بحذافيرها .

راجع : سيرة ابن هشام ج : ٢ ص ٥٢ وما بعدها .

رجل من المشركين. وبعد قتال عنيف حطم المسلمون جيش قريش الذي فرّ من ميدان المعركة وقد دبت فيه الفوضى. وقد قتل أو أسر في هذه الموقعة خيرة رجالهم.

قتل سبعون مشركا، وأسر سبعون آخرون على يد المسلمين الذين فقدوا ١٤ شهيدا فقط. وكان من بين قتلى المشركين ١٧ قتيلا من بني مخزوم، معظمهم من أبناء عم خالد وابناء شقيقاته. وقتل أبو جهل، واسر وليد شقيق خالد.

وعندما أعلن في معسكر قريش أسماء القتلى ومن قتلهم، لاحظ المجتمعون تردد اسمي عليّ وحمزة، فقد قتل عليّ ١٨ مشركا بنفسه واشترك في قتل أربعة آخرين. أما حمزة فقد قتل أربعة رجال واشترك مع عليّ في قتل أربعة آخرين. وهكذا فقد سيطر اسم حمزة وعليّ على هذا الاجتماع الحزين.

وبعد يومين، عقد أبو سفيان مؤتمرا ضمّ جميع زعماء قريش. ولم يكن بين المجتمعين من لم يفقد شخصا عزيزا في غزوة بدر. وكان أكثر الحاضرين هياجا صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل.

وقد كان من الصعب كبح جماح عكرمة، فأبوه كان له شرف قيادة جيش قريش في غزوة بدر وقد قتل في المعركة. ووجد الابن بعض السلوى والعزاء لأن أباه قتل رجلا في غزوة بدر، وهو نفسه قتل رجلا آخر وهاجم المسلم الذي قتل أباه، وجرحه في ذراعه، لكن ذلك لم يكن كافيا ليطفىء تعطشه للانتقام. وأصرّ عكرمة على أنه ينبغي لقريش أن تثأر لقتلاها

وقال ابو سفيان: «لقد فقدت أنا أيضا ابني حنظلة، وان تعطشي للثأر لا يقل عنك. وسأكون أول من يجهّز حملة قوية لشنّ هجوم ضد محمد». (١)

وتعهدوا جميعا، في هذا المؤتمر بأخذ الثأر وبألاّ يتقاعس احد عن

---

(١) — الواقدي: المغازي — صفحة ١٥٦

القتال في هذه المرة ، وبأن تجهز جملة لم يجهّز مثلها من قبل في مكة ، تدعى القبائل المحلية الاخرى للانضمام اليها والاشتراك في ابادة المسلمين.أما الربح الاجمالي الذي حققته القافلة ومقداره خمسون ألف دينار فيصرف على تمويل الحملة. وانتخب أبو سفيان بالاجماع قائدا لجيش قريش.

اتخذ أبو سفيان قرارين ، أولهما : عدم البكاء والنحيب على قتلى بدر، لأن الدموع تغسل الحقد من القلوب ، لذا يجب أن يتأجج هذا الحقد في الصدور حتى يتم أخذ الثأر من المسلمين.

أما القرار الثاني فيتعلق بالاسرى الموجودين لدى المسلمين. لقد أمر أبو سفيان بالامتناع عن السعي لاطلاق سراحهم خوفا من ان يطلب المسلمون ثمنا لذلك. على ان هذا القرار لم ينفذه احد. اذ بعد يومين غادر ليلا أحد المشركين مكة سرّا لدفع الفدية عن أبيه ، وعندما علم الآخرون بذلك ، بادروا الى دفع الفدية واطلاق سراح ذويهم . ولم يكن أمام أبي سفيان أي خيار سوى السكوت

كانت قيمة الفدية تختلف بين شخص وآخر. وقد بلغ أعلى معدل لها ٤٠٠٠ درهم ، وأدنى معدل ١٠٠٠ درهم بالنسبة للاشخاص الذين لا يستطيعون دفع أكثر من ذلك. وقد حصل عدد قليل من الاسرى الفقراء الذين كانوا من المتعلمين ، على حريتهم مقابل تعليمهم عددا معينا من أبناء المسلمين القراءة والكتابة. وقد أطلق الرسول (ص) سراح بعض المعوزين بلا فدية على أن لا يعودوا أبدا الى حمل السلاح ضدّ المسلمين.

وكان بين الذين ذهبوا للتفاوض على اطلاق سراح الاسرى : عكرمة ، وخالد (الذي لم يشترك في غزوة بدر بسبب غيابه آنذاك عن الحجاز) ، وهشام شقيق خالد. وقد دبر خالد وهشام أمر اطلاق سراح أخيهما وليد. وعندما سمع هشام أن مقدار الفدية ٤٠٠٠ درهم ساوم على تخفيض قيمتها ، لكن خالداً أنّبه على ذلك . ثم دفع المبلغ مقابل اطلاق سراح وليد ، وبعد ذلك غادر الأشقاء الثلاثة «المدينة» ونصبوا خيامهم لقضاء الليل في مكان يدعى «ذو الحليفة» على بعد بضعة أميال عن المدينة . وهنا هرب وليد من

المخيم وعاد الى «المدينة» والتحق بصفوف الثورة الإسلامية.

وقد برهن بعد ذلك أنه مسلم مخلص وأصبح من المقربين الى الرسول، وعلى الرغم من اعتناقه الدين الحنيف، ظلت علاقاته بأخيه خالد قوية وحميمة. وبينما كان الثأر هو الموضوع الاساسي في مؤتمر قريش كان ثمة عامل آخر يجرّ قريش الى الحرب، وهو عامل اقتصادي. فالمحور الرئيسي الذي كانت تسلكه قوافل قريش وهي ذاهبة الى بلاد الشام، كان يقع على الطريق الساحلي الذي لم يعد مفتوحا أمامها بعد غزوة بدر. وفي خريف ذلك العام، أراد صفوان بن أمية استطلاع طريق آخر للتجارة، فوجه قافلة الى سورية على محور جديد ظنا منه أنه قد يكون آمنا. وغادرت القافلة مكة على الطريق المؤدية الى العراق، وبعد أن سارت مسافة الى الشرق، اتجهت شمال غرب، نحو سورية، وبعد أن اجتازت «المدينة» اعتقد صفوان انها اصبحت في أمان. لكن الرسول العربي (ص) علم بأمر هذه القافلة وأرسل زيد بن حارثة على رأس مائة رجل لأسرها وقد تم له ذلك.

بعد هذا الاخفاق بدأ الاعداد للحملة بحماسة كبيرة. وفي اثناء ذلك، جاء رجل من المدينة غير مؤمن الى أبي سفيان ومعه اقتراح. كان هذا الرجل يدعى «أبا عامر» وقد اعترض على وصول الرسول العربي (ص) الى المدينة، وعلى السرعة التي اعتنق فيها أفراد عشيرته — «الاوس» — الاسلام. وفي مكة، أخذ يحرّض قريشاً على المسلمين. وكان «أبو عامر» يسمى في الجاهلية ب «الراهب»، لكن الرسول العربي (ص) سمّاه ب «الفاسق»! وهكذا عرفه المسلمون باسم: «ابو عامر الفاسق». (١)

وقد قال لابي سفيان: «معي خمسون رجلا من عشيرتي. ولي نفوذ كبير على عشيرتي الاوس. وانني اقترح عليك أن اخاطب الاوس بين المسلمين قبل أن تبدأ المعركة، وانني على يقين بأنهم سيتركون محمدا وينضمون الى جانبي». (٢) فقبل أبو سفيان هذا الاقتراح بسرور. وكانت الاوس احدى

---

(١) — ابن هشام — الجزء ٢ صفحة (٦٧).

(٢) — الواقدي: المغازي — صفحة (١٦١).

قبيلتين رئيسيتين في المدينة وكان افرادها يشكلون ثلث جيش المسلمين.

بدأ التفاوض مع القبائل المجاورة ، وأخذت الامدادات تصل من كنانة وثقيف . وفي أوائل آذار عام ٦٢٥ م ، بدأ تجمع الحملة في مكة . وفي هذه الاثناء كتب العبّاس ، عم النبي ، رسالة الى الرسول من مكة يعلمه بما يعدونه له .

وفي الاسبوع الثاني من آذار ، انطلق القرشيون من مكة بجيش مؤلف من ثلاثة الاف رجل بينهم سبعمائة دارع ، ومعهم ثلاثة آلاف بعير ، ومائتا فرس . وقد سارت مع الجيش خمس عشرة امرأة قرشية في هودج . وكانت مهمتهن تذكير القرشيين بابنائهم الذين قتلوا في غزوة بدر وتقوية معنوياتهم . وكانت هند بين هذه النساء وكانت بمثابة قائدة لهن ، كما كان عدد من النساء المنشدات يحملن الدُّفّ والطبول .

وعندما كانت الحملة تسير باتجاه المدينة ، قال أحد قادة قريش ، وهو «جبير بن مطعم» ، الى عبده الملقب ب «الوحش» (وحشي بن حرب) : «فان أنت قتلت عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فانت عتيق [1] » . وقد رحب الوحشي بهذا العرض . وكان هذا العبد الحبشي الاسود ضخم الجثة ، وكان يقذف بمذراق [2] له ، جلبه معه من موطنه في افريقيا . وكان ماهرا في استخدام هذا السلاح ولم يخطىء الاصابة قط .

وبعد ان سارت الحملة مسافة اخرى ، رأى «الوحشي» احد الجمال التي تحمل الهوادج يسير بجانبه . وقد نظرت اليه هند من الهودج وقالت له : «يا أبا السواد ! عش وخذ مكافأتك [3]» . لقد وعدته بأن تعطيه جميع المجوهرات التي تتزين بها اذا استطاع ان يقتل حمزة ، فتثأر لابيها .

نظر «الوحشي» بنهم الى الحلية التي مع هند : القلادة ، الاساور ، الخلاخيل ، الخواتم التي تضعها في اصابعها . وقد بدت جميعها غالية

(١) — ابن هشام — الجزء ٢ ، صفحة ٦١ — ٦٢.

(٢) — ضرب من الرماح.

(٣) — ابن هشام — الجزء ٢ ، صفحة ٦١ — ٦٢.

الثمن ؛ فلمعت عيناه فرحا لاحتمال الحصول عليها في حال نجاحه بمهمته.

وبعد أن اتمت قريش استعداداتها للمعركة بدأت في التحرك بجيشها اللجب نحو المدينة. وكان جيش مكة على غاية من التنظيم والاستعداد والجاهزية القتالية ، وقد تجنب قادة مكة الاختلاف في الرأي فلم يحدث بينهم أي شقاق أو خصومة في الرأي حتى انتهت المعركة.

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب عن كثب حركات قريش واستعداداتها العسكرية وهو ان لم يكن قد انخرط في صفوف الثورة الاسلامية آنذاك ، الا انه كان مخلصا لابن أخيه الرسول العربي (ص) ، فقد بعث من مكة برسالة مستعجلة ، مع احد رجاله الامناء ، ضمنها تفصيلات كاملة عن حملة مكة وقد أخذ رسول العباس في السير فقطع الطريق ما بين مكة والمدينة في ثلاثة ايام [1] ، ولما وصل الى مسجد قباء ، سلم الرسالة الى الرسول العربي الذي دفعها بدوره الى أبي بن كعب ليقرأها عليه ، وبعد ان تفهم الرسول العربي (ص) مضمون رسالة عمه العباس ، طلب الى ابي بن كعب ان يكتم الخبر ، ولا يبوح لاحد منه بشيء. ونهض الرسول العربي (ص) على الفور وتوجه الى المدينة وبدأ في الاتصال بقادة المهاجرين والانصار للتداول في الأمر ومواجهة الموقف. واعطى تعليماته الى المسلمين في المدينة بأن يكونوا على أتم الأهبة القتالية وان يناموا وسلاحهم معهم ، كما أرسل دوريتي استطلاع لاستكشاف طلائع المشركين.

وفي الرابع عشر من شوال في السنة الثالثة للهجرة ، عقد الرسول العربي (ص) مجلساً عسكرياً حضره أهل الرأي من المدينة . ودار النقاش في هذا المجلس على المكان الذي يجب أن يلاقي فيه المسلمون أعداءهم . وكان رأي الرسول العربي (ص) أن يتحصن المسلمون في المدينة لارغام قريش على مهاجمتها ، وكان يهدف من وراء هذه الخطة الى استخدام تكتيك حرب المدن والشوارع في مكان يعرفه المسلمون ويجهله المشركون ويمكن النساء

---

(١) في الأحوال العادية يتم قطع هذه المسافة بعشرة أيام .

المسلمات من المساهمة في المجهود الحربي مساهمة فعّالة ، وذلك بتأمين الشؤون الادارية لجيش الثورة الاسلامية ، اضافة الى إمكان المشاركة الفعلية في القتال بقذف الحجارة من سطوح المنازل واقامة المتاريس وسدادات الطرق في الشوارع والساحات العامة . وقد عبر الرسول العربي (ص) عن رأيه هذا بقوله : « فان رأيتم أن تقيموا في المدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فان أقاموا .. أقاموا ، بشر مقام .. وان هم دخلوا علينا ، قاتلناهم بها »[1] .

ولكن الكثير من شباب الثورة الاسلامية كانوا متحمسين للخروج ومقاتلة المشركين خارج المدينة وكان على رأسهم حمزة بن عبد المطلب الذي قال للرسول العربي (ص) : « والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة » . وانحاز الى هذا الرأي أيضاً جمهور كبير ممن لم يكن لهم شرف الجهاد في معركة بدر ، لذلك لم يجد الرسول العربي (ص) حلاً للموقف سوى الموافقة على رأي الأغلبية .. وبعد ارفضاض المجلس دخل النبي (ص) الى منزله فتدجج بسلاحه ثم خرج مع قومه وهو بكامل عدته الحربية، وأذن لهم بالخروج لملاقاة العدو .

ولما شعرت أغلبية الصحابة أنهم أكرهوا الرسول العربي (ص) على اتباع خطة مخالفة للخطة التي عرضها في منازلة العدو ، أعلنوا للرسول استعدادهم للتنازل عن رأيهم والرجوع الى رأيه الأول ، فأبى وعزم على الخروج مهما كانت النتائج[2] وقال لهم : « ما ينبغي لنبي لبس لأمته[3] أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، وقد دعوتكم الى هذا الحديث فأبيتم الا الخروج ، فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس وانظروا ما آمركم به فافعلوا » .

---

(١) كان عبدالله بن أبي (رأس النفاق) من أنصار هذا الرأي .

(٢) يعتبر عمل الرسول العربي صحيحاً تماماً من وجهة نظر العلم العسكري ، لأن المداولات والاستماع الى تقارير المرؤوسين وآرائهم يتم قبل اتخاذ القرار ، وعندما يتخذ القرار من قبل القائد فلا عودة الى الوراء ابداً . بل التصميم على متابعة التنفيذ بكل حزم وقوة .

(٣) اللأمة : الدرع ، وقد يسمى السلاح كله لأمة .

وتوجه الرسول العربي (ص) الى ملاقاة العدو على رأس جيش قوامه زهاء ألف مقاتل وقد قسم الرسول العربي قواته الى ثلاث كتائب :

١ — كتيبة المهاجرين وأعطى علمها لمصعب بن عمير العبدري القرشي .

٢ — كتيبة الأوس من الأنصار ، وأعطى علمها للحباب بن منذر بن الجموح .

٣ — كتيبة الخزرج من الأنصار أيضاً ، وأعطى علمها لأسيد بن حضير .

وعندما «تم فصل» جيش الثورة الاسلامية عن المدينة ، وجاوز ثنية الوداع [١] رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش فقال : ما هذا ؟ .. فأبلغوه أن هذه الكتيبة مؤلفة من اليهود حلفاء عبدالله بن أبي يرغبون في مشاركة المسلمين مقاتلة المشركين . فقال متسائلاً .. اسلموا ؟ .. فقالوا : لا يا رسول الله . فأصدر أمراً بابلاغهم الاستغناء عن خدماتهم وارجاعهم قائلاً : « مرهم ليرجعوا ، فإنّا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك » .

وعندما وصل الرسول العربي الى مكان يقال له «الشيخان» [٢] قام باستعراض قواته المسلحة فأمر برد بعض الشباب ولم يسمح لهم بالاشتراك في القتال لصغر سنهم ، اذ كانوا دون الخامسة عشرة . ولكنه بعد ذلك أجاز من هؤلاء الشباب اثنين وسمح لهما بالاشتراك في القتال وهما رافع بن خديج ، وسمرة بن جندب ، الأول أجازه لأنه كان ماهراً في رمي النبل ، والثاني لقوته البدنية لأنهما عندما تصارعا أمام الرسول العربي صرع سمرة رافعاً . وفي منطقة «الشيخين» عسكر الرسول العربي بجيشه قريباً من معسكر المشركين . وقد انتخب مفرزة قوامها خمسون رجلاً للقيام بمهمة الحراسة القتالية على معسكر المسلمين وأسند قيادتها الى محمد بن مسلمة الأنصاري . وتولى

(١) ثنية الوداع : اسم موضع في ثنية مشرفة على المدينة ، يطؤها من يريد مكة .

(٢) الشيخان : هما جبلان صغيران في أطراف المدينة .

ذكوان بن عبد قيس حراسة مقر القيادة الذي كان يقيم فيه الرسول الكريم .

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج الرسول العربي بجيشه حتى اذا وصلوا الشوط تمرد عبد الله بن ابي وقفل راجعاً الى المدينة بثلاثمائة مقاتل، كانوا قد خرجوا مع جيش النبي (ص) وكان هؤلاء جميعاً من المنافقين . وقد برر رأس النفاق خيانته هذه بأن الرسول العربي لم يعمل برأيه حين أشار هو أيضاً في أثناء الاجتماع العسكري — بمقاتلة المشركين في داخل المدينة . ولكن السبب الحقيقي للتمرد في ذلك الظرف الدقيق ، هو احداث البلبلة والاضطراب في جيش الثورة الاسلامية — وهم على وشك الاشتباك بأعدائهم . وقد كاد رأس النفاق أن ينجح في تحقيق ما كان يهدف اليه من تمزيق جيش المسلمين ونسف وحدته الداخلية . لكن تماسك من بقي من الرجال والتفافهم حول الرسول العربي (ص) أحبطا المؤامرة الدنيئة .

ازاء هذه الحادثة ، رأى فريق من قادة الجيش الاسلامي تأديب هؤلاء المتمردين والقضاء عليهم قبل لقاء العدو ، ولكن فريقاً آخر وعلى رأسهم الرسول العربي (ص) (القائد الأعلى) رأوا رأياً آخر وهو ترك هؤلاء المتمردين وشأنهم آنذاك[١]. وهذا السلوك المتميز بضبط الأعصاب لايدل على كفاءة الرسول العربي ورباطة جأشه وقيادته الحكيمة فحسب ، بل يدل أيضاً على بعد النظر أي (استشفاف آفاق المستقبل) وهو ما يسمى في الاصطلاح العسكري الحاسة السادسة .

واصل الرسول العربي السير نحو «أحد» بسبعمائة مقاتل ليلاقي بهم ثلاثة آلاف مقاتل يفضلونهم في التسليح والتموين وفي كل شيء (الا العقيدة والايمان) . وكان المشركون قد سبقوا المسلمين الى وادي قناة وعسكروا فيه بالسبخة[٢]، وكان الرسول العربي (ص) حديث عهد في المنطقة، فطلب

---

(٢) هذا الرأي دونما جدال هو في غاية الحكمة والصواب ، لان مقاتلة المتمردين في تلك الساعة الحرجة فيها من الخطورة على أمن الجيش الاسلامي ما لا يخفى على أي خبير في الشؤون العسكرية .

(٣) السبخة : الأرض التي بها نز وملح .

الى أحد الادلاء أن يقوده الى طريق يصل الى الشعب من وادي أُحد فلا يمر على جيش المشركين المنتشر في السبخة من الوادي ، الذي كان يحول في مناطق كثيرة بين المسلمين وبين الشعب من أُحد .

قال الرسول العربي (ص) لأصحابه : «من رجل يخرج بنا على القوم من كثب ، من طريق لا يمر بنا عليهم ؟» فقال أبو خيثمة (أخو بني الحارث) ، أنا يا رسول الله فقدمه فنفذ به من حرة [1] بني حارثة وبين مزارعهم متجهاً بهم شمالاً نحو جبل أُحد ، تاركاً جيش المشركين عن شماله غرباً . ثم مضى الرسول العربي بجيشه حتى قطع وادي قناة ووصل الى مدخل الشعب من أُحد — وهو المطل على وادي قناة الذي رابط فيه المشركون — فعسكر بجيشه مستقبلاً المدينة ومستنداً في مؤخرة الجيش على هضاب جبل أُحد ، وعلى هذا أصبح جيش المشركين فاصلاً بين المسلمين والمدينة . وكانت نسبة القوات المتحاربة كما يلي :

التبيان	القوات الاسلامية	قوات المشركين	النسبة
المقاتلون	٧٠٠	٣٠٠٠	١/٠,٢٣
الظعن (النساء)	٢	١٥	١/٠,١٣
الدارعون	١٠٠	٧٠٠	١/٠,١٤
الفرسان	٢	٢٠٠	١/٠,٠١

— تنظيم المعركة :

بدأ الرسول العربي (ص) بتنظيم رجاله وجعلهم صفوفاً للقتال على ثلاثة أنساق ، ثم القى فيهم كلمة حثهم فيها على الجهاد ومما قاله لهم في هذه الكلمة على ما تذكره كتب السيرة النبوية : «ما أعلم من عمل يقربكم الى

(١) الحرة ، كل أرض ذات حجارة سود نخرة كأنما أحرقت بالنار وأكثر هذه الحرات توجد حول المدينة وتسمى مضافة الى اماكنها

الله تعالى الا وقد امرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم من النار الا وقد نهيتكم عنه ، وانه قد نفث وألقى في روعي الروح الأمين ، انه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها ولا ينقص منه شيء وان ابطأ عليها . فاتقوا الله واحملوا في طلب الرزق لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله ، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد اذا اشتكى تداعى اليه سائر جسده » (١) .

اختار الرسول العربي (ص) خمسين رجلاً من خيرة الرماة وأسند قيادتهم الى عبدالله بن جبير «أخي بني عمرو بن عوف» وهو يومئذ معلم بثياب بيض وطلب اليهم أن يرابطوا في جبل عينين — المسمى اليوم بجبل الرماة — ويقع هذا الجبل الصغير جنوب غرب معسكر المسلمين ، على ضفة الوادي الجنوبية ، وعلى بعد يقارب مائة وخمسين متراً من مقر قيادة الجيش الاسلامي .

وكان هدف الرسول العربي من وضع مفرزة الرماة في الجبل هو حماية جيش المسلمين من خطر الالتفاف ، ومنع المشركين من الوصول الى مؤخرة الجيش ، ذلك أن الرسول العربي كان يعلم أن لدى المشركين قوة كبيرة من الفرسان لا تقل عن مائتي فارس بقيادة خالد بن الوليد وان هذه القوة المتحركة هي المصدر الذي يمكن أن يأتي منه الخطر على الجيش الاسلامي . لذلك حرص الرسول العربي أشد الحرص على احتلال جبل الرماة واعطى توجيهاته العملياتية لقائد المفرزة على مسمع من جنوده ومما قاله لهم :

— «انضحوا الخيل بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا» .

— «احموا لنا ظهورنا لا يأتون من خلفنا وارشقوهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل ، إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم ، اللهم اني أشهدك عليهم» .

— «إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم ، حتى أرسل

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ١٧ .

اليكم ، وان رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى ارسل اليكم ، وان رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا ، وان رأيتمونا نقتتل فلا تغيثونا ولا تدافعوا عنا » [1] .

ان نظرة فاحصة لهذه التوجيهات العملياتية التي اصدرها الرسول العربي الى مفرزة الرماة قبل المعركة تقدم لنا الدليل الاكيد على مدى اهتمام الرسول العربي بهذه المفرزة وعلى مدى ما يعوله عليها في حماية مؤخرة جيش المسلمين.

بعد أن اطمأن الرسول العربي (ص) الى وضع مفرزة الرماة ، التفت الى تنظيم تراتيب القتال ، لانساق جيش الثورة الاسلامية. وحتى يعوض الرسول العربي (ص) عن كثرة جيش المشركين الذي يزيد عن تعداد جيشه ، أربعة أضعاف ، اعتمد على المشهورين بالنجدة والبسالة ليكونوا الطليعة القوية لجيش الثورة الاسلامية حين تلتحم الجموع. وكان في مقدمة هؤلاء حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب والزبير بن العوام وابو بكر الصديق ومصعب بن عمير وطلحة بن عبيد الله وعبدالله ابن جحش وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وابو دجانة وانس بن النضر وغيرهم من أهل البأس واليقين.

وقد اسند الرسول العربي الى كتيبة من المسلمين بقيادة الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد بالتعاون مع مفرزة الرماة.

وبعد ان اتم الرسول العربي تعبئة جنده وتنظيم تراتيب القتال لجيشه جرد سيفا باترا ، ثم عرض السيف على اصحابه ونادى فيهم «من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ . فقام اليه رجال ليأخذوه فامسكه عنهم ومن هؤلاء الرجال ، علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب . ثم قام اليه ابو دجانة ــ وكان الرسول العربي يقصده ــ فقال : وما حقه يا

---

(١) انظر السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨ ودائرة معارف وجدى ج ١ ص ٨٦ .

رسول الله؟.. فقال الرسول العربي: تضرب به حتى ينحني ولا تقتل به مسلما، ولا تفر به عن كافر». فقال أبو دجانة — سماك بن خرشة — : «أنا آخذه».. فدفعه اليه وكان ابو دجانة الانصارى رجلا شجاعا مهيبا يختال ويتبختر في مشيته عند الحرب وكانت، له عصابة حمراء، تسمى عصابة الموت، اذا اعتصب بها، علم الناس أنه سيقاتل حتى الرمق الاخير. ولهذا فانه لما أخذ السيف من الرسول العربي أخرج عصابته الحمراء وعصب بها رأسه، ثم خرج يتبختر بين الصفين ولما رآه النبي العظيم قال: «انها لمشية يبغضها الله الا في هذا الموطن».

أما المشركون فقد قاموا بتنظيم جيشهم في بطن وادي قناة وهو مكان منخفض بالنسبة لجيش المسلمين الذي احتل المرتفع من الشعب. وكان تنظيم جيش مكة هذه المرة على طريقة الصفوف، معتبرين بالدروس التي تلقوها في معركة بدر. واختاروا ابا سفيان صخر بن حرب الاموي قائدا عاما للجيش. واعطى ابو سفيان لواء الجيش المكي الى مفرزة جميعها من قبيلة بني عبد الدار القرشية، وقد وقفت هذه المفرزة بقيادة طلحة بن أبي طلحة العبدري في مقدمة الصفوف [1].

وبعد أن أخذ حملة اللواء، (بنو عبد الدار)، مكانهم قال لهم أبو سفيان: «يا بني عبد الدار قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وانما يؤتى الناس من قبل راياتهم، اذا زالت زالوا، فاما ان تكفونا لواءنا واما ان تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه».

فغضب بنو عبد الدار لقول ابي سفيان أشد الغضب فقالوا له: «نحن نسلم اليك لواءنا؟.. ستعلم غدا اذا التقينا كيف نصنع» [2]

أعطت قريش قيادة الميمنة لخالد بن الوليد، وقيادة الميسرة لعكرمة بن ابي جهل. والقائد العام ابو سفيان في الوسط، واسندت قيادة المشاة

---

(١) — كان النظام القبلي المتعارف عليه في الحرب بين قبائل قريش، ان يكون حملة اللواء دائما من بني عبد الدار، كما تكون قيادة الجيش في بني امية، وقيادة الخيل في بني مخزوم.

(٢) — كان هذا ما يزيده ابو سفيان من تحريض بني عبد الدار على الصمود في المعركة.

لصفوان ابن امية وقيادة الرماة لعبدالله بن أبي ربيعة.

وقبل نشوب المعركة حاول ابو سفيان تمزيق وحدة الجيش الاسلامي بمناورتين سياسيتين خبيثتين.

فقد طلب ابو سفيان من الانصار التخلي عن الرسول العربي (ص) وأرسل اليهم رسولا، فقال: «يا معشر الاوس والخزرج، خلوا بيننا وبين ابن عمنا ننصرف عنكم، فانه لا حاجة لنا بقتالكم» فردوه بما يكره [١].

ولما اخفق ابو سفيان في مناورته هذه، لجأ الى مناورة اخرى قام بها أبو عامر الراهب (عبد عمرو بن صيفي الاوسي)، فقد بعث بهذا الخائن لاستمالة قومه الاوس من الانصار، ليتركوا الرسول العربي (ص) ولينحازوا الى المشركين، فوقف بين الصفوف ونادى قومه قائلا: يا معشر الاوس أنا «أبو عامر الراهب» ولكن ابناء عشيرته الاوس لم يتركوا له فرصة للاسترسال بالكلام فما ان سمعوا صوته، حتى اجابوه بصوت واحد: «لا مرحبا بك ولا أهلاً يا فاسق» [٢].

وهكذا اخفقت المناورتان السياسيتان اللتان دبرهما ابو سفيان ولم تحققا اغراضها. (انظر الخريطة في الشكل رقم ١).

— سير الاعمال القتالية:

وقفت النساء مباشرة خلف قوة قريش الرئيسية. وقبل أن تبدأ المعركة، انطلقن بامرة هند بين رجال قريش من أجل تذكيرهم بمن قتلوا في وقعة بدر، وقبل أن تعود النساء الى مواقعهن في مؤخرة الجيش، ارتفع صوت هند عاليا قويا وهي تقول:

« ويها بني عبد الدار* ويها حماة الأدبار* ضربا بكل بتار»

ثم أنشدت مع زميلاتها:

---

(١) — الطبري، ج ٢ ص ٥١١.

(٢) — أسند أبو سفيان قيادة ألفيف المكون من العبيد والاحابيش الى أبي عامر الراهب وخاضوا معركة احد تحت قيادته ضد المسلمين.

ان تقبلوا نعـــانق ونفرش ا لنمارق
او تـــدبروا نفـــارق فراق غير وامق (١)

وفي صباح يوم السبت (٢٢ آذار ٦٢٥ م) الموافق (٧ شوال عام ٣ هجرية) .بدأ المشركون بالهجوم. فقد قامت مفرزة من مشاتهم بقيادة أبي عامر الراهب تساندها كوكبة من الفرسان بقيادة عكرمة بن أبي جهل على ميسرة الجيش الاسلامي ، بغية تحطيمها والتسرب الى داخل الشعب لضرب المسلمين من الخلف ، واحداث الارتباك في صفوفهم. ولكن مواقع الجيش الاسلامي التي اختارها الرسول العربي لمرابطة قواته قبل المعركة وتمركز الرماة في جبل عينين عند مدخل الشعب ، احبطا هذه المحاولة اذ قوبل هجوم الفرسان برشقات محكمة من النبال. كما تصدى المسلمون المشاة بقيادة «الزبير والمقداد» للمهاجمين وقاوموهم مقاومة كبيرة وارغموهم على الارتداد. وقد ساعد في تشتيت المهاجمين ، رجال من المسلمين رابطوا في مواقع مختارة من جبل احد ، قذفوا المهاجمين بالحجارة ودحرجوا عليهم الصخور واجبروهم على الابتعاد عن سفح الجبل.

وقد عاود فرسان مكة الهجوم ثلاث مرات ولكنهم اخفقوا فيها جميعا بسبب يقظة الرماة ومحافظتهم على مواقعهم.

بعد أن بدأت قوات المشركين بالتراجع امر الرسول العربي (ص) بتوجيه الضربة المعاكسة الى كبد القوات المتقهقرة ، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين فقد كانت حملته من صناديد قريش المشهورين بالشجاعة والثبات. وقد كان هدف الرسول العربي من تركيز الهجوم على حملة اللواء ، الاطـاحـة بهذا اللواء لأن الاطـاحـة باللـواء — ولا سيما في ذلك العصر — تحسم المعركة وتعجل بهزيمة من يسقط لواؤهم. وقد ابدى

(١) — ابن هشام — ج ٣ : ص ٧٢.

حملة اللواء المكي العبدريون من ضروب الشجاعة والصمود ما أثبت انهم في مستوى مسؤولية حمل الألوية ، وقاتلوا حول لوائهم بضراوة وشراسة وعناد ، وظلوا محافظين عليه مرفوعا ، يدافعون عنه دفاع الابطال حتى أباد المسلمون مفرزتهم عن بكرة أبيها .

وكان أول وقود المعركة قائد حملة لواء المشركين «طلحة بن أبي طلحة العبدري» وكان يوم «أحد» راكبا جملا ومعه لواء مكة، وكان المسلمون يسمونه كبش الكتيبة لشجاعته . فقد دعا طلحة العبدري المسلمين الى البراز فاحجم الناس عنه لكن الزبير بن العوام اجابه الى البراز، ولما كان طلحة راكبا جملا ، لم يمهله الزبير حتى ينزل الأرض ، بل وثب عليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله ، ثم هوى به الى الأرض وبرك عليه ثم عاجله بطعنة من سيفه فصلت رأسه عن جسده [1] .

وبعد مقتل طلحة ، حمل اللواء أخوه ابو شيبة عثمان بن أبي طلحة ، فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فقتله . وفي الحال رفع اللواء ابو سعيد بن ابي طلحة فرماه سعد بن ابي وقاص بسهم فقتله ، وسقط لواء مكة من يده فسارع الى رفعه مسافع بن طلحة بن أبي طلحة فرماه عاصم بن ثابت بن الافلح بسهم اصاب منه مقتلا ، فحمل اللواء بعده اخوه كلاب ، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله . ثم حمل اللواء أخو — كلاب ومسافع — الجلاس فلم يمهله طلحة بن عبيد الله حتى طعنه طعنة أودت بحياته ، وهؤلاء الستة من بيت واحد صرعوا جميعا حول لواء مكة ، ثم حمل اللواء بعدهم — من بني عبد الدار — ارطأة بن شرحبيل ، فلم يمهله علي بن أبي طالب ان قتله ، ثم سارع الى حمل اللواء شريح بن قارظ فقتله قزمان [2] فسارع الى حمله ابو زيد عمر بن عبد مناف العبدري فقتله

(١) كان الرسول العربي يراقب صراع الزبير مع طلحة فلما تمكن منه الزبير وقتله سر سرورا عظيماً ورفع صوته بالتكبير فكبر المسلمون وقد قال الرسول العربي في هذه المناسبة كما ورد في السيرة الحلبية «لو لم يبرز اليه الزبير لبرزت انا اليه ، لما رأيت من احجام الناس عنه» . — السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨ .

(٢) قزمان (حليف لبني ظفر) لم يكن مسلماً ولكنه ابلى في احد بلاء رائعاً وقد مات منتحراً قتل نفسه لما اشتد عليه الم الجراح التي اصابته في المعركة ، وقد قاتل قزمان على حد قوله دفاعاً عن احساب قومه «راجع ابن الاثير ج ٢ ص ١٦٢» .

قزمان أيضا ، ثم حمله ولد شرحبيل بن هاشم العبدري فقتله قزمان أيضا ، وبهذا قضي على حماة اللواء العبدريين.

عندما قتل جميع حملة اللواء ، سارع الى حمله بعدهم غلام لهم حبشي يقال له «حماة» وقد أبدى هذا الغلام من ضروب الشجاعة ما يفوق حد الوصف وقد ذكر ابن كثير ان هذا الغلام ، لما اخذ اللواء صار يقاتل تحته حتى قطعت يداه ولئلا يسقط على الارض برك عليه بصدره وعنقه ، وهو يقول اللهم هل اعذرت.

وبينما كان الصراع المسلح يدور حول لواء مكة ، كانت المعركة قد شملت كل ميدان القتال ، اذ اشتبك الطرفان في صراع دموي عنيف واندفعت قريش الى القتال بضراوة في محاولة منها لغسل ما اصابها من العار في معركة بدر ولتثأر لمن قتل من اشرافها وساداتها. وساد الايمان صفوف المسلمين فانطلقوا يجالدون القوم بكل ما اوتوا من قوة وشجاعة.

وكان حمزة بن عبد المطلب وابو دجانة الانصاري فرسي رهان في سباق البطولة حيث حطما تفوق المشركين العددي ببسالتهما النادرة.

اما حمزة ، فانه بعد ان اصدر الرسول العربي اوامره بشن الضربة المعاكسة ، هتف بكلمة التعارف التي اتفق عليها المسلمون وهي (امت ، امت ،) ثم اندفع الى قلب الجيش المكي كالصاعقة وفي يديه سيفان لا يقف امامه أحد الا صرعه.

أما ابو دجانة فقد ابلى بلاء عظيما وقاتل بسيف رسول الله قتال الابطال وهو معتصب بعصابة الموت وقد كان لبسالته اثر عظيم في اندحار المشركين في بداية المعركة.

شد المسلمون على صفوف المشركين فزعزعوها وأشاعوا الذعر فيها. وبدا الاضطراب واضحاً في صفوف الجيش المكي ، ولاسيما بعد أن سقط لواؤهم وبينما المسلمون في غمرة النصر سقط البطل حمزة بن عبد المطلب شهيداً في ميدان الوغى اغتاله عبد حبشي اسمه «وحشي» اذ قذفه بحربة عن

بعد وهو كامن وراء شجرة [1] . وكان حمزة قد صرع اثنين من المشركين ويتبارز مع الثالث ويدعى سباع بن عبد العزى وقد استغل وحشي انشغال حمزة في مجالدة خصمه ونفذ عمليته القذرة في اللحظة نفسها التي أجهز بها أسد الله حمزة على سباع التفت حمزة الى وحشي وزمجر بغضب وتقدم نحوه بضع خطوات فارتعدت فرائص المجرم من الخوف ولكن جرح حمزة كان قاتلاً فلم يتمكن من مواصلة التقدم فسقط البطل في الميدان مخضباً بالنجيع الطاهر . وانتظر « الوحشي » برهة من الوقت حتى انتقل حمزة الى رحاب الله فتقدم نحوه وانتزع مزراقه من جسمه وانسحب من ساحة المعركة وقد أنجز مهمته .

وعلى الرغم من مصرع حمزة فقد لحقت بقريش هزيمة منكرة وبعد ان كانت نساؤهم ينشدن الأشعار الحماسية ويقرعن الدفوف ، القين الدفوف من ايديهن وقصدن الجبل ، وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم .

وعندما رأى الرماة المرابطون على جبل عينين ، يحمون مؤخرة الجيش الاسلامي ، ان المسلمون قد أجلوا المشركين عن المعسكر وركبوا ظهورهم يقتلون ويغنمون ، ورأوا لواء المشركين مطروحاً على التراب تأكدوا من هزيمة العدو ، فقال بعضهم لبعض : « لم تقيمون ها هنا في غير شيء وقد هزم الله عدوكم ، وهؤلاء اخوانكم ينتهبون عسكرهم ؟ » .

واختلفوا فيما بينهم ، أيتركون مواضعهم أم يبقون فيها ، فأصر قائدهم عبدالله بن جبير على البقاء وعصاه أكثرهم وانطلقوا ، ولم يبق معه غير نفر دون العشرة .. واشترك الذين تركوا الجبل في أعمال النهب .

انتهز خالد بن الوليد فرصة ترك الرماة مواضعهم ، وكان على ميمنة خيل المشركين .

---

(١) قال وحشي : كنت غلاماً لجبير بن مطعم (وكان عمه طعيمة بن عدي قد قتله حمزة يوم بدر) فلما سارت قريش الى أحد قال لي جبير : (ان قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق) .

فهجم على موضع الرماة واستطاع أن يقضي عليهم بعد أن قاتلوا قتال الأبطال حتى استشهدوا جميعاً ، وفي مقدمتهم قائدهم عبدالله بن جبير .

بعد أن قضى خالد بن الوليد على الرماة استدار بسرعة وانقض بفرسانه على مؤخرة الجيش الاسلامي ، بعد ان صاح في فرسانه صيحة عرف منها المشركون المنهزمون أن ابن الوليد قام بحركة التفاف ناجحة على جيش المدينة ، فانقلب المشركون نحو المسلمين وقاموا بشن هجوم معاكس ، واسرعت (عمرة بنت علقمة الحارثية) الى لواء المشركين المطروح على التراب فرفعته وبدأ الرجال المكيون يلتفون حول اللواء ويعودون الى ميدان المعركة . وهكذا تغير الموقف جذرياً لصالح المشركين وفقد المسلمون تنظيمهم وتضعضعت صفوفهم ، وعمتهم الفوضى والارتباك ، والقوا ما في أيديهم من الغنائم وأصبح همهم الوحيد الخلاص من الطوق المضروب حولهم .

وقد انقسم الجيش الاسلامي من جراء هذه الهزيمة الى ثلاث مجموعات :

١ ـــ المجموعة الأولى : وهم الرسول العربي ومقر قيادته وهؤلاء لم يشاركوا في المطاردة وكان عددهم لا يتجاوز ١٤ رجلاً [1] . منهم علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وطلحة بن عبيدالله .

٢ ـــ المجموعة الثانية : اشتركت في المطاردة ، غير أنها لم تتوغل كثيراً ، بل بقيت على مقربة من مقر قيادة الرسول العربي (ص) فلم يتمكن المشركون من تطويقها ، ومنها ، أنس بن النضر وعمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص . وعددها لا يتجاوز المئتي رجل .

٣ ـــ المجموعة الثالثة : وتمثل كبد القوات الاسلامية وهي التي قامت بمطاردة العدو وأجلته عن مواقعه واحتلت مقر قيادته واستولت على ما فيه من أسلحة وغنائم. وهذه ـــ المجموعة هي التي تمكن جيش المشركين من

(١) سمط النجوم العوالي ، للعصامي ج ٢ ، ص ٨٥ .

تطويقها بعد حركة خالد بن الوليد المفاجئة . وقد انقسمت هذه المجموعة الى قسمين :

آ ـــ القسم الأول : وهو صغير جداً وفيه عثمان بن عفان ، انهزموا الى المدينة فلاقتهم نساؤها بالتعنيف والتجريح وحثون التراب في وجوههم وكانت هاتيك النسوة على التلال القريبة من المدينة يرقبن المعركة . فتوجه المنهزمون حتى بلغوا الجلعب ـــ(جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص)ـــ فأقاموا به ثلاثاً ثم رجعوا الى الرسول العربي (ص) فقال لهم : «لقد ذهبتم فيها عريضة» [١] .

ب ـــ القسم الثاني : وهو سواد الجيش الأكبر الذي طوقه المشركون .

وزاد الطين بلة ما أشيع عن أن المشركين تمكنوا من قتل الرسول العربي (ص) ونادى مناديهم بذلك [٢] فازداد الذعر والارتباك في صفوف المسلمين المحاصرين . وعلى الرغم من المأزق الحرج الذي ألقت نفسها فيه الكتلة الرئيسة من قوات الثورة الاسلامية ، أخذ رجالها يقاتلون قتال الاسود الضارية ليشقوا طريقهم الى قائدهم وقد أيقنوا من سلامته بعد أن سمعوه يناديهم من مقر قيادته «هلم الي ، أنا رسول الله» .

وتروي كتب السيرة أن بعض المسلمين المحاصرين وقفوا حائرين لا يدرون ما يفعلون وتوقف آخرون عن القتال وألقوا بأسلحتهم . وفكر فريق في الاتصال بعبدالله بن أبي في المدينة ليعرض استسلامهم على أبي سفيان ويأخذ لهم منه الامان وبينما هم حائرون ، اذ أقبل عليهم أنس بن النضر الخزرجي (عم أنس بن مالك) فلما رآهم قال لهم : مالكم قد ألقيتم بأيديكم هكذا ؟؟ ..

---

(١) الطبري ج ٢ ، ص ٥٢٢ .

(٢) سبب هذه الاشاعة أن أحد فرسان المشركين واسمه «ابن قمئة» التقى بمصعب بن عمير العبدري حامل لواء المسلمين فقتله ، وكانت طلعة مصعب شبيهة بطلعة الرسول العربي (ص) ـــ لاسيما اذا لبس السلاح ـــ فظن الفارس المشرك أنه قتل النبي العظيم فصاح قتلت محمداً ، فشاع هذا الخبر الكاذب بين المقاتلين .

فقالوا له : «قتل رسول الله» .

فقال : «فما تصنعون بالحياة بعده ! .. قوموا فموتوا كراما على ما مات عليه رسول الله» ثم استقبل القوم ، فقاتل حتى قتل [1] .

كان أول من عرف الرسول العربي من المسلمين بعد الهزيمة كعب بن مالك أخو بني سلمة ، قال : عرفت عيناه تزهران تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي : «يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله ! فأشار إليّ الرسول العربي أن أنصت» .

بدأ المسلمون بالتجمع حول قائدهم وتوجه معه نحو الشعب علي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، والحارث بن الصمة في رهط من المسلمين.

ولما وصل الرسول العربي برجاله الى الشعب أدركه أبي بن خلف الجمحي يعدو على فرسه في غطرسة جاهلية وهو يقول : أين محمد؟.. لا نجوت ان نجا.. فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ قال : دعوه فلما دنا تناول الرسول العربي الحربة من يد الحارث بن الصمة ، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدحرج منه عن فرسه مرارا [2] .

عندما علم المشركون القريبون من الشعب المكان الذي تحصن به الرسول العربي ، ضاعفوا هجماتهم عليه وعلى رجاله . وقد ثبت الرسول العربي القائد في مكانه ثبوت الرواسي وقاتل المهاجمين بشجاعة منقطعة النظير فرمى بالنبل حتى فني نبله وانكسرت سنة قوسه وانقطع وتره ، وكان يسانده في ذلك نفر من أصحابه الذين كانوا معه . وفي هذا الصراع الدموي ، أصيب الرسول

---

(١) — روي عن انس بن مالك انه قال : «لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ بضعا وسبعين ضربة وطعنة فما عرفته الا اخته ، بحسن بنانه : الطبري ، ج ٢ ، ص٥١٨» .

(٢) — كان ابي بن خلف يلقى الرسول العربي بمكة ويهدده دائما بالقتل وكان الرسول الكريم يقول له : أنا اقتلك ان شاء الله . لذلك عندما طعنه الرسول العربي وعاد الى قومه قال لهم : قتلني والله محمد ، فقالوا له : ذهب والله فؤادك ، والله ان بك باساء قال : انه قد كان بمكة قال لي : انا اقتلك فوالله لو بصق علي لقتلني وقد مات ابي بن خلف متأثرا بجرحه وهم قافلون به الى مكة ؛ الطبري ، ج ٢ ، ص٥١٩ .

العربي (ص) بجراحات كثيرة فقد حطمت ضربات سيوف المشركين الخوذة التي كان يعتمر بها ، كما أنه جرح في وجهه عدة جروح ودخلت حلقتان من حلق المغفر[1] في وجنتيه ، كما شج وجهه وتكسرت رباعيته السفلى وانشقت شفته . وقد وقع الرسول العربي في حفرة عميقة فجرحت ركبتاه وقد سارع رجاله المدافعون عنه الى انقاذه ، فأخذ علي بن أبي طالب بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله من الحفرة فاستوى قائما .

كان لرماة النبل من الصحابة أبلغ الأثر في صد المشركين والدفاع عن الرسول العربي . وقد ساهم الرسول العربي بنفسه في الرمي كما تقدم .

وكان من الرماة الذين استماتوا في الدفاع عن الرسول العربي أبو طلحة الانصاري وسعد بن أبي وقاص .

أما أبو طلحة فيقول عنه البخاري في صحيحه : «لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفة له[2] ، وكان رجلا راميا شديد النزع ، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا وكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول له الرسول العربي (ص) : أنثرها لأبي طلحة» .

أما سعد بن أبي وقاص فقد ثبت مع الرسول العربي ساعة انفض الناس عنه وكان يقذف المشركين بالسهام التي قلما تخطىء ، وكان الرسول العربي الى جانبه يحرضه على الرمي ويقول له : «ارم سعد فداك أبي وأمي» وقد روى البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب قال : « ما سمعت النبي (ص) جمع أبويه لأحد الا لسعد بن أبي وقاص فاني سمعته يقول (يوم أحد) «يا سعد ارم فداك أبي وأمي

وذكر ابن كثير أن سهل بن حنيف كان من الرماة الذين ذادوا عن

---

(١) — المغفر : زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة.

(٢) — الجحفة : هي الدرقة التي يتستر فيها المحارب بيده.

(٣) — البداية والنهاية ج ٤.

الرسول العربي وعمن معه في أشد الأوقات خطرا .

ومن الذين أبلوا بلاء حسنا وأظهروا بطولة نادرة في الدفاع عن الرسول العربي ساعة الشدة ، أبو دجانة الانصاري الذي أعطاه الرسول القائد سيفه في بداية المعركة . فقد أقام هذا البطل من نفسه سورا ليحمي الرسول العربي وقد ذكر المؤرخون أن نبال المشركين المصوبة نحو الرسول القائد كانت تقع في ظهر أبي دجانة وهو مسوّر بنفسه على رسول الله ، وكان لا يأبه لها مع أنها تغرز في ظهره بكثرة حتى أن بعض المؤرخين وكتاب السيرة شبه ظهر أبي دجانة في تلك الساعة بظهر القنفذ . ومن الذين ثبتوا مع الرسول العربي ساعة المحنة حاطب بن ابي بلتعة بن عمرو اللخمي «حليف بن أسد ابن عبد العزى» وهو الذي انتقم لرسول الله فقتل عتبة بن أبي وقاص الذي أدمى وجه الرسول العربي ساعة الهجوم عليه .

وقاتل طلحة بن عبيد الله التيمي يوم ذاك دون الرسول العربي قتال كتيبة بكاملها . فقد روى البيهقي في الدلائل ، قال : «انهزم الناس عن رسول الله يوم «أُحد» وبقي معه أحد عشر رجلا من الانصار، وطلحة بن عبيد الله ، وهو يصعد في الجبل فقال النبي عندما لحق به المشركون :

« ألا أحد لهؤلاء ؟ ..

فقال طلحة : أنا يا رسول الله ، فقال : كما كنت يا طلحة . فقاتل رجل من الانصار عوضا عنه حتى قتل ، فلحق المشركون رسول الله فقال : ألا رجل لهؤلاء ؟ .. فقال طلحة مثل قوله فقال رسول الله مثل قوله أيضا فقال رجل من الانصار فأنا يا رسول الله ، فقاتل واصحابه يصعدون ثم قتل فلحق المشركون برسول الله فلم يزل يقول مثل قوله الأول ، وطلحة يقول : أنا يا رسول الله ، فيحبسه فيستأذنه رجل من الانصار فيأذن له فيقاتل مثل من كان قبله حتى قتلوا جميعا ، ولم يبق مع الرسول العربي الا طلحة فغشيهم المشركون ، فقال رسول الله : من لهؤلاء فقال طلحة :أنا . فقاتل قتال جميع

من كانوا قبله»[1] .

وقاتل عبدالرحمن بن عوف بضراوة عن الرسول العربي يوم «أُحد» حتى أنه جرح أكثر من عشرين جرحاً . كذلك كان أبو عبيدة بن الجراح من الذين ثبتوا مع الرسول العربي وناضلوا عنه ساعة انهزام الناس[2] .

وقاتل يوم «أُحد» الى جانب الرسول العربي حنظلة بن أبي عامر الراهب وقد استأذن حنظلة الرسول العربي (ص) بقتل أبيه الخائن (ابي عامر الراهب) ولكن الرسول العربي نهاه عن ذلك وقد خاض هذا البطل الشاب معركة «أُحد» واستشهد ولما يمض على زواجه يوم واحد .

وكاد حنظلة يقتل أبا سفيان (القائد العام لجيش المشركين) . وذلك انه التقى به في أثناء المعركة ، فحمل عليه حنظلة وبعد أن عقر فرسه وقع أبو سفيان على الأرض فعلاه حنظلة بسيفه ، ولكن أحد مرافقي ابي سفيان وهو شداد بن الأسود الملقب بابن شعوب سارع لانقاذ أبي سفيان وضرب حنظلة بالسيف فقتله .

— اعادة تجميع قوات المسلمين في أحد :

عندما اشتدت حملات المشركين على مقر قيادة الرسول العربي واستبسل المسلمون في الذود عن نبيهم وقائدهم ، قرر الرسول العربي (ص) بعد أن تجمع الكثير من رجاله حوله الارتداد بجيشه الى مواقع حصينة في

---

(١) روى أبو داود الطيالسي عن عائشة ، قالت : كان أبو بكر اذا ذكر يوم أُحد قال : ذلك يوم كله لطلحة ! ثم يقول : «كنت أول من فاء يوم أُحد فرأيت رجلاً يقاتل في سبيل الله دون رسول الله ، فقلت كن طلحة حيث ما فاتني ، وكان بيني وبين المشركين رجل لا أعرفه وأنا أقرب الى رسول الله منه وهو يخطف المشي خطفاً ، لا اخطنه فاذا هو أبو عبيدة بن الجراح فانتهينا الى رسول الله وقد كسرت رباعيته وشج في وجهه ودخل في وجهه حلقتان من حلق المغفر ، فقال رسول الله : عليكما صاحبكما — يريد طلحة وقد نزف فأتينا في بعض تلك الجفار ، فاذا به بضع وسبعون طعنة وضربة ورمية ، واذا به قد قطعت اصبعه — فأصلحنا من شأنه» . البداية والنهاية ج ٤ ، ص ٣٠ .

(٢) أبو عبيدة بن الجراح هو الذي انتزع حلقتي المغفر من وجنتي الرسول العربي بأسنانه وسقطت ثنيتاه من جراء ذلك .

جبل أحد ، لتجنيبهم خطر التطويق والابادة من جديد .

ومما ساعد على تسهيل عملية الانسحاب هذه دونما خسارة تذكر ، أن كثيراً من المشركين صدقوا اشاعة مقتل النبي (ص) ومنهم القائد العام أبو سفيان ، لذلك انصرف الكثيرون منهم عن القتال ظناً منهم ان هزيمة المسلمين كانت تامة ولن تقوم لهم قائمة بعدها .. فآثر قسم كبير منهم العافية ، وانشغل القسم الآخر بالتمثيل في شهداء المسلمين .

وهكذا نجح المسلمون في انسحابهم المنظم وقطعوا الشعب نحو هضاب جبل أحد بعد اشتباكات متعددة تغلبوا فيها على خيالة المشركين . ويعود الفضل في نجاح هذا الانسحاب الذي أنقذ ما يقارب ٩٠ بالمائة من قوات الثورة الاسلامية الى الموقع الحصين الذي اختاره الرسول القائد معسكراً لجيشه ومقراً لقيادته قبل المعركة ، وهو فم الشعب من أحد الذي تكتنفه من الخلف هضاب هذا الجبل التي تحصن بها المسلمون وصدوا منها كل هجمات المشركين اليائسة .

وعندما وصل الرسول العربي الى المثابة المقصودة من الجبل أخذ المسلمون المشتتون هنا وهناك يهرعون اليه ويتجمعون حوله ، فالتأم شملهم وأصبحوا في مركز قوي لا سبيل الى مهاجمته الا اذا تكبد المشركون من جراء ذلك خسارة فادحة .

وقد أصاب الرسول العربي عطش بشديد في أثناء الانسحاب ، فطلب الماء ، فذهب علي بن أبي طالب الى المهراس [1] فملأ درقته ماءجاء به إلى الرسول ليشرب منه فوجد أن الماء آسن فلم يشرب منه . بل غسل به الدم عن وجهه وصب منه على رأسه .

وكانت آخر محاولة للهجوم قام بها الجيش المكي على مكان تجميع الجيش الاسلامي هي تلك الهجمة التي قادها ابو سفيان وخالد بن الوليد اذ وصلا بكتيبة من الخيالة الى نقطة في الجبل لا تبعد كثيراً عن

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥ .

مقر قيادة المسلمين فقال الرسول العربي لرجاله: «ليس لهم أن يعلونا». فقاتلهم عمر بن الخطاب وجماعة من المهاجمين حتى أهبطوهم، وقد تكبد المشركون من جراء هذه الغارة الفاشلة ثلاثة قتلى صرعهم سعد بن أبي وقاص – الرامي المشهور – بنباله.

بعد أن يئس قادة قريش من قتال المسلمين قرر أبو سفيان انهاء الاعمال الحربية، وأعطى الأوامر الى جنده بالاستعداد للرحيل. وقبل أن يغادر المشركون ميدان المعركة، قاموا بالتمثيل بجثث الشهداء من المسلمين بهمجية جاهلية وكان سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب أكثرهم تعرضاً لوحشية التشويه والتمثيل فقد بقرت هند بنت عتبة بطنه ثم انتزعت كبده وقضمتها وأخذت تلوكها لتبتلعها ولكنها لم تستسغها فلفظتها [1]

وقبل أن ينصرف أبو سفيان بجيش مكة من أُحد صعد الى مرتفع قريب من المسلمين وصرخ بأعلى صوته (أنعمت فعال)[2] ثم طفق يخاطب المسلمين قائلاً لهم:

«في القوم محمد؟» (ثلاثاً) فقال لهم الرسول لا تجيبوه. ثم قال: «أفي القوم ابن أبي قحافة (ثلاثاً) ثم قال: «أفي القوم ابن الخطاب؟» (ثلاثاً).

ثم التفت الى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا.. فقال عمر: «كذبت أي عدو الله قد أبقى لك الله ما يخزيك» فقال أبو سفيان: اعل هبل، اعل هبل[3].

فقال الرسول العربي: قولوا «الله أعلى وأجل» فقال أبو سفيان ان لنا العزى ولا عزى لكم» فقال الرسول العربي: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم» ولما عرف ابو سفيان صوت عمر طلب مقابلته وقال: «هلم الي يا عمر». ولما علم الرسول العربي (ص) برغبة أبي سفيان قال لعمر: «ائته

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧.

(٢) (هي كلمة يقولها الرجل في الجاهلية اذا أراد الافتخار بعمله)

(٣) هبل: صنم قريش الأكبر.

فانظر ما شأنه ! » فذهب اليه عمر فقال أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمدا .. ؟؟ قال عمر : « اللهم لا ، وانه ليسمع كلامك الآن » فقال أبو سفيان : « أنت أصدق عندي من ابن قميئة » . ثم قال : « هذا بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما انكم ستجدون في قتلاكم مثلا ، والله ما رضيت ولا سخطت ولا نهيت ولا أمرت » . ثم هبط ابو سفيان من الجبل وقفل عائدا بجيشه الى مكة .

وبعد ان غادر الجيش المكي ميدان المعركة بعث الرسول العربي بعلي ابن أبي طالب في أثرهم وقال له : « انظر فان جنبوا الخيل وامتطوا الابل ، فانهم يريدون مكة ، وان ركبوا الخيل فانهم يريدون المدينة ، فوالذي نفسي بيده ، لئن ارادوها لاناجزنهم » ثم قال لعلي : « وفي كلتا الحالتين عليك بالكتمان » .

خرج علي بن أبي طالب في اثر الجيش المكي فوجدهم قد امتطوا الابل وجنبوا الخيل فأقبل يصيح من فرحه لا يستطيع الكتمان : لقد ذهبوا الى مكة .

وبعد أن تأكد الرسول العربي من احجام المشركين عن مهاجمة المدينة ، خرج ورجاله من معتصمه في الجبل ليتفقد نتائج المعركة وأمر محمد ابن مسلمة الانصاري ان يتحقق من مصير البطل سعد بن الربيع أحد قادة الأنصار المشهورين ، فرأى سعدا وبه رمق فقال سعد : « أبلغ رسول الله ، عني السلام وقل له جزاك الله خير ما جزى نبيا عن امته ، وأبلغ قومي السلام وقل لهم : لا عذر لكم عند الله إن خلص الى رسول الله أذى وفيكم عين تطرف » ثم مات .

وأثناء تفقد القتلى ، بحث الرسول العربي عن عمه حمزة بن عبد المطلب فوجده ببطن وادي قناة قد مثل به المشركون أشنع تمثيل ، وعندما شاهده على هذه الحالة قال : « لن أصاب بمثلك أبدا . ما وقفت موقفا أغيظ الي من هذا » .

ثم قال : « لئن أظهرني الله على قريش في موطن ، لأمثلن بثلاثين رجلا

منهم» ولما رأى المسلمون ما برسول الله من حزن وغيظ قالوا: «لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر، لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب» [1].

فأنزل الله تعالى بهذه المناسبة: «وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون» [2].

وبعد نزول هذه الآية الكريمة عدل الرسول العربي (ص) عن عزمه في التمثيل بقتلى العدو ثم عفا وصبر، ونهى عن المثلة في أي زمان ومكان.

أمر الرسول العربي (ص) بدفن الشهداء في ميدان المعركة بدمائهم ولم يصلّ عليهم ولم يغسلوا، وبعد أن فرغ المسلمون من هذه العملية بدأ الجيش الاسلامي في التحرك نحو المدينة فوصلها مساء يوم المعركة أي في الخامس عشر من شهر شوال من العام الثالث للهجرة. وقد باتت المدينة في تلك الليلة وكأنها في حالة طوارىء فرجالها المسلحون يحرسون مداخلها مخافة أن يحمل زهو الانتصار ابا سفيان على العودة الى مهاجمتها وأنشأ الأوس والخزرج من وجوه أبطالهم مفرزة لحماية المكان الذي يقوم فيه الرسول العربي (ص). (راجع الشكل رقم ٢ عن سير عمليات معركة احد).

— استنتاجات عن غزوة أحد:

١ — بلغت خسارة المسلمين في معركة أحد واحدا وسبعين قتيلا وزهاء مائة وخمسين جريحا. أما خسائر المشركين فقد بلغت اثنين وعشرين قتيلا وزهاء خمسين جريحا. [3].

٢ — لا شك في أن من أهم أسباب هزيمة المسلمين في أحد مخالفة الرماة لتعليمات الرسول القائد ومغادرتهم مكانهم واشتراكهم في مطاردة

(١) — المثلة: تشويه جثث القتلى.

(٢) — سورة النحل (الآية ١٢٧).

(٣) — سيرة ابن هشام، ج٢ ص ٩٦، لم تدقق المصادر التاريخية في عدد الجرحى من الطرفين ولكن الرقمين اللذين ذكرناهما أقرب ما يكون الى الواقع وفقا للمعدلات التكتيكية التي أثبتتها خبرة الحروب.

المشتركين وسلبهم قبل أن تحسم المعركة.

٣ — كان لمباغتة خالد بن الوليد أثر كبير في هزيمة الجيش الاسلامي الذي أذهلته المفاجأة حينما شعر وهو في أوج نصره بفرسان المشركين يلتفون عليه محاولين تدميره على أجزاء، بعد تطويقه. وقد كانت هذه المناورة الجريئة التي نفذها خالد سببا رئيسيا لهزيمة المسلمين، ومفاجأة تامة لهم. فارتبكت صفوفهم حتى أنهم فقدوا القدرة على التمييز بين الصديق والعدو، فقتل بعضهم بعضا. كما تحطمت القوى المعنوية لدى الكثير منهم وراحوا يخبطون خبط عشواء.

٤ — ساهم النبأ الكاذب عن مقتل الرسول العربي في اضعاف قوى المسلمين المعنوية ومما لا جدال فيه ان مقتل القائد العام يؤثر تأثيرا بالغا في نفوس رجاله حتى في ايامنا هذه..

وقد كان لهذه الاشاعة الكاذبة اثر كبير في نفوس كثيرمن افراد الجيش الاسلامي، حتى أن بعضهم القى السلاح وكف عن القتال وفكر في الاتصال بقادة الجيش المكي للاستسلام وطلب الامان.

٥ — لاشك في أن ما حدث في معركة أُحد كان كافيا لتحطيم أي جيش في العالم. لكن المسلمين تماسكوا بعد الهزيمة التي لحقت بهم واسرعوا الى التجمع، بعد تفرقهم، حول قائدهم الرسول العربي الذي كان لبسالته ورباطة جأشه في المعركة وشجاعته الفائقة اثر كبير في افلات الجيش الاسلامي من الطوق الذي ضربه المشركون حوله.

٦ — اثبتت معركة أُحد عبقرية الرسول العربي في رسم الخطط العسكرية الدقيقة قبل المعركة وفي توجيه الاعمال الحربية خلالها فقد اختار الرسول القائد المرابطة بجيشه في ذلك المرتفع من شعب [1] احد وقد برهنت الحوادث ان اختيار هذا المكان هو الذي جنّب الجيش الاسلامي خطر الفناء الكامل. ذلك أن النبي (ص) في اختياره ميدان المعركة قد ترك المدينة مفتوحة لهجوم القرشيين. وكانت المدينة قاعدة للمسلمين، لكن الطريق

(١) — الشعب: الطريق في الجبل.

المؤدي الى تلك القاعدة والذي يمر جنوب موقع المسلمين، كان مفتوحا لابي سفيان. فلو ان ابا سفيان قرر التحرك الى المدينة، فان المسلمين لن يكونوا في طريق تقدمه. في هذا القرار، وقد أصاب النبي (ص) حين توقع أن أبا سفيان لن يجرؤ على التحرك الى المدينة، لانه لو فعل ذلك لعرض مجنبته ومؤخرته لهجوم المسلمين. وهذا ما وقع. فأبو سفيان لم يتحرك الى المدينة خوفا من المسلمين الذين كانوا يقفون على جانب الطريق. وكان هذا مثالا نموذجيا، تكرر مرات عدة في التاريخ العسكري، لقوة تدافع عن قاعدتها ليس بالتمركز فيها وخوض معركة جبهية، بل بتهديد أي تحرك معاد نحو تلك القاعدة من الجنب.

٧ — أثبت الرسول العربي (ص) عندما تحولت المعركة لصالح المشركين أنه قائد عسكري فذ لا يبارى اذ احتفظ برباطة جأشه وهدوء أعصابه رغم هول الكارثة التي حاقت بجيشه وبدلاً من أن يفتش عن سبيل ينقذ فيه حياته الشخصية وقف في ميدان المعركة كالطود الشامخ وصرخ كالأسد بأعلى صوته: «هلموا الي أنا رسول الله» ولم يكد الصوت يبلغ آذان المسلمين حتى شقوا طريقهم اليه بالقوة عبر صفوف العدو وتجمعوا حوله.

٨ — كان لبقاء الرسول العربي (ص) في مقر قيادته وعدم مشاركته في مطاردة الجيش المكي، أثر كبير في نجاح عملية اعادة التجمع وانقاذ ما يقارب ٩٠٪ من قوات الثورة الاسلامية. ولو ترك القائد مقر قيادته وأسهم في المطاردة وجمع الغنائم، لما تمكن الجيش الاسلامي من التجمع بعد حركة خالد بن الوليد المفاجئة.

٩ — ان حركة التمرد الغادرة التي قادها رأس النفاق «عبدالله بن أبي» والتي أدت الى انسحاب نحوٍ من ثلث الجيش الاسلامي من المشاركة في القتال يوم أُحد كان لها دور كبير في اضعاف معنويات المسلمين قبل القتال. ولولا ثبات الرسول العربي (ص) ورجاله بعد هذه الحادثة الزنيمة وتماسكهم واصرارهم على خوض المعركة، لتفرق الجيش الاسلامي الى عدة فئات قبل أن يبدأ القتال.

١٠ — عندما تعرضت حياة الرسول القائد للخطر أحدق به المسلمون وثبتوا في المعركة كرواسي الجبال يقاتل الواحد منهم قتال عشرة رجال ولا شك في أن عملهم الرائع هذا حمى الرسول العربي من أذى المشركين.

١١ — لقد أبلى الرسول القائد في معركة أُحد بلاء حسناً وقاتل بكل أدوات الحرب فقد قارع المشركين بسيفه حتى تخضب بالدم ثم بقوسه حتى تكسرت سنة القوس وانقطع وتره، وقذف بالحربة، وتحمل الجراح المتكاثرة، ولم تفقده آلامها ودماؤها النازفة والهزيمة المفجعة التي حلت بجيشه رشده بل بقي في أعلى درجات اليقظة الثورية وفي منتهى صفاء الذهن والمحاكمة وبرهن بالفعل على أنه القائد الذي لا مثيل له في التاريخ..

١٢ — مما يؤسف له أن معظم المؤرخين لم ينصفوا أبا سفيان القائد العام للجيش المكي — اعتقاداً منهم أن هذا قد يناقض تعاليم الثورة الاسلامية. وللامانة التاريخية أقول أنه لو قرأ الرسول العربي (ص) ما كتبه المؤرخون عن خصمه أبي سفيان لما رضي عن ذلك قط لأنه لا يضير الرسول العربي (ص) أبداً أن يكون خصمه من القادة البواسل. والواقع لقد دلت معركة أحد على أن أبا سفيان قائد ذكي ومناور سياسي بارع وذلك للاسباب التالية:

آ — قبل بداية المعركة قام بمناورتين سياسيتين قصد بهما تمزيق وحدة الجيش الاسلامي. وعلى الرغم من ان هاتين المناورتين لم تحققا اغراضهما، الا أن أبا سفيان هو القائد الذي خطط لذلك، وهذا صنيع لا يفعله الا القادة الاذكياء الذين يملكون افقاً سياسياً واسعاً.

ب — أفاد أبو سفيان من درس معركة بدر الكبرى واقتبس تكتيك الصفوف من الرسول العربي وطبقه في معركة أحد، وهو عبارة عن تقسيم الجيش الى قوة أساسية من المشاة في الوسط، وأجنحة متحركة للمناورة، على مجنبات العدو ومؤخرته. والقائد الذكي هو الذي يفيد ويتعلم حتى من خصمه.

جـ — عندما تمكن الرسول العربي (ص) من اعادة تجميع جيشه في

جبل أحد كان قرار أبي سفيان في انهاء الأعمال القتالية عين الصواب . ولو استأنف القتال لتحول نصره الى هزيمة لأن المسلمين في موقعهم الحصين ، كانوا مضطرين الى القتال حتى الرمق الأخير دفاعاً عن وجودهم واستشهاداً في سبيل عقيدتهم . وهناك قاعدة أساسية في العلم العسكري الحديث تقول : «لا تسد الطريق في وجه خصمك المنهزم لانك ان فعلت ذلك دفعته الى القتال المستميت الذي قد يغير وجه المعركة لصالحه» فكيف الحال والمسلمون قد اعادوا تجميعهم . فما فعله أبو سفيان يعد صحيحاً كل الصحة من وجهة النظر العسكرية .

د — لم ينسحب أبو سفيان من مكانه في الروحاء ابان حملة حمراء الأسد الا بعد أن قام بمناورة سياسية بارعة توخى منها اخافة المسلمين وتهديدهم . ولكن الرسول العربي (ص) القائد الذي كان أعلم من أبي سفيان بهذه المناورات ، لم تجز عليه هذه المناورة — الخدعة ، وصمم على البقاء في حمراء الأسد متحدياً المشركين ولم يخطىء أبو سفيان عندما قرر الانسحاب بجيشه الى مكة لانه لو فعل النقيض لدارت الدائرة عليه .

هـ — لم تدقق المصادر التاريخية فيما اذا كانت الحركة المفاجئة التي قام بها فرسان خالد بن الوليد من توجيه القائد العام للجيش المكي أم هي مبادرة شخصية من خالد بن الوليد أقره عليها القائد العام بعد أن نفذت بنجاح . ونحن نرجح الاحتمال الثاني لاننا في عصر الرسول (ص) وصدر الاسلام لا نعرف قائداً أفضل من ابن الوليد الذي لم يهزم في حياته قط . وان عين خالد الثاقبة هي التي لاحظت الثغرة المحدثة في تراتيب الجيش الاسلامي عندما ترك الرماة موقعهم .. وهي التي رأت امكان الاندفاع بسرعة للوصول الى مؤخرة المسلمين المكشوفة . لمح هذا الموقف في لحظات .. رأى الثغرة واتخذ قراراً سريعاً لاستغلال الفرصة السانحة وتوجيه هجمة معاكسة . وكان لهذه المناورة البارعة التي قام بها خالد الأثر الكبير الذي قلب نصر المسلمين الوشيك الى هزيمة .

كذلك رأينا في معركة أحد تصميم خالد وإصراره على الضغط المتواصل

على المسلمين الذين كانوا يقاومون بعناد الى أن اندحروا .. كما أن قتله لثلاثة رجال من المسلمين أظهر شجاعته الشخصية ومهارته القتالية وهذا ما كان يضفي على القائد — وما يزال — ميزة خاصة وأبهة واحتراماً في نظر مرؤوسيه واعدائه ، على السواء ..

في خاتمة المطاف لا بد لنا من أن نقول كلمة صغيرة حول معركة أحد :
«ان هذه المعركة وان كانت قد انتهت بهزيمة المسلمين ، لكنها لم تحقق اغراضها السياسية بالقضاء على الثورة الاسلامية وقائدها الرسول العربي ورجاله بل كانت درساً مفيداً للرسول القائد ورجاله وحافزاً لهم على متابعة الكفاح من أجل اهداف الثورة الاسلامية واعلاء كلمة الله ولو كره المشركون» [1] .

٣ — خالد بن الوليد وغزوة الاحزاب (الخندق) :

اذا كانت غزوة الاحزاب قرشية غطفانية في الشكل والمظهر ، فهي يهودية في محتواها ومضمونها ، ذلك ان اليد الحقيقية التي كانت تكمن وراء هذه الحملة الموجهة للقضاء على الثورة الاسلامية كانت يدا يهودية ما في ذلك ريب .

فغزوة الأحزاب وضع خطتها مفكرون يهود وساهم اليهود بجانب كبير من تمويلها وقاموا بتحريض اعراب الجزيرة على غزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين منها . وكان لقبيلة قريش عدوة المسلمين آنذاك ، يد كبيرة في تجميع هذا الغزو والترحيب بفكرته التي صدرت عن اليهود .

صراع قريش مع الرسول العربي قديمٌ قدم الثورة الاسلامية ، أما اليهود

---

(١) في المعارك التالية التي قادها أو وجهها الرسول العربي (ص) فان المسلمين لم يمنوا بهزيمة بعد أحد وهذا دليل واضح على أن هذه المعركة كانت درساً كبيراً للمسلمين تعلموا بعدها كيف ينفذون اوامر قائدهم بحذافيرها دونما تفسير أو تأويل .

« المؤلف »

فقد كانت العداوة والكراهية تعمر قلوبهم ضد كل الشعوب وهذه الطبيعة متأصلة بنفوسهم ، فلا غرو بعد ذلك اذا اضمروا للرسول العربي ودعوته من الحقد والضغينة ما هو أعمق بكثير مما كانت تضمره قريش واحلافها من اعراب الجزيرة. واذا كانت قريش في مكة قد استطاعت ، في بادىء الامر ، ان تنكل بالمسلمين وتفتن بعضهم عن دينه بوسائل التعذيب والترغيب بل وتدفع الرسول العربي الى الهجرة الى يثرب وترك مكة مسقط رأسه وموطنه الاصلي ، فان اليهود لم يستطيعوا ان يفعلوا ذلك عند وصول الرسول العربي الى المدينة على الرغم من كل حقدهم على الثورة الاسلامية وقائدها . ذلك ان النبي محمد بن عبد الله (ص) لم يصل الى المدينة الا بعد أن وجه طلائع قوية من المهاجرين سبقته اليها . وزاده قوة تحالفه مع جميع القبائل القحطانية (الاوس والخزرج) في يثرب . واغاظ كل ذلك اليهود واثار حقدهم ، اذ جعلهم عاجزين عن القيام منفردين بأي عمل عسكري ضد الثورة الاسلامية كما كانت تفعل قريش ، ذلك لان هؤلاء اليهود على الرغم من استيطانهم في بعض اجزاء الجزيرة العربية ، هم عنصر أجنبي دخيل على الامة العربية . ولهذا لم يتمكنوا من الامتزاج بالشعب العربي على الرغم من اقامتهم الطويلة .

هكذا لم يتمكن اليهود من القيام بعمل عسكري كبير ضد الثورة الاسلامية في يثرب واقتصر عملهم — قبل غزوة الاحزاب — على القيام بعمليات الدس والتفريق بين المسلمين واثارة الفتن بينهم وعمليات عصيان وتمرد محدودة باءت كلها بالاخفاق. وكانت آخر عملية هي محاولة الغدر والفتك بالرسول العربي ، نظمتها يهود بني النضير عندما زارهم في منازلهم وقد كان من نتائج هذه العملية الماكرة طرد يهود هذه القبيلة واجلاؤهم عن المدينة .

ومن جراء ذلك ازداد حقد اليهود على الثورة الاسلاميه واخد زعماؤهم يفكرون في وضع خطة محكمة للاطاحة بالرسول العربي (ص) وثورته. وتوالت اجتماعات زعماء يهود بني النضير في «خيبر» لبحث الوضع الذي آل

اليه حال اليهود في الجزيرة العربية ، بعد انهيار مركزهم الرئيسي في يثرب وقيام القاعدة المتينة للثورة الاسلامية فيها. وبعد بحث الموضوع من جميع جوانبه ، قرر المؤتمرون في خيبر وضع خطة محكمة للقيام بغزو الرسول العربي وثورته غزوة شاملة ، يشترك فيها أكبر عدد ممكن من القبائل العربية ، ولاسيا قبائل نجد وكنانة وقريش ، على ان يتولى يهود خيبر الدعوة الى هذا الغزو وتنظيمه وتمويله.

ولتنفيذ ما قرره المؤتمرون اليهود في خيبر، تم تشكيل وفد منهم برئاسة حيي بن أخطب. وقد غادر هذا الوفد اليهودي مدينة خيبر في أوائل شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة أي بعد مرور قرابة سنة على معركة أحد ، وبعد مرور أربعة أشهر على اجلاء يهود بني النضير عن المدينة.

توجه الوفد اليهودي مباشرة الى مكة واتصل بزعمائها وقادتها وعرض عليهم خطة الغزو وفكرة انشاء تجمع عسكري قبلي كبير لغزو المدينة والقضاء على الثورة الاسلامية وتصفية آثارها. وقد سر زعماء مكة للفكرة وابدوا استعدادهم للمساهمة في تنفيذها وشكروا اليهود على مجهودهم الكبير في وضع مخطط الغزو وسعيهم لانجاحه.

وبعد أن ضمن الوفد اليهودي موافقة قريش على مخطط غزو المدينة وتم الاتفاق على تاريخ الغزو، توجه هذا الوفد الى ديار غطفان بنجد لعرض مخططه على زعماء تلك القبائل ، وقد دارت محادثات الوفد اليهودي الرئيسية مع عيينة بن حصن الفزاري [١] لانه اقوى شخصية مطاعة في قبائل غطفان ، وهو الذي وصفه الرسول القائد بالاحمق المطاع لانه على حماقته ، كان محترما في قومه يتبعه بضعة آلاف من أبناء عشيرته. كما حضر محادثات الوفد اليهودي من زعماء قبائل غطفان كل من الحارث بن عوف قائد بني مرة

(١) — هو عيينة بن حصن بن بدر ابو مالك سيد بني فزارة (من غطفان) ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، شهد فتح مكة وغزوة حنين وحصار الطائف مع الرسول العربي ، وكان يتميز بالغلظة وجفاء الاعراب وقد ارتد عن الاسلام في عهد الخليفة ابي بكر وقاتل المسلمين تحت قيادة طليحة بن خويلد الاسدي الذي ادعى النبوة.

وأبي مسعود بن رخيلة قائد بني أشجع ، وسفيان بن عبد شمس قائد بني سليم ، وطليحة بن خويلد قائد بني أسد . وقد وافق زعماء هذه القبائل الغطفانية على المشروع اليهودي وأعجبهم المخطط المرسوم لغزو المدينة. وابرموا اتفاقا يقضي بأن تلتزم غطفان بتقديم ٦ آلاف مقاتل من جيش الاحزاب مقابل ان يدفع اليهود لقبائل غطفان ثمن محصول خيبر من النخيل كله لسنة واحدة .

وهكذا تمكن الوفد اليهودي من حشد قرابة عشرة آلاف مقاتل يشكلون القوى المضادة للثورة الاسلامية وهوكما نعلم تجمع لم يسبق أن واجه المسلمون مثله في صراعهم المسلح ضد أعدائهم . وقد أبلغ الوفد اليهودي قادة قريش تفاصيل الاتفاق الذي تم بينه وبين قبائل غطفان ليتم تنظيم التعاون والتنسيق بين قوى الاحزاب ، وقد سرت قريش بالنتائج واغتبطت أيما اغتباط .

شرع قادة الاحزاب في تحضير قواتهم للغزو. وقد تمكنت قريش من تجهيز أربعة آلاف مقاتل مع حلفائها وكان جيشها أفضل القوات المقاتلة في حملة الأحزاب من حيث دقة التنظيم وجودة التسليح ووفرة التموين ، وقد أسندت قريش قيادة الجيش الى أبي سفيان بن حرب الأموي وعقدت اللواء لعثمان بن طلحة العبدري ، وتسلم خالد بن الوليد المخزومي قيادة كتيبة الفرسان .

وزيادة في التصميم على خوض المعركة ضد الثورة الاسلامية ، خرج من بطون قريش خمسون رجلا الى الحرم ، فتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها وتعاهدوا على أن لا يخذل واحد منهم آخر ، وعلى أن يكونوا يدا واحدة على محمد ما بقي منهم رجل واحد [١] .

أما قبائل غطفان فقد حشدت ٦ آلاف مقاتل ، منهم أحلافها وقد تحركت هذه القوات على أربع مجموعات ، حسب عدد القبائل الرئيسية في غطفان وهي :

---

(١) — السيرة الحلبية ، ج٢ ، ص٩٦ .

١ — مجموعة بني فزارة وقائدها (عيينة بن حصن) .

٢ — مجموعة بني أسد وقائدها (طليحة بن خويلد) .

٣ — مجموعة بني أشجع وقائدها (أبو مسعود بن رخيلة) .

٤ — مجموعة بني مُرّة وقائدها (الحارث بن عوف) .

لم تكن قيادة الثورة الاسلامية غافلة عما يحاك في مكة وبين مضارب البدو في نجد ، فقد كانت استخباراتها في منتهى النشاط واليقظة الثورية . وكانت عيون الثورة الاسلامية تتبع حركات الوفد اليهودي منذ غادر خيبر خطوة خطوة . وكانوا على علم تام بكل ما يجري من محادثات بين الوفد اليهودي وبين قريش وغطفان . وكان هؤلاء الرجال يبعثون بمعلوماتهم الهامة عن مفاوضات الاحزاب بدقة وتتابع . وعندما انتهت هذه المفاوضات الى تشكيل اتحاد ثلاثي مؤلف من اليهود وغطفان وقريش ، تم ابلاغ هذه المعلومات الخطيرة الى الرسول العربي (ص) ، كما تم ابلاغه عن القوة المحتملة لجيوش الأحزاب وأسماء القادة البارزين والموعد التقريبي لتحرك قوى الثورة المضادة الى المدينة .

وما أن حصل الرسول القائد (ص) على هذه المعلومات ، حتى شرع في اتخاذ الاجراءات الدفاعية الفورية اللازمة ودعا الى اجتماع عسكري — سياسي عاجل حضره كبار القادة في جيش الثورة الاسلامية ، لبحث الموقف الراهن .

ولما كانت المعلومات الواردة الى المدينة قد أكدت أن الهدف الرئيسي من الغزو هو احتلال المدينة نفسها فقد دار البحث بصورة رئيسية حول ما يجب اتخاذه من اجراءات فعالة وحاسمة للدفاع عن قاعدة الثورة الاسلامية ، الرئيسية . وبعد مناقشات ومداولات في الخطة التي ينبغي اتباعها ، والموازنة بين أي الأمرين أفضل : خروج المسلمين للقاء الاحزاب خارج المدينة ، كما فعلوا في غزوة أحد ، أم بقاؤهم متحصنين داخل المدينة ؟.. تقرر أخيراً البقاء في المدينة والتحصن للدفاع فيها ، ولاسيما أن قوام قوات الغزو القتالي يقارب عشرة آلاف رجل ، بينما لا يزيد جيش المدينة عن ثلاثة آلاف

مقاتل بينهم كثير من المنافقين الذين لا يؤمن جانبهم في ساعة الشدة . وقد اختيرت المنطقة الشمالية من المدينة لتكون خط الدفاع الرئيسي عنها . أما نسبة الطرفين المتصارعين قبل المعركة فيبينها الجدول التالي [١] :

التبيان	قوات الثورة الاسلامية	قوات الاحزاب	النسبة
المقاتلون	٣٠٠٠	١٠٠٠٠	١/٠,٣
الابل	—	١٥٠٠	—
الخيل	—	٣٠٠	—

— تنظيم العملية الدفاعية :

بعد اتخاذ القرار بالدفاع عن المدينة ، بدأ مجلس الثورة الاسلامية العسكري البحث في طريقة تنفيذه وفي ما يضمن تحقيق الهدف من العملية الدفاعية . وكان سلمان الفارسي موجوداً في المجلس فتقدم الى الرسول القائد (ص) وعرض عليه فكرة حفر الخندق قائلاً : «يا رسول الله ، انّا كنا بأرض فارس ، اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا» ، ووافق الرسول العربي (ص) على الفكرة واستصوبها . وهكذا تم الاتفاق على الخطوط العريضة من العملية الدفاعية عن المدينة وفقاً للاسس التالية :

---

(١) لم تذكر المصادر التاريخية غير هذه الأرقام التي أوردناها ونحن نرى (من وجهة نظرنا الخاصة) أن الرقم الذي جاء في العديد من المصادر عن قوات الثورة الاسلامية مبالغ فيه لأن الموعد الفاصل بين غزوة أحد وغزوة الأحزاب هو عام ونيف وقد كان عدد رجال الثورة الاسلامية في أحد ٧٠٠ فلا يمكن أن يكون قد تضاعف عددهم في المدينة أربع مرات خلال هذه المدة والذي نرجحه أن عدد المسلمين في غزوة الأحزاب يقارب الف مقاتل والبقية من المنافقين وسكان يثرب الذين لم يكونوا الى ذلك الوقت قد انضووا تحت راية الثورة الإسلامية (راجع جوامع السيرة لابن حزم ص ١٨٧) .

«المؤلف»

١ — أن يبقى المسلمون في المدينة للدفاع عنها ولا يخرجوا للقاء الاحزاب .

٢ — أن تكون خطوط الدفاع الرئيسية في الطرف الشمالي من المدينة ، والواقع أمام جبل (سلع) ، على أن يكون هذا الجبل على يسار القطاع الدفاعي عن المدينة .

٣ — أن يقوم المسلمون بحفر خندق عميق يجعلونه حاجزاً يمنع قوات الاحزاب من التقدم نحو المدينة .

٤ — أن يقوم المسلمون باخلاء المدينة من النساء والاطفال والشيوخ ، وتجميعهم في الحصون والآطام المنيعة ، بعيداً عن تأثير العدو ، ولتسهيل حمايتهم من غدر يهود بني قريظة الذين تقع منازلهم في المدينة نفسها .

٥ — ان تتولى دوريات الجيش الاسلامي المتحركة اعمال الحراسة القتالية عن المدينة من الغسق الى الفجر .

كان اختيار المنطقة الشمالية من المدينة مسرحاً للاعمال القتالية للجيش الاسلامي اختياراً سليماً من الناحية العسكرية ، اذ كان أفضل مكان يتخذه معسكراً له قائد يريد الدفاع عن المدينة ، فهو الناحية الوحيدة المكشوفة التي لا بد لأي غاز يريد احتلال المدينة من أن يتوجه اليها . وذلك لأن الجهات الأخرى من أطراف المدينة تحيطها أشجار النخيل والأشجار الكثيفة الأخرى والابنية المتشابكة والحواجز الطبيعية الصعبة « الحرات » حرة (واقم) وحرة (الوبرة) وجبل (عسير) ، التي لا تتيح لقوات الاحزاب أن تقوم بالاعمال القتالية النشطة أو بالمناورات الواسعة لذلك فهي مضطرة لمهاجمة المدينة من الطرف الشمالي وهو الجهة التي قرر الرسول العربي (ص) حفر الخندق فيها والدفاع عنها .

انسجاماً وخطة العملية الدفاعية ، كان الحد الأمامي للدفاع عن المدينة يمرّ من النقاط التالية من اليمين الى اليسار :

حرة واقم . جبل سلع . حرة الوبرة .

أمر الرسول القائد (ص) ببدء أعمال الحفر لانهاء خطة التحصين ، قبل

أن يتمكن جنود الاحزاب من الوصول الى المدينة. ومن أجل انجاز حفر الخندق فقد أجهد الرسول العربي رجاله في العمل، فكانوا يعملون النهار كله ويستريحون في الليل. وكان الرسول القائد (ص) يشرف بنفسه على أعمال الحفر، ويساهم فيها مع رجاله حتى تم حفر الخندق قبل موعد وصول الاحزاب بثلاثة ايام.

بلغ طول الخندق نحوا من خمسة آلاف ذراع وعرضه تسعة أذرع وعمقه سبعة أذرع وقد قسم الرسول القائد (ص) المساحات المطلوب حفرها على رجاله بمعدل أربعين ذراعا طوليا لكل عشرة مقاتلين وقد استغرق حفره شهرا كاملاً ولا بد من الاشارة هنا، الى أن عملية حفر الخندق تمت في ظروف شاقة لأن السنة التي قام فيها المسلمون بعملية الحفر لم يكونوا يجدون فيها من الطعام ما يسد رمقهم. وقد زادها مشقة وعناء أن البرد كان قارساً والرياح شديدة. فاذا أضفنا الى ذلك محاولات التخريب وتثبيط الهمم التي قام بها المنافقون واليهود لاضعاف حماسة المسلمين في الحفر وصرفهم عن الواجب المقدس، أدركنا في أية ظروف قاسية تم هذا العمل العظيم.

ولا جدال في أن قيام الرسول العربي (ص) بنفسه بأعمال الحفر قد هون كثيرا من الصعوبات وبث الحماسة في النفوس. وقد روى البخاري في صحيحه أن الرسول القائد مر بالمهاجرين والأنصار وهم يحفرون في غداة باردة، فلما رأى ما بهم من التعب والجوع قال:

اللهم لاعيش الا عيش الآخرة فـــاغفر للانصار والمهـــاجرة

فأجابوه قائلين:

نحن الـذين بـايعـوا محمـدا على الجهـاد ما بقينا أبـداً.

ولقد كان الرسول العربي (ص) يعمل في حفر الخندق ويحمل التراب على ظهره، مثله مثل أي من الجند وأكثرهم نشاطا وهو يرتجز بشعر لابن رواحة:

اللهم لولا أنت ما أهتدينا ولا تصدقنـــا ولا صلّينـــا
فـــأنزلـن سكينــة علينــا وثبت القلـوب ان لاقينـــا
أنّ الألى قـــد بغوا علينـــا وان أرادوا فتنـــة أبينـــا

وعندما كانت تعترض المسلمين أية صعوبة في الحفر، كانوا يلجؤون الى الرسول القائد (ص) لمعالجتها وقد أورد الطبري في تاريخ الرسل والملوك [١]. الحادثة التالية على لسان عمرو بن عوف في اثناء حفر الخندق التي تعطينا الدليل على تصرف القائد عندما يلجأ اليه جنوده لحل معضلة ما.. قال عمرو بن عوف: «كنت أنا وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان، والنعمان بن مقرن المزني، وستة من الأنصار في أربعين ذراعا، فحفرنا تحت «ذوباب» حتى بلغنا «الندى» فاعترضنا من بطن الخندق صخرة بيضاء مروة [٢] فكسرت حديدنا وشقت علينا. فقلنا: يا سلمان، ارق الى رسول الله (ص) فأخبره خبر هذه الصخرة، فاما ان نعدل عنها فان المعدل قريب، واما إن يأمرنا فيها بأمره، فانا لا نحب ان نجاوز خطه.

فرقى سلمان حتى أتى الرسول القائد (ص) فقال: يا رسول الله، بأبينا أنت وأمنا... خرجت علينا صخرة بيضاء من الخندق مروة، فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما نحيك فيها قليلا ولا كثيرا، فرنا فيها بأمرك، فانا لا نحب أن نجاوز خطك. فهبط الرسول العربي (ص) مع سلمان في الخندق ورقينا نحن التسعة على شقة الخندق، فأخذ الرسول العربي القائد (ص) المعول من يد سلمان وطلب أن يؤتى بالماء فصبّه على الصخرة ثم قال: باسم الله، فضرب ضربة فنثر ثلثها، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام. والله اني لابصر قصورها الحمر الساعة. ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، واني والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت

(١) — تاريخ الطبري، ج٢، ص٥٦٨.

(٢) — المرو: حجارة بيض براقة تكون فيها النار، وتقدح منها، واحدتها مروة.

مفاتيح اليمن ، والله اني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة» [1]

وهكذا تم حفر الخندق على الرغم من جو الرعب والفزع الذي يحيط بالمنطقة التي أصبحت كلها آذانا تترقب انباء وصول جيوش الاحزاب التي سبقتها موجات التخويف والترويع . وذلك بفضل العمل الدؤوب الذي قام به جنود الثورة الاسلامية بقيادة الرسول العربي الذي كان قدوتهم في العمل والذي كان يتبسط معهم في الحديث ويداعبهم ويمازحهم في روح عذبة حانية لا توجد الا عند سيد الخلق أجمعين.

وبحفر الخندق استطاعت قيادة الجيش الاسلامي ان تعزل قوات العدو عن مكان التجمع الرئيسي للقوات المدافعة عن المدينة وان تحول بينها وبين اقتحام مداخل المدينة ، لأن هذه المداخل اصبحت حراستها ممكنة بعد حفر الخندق.

وقد افادت قوات الثورة الاسلامية من مناعة جبل سلع الذي كان الى يسارها والى الخلف ، كما افادت من وعورة حرة الوبرة لحماية جناحها الأيسر، ومن وعورة حرة واقم لحماية جناحها الأيمن ، ومن الحرة الجنوبية وجبل عسير لحماية المؤخرة . (راجع خريطة غزوة الخندق في الشكل رقم ٣) .

ـــ سير الأعمال القتالية :

عندما وصلت جيوش الأحزاب الى مشارف المدينة عسكر الجيش المكي في مجمع الاسيال من رومة بين الجرف وزغابة ، كما عسكرت

---

(١) ـــ عندما سمع المنافقون كلام الرسول العربي (ص) قالوا . الا تعجبون.. يحدثكم ويمنيكم ويعدكم بالباطل: .، يخبركم انه يبصر من يثرب قصور الحيرة| ومدائن|كسرى ، وانها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون الذهاب الى الخلاء وفي ذلك أنزل تعالى : «واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الأ غرورا» . سورة الاحزاب الآية ١٢ ـــ وتوضيحا لهذه الحادثة فاننا نقول ان الرسول العربي لم يشاهد قصور كسرى والشام وصنعاء بنظره المجرد وانما شاهدها ببصيرته وقد اثبتت الحوادث بعد ذلك صحة هذه المشاهدة النبوية ، اذ تم فتح كل هذه البلاد على يد خلفاء الرسول العربي (ض) ، في مدة قليلة .

«المؤلف»

غطفان بقواتها بذنب نقمى الى الطرف الغربي من جبل أحد . وكان حيي بن اخطب الزعيم اليهودي على اتصال دائم بقوى الأحزاب ، يرسم الخطط ويقدم المشورة .

كانت الخطة التي وضعها قادة الأحزاب لاحتلال المدينة بالتعاون مع اليهود ، تقضي بأن تزحف جيوش الأحزاب من الشمال ، على شكل نصف قوس يمتد من الشمال الغربي الى الشمال الشرقي ، على أن يتحرك في آن واحد تسعمائة مقاتل من يهود بني قريظة في مؤخرة الجيش الاسلامي .

ومن الجدير بالذكر أنه حتى وصول قوات الأحزاب الى المدينة ، كان بين المسلمين ويهود بني قريظة معاهدة — تشبه الى حد بعيد معاهدات الدفاع المشترك في ايامنا هذه — ولكن زعيم خيبر حيي بن أخطب ، تمكن من اقناع يهود بني قريظة بنقض هذا العهد والانقضاض على المسلمين من الخلف اذا ما حانت الساعة المؤاتية .

نقلت استخبارات الجيش الاسلامي الأنباء الأولية الى الرسول العربي (ص) عن نقض يهود بني قريظة للعهد القائم بين الطرفين . وقد استاء الرسول القائد (ص) لهذا الأمر كثيراً ، الا أنه كتم الخبر وطلب الى هيئة قيادته ان لا يذاع منه شيء ثم استدعى سعد بن معاذ سيد الأوس وحليف بني قريظة ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج وعبدالله بن رواحة وأسيد بن حضير وكلهم من الأنصار وطلب اليهم ان يتوجهوا لساعتهم الى ديار بني قريظة ليقفوا على جلية الأمر . واوصاهم بكتمان الخبر عن الجيش الاسلامي اذا ايقنوا أن يهود بني قريظة قد نقضوا العهد وأعلنوا الحرب ، لئلا يؤثر ذلك في معنويات الجيش . ويروي ابن اسحق أن الرسول القائد (ص) قال لهم : «أنطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا من هؤلاء القوم أم لا ؟.. فان كان حقاً ، فالحنوا لي لحناً أعرفه ، دون القوم ، ولا تفتوا في عضد الناس ، وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس» .

توجه الوفد الاسلامي الى ديار بني قريظة لاستطلاع النبأ وبعد مداولات ومناقشات مع زعماء يهود بني قريظة تأكد الوفد الاسلامي أن بني قريظة قد نقضوا المعاهدة ولم يوفوا بالعهد . فعادوا الى الرسول العربي وابلغوه حقيقة الموقف [1]

أمر الرسول العربي (ص) أن ترابط قواته خلف الخندق وقسم قواته الى قسمين هما :

١ — المهاجرون وأعطى لواءهم لمولاه زيد بن حارثة .

٢ — الأنصار وأعطى لواءهم لسعد بن عبادة .

كما عين ابن ام مكتوم أميراً على المدينة حتى انتهاء المعركة . وانتخب لحراسة المدينة فصيلتين وكلفها القيام بأعمال الدورية ، لاسيما حول منازل بني قريظة ، اذ كان الرسول العربي (ص) يتوقع أن تأتيه المفاجأة الغادرة منهم .

كان أول حادث اصطدام بين قوات الطرفين في غزوة الأحزاب القاء القبض على رجلين من عناصر استطلاع الجيش الاسلامي ، وما كادت قيادة الأحزاب تتعرف هويتها حتى أمرت باعدامها . وهكذا كان سليط وسفيان بن عوف أول شهيدين في معركة الخندق من الجيش الاسلامي .

توجه قادة قوات الأحزاب بأنفسهم الى مشارف المدينة من الشمال لارتياد قاعدة انطلاق قواتهم في زحفها على المدينة . وكانوا بامرة أبي سفيان ومعه رأس الفتنة والدماغ المخطط لعملية الغزو اليهودي حيي ابن أخطب). وعندما اقتربوا من الخندق ذهلوا من المفاجأة وحاروا في هذه المكيدة الحربية التي قلبت خططهم رأساً على عقب .

وبعد أن طافوا نواحي الخندق جميعاً وتأكدوا من صعوبة

---

(١) لا بد من الاشارة في هذا المجال أن رئيس الوفد الاسلامي تقيد بتوجيهات الرسول القائد (ص) من حيث كتمان السر ذلك أنه لم يذكر شيئاً عن المحادثات التي جرت بينهم بل قال : «عضل والقارة» وعندما سمع النبي ذلك أدرك على الفور أن اليهود قد غدروا ونقضوا العهد . لأن عضل والقارة قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب الرسول العربي (ص) في (حادثة الرجيع) .

اقتحامه ، وقفوا على مشارفه وقالوا : «ان هذه المكيدة ماكانت العرب تكيدها» .

وعلى الرغم من أن الخندق قد شل حركة قوات الاحزاب وجعلهم في حيرة من أمرهم ، فانهم صمموا على البقاء وضرب الحصار على المدينة والقيام بمناوشة المسلمين ليلاً نهاراً لانهاكهم ، بانتظار الفرصة المناسبة لاقتحام المدينة ، ذلك انهم كانوا يتوقعون قيام بني قريظة بتسديد ضربة الى مؤخرة الجيش الاسلامي .

وفي هذه الظروف الصعبة ، حاول الرسول القائد (ص) أن يقوم بمناورة سياسية يخفف بها الضغط عن جيشه الصغير المرابط خلف الخندق ، ولاسيما أنه أعلم الناس بخطورة الموقف بعد أن نقض يهود بني قريظة العهد وأصبحوا يؤلفون بؤرة خطيرة في مؤخرة الجيش الاسلامي .

وقبل أن يقوم يهود بني قريظة بأي نشاط قتالي استدعى الرسول العربي (ص) قائدي غطفان وهما : عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري ، واجتمع بهما سراً في مقر قيادته خلف الخندق . واذا كان الرسول القائد (ص) يعرف حق المعرفة ان دوافع غطفان للغزو هي مادية قبل أي شيء آخر فقد عرض عليهما عقد صلح منفرد وفقاً للاسس التالية :

١ ــ أن توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم وتفك الحصار وتنسحب برجالها الى منازلها .

٢ ــ مقابل ذلك يدفع المسلمون لغطفان ثلث ثمار المدينة لسنة واحدة .

وقد وافق قائد غطفان على هذا العرض واستدعى عثمان بن عفان لتحرير بنود الاتفاق .

واذا كانت ثمار المدينة ملكا للانصار وحدهم ، فقد اشترط الرسول العربي (ص) موافقة سادة الأوس والخزرج على هذا الاتفاق ليصبح نافذا .

ولهذا استدعى النبي (ص) سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج وشرح لهما بحضور قائدي غطفان تفاصيل الاتفاق، وبعد أن استوعبا ما قاله الرسول القائد (ص) لم يرق لهما البند المتعلق بثلث ثمار المدينة فقالا: «يا رسول الله، أمرا تحبه فتصنعه أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به. أم شيئا تصنعه لنا، فان كان أمرا من السماء فامض له، وان كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمعاً وطاعة، وان كان انما هو الرأي، فما لهم عندنا الا السيف».

فقال الرسول القائد (ص): «لو أمرني الله ما شاورتكما، والله ما أصنع ذلك الاّ لاني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت ان اكسر شوكتهم الى أمر ما».

فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم — يعني غطفان — على الشرك بالله وعبادة الاوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة الا قرى أو بيعا، افحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له واعزنا بك وبه، نقطعهم اموالنا، مالنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم [1]». فقال الرسول العربي: فأنت وذلك فتناول سعد الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتابة، ثم قال: ليجهدوا علينا.

عندما سمع سيدا غطفان كلام سعد بن معاذ غادرا فورا مقر قيادة الجيش الاسلامي. وقد حققت هذه المناورة السياسية اغراضها على الرغم من أنها لم تنته الى اتفاق مكتوب كما علمنا، ذلك أن كل المصادر التاريخية تجمع انه لم يكن لغطفان أي دور عسكري بعد هذه المقابلة التي أكدت لهم اصرار رجال الثورة الاسلامية على القتال في سبيل عقيدتهم، ولكنهم ظلوا مرابطين في معسكراتهم حتى أمرهم القائد ابو سفيان بالانسحاب وفك الحصار.

---

(١) — سيرة ابن هشام ج٢ ص٢٣٣.

ظل الموقف على حاله مدة قصيرة من الزمن تراشق بالنبل وجولان بالخيل للارهاب من جانب قريش، ودوريات مستمرة من الطرفين لاغراض الحراسة القتالية — حتى بدأت قوى الاحزاب بتصعيد الموقف الحربي، حين قام فريق من فرسانهم الاشداء المغامرين باقتحام الخندق بخيلهم من ناحية ضيقة به في محاولة لنقل المعركة الى معسكر المسلمين خلف الخندق.

تقدمت سرية عكرمة أولا، وقفزت مجموعة صغيرة الخندق، واقتربت الخيل من جانب المسلمين. وكان بين المهاجمين عكرمة ورجل ضخم، يدعى عمرو بن عبد ود، كان يتقدم امام المجموعة على صهوة جواد ضخم أيضا، وبدا يراقب المسلمين الذين فوجئوا باقتحام القرشيين للخندق. وفجأة رفع عمرو رأسه وزمجر: «أنا عمرو بن عبد ود. أنا أعظم محارب في الجزيرة العربية. أنا الذي لا يقهر...». وكان بلا شك معجبا بنفسه. ثم قال: من يبارز؟

استقبل المسلمون التحدي بصمت. وأخذوا ينظرون الى بعضهم بعضا، ثم نظروا الى النبي (ص). لكن أحدا لم يحرك ساكنا، لأن عمراً كان مشهورا بقوته وشجاعته. ومع أنه جرح عدة مرات، الا انه لم يخسر أية مبارزة ولم يرحم خصما. وكانت تنسج حوله القصص والحكايات. فكان يقال إنه يعادل خمسمائة فارس، وانه يستطيع رفع فرس بيديه ويلقيها على الارض، وانه يستطيع أن يحمل عجلا بيده اليسرى ويستخدمه كترس في القتال، وكانت هذه القصص عن بطولاته لا تنتهي. وقد نسج الخيال حول هذا المحارب الكثير من الأساطير.

ظل المسلمون صامتين، فضحك عمرو استهزاء وشاركه القرشيون في ضحكته لانهم وقفوا قريبين من الخندق وكانوا يشاهدون ويسمعون كل ما يجري.

عندئذ تابع عمرو كلامه: «اذن لا يوجد بينكم من يملك شجاعة الرجال؟ أين اسلامكم وأين نبيكم؟» عند سماع هذا التقريع والتحدي،

ترك علي بن أبي طالب موقعه في الصف الأول للمسلمين ، واقترب من النبي وطلب منه أن يأذن له بمنازلة عمرو واخراسه نهائيا . لكن النبي لم يأذن له . فعاد عليّ الى موقعه .

فكان هنالك موجة اخرى من الضحك والاستهزاء بالمسلمين وتحديهم . فذهب عليّ مرة ثانية الى النبي . لكن النبي لم يأذن له . ثم تمادى عمرو في تحديه وبشكل مهين أكثر من ذي قبل وقال : «أين جنتكم ؟ هذه الجنة التي تقولون ان من يستشهد في المعركة يدخلها ؟ ألا تستطيعون ارسال رجل لمنازلتي ؟» .

عندئذ ذهب عليّ للمرة الثالثة الى النبي ، ورأى النبي في عيني عليّ نظرة يعرفها جيدا ، وعرف ان عليًا لا يمكن كبح جماحه هذه المرة . فنظر الى علي بحنان ونزع عمامته ولفها على رأس عليّ ثم اخرج سيفه [1] وطوق به خصر علي ودعا له بالتوفيق .

خرج علي بن أبي طالب عليه السلام في نفر معه من المسلمين وسار باتجاه المشركين الذين اقتحموا الخندق ووقف النفر على مسافة من عمرو ، وتقدم علي الى مسافة المبارزة منه . كان عمرو يعرف عليًا جيدا اذ كان صديقا لوالده أبي طالب . فضحك عمرو لدى مشاهدته عليًا مثلما يضحك الرجل من الصبي .

فنادى عليّ : يا عمرو ، انك كنت قد عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلّتين الا أخذتها منه ، قال له : أجل ، قال له علي : فاني ادعوك الى النزال ، فقال له : لم يا ابن أخي ؟ فوالله ما أحب أن اقتلك ، قال له علي : «ولكني والله احب أن أقتلك [2]» ، فحمي عمرو

---

(١) — كان السيف الذي أعطاه النبي (ص) لعلي ملكا لمشرك يدعى منبه بن حجاج . وقد قتل هذا الرجل في معركة بدر ، ووصل السيف الى المسلمين كجزء من غنائم الحرب . واخذ النبي (ص) السيف لنفسه . وبعد ان اصبح هذا السيف بيد علي صار اشهر سيف في الاسلام ، اذ قتل به رجالا في مبارزات متكافئة اكثر من أي سيف في التاريخ . وكان هذا السيف يسمى «ذو الفقار» .

(٢) — ابن هشام — الجزء ٢ ، صفحة ٢٢٥ .

عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ثم أقبل على عليّ ، وبدأ القتال .

ضرب عمرو عليّا عدة ضربات ، لكن عليّا لم يصب بأذى . فكان يتلقى الضربة بسيفه أو بترسه ، أو يتحرك جانباً لتفادي ضربات عمرو ، أخيراً بدأ عمرو يتراجع ويتفادى ضربات عليّ ، وتعجب عمرو كيف يحدث هذا اذ لم يصمد طويلاً أي رجل سبق أن تبارز معه .

ثم تتابعت الضربات بسرعة ، ورمى عليّ سيفه وترسه على الأرض واندفع كالسهم وأطبق بيديه على خناق عمرو ، وبضربة بارعة اختلّت بتوازن عمرو ، سقط عمرو على الأرض وقد حدث ذلك بثوان . ثم جلس عليّ على صدر عمرو وبدأ الهمس يدور في صفوف الجيشين ، وحبس الجميع أنفاسهم .

تحول الارتباك البادي في وجه عمرو الى غضب . فهو مستلق على الأرض وفوق صدره هذا الشاب الصغير الذي يقل حجمه عن نصف حجم عمرو . لكن عمراً لم ينته ، فهو ما يزال مصراً على كسب المبارزة واستعادة مركزه كمحارب فذ . وهو سيلقي بهذا الفتى في الهواء كورقة تذريها الرياح .

احمرّ وجه عمرو ، وانتفخت اوداجه ، واخذت عضلات جسمه تهتز عندما ضغط على قبضة علي ليبعدها عن عنقه . لكنه لم يستطع زحزحتها قيد انملة .

فقال عليّ : « اعلم يا عمرو ان النصر والهزيمة من عند الله . واني ادعوك الى الاسلام . وبذلك لن تنجو من الموت فقط ، ولكنك ستكسب رضى الله في الحياة الدنيا والآخرة » . ثم استل عليّ خنجراً حاداً من نطاقه ووضعه قريباً من عنق عمرو .

لكن هذا كان فوق طاقة عمرو . فهل عليه أن يعيش ابقية حياته تحت ظل الهزيمة والعار ؟ وقد اعتبرته الجزيرة العربية أحد أعظم أبطالها . وهل يرضى أن يقال عنه أنه قبل بانقاذ حياته في مبارزة لقاء خضوعه واستسلامه لشروط خصمه ؟ كلا ! ان عمرو بن عبد ود عاش بالسيف وسيموت

بالسيف . فحياته التي قضاها بالعنف يجب أن تنتهي بالعنف . فجمع لعابه في فمه وبصق في وجه عليّ !

عرف عمرو ماذا سيحدث . عرف ان علياً سوف يرفع ذراعه الأيمن في الهواء ثم يغرز الخنجر في عنقه . كان عمرو رجلاً شجاعاً وهو يستطيع أن يواجه الموت غير وجل . فقوّس ظهره ورفع ذقنه — ليقدم عنقه الى عليّ .

لكن ما حدث اثر ذلك تركه في حيرة شديدة . لقد نهض علي بهدوء من على صدر عمرو ، ومسح البصاق عن وجهه ، ووقف على بضع خطوات منه وقال له :

« اعلم يا عمرو ، انني اقتلك فقط في سبيل الله وليس لدافع آخر . وبما أنك بصقت في وجهي ، فانِ قتلي لك الآن يمكن أن يكون لدافع انتقام . لذا فانني اعفو عنك . انهض وعد الى قومك ! » .

ونهض عمرو. لكن لا معنى لرجوعه الى قومه خاسراً . انه يرغب في أن يعيش منتصراً أو لا يعيش ابداً . فالتقط سيفه في محاولة أخيرة لاحراز النصر ، وهجم على عليّ اذ ربما يصيبه على حين غرة .

كان لدى علي وقت كاف لإلتقاط سيفه وترسه والاستعداد لتلقي الضربة . وكانت الضربة التي سدّدها عمرو الآن وهو في حالة من اليأس والغضب أشدّ ضربة في المبارزة . لقد حطّم بسيفه ترس علي ، لكنه لم يستطع أن يؤثر سوى احداث جرح غير عميق في صدغ علي . وكان الجرح أبسط من أن يزعج عليّا . وقبل أن يتمكن عمرو من رفع سيف مرة أخرى ، تلألأ ذو الفقار في ضوء الشمس وهوى على عمرو محدثاً جرحاً عميقاً في عنقه .

وقف عمرو للحظات بدون حراك ، ثم بدأ جسمه يترنح كالثمل . ثم انكفأ على وجهه جثة هامدة .

لم تهتز الأرض عند اصطدام ذلك الجسد الضخم بها ، لكن تل سلع اهتزّ من صيحة « الله أكبر » التي انطلقت من حناجر ألفي مسلم . وسمع صدى صيحة النصر في طول الوادي وعرضه قبل أن تهدأ في قلب الصحراء . بعد

ذلك ، انقضّت مجموعة المسلمين على الستة الباقين من قريش . وبنتيجة الاقتتال الذي جرى بالسيوف ، قتل قرشي آخر كما سقط مسلم واحد . وبعد بضع دقائق انسحبت مجموعة القرشيين وعادت بسرعة عبر الخندق . وسقطت حربة عكرمة اثناء قفزه فوق الخندق ، ونظم الشاعر حسّان بن ثابت شعراً كثيراً حول هذه الحادثة . ولم ينجح رجل يدعى نوفل بن عبدالله ، وهو ابن عم خالد ، في اجتياز الخندق وسقط فيه . وقبل أن يتمكن من النهوض ، وصل المسلمون الى حافة الخندق ورموه بالحجارة . فقال لهم : «يا معشر العرب قتلة أحسن من هذه» [1] فنزل اليه عليّ فقتله .

عادت مجموعة المسلمين الى المعسكر ، ووضعت حراسة مشددة على مكان العبور .

بعد ظهر اليوم التالي ، تحرك خالد بسريته ، على أمل أن ينجح حيث أخفق عكرمة . وحاول أن يعبر الخندق ، ولكن الحراس المسلمين الواقفين على نقطة العبور شاهدوه في هذا الوقت ، فتقدموا وانتشروا على الخندق لمنع عبور خالد . وتم تبادل رمايات كثيفة بالنبال فقتل مسلم وقرشي ، ولم يستطع خالد العبور .

وبما أن المقاومة الفورية التي ظهرت عند الخندق كانت شديدة بحيث لا يمكن التغلب عليها ، فقد قرّر خالد أن يلْجأ الى الخدعة . فتحرك بسريته الى الخلف وكأنه تخلى عن نيته في عبور الخندق ، ووضعها على مسافة من الخندق . فانطلت الحيلة على المسلمين اذ اعتقدوا أن خالداً قد تخلى عن محاولة عبور الخندق ، وانسحبوا وبدؤوا في الاسترخاء ، وهم ينتظرون سكون الليل وهدوءه . وفجأة عاد خالد بسريته ، وقبل أن يتمكن الحراس المسلمون من الانتشار مرة ثانية ، عبر الخندق رهط من القرشيين بقيادة خالد . ولم يكد يتقدم هذا الرهط عبر الخندق ، حتى انتشر المسلمون

---

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٢٤٠ .

بسرعة واستطاعوا ايقاف خالد عند رأس الجسر الذي استطاع ان يحتله . (انظر المخطط) . وحاول خالد أن يتابع التقدم ، لكن مقاومة المسلمين كانت قوية جداً ، ولم يحقق نجاحاً . وحدث اشتباك بالأيدي بين رهط القرشيين والحراس المسلمين فقتل خالد أحد المسلمين . وكان «وحشي» موجوداً مع رهط القرشيين ، فقتل مسلماً بنفس المزراق الذي قتل به حمزة . وقبل أن يمضي وقت طويل ، انسحب خالد عبر الخندق بعد أن رأى أن الموقف ميئوس منه . وكان هذا الاشتباك آخر عمل عسكري رئيسي في معركة الخندق .

حاول يهود بني قريظة القيام بعمل حربي في مؤخرة الجيش الاسلامي ، وتمهيداً لذلك أرسلوا أحد رجالهم بمهمة استطلاعية الى الحصون والآطام التي حلت بها نساء المسلمين وأولادهم . وعندما وصل الرجل اليهودي الى فارع (حصن حسان بن ثابت) نزلت اليه صفية بنت عبد المطلب بعد أن شدت على وسطها وأخذت عموداً من الخشب فضربته حتى مات .. وعندما لم يعد اليهودي من مهمته الاستطلاعية ظن يهود بني قريظة ان الرسول القائد (ص) قد خصص جزءاً من قواته لحماية الظعن والمؤخرة ، لذلك عدلوا عن القيام بأي عمل حربي في مؤخرة الجيش الاسلامي .

واستمر الحصار ثلاثة أسابيع وجيوش الأحزاب في مكانها رغم المحاولات الفاشلة لاجتياز الخندق ونقل المعركة الى معسكر الجيش الاسلامي . وفي محاولة أخيرة ، قرر ابو سفيان القيام بتجوال على الخيل ليل نهار لارهاق أعصاب المسلمين واضعاف معنوياتهم . وكان يتناوب على قيادة الخيل كل من خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص ، الا أن المسلمين ظلوا مع ذلك صامدين في موقعهم رغماً عن الأحوال الجوية القاسية والمجاعة الشديدة التي كان يعاني منها جيش الثورة الاسلامية وقد خففت بعض صعوبات التموين مصادرة المسلمين قافلة مؤلفة من

من عشرين بعيراً محملة تمراً وشعيراً وتبناً ، وجهها يهود بني قريظة الى قريش مدداً بالارزاق والعلف .

ـــ تطور الموقف :

ولا بد لنا في هذا المجال من التنويه بأنه لم يبق مع الرسول العربي (ص) في أيام الحصار الأخيرة أكثر من تسعمائة مقاتل من خيرة رجاله. اذ انسحب المنافقون والذين في قلوبهم مرض من المعركة ، وآثروا السلامة ، ومع كل ذلك ، ما انفك الرسول القائد (ص) ورجاله المؤمنون يرابطون بعزيمة صادقة وشجاعة فائقة دفاعاً عن عاصمة الثورة الاسلامية .

كان قد مضى أربعة أسابيع على الحصار عندما ادرك نعيم بن مسعود وهو من قبيلة غطفان ومن وجوه القوم والسادة المرموقين في المجتمع العربي قبل الإسلام ، أن الغلبة ستكون للرسول العربي ، ما في ذلك ريب ، ولهذا قرر أن يعلن اسلامه وأن يضع نفسه تحت تصرف الثورة الاسلامية ، وفي الليلة قبل الأخيرة للحصار انسل من معسكر الاحزاب واتجه في غلس الظلام نحو مقر قيادة الرسول العربي (ص) . وهناك أعلن اسلامه وولاءه للثورة الاسلامية وأبدى استعداده للقيام بأية مهمة تقتضيها مصلحة الجيش الاسلامي .

قال نعيم بن مسعود : «يا رسول الله اني قد اسلمت ، وان قومي لم يعلموا باسلامي فمرني بما شئت». فقال له الرسول القائد (ص) : «انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت ، فان الحرب خدعة» . فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية ، فقال لهم : «يا بني قريظة ، قد عرفتم ودي اياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : ان قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وان قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم ، البلد بلدكم ، به اموالكم وابناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تحولوا منه الى غيره ، وان قريشاً وغطفان اموالهم وابناؤهم ونساؤهم

وبلدهم بغيره .. فليسوا كهيئتكم ، إن رأوا نهزة أو غنيمة أصابوها ، وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من اشرافهم يكونون بأيديكم ، ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً ، حتى تناجزوه فقالوا : لقد أشرت برأي ونصح . ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لابي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: يامعشر قريش قد عرفتم ودي اياكم وفراقي محمداً ، وقد بلغني أمر رأيت حقاً علي أن أبلغكموه نصحاً لكم ، فاكتموا علي . قالوا : نفعل ، قال : فاعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وأرسلوا اليه أن قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين — قريش وغطفان — رجالاً من أشرافهم ، فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم ؟ . فأرسل اليهم أن نعم ، فان بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم ، فلا تدفعوا اليهم منكم رجلاً واحداً . ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يا معشر غطفان أنتم أهلي وعشيرتي ، وأحب الناس الي ولا أراكم تتهمونني :.. قالوا صدقت ، قال : فاكتموا علي ، قالوا : نفعل ، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم ما حذرهم ، فلما كانت ليلة السبت من شوال من السنة الخامسة للهجرة أرسل أبو سفيان وقادة غطفان الى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : انا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه ، فأرسلوا اليهم أن اليوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا ، حتى نناجز محمداً ، فانا نخشى ان خسرتم الحرب واشتد عليكم القتال ، أن تشمروا الى بلادكم ، وتتركونا والرجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك من محمد . فلما رجعت اليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان . تعلمون والله أن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق . فأرسلوا الى بني قريظة : انا والله لا ندفع

اليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فان كنتم تريدون الحرب ، فاخرجوا فقاتلوا ، فقال بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا : ان الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم الا أنْ يقاتلوا ، فان وجدوا فرصة انتهزوها ، وان كان غير ذلك انشمروا الى بلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم . فارسلوا الى قريش وغطفان : انا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً ، فأبوا عليهم وهكذا كانت بداية الخلاف والفرقة بين قوى الأحزاب ونجح نعيم بن مسعود في المهمة التي كلفه اياها الرسول القائد وقام بعمل لا يستطيع أن يقوم به جيش بأكمله .

وعندما استحكم الخلاف بين اليهود وقبائل الاحزاب هبت على المنطقة التي تعسكر فيها قوات الاحزاب رياح هوجاء كانت لقوتها تقلع الخيام وتهدم الابنية وتكفأ القدور وتطفىء النيران.. فعجل ذلك في دفع قادة الاحزاب الى اتخاذ قرار فك الحصار والعودة الى ديارهم. وكان الرسول القائد (ص) يتوقع صدور مثل هذا القرار — لانه كان يتابع مهمة نعيم بن مسعود خطوة خطوة — فقد كلف أحد رجال استخباراته الاذكياء أن يتسلل ليلا الى معسكر الاحزاب ليوافيه بحقيقة الموقف ، وكان هذا الرجل هو حذيفة بن اليمان. وقبل ان ينطلق الى مهمته استدعاه الرسول العربي (ص) الى مقر قيادته وقال له : « يا حذيفة ، اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ولا تحدثن شيئا حتى تأتيني» توجه حذيفة ليلا حتى دخل معسكر الاحزاب وشاهد بأم عينه حالة المعسكر السيئة من جراء الرياح الشديدة الباردة التي جعلت الاقامة صعبة للغاية.. وأخذ حذيفة ينتقل من مكان الى آخر حتى وصل الى مقر قيادة جيش الاحزاب. وهناك سمع أبا سفيان يصدر تعلياته الى قادة الاحزاب بفك الحصار والرجوع الى الديار. وقبل ان يبدأ القائد العام للاحزاب باصدار تعلياته قال: «يا معشر قريش ليتعرف كل امرىء منكم جليسه واحذروا الجواسيس والعيون» . وما أن سمع حذيفة كلام أبي سفيان حتى بادر هو قبل أن يكتشف أمره ، الى تعرف جلسائه فقبض على يد جليسه الأيمن وقال له : من أنت؟ فقال معاوية بن

أبي سفيان ، ثم قبض على يد جليسه الأيسر وقال له : من أنت؟ فقال عمرو بن العاص.. وبهذه الحركة الذكية طمأن حذيفة الجالسين بجواره أنه حريص على تنفيذ توجيهات أبي سفيان...

بعد أن تأكد أبو سفيان من خلو المكان من الجواسيس والعيون.. تابع كلامه قائلا : «يا معشر قريش انكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فاني مرتحل». وأراد القائد العام ابو سفيان تنظيم الانسحاب فأصدر أوامره الى قائد كتيبة الفرسان في الجيش القرشي وهو خالد بن الوليد. ومساعده عمرو بن العاص ، ان يتوليا مهمة الاشراف على تنظيم هذا الانسحاب ، ويقوما بحماية مؤخرة القوات المنسحبة خوفا من أن يقوم المسلمون بتوجيه ضربة اليها ساعة الانسحاب. وقد قام خالد بن الوليد بتنفيذ تعليمات أبي سفيان على الوجه الأكمل ونزل بخيالته في المنطقة الواقعة بين مؤخرة قوات الأحزاب وبين المسلمين. وأخذ يواكب الجيش المنسحب وهو على أتم تعبئة واستعداد ، حتى تم انسحاب قوات الاحزاب من مواقعها أمام الخندق وابتعدت عن منطقة الخطر.

وهكذا ارتحلت قريش وتبعتها غطفان وبذلك انتهى الحصار الذي ضربته الاحزاب حول المدينة والذي دام قرابة ثلاثين يوما. وبعد ان تمت عملية انسحاب قوات الاحزاب من مواقعها ، أمر الرسول العربي (ص) بعودة الجيش الاسلامي الى المدينة. وأبلغ رجاله أن هذه الغزوة التي قامت بها الاحزاب ستكون آخر محاولة حربية تقوم بها قريش وأعداء الثورة الاسلامية ، وأن زمام المبادرة والمبادأة سيكون في يد الجيش المجاهد حتى النصر التام.

ـــ إستنتاجات عن غزوة الاحزاب :

١ ـــ بلغ عدد شهداء المسلمين في هذه الغزوة ثمانية ، ستة منهم

استشهدوا ابان الحصار. واثنان استشهدا في عملية الاستطلاع قبل وصول الاحزاب الى الخندق. وبلغت خسائر الاحزاب أربعة جميعهم من قريش. وسبب قلة الخسائر في الطرفين المتصارعين هو عدم نشوب معركة فاصلة، حال دونها حفر الرسول العربي (ص) الخندق الذي قلب خطط الاحزاب رأسا على عقب.

٢ — كان حفر الخندق مباغتة تامة للاحزاب، فلم تكن العرب تعرف هذا الاسلوب ولهذا فوجئت قوات الاحزاب بموقف صعب لم تستطع الى التغلب عليه سبيلا.

٣ — جرت احداث الغزوة في فصل الشتاء، وكانت قوات الاحزاب في العراء وقد نزلت مواطن غير مواطنها ولقيت صعوبات حقيقية في التدفئة والامداد والتموين. لذلك لم تصبر على الاستمرار في ضرب الحصار على المدينة أمدا طويلا.

٤ — كانت الثقة بين الاحزاب انفسهم وبينهم وبين اليهود واهية واهنة، كذلك لم يكن يجمعهم هدف واحد. فقريش تريد القضاء على الثورة الاسلامية بالافادة من جهود القبائل العربية. واليهود يريدون الحاق الهزيمة بالرسول العربي (ص) بقوى قريش وغطفان، وقبائل غطفان تريد الحصول على المغانم بالدرجة الاولى ولو وقعت في يدهم أموال حلفائهم بني قريظة لما أبقوا عليها.

هكذا انعدمت الثقة بينهم لاختلاف اهدافهم ومقاصدهم.

٥ — كان لثبات الرسول العربي (ص) ورجاله، على الرغم من المجاعة ومن الاحوال الجوية السيئة اكبر الأثر في انصراف الاحزاب، لانهم لم يستطيعوا ان يحسموا الموقف بعملية هجومية سريعة على الجيش الاسلامي، بل تسمروا في مكانهم قرابة شهر بدون أي نشاط قتالي يذكر. فاذا أضفنا الى ذلك ان القبائل لم تعتد خوض العمليات الطويلة، بل كان دأبها حركات الكر والفر الخاطفة، أدركنا سبب تذمر الاحزاب من طول أمد الحصار ومؤاثرتها الارتحال.

٦ ـــ كان لتصدي المسلمين لمغامري قريش وفرسانها خالد وعكرمة وعمرو بن ودّ الذين حاولوا اقتحام الخندق من أضيق نقاطه أثر لا بأس به في احباط النوايا العدوانية لدى قوات الاحزاب ، بعد ان ايقنت ان المغامرة سيكون مصيرها الإخفاق .

٧ ـــ ان الدوريات التي كلفها الرسول القائد (ص) بمهام الحراسة القتالية واغلاق الثغرات وسد المنافذ في وجه جيوش الاحزاب ، أسهمت في اخفاق الغزو وكان دورها كبيرا في هذا الشأن

٨ ـــ لقد حققت المناورة السياسية التي قام بها الرسول العربي اغراضها في منع قبائل غطفان من الاشتراك في أعمال حربية ضد الجيش الاسلامي ، بعد أن استدعى قادتهم الى مقر قيادته فأيقنوا أن العملية ليست نزهة عسكرية وان رجال الجيش الاسلامي على استعداد للتضحية لهذا قرروا بينهم وبين انفسهم ان لا يقوموا بأي عمل عسكري ، وهذا بدوره أفاد الجيش الاسلامي وأضعف قوة الاحزاب .

٩ ـــ كان لخديعة نعيم بن مسعود التي كلفه القيام بها الرسول القائد (ص) دور كبير في تخذيل قوى الاحزاب وتفريق كلمتهم ، وهذا يؤكد أن للحرب النفسية شأنا خطيرا في أي صراع مسلح . وبهذه المناسبة فانا نقول ان محاولات المنافقين في تفريق وحدة الصف الاسلامي اخفقت لرسوخ ايمان المسلمين بعقيدتهم ونبيهم .

١٠ ـــ كان لوحدة الصف الاسلامي وانضباط المسلمين ووقوفهم صفا واحدا خلف قائدهم ، اثر كبير في تطور الموقف ونتائجه ، لاسيما وان خصومهم كانوا على نقيض ذلك . وهذا ما سهل كثيرا مهمة الدبلوماسية الاسلامية التي اعتمدت كل الاعتماد على هذه الناحية فنجحت في تفريق صفوف الاحزاب وتشتيت شملهم .

١١ ـــ بدا واضحا لقريش في نهاية المعركة ان جهودها في القضاء على الثورة الاسلامية عن طريق عمل عسكري ، لن يكتب لها النجاح . لاسيما وانها وضعت في هذه المعركة كل ثقلها العسكري وحشدت أقصى ما

تستطيع من القوى البشرية. وتوقع المكيّون كل شر بالنسبة لمستقبل تجارتهم مع بلاد الشام، لان القوافل التجارية تمر في منطقة نفوذ الثورة الاسلامية. كما ان هيبة قريش قد اصيبت بضربة قاصمة فلم تصبح مشكلتها الرئيسية القضاء على الثورة كما كانت من قبل.. بل اصبحت المحافظة على وجودها.

١٢ — ان المغزى الحقيقي لاخفاق الاحزاب بعد هذا الحشد الهائل، انهم لن يجتمعوا مرة اخرى، وانهم غدوا عاجزين عن التصدي للثورة الاسلامية منفردين بعد أن عجزوا مجتمعين، وهكذا انتقلت المبادأة الى يد المسلمين بعد هذه الغزوة، ولم يتركوها حتى شمل الاسلام ربوع الجزيرة العربية كلها.



سيف الله

> « خالد سيف من سيوف الله ونعم فتى العشيرة »
>
> الرسول العربي (ص)



١ — صلح الحديبية:

بعد سلسلة من المعارك والعمليات العسكرية خاضتها قوات الثورة الاسلامية ضد أعدائها ، اطمأن الرسول العربي الى قوته وتفوقه العسكري ، ففكر في القيام بمناورة سياسية عسكرية تضع الثورة الاسلامية في حجمها الحقيقي وتجمد الخصومة الشديدة بين مكة والمدينة مؤقتا ، لتتفرغ الثورة الاسلامية لنشر الدعوة في كل ربوع الجزيرة العربية. ولتحقيق هذا الغرض أمر رجاله ، في ذي القعدة من سنة ٦ للهجرة بالاستعداد للتوجه الى مكة من أجل اداء العمرة. وقد لقيت هذه الدعوة استجابة سريعة منهم فخرج بهم وقد بلغ عددهم زهاء أربعمائة وألف مقاتل من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم من الأعراب. ولم يكن معهم غير السيوف في أغمادها ، وأحرم الرسول العربي (ص) بالعمرة من ذي الحليفة [١] واقتدى به سائر المسلمين فأحرموا معه وساقوا معهم الهدي اظهارا لغرضهم الديني.

ولما بلغ المكيين خروجُ المسلمين اشتدبهم الذعر ودعوا حلفاءهم من ثقيف واحابيشهم للوقوف معهم. كما أرسلوا طلائع من رجالهم لرصد تحركات المسلمين ، وتعاهدوا على منع الرسول (ص) وصحبه من دخول مكة ولو أدى بهم ذلك الى حربهم. وكان خالد بن الوليد على رأس مفرزة القرشيين التي خرجت لاستطلاع تحركات المسلمين ، واستطاع ان يشاهدهم

---

(١) — ذو الحليفة: موقع أعلى مقربة من المدينة به آبار تسمى آبار علي ، وبها كان يحرم أهل يثرب اذا ارادوا الخروج في حج أو عمرة.

أول الأمر، ولكن الرسول القائد (ص) ما لبث أن غير طريقه وسلك مع صحبه مسلكاً آخر بعيدا عن عيون القرشيين، وظل سائرا حتى وصل الى موضع يقال له الحديبية[1] نزل فيه وعسكرت قواته ايضا في المكان نفسه.

وحين علمت قريش بنزول الرسول العربي ورجاله في الحديبية أرسلت اليه بعض رسلها لاقناعه بالعدول عن دخول مكة ولبيان الاخطار التي تنتظره في حالة اصراره على ذلك. وكان على رأس الوفد المكي عروة بن مسعود الثقفي، الذي عاد ليخبر قريشا باصرار الرسول القائد (ص) على تنفيذ ما جاء من أجله. وقد ارتأى الرسول العربي (ص) من ناحيته ان يفاوض قريشا ويرسل لها وفدا يشرح لها أهداف زيارته السلمية وطابعها الديني، وانتدب لهذه المهمة عثمان بن عفان لمكانته في قريش وقرابته لأبي سفيان سيدها، وقد طلب الرسول القائد (ص) الى عثمان ان يقول لقريش: «انا لم نأت لقتال أحد، وانما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته ومعنا الهدي ننحره وننصرف».

وصل عثمان الى مكة فرحب به أبان بن سعيد بن العاص وأجاره، وأبلغ الرسالة الى رؤوس قريش، ولكنهم استمروا في عنادهم ورفضهم السماح للمسلمين بدخول مكة.

وكانت قريش قد أرسلت بجماعة من رجالها ليأخذوا المسلمين على حين غرة، فظفر محمد بن مسلمة بهذه الجماعة القرشية، مما دعاها الى ارسال جماعة أخرى لتعيد الكرة، ولكن المسلمين كانوا لها بالمرصاد، واستطاعوا أن يأسروا بعض فرسانها.

ومضت على غيبة عثمان في مكة ثلاثة أيام لم يسمع المسلمون خلالها خبرا عنه، وذاع بينهم انه قتل مع عشرة من المسلمين كان الرسول القائد (ص) قد سمح لهم بالتوجه الى مكة لزيارة اقاربهم فيها. حينذاك طلب الرسول العربي (ص) من رجاله أن يبايعوه على محاربة قريش أخذا بثأر عثمان

---

(١) — الحديبية: جاء في معجم البلدان أن الحديبية قرية متوسطة، ليست بالكبيرة.

والمسلمين، وتعرف هذه البيعة ببيعة الرضوان [1]

عندما رأت قريش ان المسلمين يعسكرون على مقربة من ارضها وأن حربهم لن تكون سهلة ولا يسيرة، قررت أن تفاوضهم، فأرسلت وفدا برئاسة سهيل بن عمرو ليفاوض الرسول العربي (ص) وينهي الأزمة قبل اللجوء الى الصراع المسلح. فطلب الرسول القائد اولاً عودة عثمان وصحبه من المسلمين، فوافق سهيل وأرسل من قبله رسولا الى قريش يطلب منها اطلاق سراح عثمان ومن معه من المسلمين. فوافقت قريش على ذلك على الفور، ووجهت عثمان ورفاقه الى الرسول العربي (ص) وعاد سهيل الى مكة ليستطلع رأي قومه في الشروط التي يطلبونها من الرسول القائد (ص) فأشار عليه أهل الرأي منهم بالصلح على أن يرجع المسلمون عنهم هذا العام ويعودوا في العام المقبل. وعاد سهيل الى الرسول (ص) بعرض قريش واتفق الطرفان على صلح تنص بنوده على الشروط الآتية:

١ — أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين.

٢ — أن يرد الرسول العربي (ص) من يأتيه من قريش مسلما بدون اذن وليه ولا تلتزم قريش برد من يأتيها من عند محمد.

٣ — من أراد الدخول في عهد قريش فله ذلك، ومن أراد الدخول في عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك.

٤ — ان يرجع الرسول وصحبه هذا العام بدون أن يؤدوا العمرة، فاذا كان العام القادم دخلوا مكة بعد أن تخرج منها قريش وليس معهم الا سلاح المسافر.

وبعد أن تمت شروط عقد الصلح، أعلن الحاضرون من خزاعة دخولهم في عهد محمد وعقده، كما قام الحاضرون من بني بكر باعلان دخولهم في عقد قريش وعهدها.

---

(١) — ورد ذكر هذه البيعة في القرآن الكريم قال تعالى: «لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة». سورة الفتح (الآية ١٨).

استاء المسلمون من موقف قريش هذا وصدهم عن البيت الحرام وعودتهم الى المدينة دونما أداء عمرة، ورأوا ان الرسول العربي كان متساهلا — في هذه المرة — مع قريش، لذلك احجموا عن القيام بالشعائر الدينية التي يقوم بها الحجاج والمعتمرون، لكنهم عندما شاهدوا رسول الله يقوم بهذه الشعائر، سارعوا على الفوز الى الاقتداء به. وبعد أن انتهوا من ذلك أمرهم الرسول القائد (ص) بأن يشدوا الرحال باتجاه المدينة، وبينما هم في طريقهم اليها أنزل الله تعالى على رسوله الآيات الكريمة من سورة الفتح «انا فتحنا لك فتحا مبينا. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما. وينصرك الله نصرا عزيزا [1]». وقد سر المسلمون من نزول هذه السورة وأقبلوا على رسولهم يهنئونه، واعتبروا صلح الحديبية فتحا مبينا.

ملاحظات حول صلح الحديبية

كانت غزوة الخندق (الاحزاب) هزيمة سياسية لقريش أكثر منها هزيمة عسكرية. فقد هاجمت المدينة مرتين.. ولم تحقق غرضها.. وأخفق أكبر تجمع (قبلي — وثني — يهودي) أمكنها جمعه. وبدا واضحا ان قطبي الرحى في العداء للثورة الاسلامية هما: قريش واليهود.. وبعد أن وجه الرسول العربي (ص) ضربة قاضية ليهود بني قريظة وطهر المدينة من رجسهم:. كان لا بد له من أن يستثمر العزلة التي أصبحت تحيط بقريش، بعد اخفاقها في غزوة الخندق.. ولم يكن الرسول العربي (ص) يريد اذلال قريش.. بل كان هدفه ان يضغط عليها، ويدفعها الى التفاهم. وبدا واضحا ان الرسول العربي (ص) اصبح في وضع يتيح له الانتقال من مرحلة الدفاع الاستراتيجي الى مرحلة الهجوم الاستراتيجي.. وهكذا قرر القيام بالعمرة في السنة السادسة للهجرة. وكانت هذه المبادرة تنطوي على معان متعددة

(١) سورة الفتح، الآية (١—٣).

سياسية وعسكرية ونفسية.

فقد خرج على رأس قوة كبيرة (زهاء ١٤٠٠ رجل) كانت بمثابة تظاهرة بالقوة كما كانت رداً غير مباشر على هجوم قريش مرتين على المدينة (ولو كان هدف العمرة كما نعلم سلمياً). وفي دعوته القبائل العربية لمشاركته في العمرة احراج سياسي كبير لقريش. فان هي صدته عن هدفه بدت بنظر العرب في موقف عدواني لا مبرر له. فالكعبة ليست ملكاً لقريش وحدها وانما لجميع العرب. وان هي سمحت له بدخول مكة، كان في هذا هزيمة معنوية سيكون لها صدى كبير في نفوس أهل مكة والقبائل العربية الأخرى.. وكان يريد في آن واحد ان يظهر للعرب انه مثلهم يحترم الكعبة ويقدسها.. فيبطل بذلك سلاحاً دعائياً قوياً كانت قريش تستخدمه ضد الثورة الاسلامية. كما كان يريد أن يثبت لقريش ان مكانة مكة لن تتأثر بانتصار الدعوة الاسلامية. وستبقى مكان المسلمين المقدس مثلما كانت قبلة العرب وإنما هدفه أن يصل مع قريش الى حل سلمي وأن يضمها الى صفوف الثورة الإسلامية عزيزة كريمة.. أو على الأقل كان يريد ان يحد نشاطها العدائي — ويريد تحييدها — ليتفرغ الى عدوه الأكبر — اليهود — المتربصين في خيبر. ولهذا فقد خرج المسلمون بسلاح خفيف واحرموا بعد خروجهم من المدينة بقليل حتى لا يترك الرسول القائد (ص) أي مجال للشك في نواياه السلمية. كما ان توجيهه عثمان بن عفان، وهو الذي يمت بصلة القرابة الى أقوى زعماء قريش، دليل قاطع على نواياه السلمية.

ان دراسة تحليلية لشروط صلح الحديبية تظهر لنا النتائج التالية:

آ — بالنسبة للمسلمين:

١ — كسب احترام الرأي العام العربي عامة والمعتدلين في مكة خاصة بما أظهره المسلمون من احترام للكعبة، واستياء هؤلاء جميعا من

تعنت قريش وتشددها في منع المسلمين من زيارة الكعبة.

٢ — اعتبار الرسول القائد (ص) ندا لقريش في المفاوضات هو أول اعتراف بالثورة الاسلامية من أشد أعدائها وأقواهم.

٣ — عزل قريش عن حلفائها، يهود خيبر الذين كانوا، بمن انضم اليهم من يهود المدينة، لا يفتؤون يحرضون قريشاً والقبائل العربية على قتال المسلمين.

٤ — اصبح المجال مفتوحا أمام الرسول العربي (ص) لكسب حلفاء جدد من القبائل العربية التي لم تكن تجرؤ على التحالف واياه، حيال قوة قريش ووجود الكعبة في مكة. وهذا ما زاد قوة الثورة الاسلامية رسوخا.

٥ — استقرار الجبهة الداخلية في الثورة الاسلامية الذي مكن الرسول العربي (ص) من التفرغ لنشر الدعوة الاسلامية بين القبائل المختلفة وهذا ما يصعب عليه القيام به. حين يكون خطر الهجمات المكية شغله الشاغل.

٦ — لقد أمن صلح الحديبية دخول المسلمون في العام التالي الى مكة، مما كان له وقع كبير في نفوس العرب عامة والقرشيين خاصة.

ب – أما بالنسبة لقريش فقد حقق لها صلح الحديبية مايلي:

١ — اعادة فتح طريق القوافل التجارية الذي خفف من حدة الازمة الاقتصادية التي كانت تعانيها.

٢ — اعادة توحيد صفوفها بعد أن اختلف المعتدلون والمتطرفون حول مسألة السماح للرسول العربي بزيارة الكعبة.

٣ — حفظ لقريش ماء وجهها بمنعها الرسول القائد (ص) من دخول مكة في العام ذاته.

وهكذا كان صلح الحديبية نصرا رائعا لسياسة الرسول العربي (ص) واستراتيجيته العليا برغم ما بدا فيه، حين توقيعه، من تنازلات هامة لقريش. ويمكننا القول ان صلح الحديبية مهد لفتح مكة بدون مقاومة وهو لهذا يعد اسمى الفتوح.

٢ — انضمام خالد الى صفوف الثورة الاسلامية :

بعد أن مكث المسلمون في الحديبية ما يزيد عن اسبوعين ، عادوا الى المدينة ، وفي السنة التالية ، في آذار ٦٢٩ م (ذي القعدة ٧ هـ) ، أدى المسلمون العمرة بقيادة الرسول العربي (ص) ، وأخلى القرشيون مكة وسكنوا في المنطقة المحيطة بها مدة ثلاثة أيام ، ولم يعودوا الى منازلهم حتى غادر المسلمون مكة .

بعد مضي بعض الوقت ، حدث تغير في تفكير خالد . ففي البدء كان هاجسه الأكبر الامور العسكرية والمعارك الحربية . وكان واثقاً من مناقبه الحربية وبسالته ، مدركاً ما يسعه تحقيقه من مآثر وامجاد في ساحات القتال ، ولكن النصر كان يفلت منه بشكل أو بآخر . ففي غزوة أحد ، استطاع المسلمون أن يتجنبوا هزيمة كبيرة على الرغم من مناورته البارعة . وقد اعجب بترتيب القتال الذي نظمه النبي (ص) ، وبالطريقة التي قاد فيها المعركة على الرغم من تفوق قريش العددي . كذلك ابتعد النصر عن القرشيين في غزوة الخندق . فقد انطلق القرشيون الى المعركة بعد أن اتخذوا من التدابير والاحتياطات وحشدوا من القوى ما جعلهم واثقين من النصر ، لكن الخندق الذي حفره المسلمون انتزع هذا النصر من أيديهم . اندفع جيش قريش مهاجماً وعاد بخفي حنين . وفي حملة الحديبية ، عندما حاول خالد أن يعترض تقدم المسلمين ، تفوق عليه النبي (ص) في المناورة التي اجراها بينما كان انتباه خالد متجهاً الى المفرزة الصغيرة من المسلمين التي كانت تسير أمام قوة النبي . كان خالد يفكر في هذا الرجل ، ولم يستطع أن يخفي اعجابه بالمناقب المتميزة التي يتحلى بها الرسول العربي الكريم (ص) ومنها : القيادة ، والخلق ، وقوة الشخصية ، والشجاعة ، والفروسية ، والكرم ، والنخوة ، والنجدة ، والعدل ... الخ :

هكذا ، كان خالد راغباً في خوض المعارك تواقاً ، في روحه العسكرية ، الى المغامرة والنصر ، لكنه لم يجد مع قريش سوى الكوارث والنكبات .

ولم يستطع أن يرى أية بارقة أمل في ان يحلم بأكاليل الغار الى جانب القرشيين ، فلعل بانضمامه الى النبي (ص) يجد آفاقاً واسعة من النصر والمجد .

كانت المدينة مسرحاً لنشاط عسكري كبير. وكانت بين الفينة والأخرى توجه حملات على قبائل المشركين ، إما لتثبيت التحشدات المعادية قبل أن تغدو خطراً على المسلمين ، أو للاستيلاء على الموارد الاقتصادية كالجمال والمواشي . ففي الفترة الواقعة بين غزوة أحد وأداء العمرة ، قام المسلمون بثمانٍ وعشرين غزوة [1] أو حملة ، قاد بعضها النبي (ص) شخصياً ، وانتهت هذه الغزوات والحملات بنجاح كامل . وكانت غزوة خيبر أكبر هذه الحملات ، سحقت فيها آخر مقاومة لليهود . ولم تسهم هذه الغزوات والحملات في توسيع الحدود السياسية للثورة الاسلامية فحسب بل أدت أيضاً الى تناميها وسرعة امتدادها . وعند وصول التقارير عن انتصارات المسلمين العسكرية الى مكة ، كان خالد يفكر بما يقوم به المسلمون من نشاط يبعث في النفس غبطة واشتياقاً . وكان يتمنى بين الحين والآخر أن يكون في المدينة ، مركز هذا النشاط .

بعدما أدى النبي (ص) العمرة ، بدأ الشك يخامر خالداً فيما يتعلق بمعتقداته الدينية . لم يكن في يوم من الأيام متديناً ولم يكن ميالاً الى آلهة الكعبة . وكان عقله دائماً «متفتحاً» . وها هو الآن يمعن التفكير في الأمور الدينية ، غير مفصح عما يجول في نفسه . وفجأة شعر بأن الاسلام هو الدين الحقيقي . وقد حدث هذا التحول في افكار خالد بعد عمرة النبي (ص) بزهاء شهرين .

بعد أن استقر رأي خالد في الاسلام ، قابل عكرمة وآخرين وقال لهم ما معناه : «من الواضح للعقل النيّر أن محمداً ليس شاعراً ولا ساحراً ، كما تزعم قريش . ورسالته من عند الله ، وعلى كل ذي بصيرة أن يتبعه» .

---

(١) جرى الاصطلاح في كتب السيرة والفتوحات على تسمية الحملات التي يقودها الرسول العربي (ص) (غزوة) .

«المؤلف»

صعق عكرمة لكلمات خالد وقال : «هل ستتخلى عن ديننا ؟».

فقال خالد : «قررت أن أؤمن بالإله الحقيقي» . فقال عكرمة : «من الغريب حقاً أن تقول أنت مثل هذا القول من بين القرشيين» . فقال خالد : «لماذا ؟» قال عكرمة : «لان المسلمين قتلوا الكثير من أبنائنا في المعارك . وبالنسبة لي فانني بالتأكيد لن أؤمن بمحمد ، وسوف لن أكلمك الى أن تتخلى عن هذه الفكرة غير المعقولة . ألا ترى أن قريشاً تطلب دم محمد ؟» .

فأجاب خالد : «انها مسألة جهل .» .

وعندما سمع أبو سفيان من عكرمة ما يدل على تحول خالد عن عقيدته ، استدعى البطلين : خالداً وعكرمة . ثم سأل خالداً : «أصحيح ما سمعت؟» فقال خالد : «وما سمعت ؟» قال أبو سفيان «بأنك ترغب في الانضمام الى محمد» . فقال خالد : «نعم ، ولم لا فمحمد واحد منا وقريبنا» .

غضب أبو سفيان وهدّد خالداً بالعواقب الوخيمة التي ستنجم عن ذلك ، لكن عكرمة كبح جماح غضبه وقال له : «اهدأ يا أبا سفيان . فإن غضبك سيقودني أيضاً للانضمام الى محمد . فخالد حرّ في أن يختار الدين الذي يرغبه»[1] . وهكذا وقف عكرمة الى جانب خالد على الرغم من الاختلافات الدينية بينهما .

في تلك الليلة ، أخذ خالد درعه ، وسلاحه ، وفرسه وانطلق الى المدينة . وفي الطريق قابل عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة (ابن حامل راية قريش في غزوة أحد) اللذين كانا متوجهين الى المدينة للغاية نفسها وقد عجبوا من أمر ذهابهم الى المدينة لأن كلاً منهم كان يعد الاثنين الآخرين من ألدّ أعداء المسلمين . وصل الثلاثة الى المدينة في الحادي والثلاثين من أيار عام ٦٢٩ م (الأول من صفر عام ٨ هجرية) ، وذهبوا الى منزل الرسول العربي (ص) . دخل خالد أولاً وأسلم . ثم تبعه عمرو ثم

(١) الواقدي : المغازي : ٧٤٥/٢ — ٧٤٧ .

عثمان . وقد رحّب بهم النبي (ص) وصفح عن عداوتهم السابقة ، فهم منذ الآن يستطيعون أن يبدأوا صفحة بيضاء جديدة . ذلك أن خالداً وعمرو بن العاص كانا ألمع عقلين عسكريين في زمانهما ، ودخولهما الاسلام أعطى رفداً كبيراً للثورة الاسلامية .

كان خالد ، الذي بلغ الثالثة والأربعين آنذاك ، مسروراً لوجوده في المدينة . فقابل أصدقاءه القدامى وشعر أنه موضع حفاوة وتكريم .

تم نسيان النزاعات القديمة . وسادت المدينة روح جديدة هي روح الرجال الطلائع . وعمّ النشاط ، والترقب الممزوج بالأمل ، والحماسة ، والتفاؤل ، ارجاء المدينة ، وتفاعل خالد بهذا الجو الذي لمس شغاف قلبه ، وكان سعيداً بالدين الجديد .

عكف خالد على زيارة الرسول العربي (ص) باستمرار . وكان يستمع ساعات الى احاديث النبي . وتعلم الحكمة والفضيلة على يد رسول الله . وفي أحد الأيام زار خالد وفضل بن عباس (ابن عم النبي) الرسول (ص) في منزل زوجته ميمونة ، وهي عمة خالد . وكان أحد الأعراب قد أرسل طعاماً مطبوخاً هدية للنبي (ص) ، فطلب النبي (ص) من الضيوف — كعادته — أن يبقوا ويقاسموه الطعام . ففرش بساطاً على الأرض وجلسوا حوله جميعاً — النبي (ص) ، وزوجته ، والضيفان .

وعندما مدّ النبي (ص) يده الى الطغام ، سألته ميمونة عما اذا كان يعرف نوع الطعام الذي أحضره الاعرابي . لكن النبي (ص) لم يكن يعرف ما هو . فقالت له ميمونة بأن الطعام عبارة عن ضبّ مشوي . عندئذ سحب النبي (ص) يده وقال انه لا يأكل هذا النوع من الطعام . فسأله الضيفان ما اذا كان محرّماً . فقال لهما انه ليس محرّماً وان بامكانهما أكله . كذلك احجمت ميمونة عن الطعام . أما خالد وفضل فقد أتيا على الطعام ، وهذا يدلنا على نفسية خالد وروحه العسكرية «لأن العسكري الجيد لا يأنف من شيء ويمكنه أن يأكل حتى الأفاعي والثعابين» [1] .

---

(١) في الجيوش المعاصرة يجري تدريب الوحدات الخاصة والمغاوير على التعايش مع الطبيعة وأكل كل دابة وكل=

٣ ـــ خالد وموقعة مؤتـه :

بعد وصول خالد الى المدينة بثلاثة أشهر ، سنحت له الفرصة ليظهر ما يستطيع أن يقدمه ـــ جندياً وقائداً ـــ للدين الحنيف الذي اعتنقه .

وجه رسول الله ﷺ مبعوثاً الى أمير بصرى الغساني [١] ، وحمّله رسالة تدعو هذا الزعيم الى اعتناق الاسلام . وعند وصول المبعوث الى مؤتة اعترضه شرحبيل بن عمرو الغساني ، وقتله . واعتبرت هذه الجريمة عملاً شائناً بين العرب ، لأن الرسل كانوا يتمتعون بحصانة تقليدية ضد أي اعتداء بالرغم من عداوة الجانب الذي يمثلونه . واثارت أنباء هذا الاعتداء الغضب في المدينة .

وأعدّت حملة في الحال لتأديب قبيلة غسان ، وعيّن النبي (ص) زيد ابن حارثة قائداً للحملة وقال : «ان أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فان أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس» . وأوصى زيد وصيته المشهورة التي أصبحت ناموس الحرب عند المسلمين [راجع نص الوصية في الملحق رقم (١)] فتجهز الناس ثم تهيّؤوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف . وكان خالد بينهم ، جندياً في صفوف المسلمين . أسند النبي (ص) المهمة الى زيد وهي تتلخص في البحث عن الرجل المسؤول عن جريمة قتل المبعوث المسلم ، ثم الطلب الى أهل مؤته أن يدخلوا في الاسلام . فاذا قبلوا ذلك فلن يلحق بهم أي أذى . وعندما انطلقت قوات المسلمين لم تكن تعرف مقدار قوة العدو الذي ستقاتله .

خرج المسلمون في جمادي الأولى من السنة الثامنة للهجرة وودعهم الرسول القائد (ص) وصحابته حتى خارج المدينة . وعندما وصلت قوات المسلمين الى (معان) من أرض الشام ، كان الروم قد علموا بتحرك الجيش الاسلامي اليهم فحشدوا قواتهم في (مآب) من أرض البلقاء ، وكانت تقدر

= طير وكل ما يوجد في البحر من أنواع السمك والحيتان .

(١) قبيلة غسان قبيلة كبيرة وذات بأس ، كانت تقطن جنوب سورية والأردن .

بقرابة عشرين ألف مقاتل[1] نصفهم من الروم والنصف الآخر من تجمع القبائل العربية التي كانت موالية للروم في ذلك الحين وهي (لخم ، وجذام ، وبلقين ، وبلي) . وكان الرجل الذي يقود التجمع القبلي الموالي للروم مالك بن رافلة ، وهو من قبيلة بلي ، وكان يقود جنود الروم أحد قادة جيوش هرقل .

كانت نسبة التفوق في القوات لصالح اعداء الثورة الاسلامية نسبة سبعة الى واحد — وهي نسبة كبيرة كما نعلم — . ولهذا عندما شاهد المسلمون جموع الروم والقبائل الموالية لها تشاوروا ، فرأى بعضهم ان يكتبوا الى الرسول القائد يخبرونه بالموقف ويتلقون منه قراره النهائي ، ولكن غالبية الجيش رأوا ان يمضوا الى تنفيذ مهمتهم مهما كانت النتائج . وكان أكثر المتحمسين للقتال عبدالله بن رواحة .

كان ترتيب الغساسنة القتالي على شكل أنساق متتالية تعطي للجبهة عمقاً كبيراً .

تحرك المسلمون نحو التجمع المعادي فحصلوا على التماس الاول في قرية (مشارف) عند تخوم البلقاء . ولما كانت منطقة (مؤتة) أصلح للقتال ، لوجود العوارض الطبيعية التي يستطيع المسلمون التحصن بها ، حيال تفوق اعدائهم العددي الساحق ، قرر زيد بن حارثة قائد الحملة اختيار منطقة مؤتة مسرحا للاعمال القتالية في هذه الغزوة . وكان على ميمنة الجيش الاسلامي قطبة بن قتادة العذري ، وعلى ميسرته عبادة بن مالك الانصاري .

بدأ الهجوم باندفاع زيد بن حارثة بالراية الى صفوف الاعداء . فحارب مستميتا حتى مزقته رماح العدو . فتناول الراية جعفر بن أبي طالب واندفع بها فأصيبت يده اليمنى ، فتناول الراية بشماله فقطعت ايضا ، فاحتضن الراية

---

(١) تذكر معظم المصادر التاريخية القديمة أكثر من هذا الرقم ، ولكنني أرجح أن عدد التجمع المعادي للثورة الاسلامية في موقعة مؤتة لم يجاوز (١٥ — ٢٠) ألف مقاتل .

«المؤلف»

بعضديه حتى استشهد [1] . وتناول الراية عبدالله بن رواحة ، فقاتل بها حتى قتل أيضا . فتناول الراية ثابت بن الأرقم ، فهتف بالناس : يا قوم اصطلحوا على رجل منكم .. فاصطلح المقاتلون على خالد بن الوليد . واشتد الأمر على المسلمين وكلب عليهم العدو، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن قطبة بن قتادة قائد ميمنة الجيش الاسلامي من قتل مالك بن رافلة ، قائد التجمع القبلي .

أصبح الموقف خطيرا ومن الممكن ان يتحول بسهولة الى ما هو أسوأ ، ويؤدي الى هزيمة تامة للمسلمين. لقد أظهر القادة الذين تولوا القيادة قبل خالد شجاعة أكثر مما اظهروه من فن القتال والدراية في هذه المعركة. استعاد خالد السيطرة على جيشه الصغير ووضعه بترتيب قتال منسق . وكان عليه أن يختار أحد الحلول الثلاثة التالية بعد أن قام بتقدير دقيق للموقف : الأول ، ان ينسحب وينقذ المسلمين من الدمار ، ولكن هذا الحل يعد هزيمة وسيلام على جلبه العار لجيش المسلمين . والثاني ، ان يتحول الى الدفاع ويستمر في القتال ، وفي هذه الحالة فان التفوق في قوة العدو سيؤدي الى انهاء المعركة لصالح العدو. أما الثالث ، فهو أن يهاجم ويقلب توازن العدو، ثم يقطع التماس به ويتملص من المعركة بعد أن يضع حراسة قتالية قوية في المؤخرة ، وبذلك يتفادى خالد الشعور بالهزيمة وينقذ كرامة جيش الثورة الاسلامية وهيبته . كان الحل الثالث هو أقرب الحلول الى طبيعة خالد ، فقرر تبنيه .

هاجم المسلمون بعنف بقيادة خالد على طول الجبهة . واندفعوا للامام وفي مقدمتهم قائدهم . ان المثل الذي ضربه خالد قد أثار الحمية والشجاعة في صفوف المسلمين ، وازدادت المعركة عنفا . واستمر القتال القريب بين الجانبين لبعض الوقت ، واندفع قطبه ، الذي كان يقود ميمنة المسلمين ، الى

---

(١) — عندما اشتد القتال ترجل جعفر عن فرسه الشقراء ، فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، وكان جعفر أول من عقر فرسه في الاسلام وقد وجد بجسمه بضع وثمانون جرحاً بين رمية وضربة وطعنة راجع ابن الاثير ج ٢ ص ٢٣٦.

الامام وقتل القائد الغساني «مالك» في مبارزة. وأدى ذلك الى تثبيط معنويات العدو، والى حدوث نوع من الفوضى في صفوفه. وانسحب الغساسنة وهم لا يزالون يقاتلون، أملاً بأن يكسبوا الوقت ويعيدوا تنظيم صفوفهم. وفي هذه اللحظة، كان خالد يتناول السيف العاشر، فقد كسر قبل ذلك تسعة سيوف في مبارزات عنيفة قتالية.

عندما تراجع الغساسنة، جمع خالد قواته وانفصل عن العدو وانسحب مع قواته بعيدا الى الخلف. وأصبح الجيشان يواجهان بعضهما خارج مدى النبال، وكان كلاهما يلتمس الراحة واعادة التنظيم. وانتهت هذه الجولة من المعركة لصالح المسلمين، وفقد المسلمون حتى الآن اثني عشر رجلا فقط. أما العدو فلا توجد معلومات عن مقدار خسارته، لكنها، كانت جسيمة بلا شك، لان كل قائد من قادة المسلمين الذين تولوا القيادة قبل خالد كان شجاعا ومقاتلا بارعا، وعلى كل الأحوال، فان الموقف لم يظهر أي أمل في نجاح آخر للمسلمين. لقد أبعد خالد الهزيمة عن المسلمين وانقذهم من العار والكارثة، لكنه لم يستطع ان يفعل أكثر من ذلك. وفي المساء، سحب خالد جيشه من مؤتة وبدأ رحلة العودة الى المدينة.

عندما وصلت أنباء عودة الجيش الى المدينة، خرج النبي (ص) والمسلمون الذين بقوا في المدينة لملاقاة الجنود العائدين. كان المسلمون في حالة نفسية سيئة، لانه لم يسبق لهم منذ غزوة احد أن قطعوا التماس بالعدو وتركوه يسيطر على ميدان المعركة. وعندما وصل الجيش الى مشارف المدينة. أخذ الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: «يا فرّار فررتم في سبيل الله». لكن النبي هدّأهم وقال: «ليسوا بالفرار ولكنّهم الكرّار ان شاء الله». ثم قال النبي (ص) بصوت مرتفع: «ان خالد سيف من سيوفك فأنت تنصره». فمنذ ذلك سمي خالد «سيف الله».

بعد ذلك تلاشى غضب المسلمين وأدركوا مدى ما أبداه خالد من حكمة وشجاعة في معركة مؤتة.

يصف بعض المؤرخين معركة مؤتة بأنها نصر للمسلمين، ويراها بعض

آخر هزيمة. وفي الحقيقة لم تكن نصرا ولا هزيمة بل كانت معركة اختبار قوى الطرفين. وميزتها الأساسية أنها اتاحت لخالد فرصة اظهار كفاءته قائدا مستقل الشخصية، وجعلته يفوز بلقب «سيف الله». تكريماً لبطولته الفذة وانقاذه الجيش العربي من الدمار. وقد استفاد المسلمون، بلا شك، من هذه المعركة اذ اطلعوا عن كثب على أساليب عدوهم (الروم) وهذا ما أفادهم في معاركهم القادمة.

٤ — خالد وفتح مكة:

أتاحت هدنة الحديبية للثورة الاسلامية تدمير قوة اليهود العسكرية في المدينة، كما أتاحت لهم السيطرة على القبائل العربية شمال المدينة حتى حدود العراق والشام، وانتشر الاسلام بين القبائل العربية كلها، ولم يبق أمامها سوى السيطرة على مكة، لتقضي الى الأبد على كل مظهر لسلطة قريش ونفوذها. وقد أدى انتشار الاسلام بين قسم كبير من القبائل العربية، ومنها قريش، الى تفرق كلمة الزعامة المكية وعدم قدرتها على الامساك بزمام الأمور حتى في مكة نفسها. (راجع خريطة فتح مكة في الشكل رقم ٤).

كان الرسول العربي يترقب الفرص ليوجه الى قريش الضربة القاضية ولكن صلح الحديبية كان يحول دون مضي الرسول القائد الى تحقيق غرضه.

وفي شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة نقضت قريش وحلفاؤها الصلح، وقد حدث ذلك عندما اراد بنو بكر حلفاء قريش أن يأخذوا بثاراتهم القديمة من بني خزاعة (حلفاء المسلمين)، معتمدين على مناصرة قريش لهم، وحرضهم على ذلك متطرفو قريش وعلى رأسهم عكرمة بن أبي جهل، وأمدوهم سرا بالمال والسلاح. وغزت بنوبكر على بني خزاعة فجأة، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر في الأرواح والأموال ولما التجأت خزاعة

---

(١) — تذكر معظم المصادر التاريخية القديمة أكثر من هذا الرقم، ولكنني ارجح أن عدد التجمع المعادي للثورة الاسلامية في موقعة مؤتة لم يجاوز (١٥ — ٢٠) ألف مقاتل.

«المؤلف»

الى البيت الحرام ، طاردهم بنو بكر عازمين على استئصال شأفتهم غير مكترثين بعهد الحديبية .

سارع عمرو بن سالم الخزاعي بالتوجه الى المدينة حاملا اخبار نقض قريش وحلفائها عهد الحديبية ، فلما وصلها ، قص على الرسول العربي (ص) واصحابه ما أصاب خزاعة من بني بكر وقريش في مكة وخارجها ، فأجابه الرسول القائد : « نصرت يا عمرو بن سالم » .

وفي آن واحد خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ، حتى قدموا المدينة ، فأخبروا الرسول العربي (ص) بما اصابهم ، فعزم الرسول القائد على فتح مكة . وقال للحاضرين : « كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدد العقد ويزيد في المدة » .

وصدقت نبوءة الرسول العظيم (ص) . أن وفد أبو سفيان الى المدينة حتى أتى الرسول العربي ، فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، ثم ذهب الى أبي بكر فكلمه أن يشفع له عند رسول الله (ص) ، فقال : ما انا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب ، فكلمه فقال : أنا أشفع لكم الى رسول الله ! .. فوالله لو لم أجد الا الذر [1] لجاهدتكم . ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة زوجته ومعها الحسن بن علي ، غلام يدب بين يديها ، فقال : يا علي ، انك أمس القوم بي رحما ، وأقربهم مني قرابة ، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، اشفع لنا الى رسول الله ، قال : ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله أمرا ما نستطيع أن نكلمه فيه فالتفت الى فاطمة ، فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ! .. قالت : والله ما بلغ بني ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير علي رسول الله أحد . قال : يا أبا الحسن ، اني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني ! . فقال له : والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال : أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا ! .. قال : لا والله ما أظن

(١) — الذرّ: الهباء المنتشر في الهواء (صغار النمل) .

ولكن لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيها الناس ، اني قد اجزت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق .

فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ .. قال : جئت محمدا فكلمته ، فوالله ماردّ شيئا ، ثم جئت ابن أبي قحافة ، فلم أجد عنده خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب ، فوجدته أعدى القوم ، ثم جئت علي بن أبي طالب ، فوجدته ألين القوم ، وقد اشار علي بشيء صنعته ، فوالله ما أدري هل يغنيني شيئا أم لا ! .. قالوا : وبماذا أمرك ؟ .. قال : أمرني أن أجير بين الناس ففعلت ، قالوا : وهل أجاز ذلك محمد ! .. قال : لا . قالوا : ويلك ! .. والله ما زاد علي على أن لعب بك ، فما يغني عنا ما قلت ، قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

أمر الرسول العربي أن يتأهب الناس للجهاد وحشد قرابة عشرة آلاف مقاتل واستخلف على المدينة أبارهـم كلثوم بن حصين بن خلف الغفاري . وعندما أزمع على المسير ، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا الى قريش ، يخبرهم بالذي أجمع رسول الله عليه وأعطاه الى امرأة وجعل لها جعلا على ان تبلغه قريشا فوضعته في رأسها ثم فتلت عليه جدائلها ، وعندما أبلغت العيون الاسلامية الرسول القائد (ص) بما صنع بلتعة ، بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ، فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب الى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم » فخرجا مسرعين حتى أدركاها بالحليفة [1] . فاستنزلاها ، فالتمسا في رحلها ، فلم يجدا شيئا ، فقال لها علي : اني أقسم ما كذب رسول الله ولا كذبنا ولتخرجن الي هذا الكتاب أو لنفتشنك تفتيشا دقيقا .

فلما رأت الجد منه ، قالت أعرض عني ، فأعرض عنها فحلت جدائل شعرها فاستخرجت الكتاب منه ، فدفعته اليه ، فجاء به الى الرسول العربي ، فدعا رسول الله (ص) حاطبـا فقـال يا حاطب ما حملك على هذا ؟ .. فقال : يا رسول الله أما والله اني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا

---

(١) — الحليفة مكان قرب المدينة ذكره ياقوت

بذلت ولكن كنت امرأ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين اظهرهم أهل وولد فصانعتهم عليهم فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق . فلم يوافق الرسول القائد (ص) وشفع لحاطب ماضيه المجيد ونضاله الدؤوب في سبيل الثورة الاسلامية واسهامه في معركة بدر فعفا عنه الرسول العربي (ص) .

كان جيش الثورة الاسلامية يتألف من الانصار والمهاجرين وقبائل سليم ومزينة وغطفان وكثير من القبائل الاخرى ، ولم تعرف الجزيرة العربية حشدا مثله . خرج الجيش العربي من المدينة لعشر مضين من شهر رمضان وكان كلما تقدم نحو هدفه يزداد قوامه القتالي بانضمام مسلمي القبائل التي على جانبي الطريق . وعلى الرغم من ضخامة هذا الجيش فقد بقي سر حركته مكتوما ، لا تعرف قريش عنه شيئا .

وعندما وصل الجيش العربي الى موضع « مر الظهران » [1] أمر الرسول العربي (ص) بأن يوقد المسلمون النيران على رؤوس المرتفعات المطلة على مكة . ورأت قريش النيران المتوهجة تملأ الأفق البعيد فأسرع أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام بالخروج باتجاه مصادر النيران حتى يعرفوا أصحابها ومقاصدهم ولما اقتربوا من مكان تعسكر الجيش العربي ، قال أبو سفيان لصاحبه : « ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً » . فقال بديل : هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب !.. فقال أبو سفيان : خزاعة ألأم من ذلك وأذل . وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج ليلاً من معسكر المسلمين بمهمة استطلاعية تهدف الى تعريف أحد المكيين بمكان الرسول القائد (ص) لكي يأتوه صباحاً ويطلبوا منه الأمان حتى لا يكون قتال في مكة بين الطرفين . وعندما سمع العباس المحاورة بين أبي سفيان وأصحابه عرفه من صوته ، فقال : يا أبا حنظلة ، فقال أبو سفيان : أبو الفضل ؟.. فقال له العباس : نعم ، فقال له أبو سفيان : لبيك فداك أبي وأمي ما وراءك ؟ . فقال العباس : هذا رسول الله (ص) قد دلف [2] ، اليكم بما

(١) مر الظهران : موضع على بعد أربعة فراسخ من مكة .

(٢) دلف : مشى مشياً فوق الدبيب .

لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين.فقال له أبو سفيان : فماتأمرني؟.
فقال العباس تركب خلفي على هذه البغلة،فأستأمن لك رسول الله.وأردفه خلفه ومضى به الى خيمة الرسول العربي (ص) وعندما مرا بعمر بن الخطاب عرف أبا سفيان وأدرك أن العباس يريد أن يجيره ، فأسرع عمر الى خيمة النبي العربي (ص) وطلب منه أن يأمره بضرب عنق أبي سفيان ، ولكن الرسول القائد (ص) طلب الى عمه أن يأخذ أبا سفيان الى خيمته ويحضره اليه في صبح الغد . فلما كان الصباح ، جيء بأبي سفيان ، فلما رآه الرسول العربي قال له : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يئن لك أن تعلم ان لا اله إلاّ الله .. فقال : بأبي أنت وأمي ، ما أوصلك وأحلمك وأكرمك . والله لقد ظننت أن لوكان مع الله غيره فقد أغنى عني شيئاً ، فقال : ويحك يا أبا سفيان !. ألم يئن لك أن تعلم أني رسول الله !. فقال : بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك . أما هذه ، ففي النفس منها شيء !. فقال له العباس : ويلك تشهد شهادة الحق ، قبل ، والله ، ان تضرب عنقك . فتشهد أبو سفيان .. وحين تشهد أبو سفيان قال الرسول العربي (ص) لعمه العباس : « انصرف يا عباس فأحبسه عند خطم [1] الجبل بمضيق الوادي ، حتى تمر عليه جنود الله » . فقال العباس : يا رسول الله . ان أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً يكون في قومه ، فقال له الرسول العربي : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن اغلق عليه بابه فهو آمن » . وخرج العباس وأبو سفيان حتى وصلا خطم الجبل بمضيق الوادي ، فمرت عليه القبائل ، فقال أبو سفيان : من هؤلاء يا عباس؟ فقال له العباس : سليم ، قال له أبو سفيان : مالي ولسليم. ثم تمر القبيلة الأخرى فيقول أبوسفيان : ياعباس من هؤلاء؟.. فيقول العباس : مزينة فيقول أبو سفيان مالي ولمزينة . حتى مرت القبائل كلها ، ما تمر قبيلة الا سأل أبو سفيان العباس عنها وكان كلما يقول له العباس « بنو فلان » يقول

(١) خطم الجبل : أنفه أي مقدمه .

له أبو سفيان «مالي ولبني فلان»[1] . حتى مر بهما الرسول القائد (ص) في كتيبته الخضراء ، للبسهم الحديد ـــ والعرب تطلق الخضرة على السواد ، كما تطلق السواد على الخضرة ـــ وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد ، فيها ألف دارع . وعمر بن الخطاب يزجل بصوته الجهوري ويقول : «رويداً حتى يلحق أولكم آخركم» . فقال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس !.. من هؤلاء ؟.. فقال له العباس : هذا رسول الله في المهاجرين والانصار ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة !.. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً !.. فقال له العباس : انها النبوة ، فقال أبو سفيان : نعم .

ثم قال له العباس : التجيء الى قومك .

دخل أبو سفيان مكة مبهوراً بقوة الجيش العربي وكان كبار القوم في مكة مجتمعين في المسجد يتشاورون في الأمر ، بدون أن يتخذوا أية تدابير دفاعية لمواجهة الجيش الاسلامي . وبينما هم على هذه الحال اذا بصوت أبي سفيان يجلجل قائلاً : «يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن» .

كانت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان تشايع المتطرفين من قريش في عدائهم للثورة الاسلامية لذلك لم تعجبها مقالة زوجها فوثبت اليه وأخذت بشاربه وصاحت : «اقتلوا الحميت الدسم الاحمس[2] ، قبحت من طليعة قوم» .

لم يكترث أبو سفيان لموقف امرأته ومن يؤيدها من المتطرفين فعاود تحذيره مرة ثانية. فقال له المجتمعون : «قاتلك الله وما تغني عنا دارك ؟..» فقال : «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» . وهكذا أصبحت مكة تنتظر قدوم المسلمين ، واختفى الناس خلف الأبواب

---

(١) مالي ولبني فلان عبارة يقولها الرجل اذا خاف من شيء أو استشعر منه ضرراً .

(٢) الحميت : في الأصل زق السمن ، والدسم الكثير الودك ، والاحمس الكثير اللحم ، تريد تشبيهه به لعبالته وسمنته .

الموصدة ، بينما ذهب بعض الناس الى المسجد الحرام ، وبقي بعض المتطرفين في الشوارع مصرين على القتال .

كانت خطة الرسول العربي لفتح مكة تتلخص بما يلي :

١ — الميسرة بقيادة الزبير بن العوام ومهمتها دخول مكة من الشمال الشرقي .

٢ — الميمنة بقيادة خالد بن الوليد ، ومهمتها دخول مكة من الجنوب .

٣ — قوات الأنصار بقيادة سعد بن أبي عبادة ، ومهمتها دخول مكة من الغرب .

٤ — قوات المهاجرين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، ومهمتها دخول مكة من الشمال الغربي من اتجاه جبل هند .

٥ — منطقة اعادة تجميع القوات كلها (بعد الفتح) ، جبل هند .

أصدر الرسول القائد (ص) توجيهاته العملياتية لقواده بألا يقاتلوا الا من يقاتلهم ، ليتم فتح مكة بدون اراقة دماء

دخلت القوات الاسلامية مكة في الحادي عشر من كانون الثاني عام ٦٣٠ — ٢٠ رمضان عام ٨ هجري من جهاتها الأربع فلم تلق مقاومة باستثناء الرتل الذي يقوده خالد بن الوليد ، فقد تجمع متطرفو قريش مع بعض حلفائهم من بني بكر والاحابيش في منطقة الخندمة بقيادة عكرمة وصفوان زوج (فاخته) شقيقة خالد ، فلما وصلتها قوات خالد قذفوها بوابل من سهامهم ، لكن خالد بن الوليد حمل عليهم وشتتهم وارغمهم على الفرار وهكذا تم فتح المدينة المقدسة على يد المسلمين. وقد بلغت خسائر المسلمين في فتح مكة شهيدين ، أما خسائر المشركين فكانت ثلاثة عشر قتيلا وبعض الجرحى .

عندما علم النبيّ (ص) بهذا الاشتباك وبعدد القتلى من المشركين ، لم يسر من خالد. وكان يرغب في عدم اراقة الدماء ، وقد خشي أن يكون خالد نفسه هو الذي تسبب في المناوشة ، نظراً لمعرفة النبي (ص) بطبيعة خالد العنيفة . واستدعى النبي (ص) خالدا وطلب منه شرحا لما حدث . قبل

النبي (ص) تفسير خالد لما حدث ووافقه على ذلك. وكان خالد اذا ضرب أوجع، إذ لم يكن في طبيعته اعتدال.

عسكر الرسول العربي في منطقة جبل هند وبعد أن أعاد تجميع قواته، نهض، والمهاجرون والانصار من حوله، حتى دخل المسجد، فأقبل الى الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت العتيق، وكان في الكعبة ستون وثلاثمائة صنم، فأخذ يطعنها بالقوس وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، ان الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدىءُ الباطل وما يعيد».

ثم دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، فرأى الصور تملؤها ومن بينها صورتان لابراهيم واسماعيل يستقسمان بالازلام، فأزال ما في الكعبة من صور، ثم صلى ودار في البيت يكبر، ولما انهى تطهير البيت من الاصنام والصور، وقف على باب الكعبة وقريش تنتظر ماذا يصنع، فقال: «لا اله الاّ الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده. الا كل مأثرة أو مال فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج. يا معشر قريش، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالاباء.. الناس من آدم، وآدم من تراب، يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم، ان الله عليم خبير. يا معشر قريش ما ترون اني فاعل بكم؟..».

قالوا: «خيرا، اخ كريم، وابن أخ كريم».

قال: «لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

انقضت الأيام القليلة التاليةفي تعزيزالموقف واعادة التنظيم. وقداعتنق الاسلام معظم أهل مكة واقسموا يمين الولاء لرسول الله (ص).

كان النبي (ص) قد عهد الى امراء الجيش ممن أمرهم ان يدخلوا مكة ــ ان لا يقاتلوا الا من قاتلهم، الا انه قد عهد في نفر سماهم، أمر بقتلهم وان وجدوا تحت أستار الكعبة. وكان عددهم عشرة (ستة رجال وأربع نساء) ويمكن أن نسميهم بمصطلحات العصر الحديث «مجرمي

حرب ». فمنهم من ارتدّ مشركا بعد ان اسلم. ومنهم من كان يؤذي النبي (ص) والمسلمين في مكة بشكل مباشر أو غير مباشر. وكان عكرمة على رأس القائمة، وكذلك هند.

وعندما انسحب عكرمة في اثناء المناوشة مع قوات خالد، اختبأ في مكة، وعندما خفت يقظة المسلمين وحذرهم، خرج من مكة وهرب الى اليمن، واسلمت امرأته ام حكيم بنت الحرث بن هشام، فاستأمنت له من رسول الله، فأمنه، فخرجت في طلبه الى اليمن حتى أتت به رسول الله (ص) فأسلم.

أما صفوان بن أمية، فمع انه لم يكن في قائمة «مجرمي الحرب»، الا انه خشي على حياته وفرّ الى جدة على أمل أن يجتاز البحر الأحمر ويلتجىء في بلاد الحبشة، لكنّ صديقا له طلب من النبي (ص) ان ينقذ حياته ويقبل استسلامه فأخبره النبي (ص) انه لا ينوي قتل صفوان وانه يقبل عودة صفوان بسرور. وسافر هذا الصديق الى جدّة وأحضر صفوان. واستسلم صفوان للنبي (ص). ولكن هذا الاستسلام كان شخصيا وسياسيا. أما دخوله في الاسلام، فقد طلب النبي (ص) ان يمنحه شهرين لكي يفكر بذلك. فأعطاه الرسول مهلة أربعة أشهر.

عمليا، قتل ثلاثة رجال فقط وامرأتان من مجرمي الحرب. اما الباقون فقد عفا النبي (ص) عنهم، ومن بينهم هند، التي أسلمت.

بعد أن دمّر النبي (ص) الاصنام في الكعبة، أرسل حملاتٌ صغيرة للقرى المجاورة للقضاء على الاصنام الموجودة في معابدها. فأرسل خالد الى «نخلة» لتدمير العزّى، وهي اغظم اصنام الآلهة شأنا. ومعه ثلاثون خيالا (١) ».

ولكن كان هناك العزّى الحقيقية والعزّى التقليدية، كما يبدو. فسأل النبي

(١) — كان يوجد وادي نخلة، وهو يعرف الان باسم وادي اليمانية، الذي يمر فيه الطريق الرئيسي بين مكة والطائف، وكان يوجد نخلة التي كان فيها الالهة العزى، وهذه تقع شمال وادي اليمانية. وهي على بعد ٤ — ٥ اميال جنوب بئر السبئة الحالي.

(ص) خالداً عما اذا كان قد شاهد أمرا غير عادي. فأجاب خالد بأنه لم يرَ شيئاً. عندئذ قال له النبي (ص) بأن العزّى لم تدمر. وطلب منه أن يذهب ثانية.

فعاد خالد الى نخلة غاضبا، وفي هذه المرة وجد العزّى الحقيقية. فهرب حارس معبد العزّى خوفا على حياته، لكنه قبل أن يتخلى عن آلهته علق سيفا حول عنقها أملا أن تتمكن من الدفاع عن نفسها. وعندما دخل خالد المعبد وجد امرأة سوداء عارية فاعترضته وأخذت بالبكاء. لكن خالداً لم يتوقف ليقرر فيما اذا كانت تريد اغواءه أو حماية الصنم، واستل سيفه وضرب المرأة ضربة قوية شطرتها الى قسمين. ثم هشم الصنم، وعاد الى مكة وأبلغ الرسول (ص) بما رأى وفعل. فقال له النبي (ص) ان ذلك الصنم هو العزّى وهو لن يعبد مرة ثانية [1].

في العشرين من كانون الثاني عام ٦٣٠م، وبعد تدمير الأصنام، وقع حادث سيء لبني جذيمة. إذ أرسل النبي عدداً من الحملات الى القبائل التي تسكن في جوار مكة ليدعوهم الى الاسلام، وأعطى تعليمات لامرائه ان لا يقاتلوا من يقبلون الدعوة. وكان النبي (ص) يريد من ذلك تجنب اراقة الدماء أيضاً.

تسلّم خالد قيادة الحملة التي أرسلت الى منطقة تهامة، الى الجنوب من مكة. وكانت الحملة تتألف من ثلاثمائة وخمسين خيّالاً من عدة قبائل، وكان أكبر عدد معه من بني سليم، كما كان معه بعض الأنصار والمهاجرين. كان هدف الحملة يلملم، التي تبعد خمسين ميلاً عن مكة.

عندما وصل خالد الى الجمّيزة، التي تقع على بعد خمس عشرة ميلاً عن مكة على الطريق الى يلملم، قابل قبيلة بني جذيمة. فلما رآه القوم اخذوا السلاح، فقال خالد: «ضعوا السلاح فان الناس قد أسلموا».

فقال رجل من بني جذيمة يقال له جحدم: «ويلكم يا بني جذيمة انه خالد، والله ما بعد وضع السلاح الا الإسار، وما بعد الإسار الا ضرب

(١) — ابن سعد — صفحة ٦٥٧.

الاعناق ، والله لا أضع سلاحي أبداً » .

وكان نزاع قديم بين قبيلة خالد وبني جذيمة . ففي أيام الجاهلية ، كانت قافلة صغيرة من قريش عائدة من اليمين فاعترضها بنو جذيمة وسلبوها وقتلوا شخصين ذوي شأن هما عوف — والد عبد الرحمن بن عوف ، وفاكه بن المغيرة (عم خالد) . وفيما بعد قتل عبد الرحمن خالد بن هشام قاتل أبيه ، لكن الفاكه لم يؤخذ بثأره .

وبدأ الآن بنو جذيمة بالنزاع مع جحدم وقالوا له : « يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا . إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ووضعت الحرب ، وأمن الناس » . ولم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح تنفيذاً لأمر خالد . فلما وضع بنو جذيمة السلاح أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ، ثم عرضهم على السيف ، فقتل من قتل منهم ، فلما انتهى الخبر الى رسول الله (ص) رفع يديه الى السماء ثم قال : « اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد ابن الوليد »[1]. ثم دعا رسول الله (ص) عليّ بن أبي طالب فقال: «يا عليّ اخرج الى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » . فخرج ومعه مال قد بعث به رسول الله (ص) ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال . ثم قال لهم علي حين فرغ منهم : « هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يؤد لكم؟» قالوا: لا، قال: فاني اعطيكم هذه البقية من المال احتياطاً لرسول الله مما يعلم ولا تعلمون ، ففعل ، ثم رجع الى رسول الله فأخبره الخبر ، فقال : « أصبت وأحسنت » .

استدعى النبي (ص) خالداً بعد ذلك وطلب منه تبرير ما فعل . فقال خالد أنه لا يعتقد بأن بني جذيمة كانوا مسلمين حقاً ، وأن لديه انطباعاً بأنهم كانوا يخدعونه ، وهو يعتقد بأنه كان يقتل في سبيل الله .

كان عبد الرحمن بن عوف حاضراً مع النبي (ص) عندما قابل خالداً . وعندما سمع عبد الرحمن بن عوف ايضاح خالد قال له : « عملت بأمر

(١) ابن هشام — الجزء ٢ ، صفحة ٤٢٩ .

الجاهلية في الاسلام». فقال خالد: «انما ثأرت بأبيك». فقال عبد الرحمن: «كذبت قد قتلت قاتل أبي ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة». حتى كان بينهما شرّ. فتدخل النبي (ص) وقال لخالد: «مهلاً يا خالد دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك أحد ذهباً ثم انفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته»[1].

وهكذا وضع خالد في مكانه الصحيح. وقد تم الصفح عنه، لكنه تعلم درساً هاماً هو نبذ عادات الجاهلية وتقاليدها، وأنه مهما أبلى في القتال لا يجوز له أن يتطاول على صحابة رسول الله (ص). وما يسمى في عرفنا الحاضر بالقيادة السياسية، يحتل المكانة نفسها التي يحتلها أصحاب النبي (ص) العشرة البررة خاصة. (راجع خريطة فتح مكة — سير الاعمال القتالية في الشكل رقم ٥).

استنتاجات عن فتح مكة :

١ — المفاجأة :

حرص الرسول العربي (ص) أشد الحرص على أن لا يكشف نيته لأحد عندما اعتزم الحركة الى مكة، وكان سبيله الى ذلك الكتمان الشديد حتى انه لم يفصح لأقرب الناس اليه عن مراميه الحقيقية: لذلك دعا المسلمين الى الاستعداد والتهيؤ للجهاد ولم يخبرهم باتجاه الحركة. ولم يعرف المسلمون الغاية من الاستعداد الا قبل المسير الى مكة بيوم واحد وبعد ما بث الرسول القائد (ص) عيونه ودورياته في جميع الاتجاهات وسيطر على محاور الطرق ووضع عليها حراسة مشددة، ليحول دون وصول المعلومات الى قريش. وبذلك تمكن من مفاجأتها وارغامها على الاستسلام بلا قتال.

٢ — الحرب النفسية :

أراد الرسول القائد (ص) أن يحطم معنويات خصومه قبل القتال

---

(١) ابن سعد — الجزء ٢، صفحة ٤٣١.

ولذلك فقد حبس أبا سفيان في مدخل الجبل الى مكة حتى تمر به كتائب المسلمين لكي يزلزل اعصابه ويبعث به الى قومه مقتنعاً بعدم جدوى المقاومة . وفي الواقع قام أبو سفيان بدور كبير في استسلام قريش . وهذا ما أراده الرسول العربي (ص) . .

٣ ــ استراتيجية الهجوم غير المباشر :

يعتبر توزيع الارتال واسناد المهام اليها كي تتلاقى في هدف استراتيجي واحد عملاً رائعاً من أعمال الهجوم غير المباشر. وسنعرض لذلك بتفصيل أكثر ، عند كلامنا عن الرسول العربي وفن الحرب .

٤ ــ التواضع وهدم الغرور :

بعد أن أنجز الرسول العربي فتح مكة ، بدا متواضعاً جداً ولم تأخذه نشوة النصر ، وهذه المناقب الفاضلة وهي (التواضع وعدم الغرور) ، لا تتوفر الا في قلة من كبار القادة العسكريين .

٥ ــ أخلاق الفروسية :

لقد بلغ تسامح الرسول العربي (ص) غاية السمو والحكمة مع اعدائه المكيين وتجلت فيه هذه الصفات الرفيعة من « اخلاق الفروسية » التي تتمثل بمبدأين :

ــ العفو عند المقدرة .

ــ والترفع عن الدنايا .

وقد تجلت أخلاق الفروسية واضحة في كل تصرفات النبي (ص) الكريم ابان فتح مكة .

٦ ــ القضاء على الوثنية :

كان اصرار الرسول القائد (ص) على تحطيم الأصنام الموجودة داخل

الكعبة يوم الفتح تأكيداً جازماً بالقضاء على آخر مظهر من مظاهر الوثنية في الجزيرة العربية حتى يكون الدين لله وحده ولو كره المشركون . وقد نزع الرسول العربي (ص) ، بتحطيم الأصنام آخر أثر في نفوس العرب المسلمين من قدسيتها وفائدتها . واثبت لهم عملياً انها لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها أمام السواعد المؤمنة التي حطمتها إلى الأبد .

٤ ــ خالد وغزوة حنين :

عندما حشد الرسول العربي (ص) قواته في المدينة بغية الاستعداد للمسير الى مكة ، ظنت قبيلتا هوازن وثقيف أن حملة الرسول القائد (ص) قد تكون عليهم . فجمع مالك بن عوف رئيس قبيلة هوازن رجاله وجاءت معه أيضاً قبيلة ثقيف ونزلوا بحنين [١] . وعندما علموا أن الجيش العربي قد توجه الى مكة لم يعودوا الى ديارهم بل اصروا على لقاء الرسول العربي وجيشه .

كان التجمع المعادي للثورة الاسلامية يضم بالاضافة الى قبيلتي هوازن وثقيف قبائل نصر وجشم وبعض بني هلال وتخلف عن هذا التجمع فخذا كعب وكلاب من هوازن . وعندما نزل مالك بن عوف بأوطاس ، اجتمع اليه الناس وفيهم دريد بن الصمة [٢] في هودج له يقاد به ، فلما نزل قال : بأي واد أنتم ؟ . قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجال الخيل !. لا حزن ضرس [٣] ولا سهل دهس [٤] . وقد لفت انتباه دريد بن الصمة ، أصوات الحيوانات المختلفة في المعسكر ولما استوضح عن السبب قيل له : ان مالكاً قد أمر بذلك فقال لهم : أين مالك ؟. فدعي له فحضر مالك

---

(١) حنين : واد الى جنب ذي المجاز .

(٢) دريد بن الصمة : من أشهر فرسان العرب في الجاهلية ، من قبيلة جشم وقد شهد حنين وهو شيخ كبير مجرب ولكن لم يؤخذ برأيه نظراً لكبر سنه .

(٣) الحزن : المرتفع من الأرض ، والضرس : الذي فيه حجارة محدودة .

(٤) دهس : اللين الكثير التراب .

فقال له دريد : يا مالك ، انك قد أصبحت رئيس قومك وان هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ، وثغاء الشاء ، وبكاء الصغير !... فقال : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولم ؟.. قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال له أنت رجل أحمق . والله لا يرد المنهزم شيء . انها ان كانت لهم لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت في اهلك ومالك . لم يأبه قائد هوازن لنصيحة دريد بن الصمة ، بل قال له : والله لا أفعل ، انك قد كبرت ، وشاخ عقلك ، والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري [1] .

سمع الرسول العربي (ص) بأخبار تحشد هوازن وثقيف لمهاجمة المسلمين ، فأمر عبدالله الاسلمي أن يذهب الى منطقة تحشد المشركين ليستطلع الخبر.

وعاد موفد الرسول القائد (ص) من مهمته ليخبره بأن قبائل هوازن وثقيف ، قد انهت تحشدها في منطقة وادي أوطاس ، وانها تنوي مهاجمة المسلمين . عند ذلك قرر الرسول القائد (ص) مهاجمة هذه القبائل المتجمعة ليكون له زمام المبادرة . وأمر المسلمين أن يستعدوا للجهاد . وعلم أن لدى صفوان بن أمية سلاحاً ودروعاً فاستعارها من صفوان ليجهز بها قواته وكانت هذه الأسلحة تكفي لتسليح مائة دارع . وعندما اتم جيش الثورة الاسلامية استعداداته للمعركة تحرك باتجاه حنين ، بعد خمسة عشر يوماً من فتح مكة ، التي استخلف عليها الرسول القائد (ص) عتاب بن أسيد . وبلغ قوام الجيش العربي قرابة اثني عشر ألف مقاتل .

عندما وصل المسلمون الى معسكرهم الجديد في وادي حنين ، وصلت أنباء وصولهم الى مالك بن عوف بواسطة عيونه . وتوقع مالك أن يعرف المسلمون بوجود جيشه في أوطاس ، وانهم سيقاتلونه في أوطاس أو بالقرب منها . فوضع خطة للايقاع بالمسلمين .

---

(1) الطبري ، ج ٢ ص ٧٢ .

قبل فجر الأول من شباط عام ٦٣٠ م (المصادف الحادي عشر من شوال سنة ثمان هجرية) تشكل المسلمون في ترتيب المسير استعداداً للتقدم الى أوطاس حيث يتوقع اشتباكهم بالعدو. وكان في نية المسلمين أن يعبروا مّضيق حنين قبل أن يعلم العدو بتحركهم. كان حرس المقدمة يتألف مرة ثانية من بني سليم بقيادة خالد، وسارت خلف هذه المقدمة وحدات المسلمين المختلفة، بما فيهم مجموعة أهل مكة التي يبلغ تغدادها ألفين. وابقي معسكر المسلمين في وادي حنين كقاعدة للعمليات.

وعند أول ضوء، وكان الوادي يغمره الضباب الكثيف، دخل حرس المقدمة المضيق (على بعد ميلين من زيمة). وأسرع خالد في تقدمه رغبة منه في مفاجأة العدو في أوطاس. وبعدئذ هبّت العاصفة!

كان خالد أول من تلقى صدمة الكمين. وتبدد هدوء الفجر بآلاف الصيحات التي اطلقها الاعداء، وانهالت السهام بالمئات. كالبرد الهاطل من السماء واصابت الخيل والرجال. لم يقف بنو سليم لمواجهة العدو. ولم يقفوا ليفكروا أو يلتجئوا. بل اتجهوا للخلف وفروا كرجل واحد. وذهبت صيحات خالد لرجاله كي يصمدوا ادراج الرياح وضاعت في الضجيج والفوضى. وجرح خالد جرحا بليغا وحمل بعيدا، ولكن بعد مسافة قصيرة سقط عن فرسه وبقي ممددا على الارض غير قادر على الحركة.

عندما انكفأ بنو سليم الى الوراء وانهزموا مذعورين، ودخلوا في مواقع الوحدات الاخرى التي كانت تحتل الممر الضيق، وشعرت هذه الوحدات بأن أمرا ما قد حدث، وانضم الى الفارين مجموعة أهل مكة فاترة الهمة، — الحديثة العهد بالاسلام — وتبعهم عدة وحدات من المسلمين. هرب بعض المسلمين الى المعسكر، لكن غالبيتهم انتشروا والتجأوا على مسافة خلف مكان الكمين على جانبي الممر. لم يعرف أي شخص ماذا حدث تماما. وازدادت الفوضى عندما حملت الابل بعضها على بعض وتراكض الناس والخيل وتداخل بعضها ببعض في هياج أعمى للخلاص من هذا المأزق.

لقد فاجأ مالك بن عوف الذين كان من المنتظر ان يفاجئوه. فحرّك جيشه خلال الليل الى مضيق حنين الذي يتعذر فيه اجراء المناورة. ووضع رجاله على جانبي الممر داخل المضيق حيث اختبأوا خلف الصخور.وثنيات الارض التي ساعدت على الاختفاء. كانت هوازن في الامام، ومعها مجموعات صغيرة من ثقيف، ثم جاءت خلفها ثقيف، وخلف هؤلاء تركز المتطوعون من باقي القبائل. وضع مالك خطة بارعة اذ أخر تحركه حتى آخر ضوء لكي يعتقد المسلمون بأن قواته لا تزال في اوطاس، ثم وضعها في كمين عند مضيق حنين متوخيا ابادة المسلمين أو طردهم بحالة من الذعر الى مكة وما بعدها. وكان خلف موقع الكمين ممر ضيق يستطيع المسلمون التقدم منه الى أوطاس — قاعدة مالك.

فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما في انفسهم من الضغن، فقال ابو سفيان بن حرب: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر». وصرخ جبلة بن الحنبل وهو مع أخيه لأمه صفوان بن أمية: «الا بطل السحر اليوم»، فقال له صفوان: «اسكت فض الله فاك، فوالله لأن يربّني [1] رجل من قريش أحب الي من أن يربّني رجل من هوازن [2]».

بقي النبي (ص) واقفا في الممر مع تسعة من اصحابه، كان بينهم علي، وأبو بكر، وعمر، والعباس. وعندما كان الناس يفرون بالقرب منه قال: «أين أيها الناس، هلموا الي، أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله [3]». لكن صرخاته ذهبت هباء. ووصلت العناصر المتقدمة من هوزان الى المكان الذي يقف فيه النبي (ص)، وهنا سقط أول مشرك في غزوة حنين على يدي علي بن أبي طالب، وكان هذا المشرك يتقدم على جمل له احمر وبيده راية سوداء في رأس رمح له طويل، وهوازن خلفه، اذا أدرك طعن

(١) — يربّني: يكون لي ربا، أي ملكا علي.
(٢) — ابن هشام — الجزء ٢، صفحة ٤٤٣ — ٤٤٥.
(٣) — ابن هشام — الجزء ٢، صفحة ٤٤٣ — ٤٤٥.

برمحه واذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه ، وبينا ذلك الرجل من هوازن يصنع ما يصنع تصدى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار، فجاءه علي من خلفه ، فضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الانصاري على الرجل فضربه ضربة اطنّ قدمه بنصف ساقه ، وسقط عن راحلته .

تحرك النبي (ص) الى اليمين مع اصحابه والتجأ في بروز صخري . وحاول عدد قليل من ثقيف التقدم من النبي (ص) وأصحابه ، لكن أصحاب الرسول العربي (ص) ردوهم .

لقد صنع مالك بن عوف بالمسلمين ما لم يصنعه احد قط من قبل . وكان هذا الحادث أول تجربة مروا فيها بوقوعهم بكمين واسوأها ، حيث فقد الكثيرون منهم رشدهم وهربوا من ميدان المعركة . غير أن الشجعان في هذا الموقف لم يصابوا بالذعر ولم ينهزموا .

لقد ضرب مالك بذكاء ، ولكن لسوء حظه ، لم ينفذ رجاله ما كان يرجوه . اذ انهم لم ينتظروا حتى يدخل الجزء الأساسي من قوات المسلمين في المصيدة . واطلقوا سهامهم عندما أصبح حرس المقدمة في مدى الرمي . وارتكب مالك خطيئة كبيرة وهي قناعته بما حقق من انتصار، اذ بعد ان تقدم بضع مئات من الأمتار لم يحاول ان يطارد المسلمين . فلو انه فعل ذلك ، لتغير الموقف واختلف . كما أن رمي سهام هوازن كان ضعيفا للغاية . فقد اصيب عدة مسلمين ورواحلهم بجراح ، الا انه لم يقتل أحد في الكمين .

نظر النبي (ص) الى المنطقة التي امامه فاستبشر خيرا . وقرر أن لا يدع مالكا يذهب بهذا النصر الذي احرزه بسهولة . فالتفت الى العباس ، وكان امرءا جسيما شديد الصوت ، وقال : «يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا معشر اصحاب السّمرة» . فصرخ العباس بأعلى صوته وسمعه معظم المسلمين فأجابوا : لبيك لبيك ، وبدؤوا في التجمع حول النبي حتى اذا اجتمع اليه منهم مائة قال لهم الرسول العربي (ص) اصمدوا معي واستقبل بهم قوات المشركين وهو يقاتل في أول الصفوف على بغلته البيضاء وهو يرتجز :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وثبت المسلمون مع نبيهم (ص) يقاتلون قتال الأبطال. وكان النهار قد طلع وعرفت الوجوه بعضها بعضا وازداد عدد الجنود المجتمعين حول النبي (ص) حتى جاوزوا عدة آلاف فأمر بالهجوم المعاكس على هوازن. (راجع خريطة غزوة حنين في الشكل رقم ٦).

التحم الجيشان وكان هذا أقصى ما يطمح اليه المسلمون لتفوقهم على خصومهم في هذا النوع من القتال وأعني القتال القريب والمبارزة بالسيف. وبدأ المسلمون يضغطون على هوازن وبدأ هؤلاء بالتراجع شيئا فشيئاً وعندما أدرك الرسول العربي (ص) أن كفة المسلمين بدأت ترجح على كفة المشركين صرخ بأعلى صوته «الآن حمي الوطيس شدوا عليهم» وكانت هذه الكلمة ايذانا ببدء الهجوم العام المعاكس واندفع المسلمون يمزقون صفوف المشركين بسيوفهم ورماحهم ولما رأت ثقيف وهوازن ان المقاومة لن تجديهم نفعا، وانهم لن يستطيعوا صد هجوم المسلمين، انسحبوا من ميدان المعركة تاركين وراءهم نساءهم وأولادهم وأموالهم غنيمة للمسلمين، ولم يكن للمشركين حراسة قتالية في المؤخرة لحماية الانسحاب، فانقلب انسحابهم الى هزيمة.

انسحبت أكثر ثقيف باتجاه الطائف (وكان معهم مالك بن عوف) وانسحبت هوازن والقبائل الاخرى باتجاه اوطاس ونخلة.

بعد أن اكتمل تجمع جيش المسلمين، باستثناء عدد قليل من الهاربين، قرر النبي (ص) ان يستثمر النجاح. فنظم مجموعة من الفرسان وأرسلها الى الامام لتأمين الوادي قبل أن تتمكن هوازن من استعادة قوتها واعادة تنظيم جيشها. وكانت هذه المجموعة تضم العديد من المتطوعين، وكان من بينهم بنو سليم الذين استعاد خالد سيطرته عليهم. لم يشترك خالد في الهجوم المعاكس الذي شنه المسلمون. اذ كان ملقى حيث سقط أثناء هروب بني سليم وظل حيث هو حتى انتهى الهجوم المعاكس. ثم جاءه النبي ولمس جراحه، فنهض خالد وهو يشعر بالقوة وبأنه صالح للقتال مرة أخرى [1]. وبسرعة استطاع ان يجمع بني سليم.

(١) — الاصفهاني — الجزء ١٥، صفحة ١١.

اسندت قيادة مجموعة الفرسان الى الزبير بن العوام الذي تقدم على طول الوادي واصطدم بمالك في الممر. وبعد اشتباك قصير، تم طرد مالك من الممر. وأصبح الوادي بأكمله بيد المسلمين. ترك النبي (ص) مجموعة خيالة الزبير في الممر، لكي تتمسك به وتكون قاعدة وطيدة تحرسه من أي عودة محتملة لهوازن، وأرسل مجموعة اخرى بامرة أبي عامر الى اوطاس. وكان فيها معسكر هوازن الذين اتخذوا مواقعهم حول المعسكر، بعد ان طردوا من الممر، ليدافعوا عن اسرهم وماشيتهم. عند وصول المسلمين الى أوطاس حدث اشتباك عنيف فيها. وقتل أبو عامر تسعة من هوازن في مبارزات فردية ثم قتله مبارزه العاشر، فأخذ الراية ابو موسى الأشعري، وهو ابن عمه، فقاتل هوازن، ففتح الله على يديه وهزمهم. وسقط المعسكر في أيدي المسلمين، وهنا انضمت الى مجموعة المسلمين هذه مجموعة خيالة الزبير، وكان خالد على رأس المجموعة.

انفرط عقد تحالف الاعداء وتفرقت هوازن وبعض القبائل وعادوا الى قراهم، بينما اسرعت ثقيف بقيادة مالك الى الطائف وقررت ان تقاوم هناك.

عاد حديثو العهد بالاسلام من هزيمتهم ليروا الكثير من المشركين مقرنين بالاصفاد. وساهمت المرأة المسلمة في القتال الى جانب الرجل وكانت أفضل المقاتلات أم سليم بنت ملحان — وكانت مع زوجها ابي طلحة — حازمة وسطها ببرد لها، وكانت حاملا في ذلك الوقت ومعها جمل زوجها وقد خشيت ان يغلبها الجمل فأدخلت يدها في خزامته [1] مع الخطام. وعندما شاهدها الرسول العربي (ص) أول بزوغ الفجر قال لها، «أم سليم! ..» قالت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله (ص)! .. فقال لها: ما تصنعين هنا! .. فقالت: اقتل هؤلاء الذين يفرون عنك، كما تقتل هؤلاء الذين يقاتلونك.. فانهم لذلك أهل.

كانت خسائر المسلمين في هذه المعركة قليلة قلة تدعو الى الدهشة، وكان

(١) — الخزامة: حلقة من شعر تجعل في انف البعير.

ذلك بسبب رماة هوازن غير الماهرين. وقد جرح العديد من المسلمين، واستشهد أربعة فقط. ويعود السبب في ذلك الى المهارة الفائقة والشجاعة التي كان يتصف بها المسلمون والتي مكنت ابطالهم من قتل ثلاثة من الاعداء أو أربعة في وقت واحد، الواحد تلو الآخر. وقتل من المشركين سبعون في الوادي، وفي الممر، وفي أوطاس، منهم دريد بن الصمة الذي نصح مالكاً فلم ينتصح. وقد أسر المسلمون في معسكر الاعداء في أوطاس ستة آلاف من النساء والاطفال والعبيد، وآلافاً من الجمال والماعز والغنم [٢].

كانت أول مرة يقع فيها المسلمون في كمين على نطاق، نصبه عدوهم. وكان هذا الكمين ثاني مثل في التاريخ اذ يقوم جيش كامل بنصب كمين لجيش كامل (المثل الأول كان الكمين الذي نصبه للرومان هانيبال عند بحيرة تراسمين (في عام ٢١٧ قبل الميلاد). كانت خطة مالك التي وضعها لابادة جيش المسلمين جيدة وسليمة، ولكن ضعف التنفيذ من قبل رجاله حال دون تحقيق المهمة التي وضعها لنفسه. وعلى كل الاحوال، كان بامكانه، برغم ذلك، ان يحقق نصرا مؤزرا لو لم يكن المسلمون اعداءه. فتصميم النبي (ص) على عدم تقبل الهزيمة، وايمان المسلمين بقائدهم، هما اللذان حوّلا الهزيمة الى نصر لهم. كان النبي (ص)، بخلاف مالك، غير راض بنجاح محدود، فاستثمر النجاح لتدمير العدو والاستيلاء على معسكره بما فيه من غنائم.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يؤخذ فيها خالد على حين غرّة، كان دائما يعرف قيمة المفاجأة، لكنه هذه المرة فوجىء هو شخصيا. ورأى بأم عينيه كيف ذعر رجاله من ظهور العدو المفاجىء وفي وقت ومكان غير متوقعين. وصمم على أن لا يؤخذ مرة أخرى على حين غرة. وما فوجىء خالد بعد ذلك قطّ.

---

(٢) — بعد معركة حنين مر الرسول القائد (ص) بامرأة قتيل، فقال: (من قتلها) قالوا: قتلها خالد بن الوليد. فقال لبعض من كانوا معه: «ادرك خالدا فقل له ان رسول الله ينهاك ان تقتل امرأة أو وليد أو عسيفا — العسيف هو الأجير.

٥ ـ خالد وغزوة تبوك :

سيطرت الثورة الاسلامية بعد فتح مكة واخضاع هوازن على الجزيرة العربية كلها ، حتى حدودالشام والعراق ، وأصبح الرسول العربي (ص) مسؤولا عن ادارة هذه المناطق وتنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية فيها . وعندما اطمأن الرسول القائد (ص) الى متانة جبهته الداخلية أخذ يتطلع الى تحرير عرب الشمال من سيطرة الامبراطورية الرومانية .

كانت أحوال الامبراطورية الرومانية مضطربة ، لاسيما في بلاد الشام ، فقد كثر تذمر الناس من ظلم حكام الرومان وارهاقهم بالضرائب ، فأقبل كثير من القبائل العربية على اعتناق الاسلام . وقد اسلم فروة بن عمرو الجذامي قائد احدى الفرق الرومانية التي قاتلت المسلمين في غزوة مؤتة ، فقبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة ، وكان هرقل على استعداد للافراج عنه ان هو عاد الى المسيحية ، ولكن فروة اصر على اسلامه ، فقتله هرقل .

خشي هرقل من قيام المسلمين بحملة انتقامية لمقتل فروة ، فالدين الجديد وانتشاره بين نصارى العرب اخذ يقض مضاجع الدولة الرومانية ، فراح يفكر بالقضاء على هذا الدين الجديد قبل أن يستفحل امره ، فقام بحشد قواته على حدود الشام الجنوبية استعدادا لمهاجمة المسلمين . كما قام بتوزيع رواتب سنة كاملة على قواتهاالنظامية ، ووزع كثيرا من المال على القبائل العربية الواقعة تحت سيطرته ، تشجيعا لها على مساعدة جيشه ، وبعد ان اعد لذلك عدته وجه طلائعه الى البلقاء ليحول الانظار عن التحشد الذي تم بعد ذلك في منطقة تبوك .

علم الرسول العربي (ص) بحشود الروم على حدوده الشمالية ، فقرر أن يبادرهم القتال قبل أن يبدؤوا بمهاجمة المناطق التي تسيطر عليها الثورة الاسلامية ولم يخف نواياه في هذه الغزوة كما كان يفعل في الغزوات السابقة ، لأن المسافة طويلة ولا بد من تأمين النواحي الادارية للجيش الاسلامي ، كي لا يؤدي نقصان المواد التموينية الى اخفاق الحملة .

وعلى الرغم من ان الفصل الذي ندب به الرسول العربي (ص) الناس

الى الجهاد كان صيفا، وعلى الرغم من ان السنة كانت سنة جدب والناس لا تحب أن تترك ديارها في وقت جني الثمار، فان الرسول القائد (ص) اصر على القتال وعلى مناجزة الروم وأمر المسلمين بالاستعداد والتأهب للمعركة وحث الاغنياء منهم على البذل في سبيل الله لتجهيز الحملة. ولم يبخل المسلمون بأموالهم ينفقونها من أجل المجهود الحربي وجادت النساء المسلمات بأقراطهن واساورهن وحليهن، وضرب عثمان بن عفان المثل في الانفاق على جيش العسرة [1] في غزوة تبوك اذ دفع ألف دينار ذهبي. وعندما اصبح الجيش على أهبة المسير، غادر الرسول القائد (ص) المدينة بعد أن استخلف عليها سباع بن عرفطة اخا بني غفار، كما كلف علي بن ابي طالب ان يبقى في المدينة لرعاية أهله وهي المرة الوحيدة التي لم يسهم فيها علي بن ابي طالب في الحرب مع الرسول العربي (ص).

٦ سير الأعمال القتالية:

ترك جيش المسلمين المدينة في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة وقد بلغ قوامه القتالي ثلاثين ألف مقاتل وراح يقطع الصحراء القاحلة في الحر الشديد حتى وصل الى تبوك فلم يجد جموع الروم هناك، لانهم عندما علموا بضخامة جهش الثورة الاسلامية وما يتمتع به من روح معنوية عالية، آثروا السلامة وانسحبوا بقواتهم الى الشمال. فقرر الرسول العربي أن يعسكر بقواته الرئيسية في المنطقة واتخذها قاعدة له يوجه منها السرايا والبعوث.

وجه الرسول القائد رسالة الى يوحنا بن رؤبة صاحب (ايلة) يطلب اليه أن ينضوي تحت راية الثورة الاسلامية أو يغزوه، فأقبل يوحنا بنفسه الى الرسول العربي (ص) وقدم له الطاعة واتفق الطرفان على ان تدفع ايلة جزية للمسلمين قدرها ثلاثمائة دينار ذهبي كل عام. كما تم الصلح بين المسلمين

(١) — سمي جيش العسرة لان المسلمين وعامة الناس كانوا في ضيق وقتذاك.

وأهل الجرباء [1] وبين المسلمين وأهل اذرح وهي بلدة قريبة من الجرباء واتفق الطرفان على دفع جزية قدرها مائة دينار ذهبي كل عام.

كما رغب النبي (ص) في اخضاع منطقة تبعد قليلا عن تبوك. وكانت هذه المنطقة تسمى «دومة الجندل»، وكان يحكمها أكيدر بن عبد الملك، وهو رجل نصراني من قبيلة كندة وكان مشهورا بحبه لتصيد. فأرسل النبي (ص) خالدا لاخضاعها ومعه أربعمائة خيّال، وأمره أن يأسر أكيدرا. وقال له: «انك ستجده يصيد البقر».

وصل خالد الى مدينة دومة الجندل المسوّرة في ليلة مقمرة صائفة من شهر تشرين الثاني عام ٦٣٠م (منتصف شعبان، عام ٩ هجري). ولم يكد ينشر خالد قواته قرب المدينة، حتى فتحت أبوابها وخرج أكيدر في نفر من أصحابه على خيولهم وهم يحملون أسلحة الصيد السائدة في تلك الأيام. ربما خرج أكيدر للصيد ليلا بسبب شدة الحر في النهار فقرر أن يصطاد في برودة الليل، كما أن الليلة المقمرة اغرته بالخروج للصيد.

انقض خالد مع نفر من رجاله على أكيدر وصحبه واستطاع خالد شخصيا أن يرمي أكيدر عن حصانه ويأخذه أسيرا، وفي آن واحد هاجم رجاله بقية مجموعة الصيد. وقاوم حسّان، شقيق أكيدر، محاولة أخذه أسيرا فقتل، اما الباقون فقد هربوا الى داخل الحصن واغلقوا الأبواب.

قدم خالد بأكيدر على رسول الله (ص)، فحقن له دمه وصالحه على الجزية، ثم خلّى سبيله.

بقي الرسول العربي (ص) وجيشه عشرين يوماً مرابطين في منطقة تبوك، بانتظار قدوم الجيش الروماني — الذي آثر السلامة كما نعلم — وتدعيماً لهيبة الثورة الاسلامية في نفوس القبائل العربية في المنطقة، ومن أجل نشر الدعوة الاسلامية في تلك الارجاء، وعندما انجز كل ذلك، قفل عائداً بجيشه الى المدينة.

بعد غزوة تبوك لم يكن هنالك نشاط عسكري هام خلال حياة النبي.

(١) — ابن هشام — الجزء ٢، صفحة ٥٢٦.

فقد جاءت الوفود من جميع قبائل الجزيرة العربية ، واقسمت يمين الولاء للنبي (ص) واعتنقت الاسلام ووافقت على دفع ضريبة معينة . وعيّن النبي (ص) زعيماً لكل قبيلة من القبائل التي دخلت في الاسلام . وهكذا ظل النبي (ص) مشغولاً بأعمال الدولة . ووجهت حملات من قبله الى عدة انحاء في الجزيرة العربية . وكانت المهمة المسندة الى هذه الحملات هي دعوة القبائل للدخول في الاسلام ، وفي حال لجوء القبيلة للمقاومة المسلحة يقوم المسلمون بمحاربتها واخضاعها .

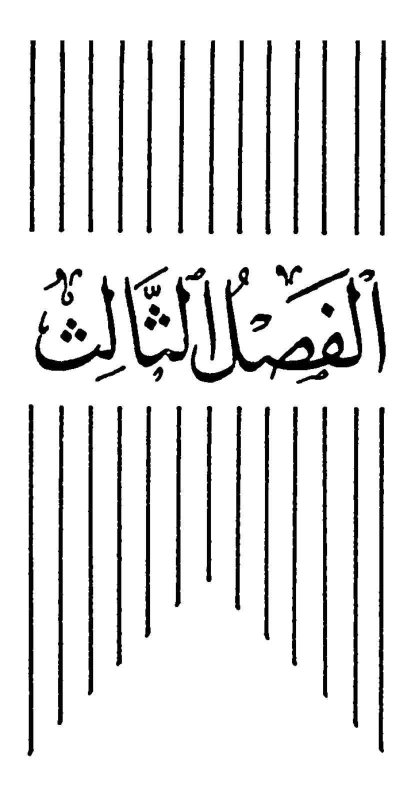
في تموز ٦٣١ م (الموافق لشهر ربيع الثاني ، عام ١٠ هجري) ، وجه النبي (ص) حملة عسكرية بقيادة خالد الى قبيلة بني الحرث بن كعب في نجران ، التي تقع الى الشمال من اليمن . وأمره أن يدعوهم الى الاسلام قبل أن يقاتلهم ، ثلاثاً ، «فان استجابوا فاقبل منهم ، وان لم يفعلوا فقاتلهم» . وكان مع خالد أربعمائة فارس .

وصل خالد الى نجران وأجرى اتصالاً ببني الحرث بن كعب . دعاهم الى اعتناق الاسلام ، فقبلوا دعوته ، ولم ترق الدماء . وبقي خالد مع القبيلة عدة أشهر ، وهو يعلمهم أصول الاسلام ، وعندما اقتنع بأنهم أصبحوا مسلمين صالحين ، كتب الى النبي (ص) يعلمه بنجاح مهمته . فأرسل النبي (ص) الى خالد كتاب تقدير ، وأوعز اليه أن يعود الى المدينة مع وفد من بني الحرث بن كعب . عاد خالد مع الوفد في كانون الثاني عام ٦٣٢ م (شوال ، عام ١٠ هجري) .

وقابلهم النبي (ص) بالترحيب والاكرام الذي كان يقابل به جميع الوفود . وقد شرحت شروط الاستسلام لهم ، وعيّن زعيم للقبيلة ، وبعدئذ عاد الوفد الى نجران .

كانت هذه المهمة آخر عمل أسند الى خالد زمن الرسول العربي الكريم (ص) .





حروب الردة

«والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه»
«أبو بكر الصدّيق»



١ — القضاء على ردّة الأسود العنسي :

حدث أول ارتداد كبير عن الدعوة الاسلامية في اليمن وعرف بحادثة الاسود العنسي . كان الاسود زعيم قبيلة عنس — وهي قبيلة كبيرة تقطن الجزء الغربي من اليمن . واسمه الحقيقي عبهلة بن كعب . ولكن بسبب لون بشرته الداكن سمي بالأسود . وكان متعدد الصفات ، يحسد على عدد قليل منها ، وقبل الارتداد عرف بزعيم العشيرة وبالكاهن .

خلال العام العاشر للهجرة ، اعتنق سكان المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية الاسلام . فأرسل النبي (ص) بالمبعوثين والمعلمين الى أماكن متعددة لتعليم الناس مبادىء الدين الحنيف وأصوله وأحكامه . وقد أنجز هذا العمل باتقان . لكن غالبية سكان هذه المناطق لم يصبحوا مسلمين حقيقيين ، فاسلامهم كان شكلياً أكثر منه ايماناً حقيقياً .

قبل دخول هؤلاء السكان بالاسلام ، كان يحكم اليمن نيابة عن الامبراطور الفارسي ، أحد نبلاء الفرس واسمه « باذأن » . اسلم هذا الحاكم وثبته النبي (ص) في منصبه . وكان عاقلاً وفاضلاً ، فازدهرت الولاية تحت حكمه ، ولكنه مات قبل حجة النبي (ص) الأخيرة بمدة قصيرة . وعيّن النبي (ص) ابنه « شهر » حاكماً على صنعاء . وظل السلام سائداً في اليمن لا تعكر صفو سماء الجنوب غيوم .

وقبيل حجة النبي (ص) الأخيرة ، قرر الاسود أن يصبح نبياً . فجمع قبيلته ، واسمعهم بعض أشعاره ، وادعى انها من القرآن الذي أنزل عليه ، وأعلن أنه رسول الله .

كان الأسود يملك حماراً وقد دربه على اطاعة أوامر معينة ، كأنْ يقول له : «اركع أمام سيدك» ، فيركع الحمار[1] . فسمي الاسود «بذي الحمار» . ويذكر بعض المؤرخين انه كان يُلَقَّب «ذي الخمار» [2] ، أي الثمل. ويمكن أن يكون اسمه هذا صحيحاً لادمانه الشديد على شرب الخمر . ومع ذلك ، فان قبيلته تبعته وهي تعتقد أنه نبي حقيقي ، وقد شاركهم في هذه الخطيئة بعض القبائل اليمنية قليلة الشأن .

جهز الأسود قوة من الفرسان ، تعدادها سبعمائة ، وخرج الى نجران . فاستولى عليها بدون مشقة وطرد حاكمها المسلم . وترك احد رجاله ليحكم نجران وتحرك الى صنعاء وهو يتباهى بهذا النصر السهل . سمع «شهر» ، الحاكم المسلم الذي عين حديثاً حاكماً على اليمن ، بسقوط نجران ، كما علم بمقاصد الاسود ، فقرر ان يهاجمه قبل أن يتمكن من الوصول الى صنعاء . فجهز قوة صغيرة وسار لملاقاة خصمه ، وتقابلت القوتان على مسافة شمال صنعاء . وانتهت المناوشة القصيرة التي حصلت لصالح الأسود ، اذ هزم المسلمون في المعركة وقتل «شهر» ، تاركاً وراءه أرملة شابة جميلة تدعى «آزاد» . وبعد خمسة أيام دخل الاسود صنعاء فاتحاً . لقد عمل بسرعة لتحقيق مهمته ، اذ مضى خمسة وعشرون يوماً فقط منذ أن جمع قبيلته وأعلن النبوة .

أصبحت معظم اليمن تحت سلطته . ولكي يستثمر انتصاره العسكري والسياسي ، تزوج من آزاد الجميلة . ولم يكن أمام الأرملة المسكينة من خيار سوى الخضوع والاستسلام لذي الخمار.

بعد أن احتل الاسود نجران وصنعاء ، عزز انتصاراته ومد سلطته على جميع انحاء اليمن ، واعترفت به عدة قبائل حاكماً ونبياً . وبعد أن أخذت سلطته بالنمو ، بدأ يشعر بعدم الرضى بلقب نبي وأعلن نفسه «رحمن

---

(١) البلاذري — صفحة ١١٣ .

(٢) البلاذري — صفحة ١١٣ .

اليمن »[1] . وهكذا حاول الاسود أن يدخل ملكوت الألوهية التي لم يدعها رجل من قبل . استمر الأسود في تعاطي الخمر ، كما استمر في التمتع بآزاد السيئة الحظ التي كانت تكرهه بشدة وقد اسرّت الى ابن عمّها : «ما خلق الله شخصاً أبغض اليّ منه»[2] . وبسبب سوء أخلاق الاسود ، فقد صب جام غضبه على أسرة باذان الفارسية وعامل أفرادها أسوأ معاملة . وبسبب عمله هذا ، ناصبه العداء الشديد رجل قوي ومسلم حقيقي يدعى فيروز — وهو أحد أفراد أسرة باذان الفارسية وابن عم آزاد .

اتخذ النبي (ص) في المدينة بعض الاجراءات الخاصة السرية ضد الاسود العنسي دون علم أحد وذلك بعد أن تلقى تقارير كاملة عن أعماله ، وأرسل اليه قيس بن جبيرة لتنظيم عملية تصفيته . فذهب قيس الى صنعاء سراً ، ووضع الاساس لحركة سرية ضد الدّجال ، واتصل بفيروز الفارسي . وأصبح قيس وفيروز الرأسين المدبرين للتنظيم الذي سيقوم بالانتقام من الاسود واتباعه المرتدين . ووضعا خططها بكتمان تام .

لم يكن قتل الاسود بالأمر السهل . اذ كان رجلاً ضخماً ، قوي البنية ومشهوراً بقوته وشراسته ، وسبق أن اتهم فيروز بعدم الاخلاص . علاوة على ذلك ، كان يعيش في قصر محاط بسور عال يحرسه عدد كبير من المقاتلين الذين كانوا يتجولون باستمرار حول السور وفي ممرات القصر . واختير هؤلاء الحراس لاخلاصهم وايمانهم بالأسود . والمدخل الوحيد للقصر الذي يمكن المرور منه يقع فوق جزء معين من السور قريباً من غرفة آزاد . ولا بد من تسلق السور . فاتصل فيروز بآزاد ، وشرح لها غرضه وطلب مساعدتها فوعدته بالمساعدة حالاً . ورأت في ذلك خلاصاً لها من حياتها التعيسة مع الأسود .

اختيرت ليلة الثلاثين من أيار عام ٦٣٢ م (السادس من ربيع الأول عام ١١ هجري) لتكون الليلة الحاسمة . فبعد منتصف الليل ، بدأ القمر

(١) البلاذري — صفحة ١١٣ .

(٢) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٤٦٧ .

بالمغيب ، وفي لحظة لم يكن فيها أحد من الحراس قريباً ، تسلق فيروز سور القصر بواسطة حبل وتسلل الى غرفة آزاد . فخبأته في الغرفة . وانتظرا ، تحدوهما رغبة واحدة هي الخلاص من الأسود .

قبيل الفجر ، خرجت آزاد من حجرتها وسارت الى غرفة الأسود ، المجاورة لغرفتها ، وكانت تعرف بوجود حارس قريب ، لكنه لم يظهر . ففتحت الباب ، ونظرت داخل الغرفة ، ثم عادت الى فيروز . وهمست ، وفي عينيها وميض نار الانتقام : «انه مخمور الآن» .

سار فيروز وخرجت آزاد خلفه من غرفتها على رؤوس اصابعها ووصلا الى باب حجرة الأسود . وقفت آزاد عند الباب ودخل فيروز شاهراً سيفه . وفجأة نهض الأسود على فراشه وحملق مذهولاً بفيروز الذي لم يترك مظهره شكاً في غرضه . أمام هذا الخطر ، صحا من ثمالته ، ولكن قبل أن يتمكن من مغادرة فراشه ، قفز فيروز الى الأمام وضربه على رأسه بالسيف . فسقط جريحاً ، لكنه لم يمت . و : «بدأ يخور كالثور» [(١)] .

سمع صيحاته الحارس فاندفع الى الحجرة . فرأى آزاد واقفة عند الباب ، فسألها : «مالخطب مع رحمن اليمن ؟» فوضعت الفتاة الذكية اصبعها على شفتيها وهمست : «صه ! النبي يوحي اليه» [(٢)] . فأومأ الحارس برأسه علامة الفهم ، ولم يعر صيحات سيده أي اهتمام ومضى لسبيله .

انتظرت آزاد حتى وصل الخفير الى نهاية الممر ، ثم اندفعت الى الغرفة . فرأت فيروز واقفاً بجانب السرير ، وهو ينتظر الفرصة ليضرب ثانية ، بينما كان الدجال يتلوى في فراشه ، ويلوح بيديه . أسرعت آزاد الى رأس السرير ، وأمسكت بشعر الأسود بكلتا يديها وانزلت رأسه . أما فيروز فاستل خنجره وفصل رأس الأسود عن جسده الضخم . وهكذا انتهت حياة النبي الكذّاب ، عبلهة بن كعب ، ودامت أعماله السيئة ثلاثة أشهر وانتهت بموته ، قبل وفاة الرسول بستة أيام .

---

(١) البلاذري — صفحة ١١٤ .

(٢) البلاذري — صفحة ١١٤ .

انهارت حركة الأسود بموته . وهب المسلمون الى المقاومة التي نظمها قيس في صنعاء للانتقام من أتباع الأسود ، وقتلوا منهم الكثيرين . وهرب بعضهم وعاد الى حظيرة الاسلام بعض آخر . وعين فيروز حاكماً على صنعاء .

وصل الرسول الذي حمل الانباء السارة الى المدينة بعد وفاة النبي بمدة قصيرة . وقد كان في القضاء على الأسود العنسي بعض العزاء للمسلمين المفجوعين بوفاة الرسول العربي (ص) . (راجع خريطة المرتدين في الجزيرة العربية في الشكل رقم ٧) .

٢ — أبو بكر الصديق والمسؤولية الكبرى :

ترك رحيل الرسول العربي (ص) الى الخالق الأعلى فراغا كبيرا في الجزيرة العربية ذلك أن محمدا كان في السنوات العشر الأخيرة كل شيء في حياة الرجال الذين انضووا تحت راية الثورة الاسلامية. كان القائد، والحاكم.. والمعلم.. والمرشد.. والصديق.. والقاضي.. والمغيث.. وبكلمة موجزة لقد كان محمد (ص) رسول هذه الأمة بكل ما تحوي هذه الكلمة من معنى. فلا غرو اذا شعر المسلمون بعده بالخوف والوحدة وأصبحوا : «كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية [١]».

ازدادت الحالة سوءاً عندما بدأت تصل تقارير الثورة المضادة في الجزيرة العربية. لقد تحركت معظم قبائل الجزيرة العربية باستثناء الموجودة في مكة، والمدينة، وثقيف بالطائف، ضد سلطة المدينة السياسية والدينية وحنثوا بيمين الولاء. وظهر أنبياء كاذبون في البلاد. فعندما رأى هؤلاء المدّعون الكذابون مقدار الحب والاحترام اللذين حظي بهما محمد (ص)، دونما أي تقدير للفترات العصيبة التي مرت به قبل أن يبلغ رسالة رب السماء، اعتبروا أن النبوة شيء جميل، وأنهم يستطيعون اغتنام الفرصة، وبالاضافة الى الاسود، قام كذابان وكذابة وآخرون من الزعماء وكبار السن الذين لم يدّعوا النبوة ولكنهم تحالفوا مع المتنبين الكذابين في خططهم الغادرة لاطفاء شعلة الاسلام والعودة الى الاستقلال القبلي أيام الجاهلية المظلمة. وانتشرت نار الارتداد بسرعة في ربوع الجزيرة العربية، وأصبحت تهدد

---

(١) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٦١.

مكة والمدينة — مركزي الثورة الاسلامية الفتية، الروحيين والسياسيين.

اما سبب الردة الرئيسي فهو ضعف الايمان الحقيقي. فمعظم القبائل اعتنقت الدين الاسلامي في السنتين التاسعة والعاشرة للهجرة لاسباب سياسية. ووجدوا ذلك مناسبا لهم. ورأوا في محمد (ص) زعيماً سياسياً قوياً أكثر مما رأوا فيه نبياً ذا رسالة سماوية جديدة. كان مسلمو مكة المسلمين الحقيقين، ومسلمو المدينة خاصة، الذين عاشوا والرسول العربي (ص) عدة سنوات ونهلوا بعمق من ينبوع الحقيقة التي كشفها النبي (ص). اما القبائل البعيدة فلم تمر بهذه التجربة الروحية. ففي عدة حالات، عندما يسلم زعيم القبيلة، تحذو القبيلة حذوه ولاءً له لا اقتناعا بالدعوة. فبوفاة محمد (ص) شعرت القبائل بانها حرة في نبذ ولائها الذي كان، في نظرها، مرتبطا بشخص لا بعقيدة. مات محمد (ص)، فهم يستطيعون اذن ان يلقوا بنير النظام الذي فرضه الدين الجديد سواء: في تحديد عدد الزوجات، وفي جمع الزكاة لفائدة المجتمع، وفي فرض الصلاة والصوم. فالزعماء الاقوياء الذين قادوا ثورة الردة فضلوا ان يكونوا احرارا في استغلال الضعفاء لمصلحتهم الخاصة، غير مقيدين بالقيود الأخلاقية التي فرضها عليهم الدين الحنيف.

ازدادت مخاوف المسلمين عندما اصبح ابو بكر خليفة لهم — أول خليفة في الاسلام. ولم يعرف عن أبي بكر انه كان يتمتع بمزايا قيادية بارزة من قبل، ولا يمكن سوى للعناية الالهية ان تسيّر سفينة الدولة خلال العاصفة التي تجمعت من كل جانب وبدأت تهدد وجود الثورة الاسلامية. وأزمات كهذه تتطلب قائداً قوياً، شديد المراس، وقديراً. ماذا كانت صورة أبي بكر؟ كان رجلا صغير الجسم، نحيلا، شاحب اللون، غائر العينين، رقيق الحاجبين. كان ظهره محنيا قليلا، مما اضفى عليه مهابة الشيخوخة، على الرغم من خضبه لحيته. على انه كان رقيقا وحساسا وعاطفيا، وكانت دموعه تنهمر من عينيه عندما يتأثر بأمر ما.

عندما تجمع الناس لمبايعة أبي بكر، وقف والقى أول خطاب له،

فحمد الله واثنى عليه ثم قال : « اما بعد أيها الناس فاني قد وليت عليكم ، ولست بخيركم . فان أحسنت ، فأعينوني . وان أسأت ، فقوّموني . الصدق امانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوي عندي ، حتى أريح عليه حقه ، ان شاء الله . والقوي منكم الضعيف عندي ، حتى آخذ الحق منه ، ان شاء الله . لا يدع احد منكم الجهادفي سبيل الله ، فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع الفاحشة في قوم الا عمهم الله بالبلاء . اطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله ، فلا طاعة لي عليكم . قوموا الى صلاتكم رحمكم الله [١] » .

كانت فضائل أبي بكر وخدماته الجليلة للاسلام معروفة . فشجاعته الشخصية ، وولاؤه للنبي (ص) الذي سمّاه « بالصديق » ، وقوته المعنوية العالية المبنية على المبادىء ، وايمانه المخلص للدين ، جميعها لم تكن موضع شك . وإذ كان ثالث رجل اعتنق الاسلام ، فمركزه بين « العشرة البررة » كان مرموقا حقا [٢] . ولكن هل كانت صفاته هذه تؤهله للقيادة في الاوقات العصيبة ؟ ولاسيما أن خروج جيش اسامةَ الى الشام ، الذي عرّض المدينة للخطر ، وزاد في مخاوف المسلمين.

حوالي منتصف أيار عام ٦٣٢م ، « ضرب النبي على الناس بعثا الى الشام ، وأمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه ، فأمره ان يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين فتجهز الناس ، وتوجه مع أسامة المهاجرون الأولون [٣] » .

كان اسامة يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، وهو ابن زيد بن حارثة أول قائد للمسلمين سقط في معركة مؤتة . ومع ان اسامة كان من عامة الناس ولم يكن من اسرة لها نفوذها في قريش ، الا ان النبي (ص) عينه قائدا على جميع المحاربين المشهورين الذين ينتمون الى أفضل القبائل . تجمع

---

(١) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٤٥٠.

(٢) — أول رجل اعتنق الأسلام هو علي ، والثاني هو زيد بن حارثة .

(٣) — الطبري — الجزء٢ صفحة ٤٢٩.

المقاتلون في مكان يقع غربي أحد، وأصبح هذا الحشد يعرف بـ : «جيش اسامة». وكانت هذه آخر حملة أمر بها النبي (ص)، ومن الممكن تسميتها «الحرب مع الروم».

حددت منطقة مؤتة الاردنية هدفا جغرافياً لاسامة. اذ أمره النبي (ص) أن يذهب الى المكان الذي قتل فيه أبوه، وأن يغزو تلك الاقاليم. آمراً إياه بالسرعة ويأخذ الادلاء. وارسال العيون امامه. وعندما توفي النبي (ص) في يوم الاثنين، الخامس من حزيران عام ٦٣٢م (١٢ ربيع الاول عام ١١ هجري) كان الجيش لا يزال في معسكره. وفي اليوم ذاته اصبح أبو بكر، ابن أبي قحافة، خليفة للمسلمين.

وفي اليوم التالي أصدر الخليفة أبو بكر تعليماته لجيش اسامة بالتأهب للمسير. وأرسل جميع اصحاب رسول الله القادرين على القتال للانضمام الى الجيش في معسكره والعمل تحت قيادة أسامة الشاب. حتى ان عمر، وهو من أقرب الأصدقاء الى أبي بكر، أرسل الى المعسكر.

استمر الاعداد في الأيام القليلة التالية على الرغم من وصول الانباء عن انتشار الردة السريع. وجاء عدد من المسلمين البارزين الى الخليفة وقالوا له : «ان هؤلاء جل المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين». فقال أبو بكر : «والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لانفذت بعث اسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته [1]».

ومرت أيام قليلة اخرى. واخذت الانباء تتوارد عن المرتدين. فوقف اسامة بالناس ثم قال لعمر: «ارجع الى خليفة رسول الله (ص) فاستأذنه يأذن لي أن أرجع بالناس فان معي وجوه الناس وحدهم ولا آمن على خليفة رسول الله وثقل رسول الله (ص) واثقال المسلمين ان يتخطفهم المشركون [2]». وقالت الأنصار «فان أبى الا ان نمضي فابلغه عنا واطلب

---

(١) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٦١.

(٢) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٦٢.

اليه ان يولي امرنا رجلا أقدم سنا من أسامة». فخرج عمر بأمر اسامة وأتى أبا بكر فأخبره بما قال اسامة فقال أبو بكر: «لو خطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم»، فقال عمر: «فان الانصار أمروني أن ابلغك وأنهم يطلبون منك أن تولي امرهم رجلا أقدم سنا من اسامة». فوثب ابو بكر وكان جالسا فأخذ بلحية عمر فقال له: «ثكلتك امّك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرني أن أنزعه [1]». فخرج عمر الى الناس، فقالوا له: ما صنعت، فقال: «امضوا ثكلتكم امهاتكم... ما لقيت في سبيلكم من خليفة رسول الله (ص)».

في الرابع والعشرين من حزيران عام ٦٣٢م (الأول من ربيع الثاني عام ١١ هجري)، انطلق جيش اسامة من معسكره. فخرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم، وهو ماش وأسامة راكب. وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر. فقال أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبّن أو لانزلن. فقال: «والله لا تنزل، ووالله لا أركب. وما علي أن أغبّر قدمي في سبيل الله ساعة، فان للغازي بكل خطّوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له، وسبعمائة درجة ترفع له، وترفع عنه سبعمائة خطيئة [2]».

وطلب ابو بكر من اسامة أن يترك له عمر، اذا رأى ذلك مناسبا، لكي يعينه. فاذن اسامة لعمر ان يبقى مع أبي بكر. بعد ذلك قال أبو بكر: «يا أيها الناس، قفوا أوصكم بعشر، فاحفظوها عني، لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكله [3]». ثم التفت أبو بكر الى اسامة وقال له: «اصنع ما أمرك به نبي الله صلى الله عليه وسلم وابدأ ببلاد قضاعة». فمضى

(١) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٤٦٢.
(٢) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٤٦٢.
(٣) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٤٦٣.

اسامة بجيشه لتنفيذ مهمته.

كان ارسال جيش اسامة خطيئة عسكرية في الظروف التي نشأت منذ وفاة النبي (ص) ولكن اذا نظرنا اليه من زاوية استراتيجية الثورة الاسلامية، أدركنا أنه عمل حكيم من قبل أبي بكر، لأنه بمثابة عرض القوة أمام المرتدين، لردعهم عن القيام بأعمال أكثر عنفاً.

كان أبو بكر مدفوعا لهذا القرار برغبته في تنفيذ آخر ارادة عسكرية للنبي (ص). لم يكن ارساله لجيش اسامة ناجماً عن نقص في الاستراتيجية، فقد كان ذا قدرة عسكرية كبيرة، كما برهن عاجلا في قيادته وادارته الحرب على المرتدين وفي فتوحات العراق وسورية.

ذهب جيش اسامة. واصبحت انباء انتشار الثورة وتحشد القبائل المعادية تزداد خطورة يوما بعد يوم. وازدادت مخاوف المسلمين. وعلى النقيض ابتهج المرتدون بتولي أبي بكر مقاليد الخلافة، وبارسال الجيش. وظنوا انهم قادرون على تحطيم الدولة الاسلامية بسهولة بعد أن أصبح أبو بكر مسؤولا عن ادارة شؤون المسلمين. واطمأن المرتدون، لانهم لن يواجهوا حدة عمر، أو بسالة علي الذي ليس له ند. انهم سيجابهون شيخا لطيفا.

ولكن المسلمين فوجئوا كما فوجىء المرتدون بالضربات العنيفة التي لقيها هؤلاء المرتدون على يدي الشيخ اللطيف. فقد هرب احد زعماء المرتدين أمام قوات أبي بكر وهو يصرخ برعب: «ويل للعرب من ابن أبي قحافة [1]».

أصبح الارتداد عاما حتى شمل كل قبيلة في الجزيرة العربية باستثناء أهالي مكة والمدينة وقبيلة ثقيف في الطائف. وفي بعض الحالات كانت القبيلة ترتد عن الاسلام بكاملها. وفي حالات اخرى كان قسم من القبيلة يرتد والقسم الثاني يظل متمسكا بالدين الحنيف، وكان على الكثيرين ممن بقوا مسلمين ان يدفعوا حياتهم ثمناً لعقيدتهم. أشعل نيران الارتداد الكذابون طليحة ابن خويلد، ومسيلمة بن حبيب، وسجاح بنت الحارث. كان مسيلمة دجالا منذ بعض الوقت، بينما ادعى النبوة في أثناء مرض

(١) — البلاذري — صفحة ١٠٤

النبي (ص). وكان الخطر الداهم الذي يتهدد المدينة يتركز في طليحة وقبائل الجزيرة العربية التي سارت وراءه.. وهذه القبائل هي غطفان، وطيىء، وهوازن، وبنو اسد، وبنو سليم.

كان المرتدون يحتشدون في منطقتين قرب المدينة هما: «الابرق». وتقع على بعد ٧٠ ميلا شمال شرق المدينة، «وذو القصة» وتقع على بعد أربعة وعشرين ميلا شرقي المدينة.

كانت هذه التحشدات تضم غطفان، وهوازن، وطيئاً، وبعد اسبوع مضى على تحرك جيش اسامة، أرسل أهل الردّة من ذي القصة وفدا الى أبي بكر فعرضوا ان يقيموا الصلاة على ان يعفوا عن الزكاة. ولكن أبا بكر أبى الا ما كان رسول الله يأخذ وأبوا، فردّهم وأجّلهم يوما وليلة.

فوجىء الوفد بقوة شكيمة أبي بكر وثقته بنفسه، ومع ذلك فقد منحهم يوماً وليلة للتفكير. وفي صباح اليوم التالي غادر الوفد المدينة دلالة على رفضه لطلبات أبي بكر. فأرسل أبو بكر مبعوثيه بعد ذهاب الوفد مباشرة الى جميع القبائل المرتدة يدعوهم الى البقاء مخلصين للاسلام والاستمرار بدفع الزكاة.

لكن وفد المرتدين من ذي القصة، ألقى نظرة متفحصة على المدينة قبل مغادرته لها، ولاحظ خلوها من المقاتلين. وعندما عاد الوفد أخبر القبائل المتجمعة عن محادثته مع أبي بكر وحالة المدينة الخالية من الرجال. وفي غضون ذلك عزز طليحة، الموجود في سميراء، المرتدين في ذي حسا بقوة من المتطوعين بقيادة أخيه «حبال»، وهو قائد ذو حيلة واسعة ودهاء. وعندما سمع المرتدون بأخبار الوفد، قرروا، بدافع الغرور، أن يهاجموا المدينة وهي خالية من القوات المدافعة. وهكذا، تحركت القوة الموجودة في ذي القصة الى ذي حسا، ومنها تقدم جزء من القوة الى قرب المدينة وعسكر استعداداً لمهاجمتها. وقد تم ذلك في النصف الثاني من تموز عام ٦٣٢م (أواخر ربيع الثاني عام ١١ هجري).

وصلت أنباء هذا التحرك الى أبي بكر، وفي الحال بدأ تنظيم الدفاع عن

المدينة . كان الجيش الرئيسي بقيادة اسامة بعيداً عن المدينة ، لكنها لم تكن بدون دفاع كما توهم المرتدون . بل كان فيها بعض المحاربين ، ومن بني هاشم خاصةً عشيرة الرسول (ص) ، الذين بقوا في المدينة لتشييع جثمان النبي (ص) . فشكل أبو بكر من هؤلاء قوة مقاتلة . وقويت ثقة أبي بكر ، وهي لا تهتز أبداً ، بوجود شجعان معه مثل : علي ، والزبير بن العوّام ، وطلحة ابن عبيد الله ، فعيّن كلاً منهم قائداً على ثلث القوة المشكلة حديثاً .

ساد الهدوء مدة ثلاثة أيام ، لم يبد فيها المرتدون نشاطاً قتالياً لترددهم كيف يبدؤون . انطلق المسلمون من المدينة بناء على أوامر أبي بكر . فشنوا هجوماً سريعاً على موقع المرتدين المتقدم وطردوهم فانسحب هؤلاء الى ذي حسا . فأبلغ المسلمون أبا بكر بنجاحهم ، فأمرهم أن يبقوا حيث هم وينتظروا تعليماته .

وفي اليوم التالي انطلق أبو بكر من المدينة ومعه قافلة طويلة من جمال ليست للركوب والحرب لأن هذه كانت جميعها مع أسامة . وعندما وصلت الجمال الى معسكر المرتدين المهجور ، ركبها المسلمون وتقدموا الى ذي حسا قاعدة المرتدين .

وكان الأعداء بانتظارهم . وقد أظهر «حبال» شقيق طليحة ، دهاءه العسكري . اذ وضع رجاله خلف قمة منحدر أمام القاعدة وباتجاه تجمع المسلمين .

وصعد المسلمون المنحدر على ظهور جمالهم غير شاعرين بالعدو الذي كان ينتظرهم خلف قمة المنحدر . وعندما اقترب المسلمون من القمة ، وقف المرتدون وقذفوا عدداً لا يحصى من قرب الماء وعندما تدحرجت هذه القرب من قمة المنحدر باتجاه المسلمين ، انفجر صوت عال من صفوف المرتدين ، الذين بدؤوا بقرع الطبول والصياح . وعندما فوجئت الجمال غير المدربة على القتال ، اضطربت ولاذت بالفرار . فبذل المسلمون أقصى جهدهم للسيطرة على الجمال المذعورة ولكن بدون جدوى . وفي الحال عادت قوة المسلمين الى المدينة ثانية .

فرح «حبال» بخطته . فقد أرغم المسلمين على الرجوع الى المدينة ولم يطلق سهماً واحداً . لكنه ارتكب خطيئة كبرى إذ تصور أن المسلمين قد ذعروا ، وأن تراجعهم السريع الى المدينة كان علامة ضعف . ولم يعرف أن الجمال التي كان يمتطيها المسلمون هي التي ذعرت لا الرجال الذين على متنها . وقد أبلغ «حبال» جزءاً من قواته الموجودة في ذي القصة بهذا النجاح واستدعاه للتقدم الى الأمام . وفي الليلة نفسها تقدمت جميع قوات المرتدين الى مكانها السابق وأقامت معسكرها مرة ثانية قرب المدينة وهو المكان نفسه الذي انسحب منه المرتدون في اليوم السابق . وكانت معنويات المرتدين عالية .

كان غضب المسلمين شديداً ، وقد عقدوا العزم على اعادة الكرة والاشتباك مرة أخرى . وعرف أبو بكر أن المرتدين قد عادوا الى معسكرهم قرب المدينة ، فقرر أن يهاجمهم قبل أن يستطيعوا اتمام استعداداتهم للمعركة . وبناء على تعليماته ، قضى المسلمون معظم الليل في اعادة تنظيم جيشهم الصغير والتجهيز للمعركة .

خلال الهزيع الأخير من الليل ، قاد أبو بكر جيشه وسار به الى المدينة استعداداً للهجوم . ووزع جيشه على النحو التالي : القلب ، والجناحان ، وحرس المؤخرة . وتسلم هو قيادة القلب ، وسلم قيادة الجناح الايمن للنعمان ابن مقرن ، والجناح الأيسر لعبدالله بن مقرن ، وحرس المؤخرة لسويد بن مقرن . وقبل طلوع الفجر ، كان الجيش يتحرك باتجاه معسكر المرتدين الذين أخلدوا للنوم ثقة منهم بقدرتهم على احراز نصر سهل في الغد .

فوجىء «حبال» هذه المرة . فعندما لاحت تباشير الفجر ، انقض المسلمون وهم يصيحون «الله أكبر» بعنف على المعسكر والسيوف تلوح بأيديهم . فقتل الكثير من المرتدين ، وأطلق عدد كبير منهم سيقانهم للريح ولم يتوقفوا حتى وصلوا الى ذي القصة . وانهارت معنوياتهم الى الحضيض .

كسب أبو بكر هذه الجولة ، التي كانت عملاً تكتيكياً دامياً أدى الى طرد المرتدين بالسيف وليس بالحيلة فقط . فقد قرر أبو بكر أن يأخذ العدو

على حين غرة وبذلك حقق المفاجأة التي ساعدته على الانتصار برغم تفوق عدوه عدذياً . وكان أبو بكر بحاجة الى نصر تكتيكي ، وقد تمكن من احرازه . ومن الملاحظ أن هذه المعركة تعتبر أول مثال في التاريخ الاسلامي على الهجوم الليلي الذي هو عبارة عن اسلوب تكتيكي لم يصبح مألوفاً حتى الحرب العالمية الأولى .

بعد أن كسب أبو بكر هذه الجولة ، قرر الاّ يتيح فرصة لاعدائه . وعزم على ملاحقتهم قبل أن يفيقوا من الصدمة وقبل أن يعيدوا تنظيم صفوفهم . فعندما طلعت الشمس ، سار الى ذي القصة .

عند وصوله الى ذي القصة ، شكل قواته للمعركة كما شكلها في الليلة السابقة ، ثم شن هجومه . فصمد المرتدون أمام الهجوم ، لكن قواهم المعنوية كانت منخفضة ، فبعد مقاومة بسيطة انسحبوا أمام المسلمين وتراجعوا الى « الأبرق » حيث كان يتجمع عدد كبير من افراد قبائل غطفان وهوازن وطيء .

بعد ان استولى أبو بكر على ذي القصة ، أرسل قوة صغيرة بقيادة طلحة ابن عبيدالله لمطاردة العدو . تقدم طلحة مسافة قصيرة وقتل بعض الهاربين ، لكن صغر حجم قوته منعه من انزال خسائر كبيرة بالمرتدين المنسحبين .

تم الاستيلاء على ذي القصة في الثلاثين من تموز عام ٦٣٢ م (الثامن من جمادي الأولى ، عام ١١ هجري) . وترك أبو بكر النعمان بن مقرن مع مفرزة للتمسك بذي القصة . وعاد بسائر القوة الى المدينة . وفي الثاني من آب ، عاد جيش اسامة الى المدينة ، وزال عن عاصمة الاسلام الخطر .

عندما ترك اسامة المدينة ، سار الى تبوك ، فقاومته معظم القبائل في هذه المنطقة بعنف ، لكن اسامة المملوء بحيوية الشباب وحماستها ، اكتسح تلك المناطق في شمال الجزيرة العربية مبتدئاً بقبيلة قضاعة التي تبعثرت من جرّاء ضربات قواته ، ثم تقدم الى دومة الجندل (حيث أسر خالد اكيدر قبل عامين) . وقد قتل اسامة جميع الذين حاربوه وأحرق البساتين والقرى ،

تاركاً وراءه سحب الدخان [1] .

ونتيجة لعملياته، خضعت عدة قبائل للمدينة وعادت الى حظيرة الاسلام مرة ثانية . لكن قضاعة بقيت ثائرة ، وقد حاربها فيا بعد عمرو بن العاص .

سار أسامة الى مؤتة ، وحارب قبائل كلب وغسان وثأر لموت أبيه . ولكن ، لم تنشب معارك كبيرة . ثم عاد الى المدينة ومعه عدد كثير من الأسرى ومن غنائم الحرب وأموال الزكاة التي دفعتها القبائل . استقبل أبو بكر وأهل المدينة جيش أسامة بحفاوة بالغة .

وكان لعودته ارتياح كبير في صفوف المسلمين . وقد بقي جيش اسامة بعيداً عن المدينة مدة أربعين يوماً .

بعد هزيمة المرتدين في ذي القصة ، انتقمت معظم القبائل المرتدة من افرادها الذين بقوا مسلمين وذلك بذبحهم . وتم ذلك بدون شفقة أو رحمة ، فبعضهم حرق حياً وبعض آخر رمي من أعلى الصخور الشاهقة . وعندما علم أبو بكر بالأعمال الرهيبة هذه، غضب غضباً شديداً وأقسم بأن يقتل كل مشرك قتل مسلماً وأن يهاجم كل قبيلة مرتدة-بالسيف .

اختلف الموقف العسكري الآن عند المسلمين ، فالانتصارات التي حققها أبو بكر رفعت من قواهم المعنوية على الرغم من أنها لم تكن حاسمة . وندمت بعض القبائل المرتدة التي تسكن قرب المدينة وعادت الى الدين مرة ثانية ودفعت الزكاة . كذلك عاد جيش اسامة بالاسرى والأموال . فامتلأت خزائن الدولة الاسلامية مرة أخرى وقامت قاعدة مادية سليمة لتمويل جميع الحملات على اعداء الثورة الاسلامية .

قرر أبو بكر أنه يحتاج الى وقت كثير قبل أن يشن هجوماً عاماً ، وذلك لكي يتيح الفرصة لجيش اسامة لأخذ قسط وافر من الراحة واعادة التجهيز . لذلك أمر أسامة أن يريح جنوده في المدينة ، وبعمله هذا ضمن الحماية للعاصمة . أصبحت القوة التي سبق أن أعدّها أبو بكر ، قبل رجوع

(١) ابن سعد — صفحة ٧٠٩ .

جيش أسامة ، تبدو جيشاً ، فقرر أن يستخدم هذا الجيش في هجوم آخر على المرتدين المجتمعين في الأبرق الى أن ينتهي أسامة من اراحة جنوده واعادة تجهيز جيشه . وأصبح أبو بكر الآن متأهباً للحرب كل التأهب ، لا لانزال العقاب بالقبائل المرتدة على جريمة الارتداد فحسب ، وانما للثأر لدم المسلمين الابرياء الذين قتلهم المرتدون .

عندما أعلن أبو بكر عن نيته في قيادة جيشه الى الأبرق ، حاول ذوو الرأي من المسلمين رده عن ذلك . وقالوا له : «ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فانك ان تصب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو ، فابعث رجلاً فان اصيب أمرت آخر» .

لكن أبا بكر كان ينوي وضع حمل ثقيل على كاهل المسلمين من قادة ووحدات . فهو على وشك أن يطلب منهم أن يقاتلوا كما لم يفعلوا من قبل وأن يواجهوا الأخطار التي سوف تواجه معظم المحاربين . ولم يستطع أن يجد طريقة أفضل تلائم توقعاته سوى أن يخطو هذه الخطوة بنفسه . فقال لهم أبو بكر : «لا والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي» [١] .

خرجت القوة الصغيرة بامرة أبي بكر الى ذي القصة ، حيث كان النعمان في انتظاره . (احرز النعمان بن مقرن هذا شهرة كبيرة فيما بعد بسبب انتصاره في نهاوند من بلاد فارس) . وهنا عين أبو بكر النعمان واخوته كقادة للجناحين وحرس المؤخرة ، كما فعل في هجومه الليلي ، وانطلق الى الأبرق . وكان ذلك في الاسبوع الثاني من آب (الاسبوع الثالث من جمادي الأولى) .

عندما وصل المسلمون الى الأبرق وجدوا ان العدو منظم بترتيب القتال ، فاسرع أبو بكر الى فتح قواته وهاجم المرتدين .

لم تكن معنويات المرتدين آنذاك مرتفعة كما كانت منذ إسبوعين . فالقوات التي هربت من ذي القصة هي نفسها التي انضمت الى المرتدين في الأبرق ، وكما جرت العادة في مثل هذه الحالات ، أثر وصولهم في قوى الآخرين المعنوية . واستطاع المرتدون أن يصمدو وقتاً ، بسبب تفوقهم

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٤٧٩ .

العددي ، لكنهم ما لبثوا أن دحروا وهربوا فحقق أبو بكر انتصاراً آخر .

ذهبت بقية المرتدين الذين هربوا من الأبرق ، وقبائل أخرى معينة من هذه المنطقة الى البزاخة ، وانتقل طليحة الكذاب الى سميراء . لكن قبائل أخرى تعيش في هذه المنطقة استسلمت للقوات التي أرسلها أبو بكر بعد الأستيلاء على الأبرق لاخضاع المناطق المجاورة . وتم جمع الزكاة من القبائل التي عادت ثانية الى الاسلام .

في اليوم التالي غادر الخليفة أبو بكر الأبرق متوجهاً الى المدينة . وهنا قضى بضعة أيام في تصريف شؤون الدولة ، ثم انتقل الى ذي القصة مع جيش «اسامة» . عند ذلك تخلى هذا الجيش عن تسميته بجيش أسامة ، لأن أسامة انجز المهمة المطلوبة منه وأصبح جيشه بعد ذلك يعرف باسم جيش الاسلام الذي وضع تحت تصرف الخليفة لاستخدامه حسب متطلبات الموقف ، وبذلك انتهت قيادة اسامة لهذا الجيش .

نظم أبو بكر في «ذي القصة» جيش الاسلام وقسّمه الى عدة ألوية للتعامل مع الأعداء الذين احتلوا جميع أراضي الجزيرة العربية باستثناء منطقة صغيرة كانت بحوزة المسلمين . وللمرة الأولى نُظم جيش المسلمين في ألوية ، على كل لواء أمير (قائد) ، وذلك لتنفيذ مهام مستقلة وفق التوجيه الاستراتيجي العام للخليفة . كان القادة المسلمون حتى ذلك التاريخ يعملون على المستوى التكتيكيّ ، أما من الآن فصاعداً فسوف يدخلون عالم الاستراتيجية . وقد أثبت التاريخ العسكري أنهم جديرون بذلك .

خطط أبو بكر في ذي القصة استراتيجية الحرب ضد المرتدين وذلك في الاسبوع الرابع من آب عام ٦٣٢ م (أوائل جمادي الآخرة عام ١١ هجري) . كانت المعارك التي خاضها أبو بكر في ذي القصة والأبرق عبارة عن عمل وقائي لانقاذ المدينة ولتثبيط همة العدو عن القيام بهجمات أخرى ، وذلك لكسب الوقت من أجل اعداد قواته الضاربة الرئيسية وتجهيزها . ويمكن وصف الأعمال الوقائية التي نفذها أبو بكر بأنها هجمات تمهيدية ، فهي قد مكنت أبا بكر من تأمين قاعدة انطلاق لشن الحملة الرئيسية منها .

كان على أبي بكر أن يقاتل عدة أعداء وليس واحداً ، وهؤلاء الأعداء هم : طليحة الدجال في البزاخة ، ومالك بن نويرة في البطاح ، ومسيلمة الكذاب في اليمامة . وكان عليه أن يحارب المرتدين المنتشرين على السواحل الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية : في البحرين ، وعمان ، ومهرة ، وحضرموت ، واليمن . وكان مرتدون أيضاً في المنطقة جنوب وشرق مكة . وفي شمال الجزيرة العربية تظاهرت قضاعة بأنها رجعت الى الدين بعد عودة جيش أسامة .

كان موقف المسلمين يشبه جزيرة صغيرة من الايمان في بحر من الكفر ، ولم يكن عمل أبي بكر مقتصراً على المحافظة على الشعلة متقدة فقط ، بل كان عليه أن يبدد الظلام ويسحق قوى الشر التي تجمعت من كل جانب وأصبحت مصدر تهديد للاسلام . كان عدد المرتدين يفوق عدد المسلمين كثيراً ، على الرغم من أنهم غير متحدين . وكانت قوة أبي بكر العسكرية تكمن بوجود أبرع المقاتلين في صفوف المسلمين . بالاضافة الى وجود سلاح رهيب لديه ــ هو سيف الله خالد بن الوليد .

وضع أبو بكر خططه الاستراتيجية وفق ما ذكرنا آنفاً . فقسّم الجيش الى عدة ألوية أقواها لواء خالد الذي كان بمثابة قوة ضاربة للمسلمين . وكان على هذا اللواء أن يحارب أقوى المرتدين ويخضعهم . وأعطيت الألوية الأخرى مناطق أقل شأناً لاخضاع قبائل المرتدين الأقل خطراً بعد سحق مقاومة العدو . وأبقي لواءان كاحتياط لتعزيز لواء خالد أو أي لواء يحتاج الى مساعدة . كان على لواء خالد أن يبدأ بخوض المعركة ، وستزج باقي الألوية في المعركة على ضوء نتائج عمليات خالد الذي أعطي مهمة محاربة أقوى قوات العدو. كانت خطة أبي بكر تقضي بتطهير أواسط غرب الجزيرة العربية أولاً (المنطقة القريبة من المدينة) ، ثم اخضاع مالك بن نويرة ، وأخيراً التركيز على أخطر الاعداء ، مسيلمة الكذاب . أي أن أبا بكر كان يهدف الى حشد قواته ضد الجيوش المعادية الرئيسية والقضاء على كل جيش على انفراد وبالتتالي ، ثم تطهير المناطق القريبة فالبعيدة .

شكل الخليفة أبو بكر عشرة ألوية ، وعين لكل لواء قائداً . وأعطى لكل لواء راية . ووزع القوة البشرية المتوفرة لديه على هذه الألوية . وبينما أسندت مهام فورية لبعض القادة . فقد أسندت مهام لقادة آخرين للقيام بمهام معينة فيما بعد . وأعطيت تعليمات لأمراء الالوية لضم الرجال الشجعان الى ألويتهم وهم في طريقهم الى أهدافهم . وفيما يلي أسماء قادة الالوية العشر والمهام التي أسندت اليهم :

١ ــ خالد : التوجه الى طليحة بن خويلد في البزاخة ، ثم الى مالك بن نويرة في البطاح .

٢ ــ عكرمة بن أبي جهل : التوجه الى مسيلمة الكذاب في اليمامة دون الاشتباك معه الى أن يتم تجهيز قوات أكثر عدداً .

٣ ــ عمرو بن العاص : التوجه الى قبيلتي قضاعة ووديعة في منطقتي تبوك ودومة الجندل .

٤ ــ شرحبيل بن حسنة : التقدم خلف عكرمة جاهزاً لتلقي تعليمات الخليفة .

٥ ــ خالد بن سعيد : التوجه الى القبائل المرتدة على مشارف الشام .

٦ ــ طريفة بن حاجز : التوجه الى قبيلتي هوازن وبني سليم في منطقة شرقي المدينة ومكة .

٧ ــ العلاء بن الحضرمي : التوجه الى المرتدين في البحرين .

٨ ــ حذيفة بن محصن : التوجه الى المرتدين في عمان .

٩ ــ عرفجة البارقي : التوجه الى المرتدين في مهرة .

١٠ ــ المهاجر بن أبي أمية : التوجه الى المرتدين في اليمن ، ثم الى قبيلة كندة في حضرموت . راجع الخريطة الثانية لحروب الردة في الشكل رقم ٨ .

انطلق خالد لمحاربة المرتدين عندما تم تنظيم لوائه ، ثم تبعه بعد فترة قصيرة عكرمة وعمرو بن العاص . وقد استبقى الخليفة أبو بكر الألوية الأخرى حيث أرسلها بعد أسابيع ، أو حتى أشهر . وكان ارسالها مشروطاً

بنجاح عمليات خالد المتوجهة الى أصلب الأعداء .

ومن الجدير بالذكر ان الخليفة ابا بكر أرسل المبعوثين، قبل ان تترك الألوية ذا القصة، الى جميع القبائل المرتدة في محاولة أخيرة لاقناعهم بالعودة الى جادة الحق . وقد أعطيت تعليمات محددة الى المبعوثين تنص على ما يلي : الطلب الى القبائل المرتدة ان تعود الى الاسلام وتعلن خضوعها التام ، فاذا قبلت القبائل بذلك فانها ستمنح العفو والسلام ، واذا لم تقبل فانها ستحارب الى أن يتم القضاء على المقاومة وستؤخذ نساؤها واطفالها سبايا ، وقبل الهجوم على أية قبيلة ، ترفع قوات المسلمين الأذان ، فاذا استجابت القبيلة للآذان اعتبر ذلك خضوعاً .

كذلك أعطى الخليفة تعليمات واضحة الى امراء الالوية :

« (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه ، لقتال من رجع عن الاسلام ، وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله ، سرّه وعلانيته. وأمره بالجد في أمر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن الاسلام الى أماني الشيطان بَعد أن يعذر اليهم ، فيدعوهم بداعية الاسلام ، فان اجابوه أمسك عنهم ، وان لم يجيبوه شن غارته عليهم ، حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ، لا ينظرهم ، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم . فمن أجاب الى أمر الله عز وجل ، وأقر له قبل ذلك منه ، وأعانه عليه بالمعروف وان يقاتل من كفر بالله ، فاذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسربه . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مراغمة ، لا يقبل من أحد شيئا أعطاه الا الاسلام ، فمن اجابه ، وأقر قبل منه وعلمه ، ومن أبى قاتله ، فان اظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه ، الا الخمس فانه يبلغناه وان يمنع اصحابه العجلة والفساد ، وان لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لئلا يكونوا عيونا ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ،

وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول » [1]

(١) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٦١.

٣ — القضاء على طليحة الدجال :

كان طليحة بن خويلد أول من اصطدم بالمسلمين من بين المتنبين الكذابين الذين بقوا بعد موت «الأسود». وكان طليحة زعيما لقبيلة بني أسد، وقد ناصب النبي (ص) العداء ردحا من الزمن

كشف طليحة عن عدائه للمسلمين بعد غزوة أحد بثلاثة أشهر. اذ اعتقد ان المسلمين قد أوذوا بشدة في المعركة، فجمع قبيلته للاغارة على المدينة مستغلاً فرصة ضعفهم، لكن النبي علم بتحشد القبيلة وأرسل قوة من الفرسان تعدادها مائة وخمسون فارسا للقائها. وقبل ان تصل أنباء هذا التحرك المضاد الى طليحة، كانت خيالة المسلمين قد وصلت اليه. فتفرّق المشركون بدون قتال، واستولى المسلمون على قطعان ماشية القبيلة وساقوها الى المدينة غنائم حرب. وأثرت هذه النتيجة السيئة على طليحة وقلّلت من قيمته في نظر قبيلته.

ثم اشترك طليحة في غزوة الخندق. اذ استجاب الى نداء اليهود لحمل السلاح على المسلمين، وشكل مفرزة من المقاتلين من بني أسد وضمّها الى الاحزاب التي حاصرت المدينة. وعندما انسحب أبو سفيان من المدينة، عادت قبيلة بني أسد الى قراها، وفي هذه المرة أيضا لم يحقق طليحة شيئا.

كانت الحادثة التالية التي جابه فيها طليحة المسلمين هي عندما وجه المسلمون حملة على يهود خيبر في عام ٦٢٨م (عام ٧ هجري). فانحازت قبيلة بني أسد بزعامة طليحة الى اليهود، وشن طليحة عددا من الهجمات على المسلمين أثناء توجههم الى خيبر لكنه دحر في جميع هذه الاشتباكات.

عندئذ سحب طليحة قواته وترك اليهود لمصيرهم.

بعد سنتين، خلال «عام الوفود»، أرسلت بنو أسد وفدا الى المدينة لتقديم الولاء الى النبي (ص). ودخلت القبيلة بأكملها في الاسلام، ولكن اعتناقها للإسلام كان لاسباب سياسية، مثلما فعل عدد كبير من قبائل الجزيرة العربية، وليس بدافع الايمان الحقيقي، واعتنق طليحة الاسلام ظاهريا ايضا. وظل طليحة زعيما لقبيلته سواء كان مشركا أم مسلما. كما ظل كاهنا يتنبأ بالمستقبل ويقرض الشعر.

وفي أثناء مرض الرسول العربي (ص)، وقبل رحيله الى الرفيق الأعلى ببضعة أيام، عزم طليحة على الاستقلال فأعلن نفسه نبيا. ودعا أفراد قبيلته الى مبايعته، وقد تبعه الكثيرون. وعندما وصله نبأ وفاة النبي (ص)، ضاعف جهوده ليكون النبي الجديد، وعندما انتشرت عدوى الردّة في الجزيرة العربية، سارت قبيلة بني أسد بكاملها وراء رايته، وقبلت به زعيما ونبيا. ولكي يظهر انفصام روابطه بالمدينة، طرد جابي الزكاة في منطقته وهو شاب صنديد يدعى ضرار بن الأزور.

بعد أن أعلن طليحة نفسه نبيا، شعر بأن من الضروري ان يفعل شيئا يتعلق بالدين لكي يبرهن انه حقا رسول من عند الله. فهداه تفكيره الى أن يغير طريقة الصلاة. فألغى الركوع والسجود اللذين هما جزء أساسي من فريضة الصلاة التي يقيمها المسلمون. وقال: «ان الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وتقبيح أدباركم شيئا. اذكروا الله واعبدوه قياما».

وصلّت قبيلة بني أسد بدون ركوع وسجود بناء على توصية نبيّهم الدّجال، بعضهم عن غفلة وبعضهم عن عصبية.

وبانتشار الردّة ارتفعت قوى اتباعه المعنوية. وتلقى طليحة المساعدات من القبائل الرئيسية الموجودة في أواسط شمال الجزيرة العربية، وكانت أخلصها قبيلة غطفان، وكانت قبيلة بني أسد على حلف مع هذه القبيلة منذ زمن بعيد. وقدّمت مساعدة أخرى من قبيلتي هوازن وبني سليم، لكن هذه المساعدة كانت ضئيلة. ومع ان هاتين القبيلتين ارتدتا

عن الاسلام وحاربتا المسلمين، الا انهما لم تنضما الى طِليحة ولم تحاربا تحت لوائه.

كان عيينة بن حصن أقوى مساعد لطليحة، وكان عيينة — وهو بعين واحدة — زعيما لبني فزارة وهي احدى بطون غطفان القوية. وهو الذي كان يقود مقاتلي غطفان في غزوة الخندق، والذي أطلق عليه النبي (ص) اسم: «الأحمق». وقد كان أحمق فعلا باتباعه طليحة. وعلى «الرغم من ذلك، لم يكن عيينه مؤمناً بالدجّال ايماناً صادقاً لأنه قال يوماً: «والله لأن نتبع نبياً من الحليفين: أسد وطيّىء أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش وقد مات محمد (ص) وبقي طليحة فطابقوه على رأيه[1]». وكانت مساعدته ذات قيمة حقيقية، لأنه وضع قبيلة بكاملها تحت سلطة طليحة.

جمع طليحة قبيلة بني أسد في سميراء. وقبلت به طيّىء أيضا زعيما ونبيا، لكنها بقيت في منطقتها شمال وشمال شرق خيبر باستثناء مفرزة صغيرة انضمت اليه في سميراء. وهنا بدأ طليحة بالاستعداد لمحاربة قوات المسلمين.

عندما سمع طليحة بتجمع القبائل في الابرق وذي القصّة، أرسل مفرزة من قبيلته بقيادة أخيه «حبال» لتعزيزها. ولقد سبق أن وصفت عمليات المسلمين ضد ذي القصبة والابرق. فبينما كانت هذه العمليات دائرة، تحرك طليحة بجيشه الى بزاخة، حيث انضم اليه فيما بعد بقايا المرتدين الذين طردوا من الابرق.

تمت استعدادات طليحة في بزاخة بسرعة. وأرسل المبعوثين الى عدة قبائل يدعوها الى الانضمام اليه، واستجابت عدة قبائل لدعوته. واتى عيينة على رأس سبعمائة محارب من بني فزازة. وكانت أكبر القوات من بني أسد وغطفان. وكان يوجد أيضا مفرزة من طيّىء، لكن القوة الرئيسية من طيّىء لم تأت الى بزاخة.

كان طليحة مستعدا للمعركة عندما انطلق خالد من ذي القصّة.

لجأ أبو بكر الى وسائل شتى، قبل ان يزج بخالد ضد طليحة،

(١) الطبري — الجزء ٢، ص ٤٨٧

لاضعاف طليحة ودعم خالد. ففي قبيلتي بني أسد وغطفان لا سبيل للعمل لوقوفها بثبات خلف طليحة، أما في طيّىء فالأمر مختلف. ففي الحقيقة لم تكن مخلصة، تماما، في مساعدتها للدّجال، وكان زعيمها عدي بن حاتم مسلما ورعا. (لقد عاش هذا الرجل مائة وعشرين عاما، وكان طويلا لدرجة انه عندما كان يمتطي صهوة جواده كانت قدماه تلامسان الأرض [1]). وعندما حاول عدي أن يمنع ارتداد طيّىء عن الاسلام، انفضت القبيلة من حوله وكانت النتيجة ان ترك قبيلته مع عدد من اعوانه المخلصين والتحق بالخليفة أبي بكر. فقرر أبو بكر ان يقوم بمحاولة ابعاد طيّىء عن طليحة. واذا لم يتمكن من اقناعهم بتخذيل طليحة، فانه سيحاربهم ويسحقهم بسرعة في مكانهم الحالي قبل أن يتمكنوا من اللحاق به في بزاخة. وبهذه الطريقة سيحرم طليحة من مساعدة طيّىء.

وأرسل أبو بكر زعيم طيّىء ليقنع قبيلته. وسار معه خالد، وكان لواء خالد يعدّ أربعة آلاف رجل. وقال أبو بكر لخالد: «واذا باءت جهود عدي بالفشل، فابدأ بطيىء على الاكناف وقاتلها هناك [2]». وكان على خالد أن يتوجه الى بزاخة بعد الانتهاء من طيّىء.

انطلق خالد من ذي القصّة باتجاه الشمال قاصدا بزاخة. وقبل ان يصل الى بزاخة، اتجه يسارا واقترب من المنطقة الواقعة جنوب جبال «أجأ» والتي تنزل فيها قبيلة طيّىء. وهنا تقدم عدي الى الامام وخاطب أفراد قبيلته: تكلم عن الله ورسوله (ص)، وعن نار جهنم، وعن عدم جدوى المقاومة، ولكن على الرغم من بلاغته ونصاعة بيانه لم يفلح في التأثير عليهم. وعارضه ذوو الرأي منهم، عندئذ حذّرهم عديّ قائلا: «لقد أتاكم قوم ليبحن حريمكم ولتكتنه بالفحل الأكبر، فشأنكم به».

لقد أثمر تحذير عدي، فقال له ذوو الرأي من قبيلته: «امنع الجيش عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا فانا ان خالفنا طليحة وهم في يديه

(١) ابن قتيبة — ص ٣١٣.

(٢) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٤٨٣.

قتلهم أو ارتهنهم ».

فعاد عديّ الى معسكر المسلمين وشرح الموقف لخالد، لكن خالدا لم يكن في موقف يسمح له بتضييع الوقت في المفاوضات. كما كان متشددا ضد الردة ولم يكن على استعداد لأن يكون لينا مع اولئك الذين حوّلوا الايمان الى كفر، لكن عدياً توسل الى خالد قائلا: «ياخالدامسك عني ثلاثا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك وذلك خير من ان تعجلّهم الى النار وتشاغل بهم [1] ». فوافق خالد على الانتظار.

فأرسل شيوخ طيّىء مفرزة من الخيالة الى طليحة كأنها تعزيز لقواتهم الموجودة معه. وبدأت المفرزة بالعمل سراً لابعاد قوات طيّىء عن طليحة قبل وصول خالد بزاخة. وقد نجحت المفرزة بمهمتها. ولم يشترك الا العدد القليل الذي بقي من طيّىء مع طليحة في معركة بزاخة.

ووافق خالد على عدم مهاجمة طيّىء، وفي غضون ذلك قرّر ان يتوجه الى قبيلة مرتدة اخرى فارتحل نحو الانسر يريد جديلة. فقال له عديّ: «ان طيئا كالطائر، وان جديلة أحد جناحي طيّىء فأجلّني اياما لعل الله ان ينتقذ جديلة كما أنتقذ الغوث، ففعل. فأتاهم عديّ فلم يزل بهم حتى بايعوه فجاءه باسلامهم ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب فكان خير مولود ولد في أرض طيّىء واعظمه عليهم بركة [2]». أصبح خالد الآن أقوى مما كان عليه عندما انطلق بلوائه من ذي القصة الى بزاخة. وفي طريقه الى بزاخة استطاع ان يضم مقاتلين جدد الى صفوفه.

وعندما أصبح خالد على مسيرة يوم من بزاخة، بعث عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم، وهما من الانصار، طليعة. فتقابل هذان الرجلان مع اثنين من المرتدين كانا يقومان أيضا بمهمة الاستطلاع للعدو، وكان «حبال» احدهما وهو شقيق طليحة. فقتل «حبال»، لكن الآخر هرب ليحمل الانباء السيئة الى الدّجال.

---

(١) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٨٣.

(٢) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٨٣.

غضب طليحة لنبأ مقتل أخيه وتقدم مع شقيقه الثاني ، «سلمة» . وتقابل المرتدان والمسلمان. وحدثت مبارزتان بين الخصمين. وكان طليحة وعكاشة خبيرين باستخدام السيف وظلا يقتتلان طويلا بعد ان قتل سلمة ثابت بن أقرم. وفي النهاية خرّ عكاشة صريعا امام طليحة. وبقيت جثتا ثابت وعكاشة على الأرض الى أن قدم باقي المسلمين فتعزفوا عليهما ودفنوهما. وقد جزع لموتهما المسلمون وقالوا : «قتل سيدان من سادات المسلمين وفارسان من فرسانهم» .

عندما وصل خالد الى الجزء الجنوبي من سهل بزاخة ، عسكر على مسافة قصيرة من معسكر المرتدين. ومن هذين المعسكرين تتحرك القوتان المتخاصمتان للمعركة. كان ميدان المعركة يتألف من سهل بزاخة — وهو سهل منبسط يحيط به من الجهتين الغربية والشمالية عدد قليل من التلال الصخرية قليلة الارتفاع. وهذه التلال امتداد للسفوح الجنوبية الشرقية لجبال «أجأ» .

كان موقع معركة بزاخة جاهزا. فالمسلمون والمرتدون كانوا مستعدين للقتال في صبيحة اليوم التالي. وفي الغداة ، تقابل خالد ، سيف الله ومعه ستة آلاف مقاتل ، مع طليحة الدجّال الذي لم يعرف تعداد جيشه بالضبط لكنه ، كما يعتقد كان أكبر من جيش المسلمين. وقد حدثت هذه المعركة في حوالي منتصف شهر ايلول عام ٦٣٢م (جمادي الآخرة عام ١١ هجري).

في صباح اليوم الذي تلا وصول خالد ، انتظم الجيشان للمعركة في سهل بزاخة. كان خالد يقود المسلمين بنفسه وقد وقف على رأس لوائه. أما طليحة فقد عيّن عيينة لقيادة جيشه ، ووقف عيينة في وسط الجيش حيث سبعمائة مقاتل من بني فزارة (قبيلة عيينة) ، على حين كان طليحة يقيم في كساء له بفناء بيت من شعر يتنبأ لهم والناس يقتتلون.

وبعد أن انتظم الجيشان استعدادا للمعركة ، شنّ خالد هجوما على طول الجبهة. قاوم المرتدون بعناد لبعض الوقت ، وخاصة بنو فزارة ، ولكن ضغط المسلمين ما لبث ان ظهر ، وأخذ خط جبهة المرتدين بالانهيار ، فلما هزّت

عيينة الحرب وضرس القتال ، كرّ على طليحة فقال : «هل جاءك جبريل بعد؟» قال : لا ، فرجع فقاتل حتى اذا ضرّسه القتال وهزته الحرب كرّ عليه فقال : «لا أبالك أما جاءك جبريل بعد؟» قال : لا والله ، قال عيينة : حتى متى ، قد والله بلغ منا ! ثم رجع الى وطيس الحرب .

وعندما شعر المسلمون بتباشير النصر ، هاجموا بعنف واستولوا على أرض أخرى . عندئذ ذهب عيينة مرة ثالثة الى طليحة وقال له : «هل جاءك جبريل بعد؟» قال : نعم . قال عيينة : «فماذا قال لك؟» قال : ان لك رحا كرحاه وحديثا لا تنساه [1] » . فقال عيينة : «أظن ان قد علم الله انه سيكون حديث لا تنساه» . ثم اندفع الى قبيلته وقال : «انصرفوا يا بني فزارة فهذا والله كذاب» . فانصرفوا وانهزم الناس ، فغشوا طليحة يقولون ماذا تأمرنا ؟ وكان قد أعد فرسه عنده وهيّأ بعيرا لامرأته «النوّار» . فلما ان غشوه يقولون ماذا تأمرنا قام فوثب على فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها وقال : «من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل» [1] .

انتهت معركة بزاخة بانتصار خالد ، وبذلك تم دحر ثاني عدو خطر للاسلام وتبعثرت قواته وانهزمت .

هرب طليحة الى حدود الشام ، حيث اتخذ له ملجأ بين ظهراني قبيلة «كلب» . وانتهت ايام الدّجل . ولم يطل به المقام مع هذه القبيلة حتى سمع بأن بني أسد قد دخلت في الاسلام مرة ثانية . فعاد الى الاسلام وعاد الى قبيلته . وزار مكة لاداء العمرة خلال خلافة أبي بكر ، لكن الخليفة لم يعره اهتماما عندما علم بمجيئه الى مكة .

وبعد سنتين زار طليحة المدينة وجاء لرؤية عمر ، الذي لا يصفح بسهولة ، وعندما رأى عمر طليحة قال له : «قتلت سيدين من سادات المسلمين ، هما عكاشة بن محصن وثابت بن اقرم ، فوالله لا أحبك أبدا» .

كان طليحة ذكيا ، فأجاب عمر قائلا : «لقد اكرمهما الله بالجنة على يدّي ، لكنني لم افد من ذلك شيئا . واني اطلب العفو من الله» .

---

(١) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٨٥.

قال عمر؛ دون ان يلين: «لقد كذبت عندما قلت ان الله لن يؤذيك». فقال طليحة: «ان ذلك كان نتيجة الكفر الذي قضى الله عليه. ولا يمكن ان ألام الآن على الكفر».

فأيقن عمر ان لا نتيجة ترجى من النقاش معه فقال له: «يا خدع ما بقي من مهانتك؟ قال: نفخة او نفختان بالكثير» (1).

لم يكن عمر يحب المزاح بطبعه فلم يرّد عليه وذهب في سبيله.

عاد طليحة الى البيت وعاش بين افرادها حتى الغزوة الثانية للعراق، ثم تطوع للخدمة في العراق كمسلم مقاتل وقائد. وخدم بشكل بارز وحقق المعجزات في الشجاعة والمهارة واشترك في معركتي القادسية ونهاوند حيث سقط شهيدا.

حالما انتهت المعركة أرسل خالد مفارز لمطاردة فلول المرتدين واخضاع القبائل المجاورة. فالتقت احدى هذه المفارز ببعض المرتدين في منطقة رمان الجبلية على بعد ٣٠ ميلاً جنوب وجنوب شرق بزاخة، فاستسلموا بدون قتال وعادوا الى حظيرة الاسلام مرة ثانية. وتوجه خالد على رأس قوة لمطاردة عيينة الذي هرب باتجاه الجنوب الشرقي مع أفراد قبيلته، بني فزارة، وبعض العناصر من بني أسد. وعندما وصل عيينة الى القتال مرة ثانية، لأنه على الرغم من عدم ايمانه بطليحة الآن، بقي مناوئاً وغير نادم. وبعد اشتباك عنيف قتل فيه عدة مرتدين وهرب الباقون، أخذ عيينة أسيراً.

كان والد عيينة زعيماً لغطفان، وكان رجلاً محترماً وذا سمعة طيبة، لذلك كان عيينة يعد نفسه لايجارى في النسب والحسب. لكن سليل الزعامة والنسب، والذي طلب النبي (ص) مفاوضته في غزوة الخندق، أصبح مكبّلاً بالأصفاد واقتيد أسيراً مطأطأ الرأس الى المدينة.

وعندما دخل المدينة، تجمهر الأطفال حوله بعد أن اكتشفوا هويته. وأخذوا ينخسونه بعصي مدببة وهم يصيحون: «يا عدو الله! كفرت بعد ايمان».

---

(1) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٤٨٩.

فقال عيينة: «فوالله لم أكن مؤمناً قط». وكان يقصد بقوله هذا أنه لا يمكن أن يتهم بالارتداد لأنه بالاصل لم يكن مسلماً (كما يدعي الآن كذباً) .

توسل عيينة الى أبي بكر فصفح عنه ، وبذلك أصبح عيينة مسلماً مرة أخرى وعاش بأمان بين أفراد قبيلته ردحاً طويلاً من الزمن .

وطعن بعيينة السن في زمن الخليفة عثمان ، فزار المدينة وعرج على الخليفة . فاستقبله عثمان ببشاشة وطلب منه أن يتناول معه طعام العشاء . لكن عثمان اندهش عندما رفض الدعوة بحجة أنه صائم . وعندما لاحظ عيينة الدهشة على وجه عثمان اردف قائلاً : «وجدت الصيام ليلاً أسهل منه نهاراً» [1] .

بعد الاشتباك في غمرة ، توجه خالد الى النقرة حيث تجمعت بعض بطون بني سليم لاستئناف القتال ضد المسلمين . وكان يقود هذه البطون من بني سليم زعيم مندفع يدعى عمرو بن عبد العزّى ، المشهور باسم : «ابي شجرة» . لم يتعلم هذا الرجل أي درس من هزيمة طليحة ، ونظم الشعر تشجيعاً لرجاله على الثبات ومما يقول :

فرويّت رمحي من كتيبة خالد وانّي لأرجو بعدها أن أعمّرا [2]

حالما وصل خالد الى النّقرة ، شنّ هجوماً عنيفاً على بني سليم . وكان خالد يحمل ذكريات طيبة عن بني سليم . فقد قاتلوا تحت قيادته خلال فتح مكة وغزوة حنين والهجوم على الطائف . وباستثناء هربهم عندما وقعوا في الكمين الذي نصب للمسلمين في مضيق حنين ، فقد قاتلوا بكفاءة . لكنهم اليوم مرتدون ، لذا فلا يستحقون الرحمة .

قاتلت قبيلة بني سليم بعنف ضد قائدها السابق واستطاعت أن تقتل عدة رجال من المسلمين ، لكنهم تلقوا أيضاً ضربات خالد القاصمة . وقتل

---

(١) ابن قتيبة — صفحة ٣٠٤ .

(٢) البلاذري — الصفحة ١٠٧ . الطبري ج ٢ صفحة ٤٨٦ .

عدد كبير منهم قبل أن يلوذوا بالفرار . وأسر قائدهم أبو شجرة ، الجندي والشاعر ، واقتيد الى المدينة ، الذي توسل هو أيضاً الى الخليفة أبي بكر فصفح عنه . وعاد مرة أخرى الى الاسلام .

وعندما كانت معركة بزاخة دائرة ، كانت هناك بعض القبائل التي وقفت جانباً تراقب المعركة عن كثب . وهذه القبائل هي بنو عامر وبعض بطون هوازن وبنو سليم . ومع أنها كانت تميل الى طليحة ، الا أنها امتنعت عن الاشتراك في المعركة وفضّلت أن تقف على الحياد الى أن تتبلور نتيجة المعركة .

وسرعان ما عرفت النتيجة . ولم يكد يستتب السلام والهدوء في بزاخة حتى جاءت هذه القبائل الي خالد واعلنت ولاءها . وقالت : « ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلّم لحكمه . في أموالنا وأنفسنا » [١] .

وبدأت مجموعات أخرى من العرب النادمين تصل تباعاً الى بزاخة . وأعلنت عودتها الى الاسلام . لكن خالداً تذكر تعليمات الخليفة التي تقضي بقتل جميع الذين قتلوا مسلمين . فلم يقبل الا أن يأتوه بالذين قتلوا ومثلوا في المسلمين من أفراد قبائلهم . فوافقت القبائل على ذلك .

وقد كان حكم خالد سريعاً ، فقتل المرتدين مثلما قتلوا المسلمين وبالطريقة ذاتها . فمنهم من أحرق بالنيران ، ومنهم من رجم بالحجارة حتى الموت ، ومنهم من قذف من الجبال ، ومنهم من نكس في الآبار ، ومنهم من رمي بالنبال [٢] . العين بالعين !

وكتب خالد الى أبي بكر يعلمه بكل ما حدث . وردّ الخليفة على خالد بكتاب يشكره على ما أنجز ، ويهنئه على نجاحه ، ويثني على خطواته ، ويدعو له بمزيد من النجاح والتوفيق .

بعد قتال بني سليم في النّقرة ، بقي خالد في بزاخة لمدة ثلاثة أسابيع ، وهو يتقبل عودة القبائل الى الاسلام ويعاقب القتلة الذين اقدموا على

---

(١) البلادزي الصفحة ١٠٧ . الطبري ج ٢ صفحة ٤٨٦ .

(٢) الطبري — ج ٢ صفحة ٤٩٠ .

التنكيل بالمسلمين . وبعد ذلك توجه الى ظفر لمواجهة سلمى بنة مالك بن حذيفة والقضاء عليها .

كانت سلمى بنة مالك بن حذيفة تكنّى بأم زمل ، وهي ابنة عم عيينة ، وكان أبوها مالك بن حذيفة بن بدر زعيماً كبيرا في قبيلة غطفان . وكانت أمها ، أم قرفة ، سيدة جليلة تحظى باحترام القبيلة وتقديرها . وفي زمن النبي (ص) ، حاربت أم قرفة ضد المسلمين وقد تم أسرها في المعركة ثم قتلت ، لكن ذكرياتها بقيت حيّة بين غطفان . كذلك فقد تم أسر ابنتها سلمى واقتيدت الى المدينة ، حيث قدمها النبي (ص) أمة الى زوجته عائشة . لكن سلمى لم تكن سعيدة فاعتقتها عائشة ، وعادت الى قبيلتها .

بعد موت والدي سلمى ، بدأت سلمى بالظهور وأخذت مكانة امها في قبيلتها . وأصبحت ، على غير عادة العرب ، زعيمة القبيلة . وكانت امها تملك جملاً بديعاً فورثته سلمى بعد مقتل أمها ، وكانت سلمى تشبه أمها ، فتذكّر أفراد قبيلتها أمها الراحلة كلما رأوها راكبة الجمل

وأصبحت سلمى واحدة من زعماء المرتدين المنهزمين من المعركة مع عدد من هوازن وبني سليم الى ظفر عند الطرف الغربي لسلسلة جبال سلمى ، وانضموا الى جيش سلمى . فعنفتهم بشدة لانهزامهم وتخليهم عن عيينة ، فلم يجرؤوا على الردّ عليها . واستطاعت بسطوتها وشدة بأسها ان تجعل من هؤلاء قوة منظمة . وفي غضون بضعة أيام أصبحت تهدد الثورة الاسلامية . لقد أدركت ان خالدا بعد ان انتهى من معركة بزاخة سوف يأتي لمهاجمتها ، وهي بانتظار الصدام مع سيف الله على أحرّ من الجمر .

سار خالد بلوائه من بزاخة الى ظفر حيث واجه جيش المسلمين مرة ثانية جيش المرتدين . ومرة أخرى أخذ خالد زمام المبادرة وبدأ الهجوم .

كانت المعركة قاسية . فقد استطاع خالد أن يدحر الجناحين ، الا انه لم يحرز نجاحا على قلب المرتدين الذي كان صامدا . وكانت سلمى على جمل أمها الشهير ، ومن مركز قيادتها هذا كانت تدير المعركة ، يحيط بها أشجع المحاربين الذين صمموا على التضحية بأرواحهم دفاعا عن الجمل الشهير

وعن راكبتة الجليلة.

تأكد خالد أن قوة العدو المعنوية تكمن في شخص سلمى، وما دامت موجودة على ظهر جملها فالمعركة سوف تستمر ويستمر معها حمام الدم. لذلك كان لا بد من القضاء عليها. فاندفع خالد على رأس مجموعة مختارة من المحاربين وانقض على جملها، وبعد قتال عنيف مع المرتدين الذين يحيطون بالجمل تمكن خالد من اصابة الجمل واسقاطه على الأرض، وسقطت معه سلمى فقتلت في الحال وحولها مائة جثة من أتباعها الذين قاتلوا حتى الرمق الأخير دفاعا عن زعيمتهم.

بموت سلمى انتهت المقاومة وتبعثر المرتدون في جميع الجهات. وقد كانت معركة خالد مع سلمى اعنف قتال جرى منذ القتال ضد طليحة.

ويعتقد ان سلسلة جبال سلمى، وهي جبال سوداء وعرة تقع على مسافة ٤٠ ميلا جنوب شرق مدينة مائل، قد سميت بهذا الاسم نسبة الى سلمى، أم زمل، وتكريما لهذه السيدة العظيمة التي كان لديها الشجاعة للوقوف أمام أعظم قائد في عصره، والاشتباك معه في ساحة الوغى.

جرت معركة ظفر في أواخر تشرين الاول عام ٦٣٢م (أواخر رجب عام ١١ هجري). وأراح خالد جنوده بضعة أيام. ثم أصدر أوامره للمسير الى البطاح لقتال مالك بن نويرة.

انتهت المرحلة الاولى من حرب الردة بموت سلمى. وتم دحر القبائل الهامة واخضاعها بدحر زعمائها أو أسرهم أو قتلهم، ولم يرتد بعد ذلك أي زعيم في هذه المنطقة:

ولكن بقي رجل واحد، وهو أشبه بزعيم عصابة أكثر منه زعيم قبيلة، بما يسبب من قلق وازعاج للمسلمين. وهو: اياس بن عبد ياليل، الشهير باسم: «الفجاءة». وكان رجلا مغامرا.

عندما كان خالد يوطد مركزه في بزاخة، قدم الفجاءة على أبي بكر وقال له: «اني مسلم وقد أردت جهاد من ارتد من الكفار فاحملني

وأعنّي » [1] .

ففرح أبو بكر لهذا الطلب واعطاه سلاحا . فخرج الفجاءة من المدينة وأخذ يستعرض الناس المسلم والمرتدّ يأخذ أموالهم ويصيب من امتنع منهم . وعمل الفجاءة مع عصابته في المنطقة الواقعة الى الشرق من مكة والمدينة .

فلما بلغ أبا بكر خبره كتب الى طريفة بن حاجز : « ان عدو الله الفجاءة أتاني يزعم أنه مسلم ويسألني ان اقويه على من ارتد عن الاسلام فحملته وسلّحته ثم انتهى اليّ من يقين الخبر ان عدو الله قد استعرض الناس المسلم والمرتد يأخذ أموالهم ويقتل من خالفه منهم فسر اليه بمن معك من المسلمين حتى تقتله أو تأخذه فتأتيني به » .

فسار اليه طريفة بن حاجز فلما التقى الناس كانت بينهم الرماية بالنبل ، فلما رأى الفجاءة من المسلمين الجدّ قال لطريفة : والله ما أنت بأولى بالأمر مني أنت أمير لأبي بكر وأنا أميره . فقال له طريفة : ان كنت صادقا فضع السلاح وانطلق معي الى أبي بكر فخرج معه . فلما قدما عليه أمر أبو بكر طريفة بن حاجز فقال : « اخرج الى هذا البقيع فحرّقه فيه بالنار » . فخرج به طريفة الى المصلّى فأوقد له نارا فقذفه فيها [2] .

---

(١) الطبري الجزء ٢ ، صفحة ٤٩٢.

(٢) عندما كان ابو بكر على فراش الموت قال : « اني لا آسي على شيء من الدنيا الا على ثلاث فعلتهن وددت اني تركتهن ، وثلاث تركتهن ووددت اني فعلتهن ، وثلاث وددت اني سألت عنهن رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ومن بين الثلاث التي تمنى ابو بكر رضي الله عنه تركهن ما يتعلق بالفجاءة اذ قال : « وددت اني لم اكن حرقت الفجاءة السلمي واني كنت قتلته سريحا او خليته نجيحا » . راجع الطبري — الجزء٢ صفحة ٦١٩ ، البلاذري صفحة ١١٢ ، المسعودي — المروج — الجزء٢ صفحة ٣٠٨ .

٤ — نهاية مالك بن نويرة :

كان مالك بن نويرة زعيم بني يربوع وهي فرع كبير من قبيلة بني تميم التي كانت تسكن المنطقة الشمالية الشرقية من الجزيرة العربية . ولما كانت هذه المنطقة قريبة من بلاد فارس ، فقد اعتنق بعض العناصر الزرداشية [١] ، لكن معظم أفراد القبيلة كانوا وثنيين حتى جاء الاسلام الى الجزيرة العربية ، وكانت البطاح مركز قبيلة مالك .

كان مالك زعيماً من أصل شريف . وكان مشهوراً بكرمه وحسن ضيافته ، فكان يوقد النيران خارج منزله طيلة الليل لكي يأتي اليه المسافرون في تلك المنطقة فيجدوا عنده المأوى والطعام . وكان يتفقد النار طيلة الليل لئلا تنطفىء جذوتها . كما كان رجلاً وسيماً جداً كثيف شعر الرأس ، ووجهه كما قال أحد معاصريه : «جميلاً كالقمر» [٢] . وكان حاذقاً في استخدام الاسلحة ، ومشهوراً بشجاعته وفروسيته ، وشاعراً ملهماً ، أي كان مالك يتمتع بالصفات التي يصبو اليها العرب في الرجل الكامل .

كانت ليلى ابنة للمنهال ، وعرفت فيما بعد بأم تميم . وكانت ذا جمال أخاذ ، وهي من أجمل بنات الجزيرة العربية ، وقد انتشرت انباء جمالها الساحر في طول الجزيرة وعرضها وكانت مشهورة بجمال عينيها وقوامها . وكانت هي أيضاً تملك كل شيء [٣] .

---

(١) الزرداشية : ديانة المجوس والفرس قديماً .

(٢) البلاذري — صفحة ١٠٨ .

(٣) الاصفهاني — الجزء ١٤ ، صفحة ٦٥ : «كان يقال : لم ير أجمل من قوامها» .

وعندما بلغت سن الرشد تقدم اليها جميع العشاق في المنطقة لكنها رفضتهم جميعاً . ثم قابلت مالكاً في أحد الأيام وقدر لها أن تدخل صفحات التاريخ . فتزوجها مالك . وبذلك حاز مالك على أجمل امرأة في زمانه كزوجة له بالاضافة الى الصفات الأخرى التي يحسد عليها .

في الحقيقة ، كان مالك بن نويرة يملك كل شيء بالتأكيد ما عدا الايمان . فخلال «عام الوفود» ، عندما اعتنقت قبيلة بني تميم الاسلام ، ذهب مالك واعتنق الاسلام . ونظراً لمركزه في القبيلة ومواهبه ، فقد عينه النبي (ص) زعيماً على عشيرة بني حنظلة . وكانت مسؤوليته الأساسية جمع الزكاة وارسالها الى المدينة .

قام مالك بهذه المهمة بكفاءة وأمانة لبعض الوقت . ثم مات النبي (ص) . فعندما وصلت أنباء وفاته الى البطاح ، كان لدى مالك مبلغ كبير من أموال الزكاة وكان على وشك ارسالها الى المدينة . فنسي يمين الولاء الذي أقسمه ، ففتح خزائن المال في الحال وأعاد الأموال الى الذين دفعوها . وقال : يا بني حنظلة ، ان أموالكم أصبحت لكم الآن . لقد ارتد مالك عن الاسلام .

عندما انتهى خالد من سلمى واتباعها ، أصدر أوامره للمسير الى البطاح للعمل ضد مالك بن نويرة ، وكان لا يشك في أن بعضاً من رجاله سوف يعارضون خطته . تمّ التجهيز للتحرك وفق الأوامر ، ولكن عندما حان الوقت للمسير ، رفضت مجموعة كبيرة من جنوده أن تتحرك .

كان هؤلاء الجنود من الأنصار . فجاء ذوو الرأي منهم الى خالد وقالوا له انهم سوف لا يذهبون الى البطاح . وقالوا أيضاً : «ما هذا بعهد الخليفة الينا . ان الخليفة عهد الينا إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب الينا» .

فقال خالد : «ان يك عهد اليكم هذا ، فقد عهد اليّ أن أمضي وأنا الأمير واليّ تنتهي الأخبار . ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصة فكنت ان أعلمته فأتتني لم أعلمه حتى انهزها . وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس

منه عهد الينا فيه ، لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ثم نعمل به . وهذا مالك بن نويرة بحيالنا ، وأنا قاصد اليه ومن معي من المهاجرين والتابعين باحسان ولست أكرهكم »[1] . ومضى خالد ، وندمت الأنصار ، وتذمروا وقالوا : « إن أصاب القوم خيراً انه لخير حرمتموه ، وان أصابتهم مصيبة ليجتنبنكم الناس » . فأجمعوا اللحاق بخالد وجرّدوا اليه رسولاً فأقام عليهم حتى لحقوا به . ثم سار حتى قدم البطاح فلم يجد به أحداً . وكان ذلك في الاسبوع الأول من تشرين الثاني عام ٦٣٢م (منتصف شعبان ، عام ١١ هجري) .

عندما غادرت سجاح الدّجالة الجزيرة العربية الى العراق ، بدأ مالك يفكر بدوره في التآمر على الاسلام . وقد وصلته الأنباء عن تدمير جيش طليحة على يد سيف الله ، كما وصلت أنباء العقاب الذي أنزله خالد بالمرتدين الذين قتلوا مسلمين . كان مالك خائفاً . وقد خسر بذهاب سجاح حليفاً قوياً ، وشعر بأنه ترك وحيداً وأنه خذل .

وبدأ يدرك خطورة تحالفه مع الدّجالة . فارتداده كان واضحاً ولا مجال للشك فيه . ثم وصلت أنباء انتصار خالد على سلمي وانه قادم في طريقه الى البطاح . كان مالك رجلاً شجاعاً ، لكنه كان يشعر بعجزه عن قتال خالد .

بعد أن شعر مالك بأنه عاجز ومخذول ، قرر أن ينقذ ما يمكن انقاذه ، وأن يكفّر عن جرائمه بالتوبة وتقديم الولاء ، وهذه ضرورة سياسية أيضاً ، لأنه لا حل آخر أمامه . فجمع أفراد قبيلته ، بني يربوع ، وخاطبهم قائلاً : « يا بني يربوع ، انا قد كنا عصينا امراءنا اذ دعونا الى هذا الدين . وبطّأنا الناس عنه . فلم نفلح ولم ننجح . واني قد نظرت في هذا الأمر ، فوجدت الأمر يتأتى لهم بغير سياسة ، واذا الأمر لا يسوسه الناس . فاياكم ومناوأة قوم صنع لهم . فتفرقوا الى دياركم وادخلوا في هذا الأمر »[2] . فتفرقوا على

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٠١ .

(٢) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٢ .

ذلك الى أموالهم ، وخرج مالك حتى رجع الى منزله ، وهو ليس بعيداً عن البطاح .

ولكي يظهر مالك حسن نيته ، جمع الزكاة المستحقة للمدينة وأرسلها الى خالد ، الذي كان في طريقه الى البطاح ، مع مبعوثيه اللذين قابلا خالدا في طريق تقدمه. فأخذ خالد الزكاة ، لكنه لم يعتبر دفع الزكاة تكفيرا كافيا ، لأن الزكاة هي فرض في جميع الأحوال. فقال خالد للمبعوثين : «ما حملكما على موادعة سجاح ؟» فقالا : «ثأر قديم كنا نطلبه في بني ضبه وكانت أيام تشاغل وفرص» . (١)

لم يسأل خالد المبعوثين أسئلة أخرى ، وأخفى شكوكه عنهما . ويمكن أن يكون هذا الاجراء من قبل خالد حيلة لايهام مالك بالامان وايقاعه بكمين دون أن يثير شكوكه. فمنذ كمين حنين ، كان خالد يقظا باستمرار، فتابع التقدم كعملية عسكرية ضد خصم مسلّح .

وجد خالد إن البطاح خاليا لا جيش فيه حتى ولا مفرزة صغيرة. فاحتل البطاح وأرسل سرايا الخيالة بحثا عن المرتدين من بطون قبيلة بني تميم . وكرّر خالد على مسامع قادة هذه السرايا تعليمات الخليفة وهي : «اذا نزلتم منزلاً فأذّنوا وأقيموا ، فان أذّن القوم وأقاموا فكفوا عنهم وان لم يفعلوا فلا شيء الا الغارة» .

وفي اليوم التالي ، وصلت سرية خيالة بقيادة ضرار بن الأزور الى منزل مالك بن نويرة . فألقى ضرار القبض على مالك وزوجته ليلى وعدد قليل من رجال بني يربوع . أما السرايا الأخرى فلم تواجه شيئا لان جميع بطون القبيلة استسلمت بلا مقاومة .

جاءت سرية ضرار بمالك بن نويرة وزوجته الى خالد ، وكان مالك يعد زعيما للعصاة والمرتدين، ومثل أمام خالد لمحاكمته على الجرائم التي ارتكبها ضد الثورة الاسلامية . وقف مالك أمام خالد بكبرياء الزعيم الذي لا يستطيع أن يطأطىء الرأس أو أن يتخاذل .

---

(١) الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٠١ .

بدأ خالد الحديث. فتكلم عن الجرائم التي ارتكبها مالك والضرر الذي سببه لقضية الاسلام. ثم سأله خالد بعض الاسئلة. فأشار مالك في ردّه على الأسئلة الى النبي (ص) بقوله: «صاحبك». فغضب خالد لموقف مالك المتكبّر وقال: «ألا تعتبر ان النبي (ص) صاحبك أيضاً؟».

شعر خالد بأن مالكاً كان مذنبا، وانه لايزال غير مؤمن. فأمر بقتله. وقام بهذه المهمة ضرار بن الأزور. وهكذا كانت نهاية مالك بن نويرة.

أصبحت ليلى أرملة ولكن ليس لمدة طويلة. في الليلة ذاتها تزوجها خالد.

وعندما أعلن خالد عن نيته بالزواج من ليلى، استاء بعض المسلمين من اعلانه هذا. حتى ان بعض الناس بدؤوا يشيعون بأن مالكاً قد يكون عاد الى الدين صادقا، وربما أمر خالد بقتله ليتمكن من الفوز بليلى لنفسه. احتج على تصرف خالد صحابي مرموق، هو أبو قتادة، لكن خالدا زجره بكلمات مناسبة. فغضب ومضى الى المدينة حتى أتى أبا بكر وأخبره ان مالك بن نويرة كان مسلما، وان خالدا قد قتله لكي يتزوج من ليلى الجميلة. وأبو قتادة هذا هو الرجل الذي ذهب الى النبي (ص) بعد فتح مكة بوقت قصير وأخبره ان خالداً قتل بني جذيمة بدون رحمة برغم استسلامهم. فخلافه مع خالد ليس جديدا.

لكنّ أبا بكر، لم يسر لرؤية أبي قتادة، ولاسيما أنه ترك الجيش بدون اذن من قائده. فقال له أبو بكر: «ارجع الى خالد [1]»، فرجع ابو قتادة الى البطاح.

ولكن قبل ان يعود الى مركزه، انتشرت أقواله في جميع أرجاء المدينة، فبلغت مسامع عمر الذي هبّ واقفا وهرع الى أبي بكر وقال له: «لقد أمرت رجلا يقتل المسلمين ويحرق الناس أحياء..» [2] لكن أبا بكر لم يتأثر. وكانت لديه قناعة بأن مالكا قد أعاد الزكاة الى دافعيها عندما بلغته أنباء وفاة

(١) الطبري — الجزء٢، صفحة ٥٠٢.

(٢) البلاذري — صفحة ١٠٧.

النبي (ص)، كما أنه تحالف مع سجاح. ولم يكن لديه أدنى شك بردّة مالك. أما بالنسبة لحرق الناس أحياء، فان الخليفة نفسه أمره بحرق المرتدين الذين حرقوا مسلمين أحياء [1]. ولم يحرق خالد أناسا غيرهم.

ثم تابع عمر قائلا: «ان في سيف خالد رهقا [2]، فان لم يكن هذا حقا حق عليه أن تقيده [3]».

فقال لعمر: «ارفع لسانك عن خالد. وانني لم أكن لأشيم [4] سيفا سلّه الله على الكافرين». وأصبح يشار الى خالد منذ ذلك الوقت «بسيف الله».

لكن عمر أصرّ قائلا: «لكن سيف الله عدا على أمرىء مسلم فقتله ثم نزا على امرأته [5]». فقبل أبو بكر أن يبحث الموضوع. فأرسل في طلب خالد.

علم خالد بما أثاره زواجه بليلى من استياء. فقال: «اذا أراد الله أمرا أصابه». واستعرض خالد بينه وبين نفسه أسباب استدعاء الخليفة، واعتقد ان السبب هو الادعاءات ضده، وقد سبب له هذا التخمين شيئا من الازعاج.

ولدى وصوله الى المدينة، قصد المسجد. ولم يكن المسجد في تلك الأيام مجرد مكان للعبادة. بل كان أيضا مكانا للاجتماعات والمناقشات، وكان مدرسة ومكانا للراحة، ومركزا للنشاط الاجتماعي. وكان خالد يرتدي قباء له عليه صدأ الحديد، وكان معتمرا بعمامة له قد غرز فيها أسهما. فلما أن دخل المسجد، قام اليه عمر فانتزع الأسهم من رأسه فحطمها ثم قال: «أقتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك». فلم يكلمه خالد لأنه كان يظن ان رأى أبي بكر على مثل رأي عمر فيه حتى

---

(١) الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٨٢.
(٢) رهقا: طلما — المترجم.
(٣) الطبري — الجزء٢، صفحة ٥٠٣.
(٤) اشيم: أغمد — المترجم.
(٥) الطبري — الجزء٢، صفحة ٥٠٤.

دخل على أبي بكر. فلما ان دخل عليه أخبره الخبر واعتذر اليه فعذره أبو بكر وتجاوز عنه ما كان في حربه تلك وأمر بدفع الدية لورثة مالك.

لا شك في ردّة مالك بن نويرة وتمرده: فاعادته أموال الزكاة الى الذين دفعوها، وتحالفه مع سجاح، واشتراك مقاتليه — بناء على أوامره — في اغارات سجاح، كانت أكبر دليل على ردته. وذكر جميع المؤرخين هذه الحوادث وفي اعتقادي، لايوجد أدنى شك في ان خالداً أمر بقتل مالك، وقد أقدم على ذلك بدافع الاقتناع الحقيقي النابع مَن الايمان بأن مالكا كان مرتدا وخائنا. ولكن الشك ظل يخامر نفوس بعض العرب، وعمر خاصة، الذي اعتبر قتل مالك جريمة عاطفية. وقد شجعه على هذا الاعتقاد شقيق مالك، الذي قدم لمقابلة عمر زاعما انه ضحية شهوات خالد.

٥ ــ لقاء سجاح ومسيلمة الكذاب :

كانت سجاح ابنة للحارث بن سويد بن عقفان ، ولـدت في اسرة من الزعماء ، وكانت تتمتع بصفات القيادة ، وقوة الشخصية ، والذكاء التي نادرا ما يتمتع بها عدد من النساء. وكانت تتنبأ للمستقبل، وكانت شاعرة ملهمة تقول كل شيء بالشعر. وعندما كان يخاطبها أحد من الناس نثرا تجيبه شعرا.

وعرفت سجاح فيما بعد بأم سديرة ، وكانت تنتمي ، من جهة ابيها ، الى بني يربوع ، وبذلك كانت تمتّ الى مالك بن نويرة بصلة القربى. وكانت تنتمي من جهة أمها الى تغلب. وعاشت سجاح في أغلب الاوقات بين بني تغلب الذين كانوا يعتنقون النصرانية ، وبسبب نفوذ امها أصبحث سجاح نصرانية أيضا ، لكنها لم تكن قوية الايمان بالنصرانية شأنها شأن الكثيرين من بني تغلب.

عندما بدأت الرِّدّة بالانتشار، سمعت سجاح ان طليحة ومسيلمة قد اعلنا نبوتهما. فقالت لنفسها لماذا يكون الرجال فقط أنبياء؟ ولماذا لا تدخل المرأة في عالم النبوة؟ وأخيرا استسلمت لاغراء النبوة هي التي تجري روح المغامرة في عروقها . فأعلنت نفسها نبيّة . ونظمت بعض أبيات من الشعر لتظهر نبوتها .

ومما يثير الدهشة ان معظم أفراد قبيلة أمها قبلوا بها نبية وغاهدوها على الطاعة. وكانوا من النصارى. فجمعت عددا كبيرا من الأتباع المسلحين

ونزلت الى الجزيرة العربية حيث انضوت قبيلة والدها تحت لوائها. ومما لا شك فيه ان الكثيرين ممن اتبعوها من ذوي الرأي ومن رجال القبائل كانوا مدفوعين بعامل النهب وبالرغبة في تسوية نزاعات قديمة مع بعض القبائل في شمال شرق الجزيرة العربية.

واستطاعت ان تجمع قوة لا بأس بها من الاتباع لتغزو بهم مقر قيادة الثورة الاسلامية. فلما انتهت الى «الحزن» راسلت مالك بن نويرة. واقترحت عليه أن يتحالف معها: ليعملا معاً ضد القبائل التي تعتبر عدوا مشتركا للطرفين، ثم ليقوما بعد ذلك بمهاجمة قوات المسلمين في المدينة. ولكي تؤكد لمالك انها لا تضمر نوايا عدوانية ضد اراضي بني يربوع قالت له: «فاني انما أنا امرأة من بني يربوع. وان كان ملك فالملك ملككم [١]».

قبل مالك باقتراح سجاح وتحالف معها. واستطاع مالك أن يخفف من غلوائها الى حدّ ما وأقنعها بالعدول عن محاربة المسلمين. حزيران عام ٦٣٢م.

اتجهت قوات مالك وسجاح نحو القبائل التي اساءت الى بني تميم وتغلب. لم يكن في هذه العملية أية دوافع دينية، وانما كانت الدوافع الحقيقية الثأر والطمع في السلب والنهب. وكانت القبائل التي تقاوم قواتهما تحارب وتخضع ثم تنهب. قاتل اتباع مالك مع سجاح الدجالة في هذه الاغارات تطبيقا للتحالف بينهما. غير ان مالكاً لم يشارك شخصيا في عمليات الغزو والنهب.

ثم قدمت سجاح الى «النبّاج» وبدأت بنهب الجوار [٢]. وهنا واجهت مقاومة خطيرة. فقد اتحدت القبائل الموجودة في هذه المنطقة بدافع الخوف المشترك من سجاح المخيفة واستعدت لمقاومتها. وحدثت معركة بين الطرفين لم تكن حاسمة، غير ان عددا قليلا من القادة الموالين لسجاح قد اسروا في هذه المعركة، ورفضت القبائل ان تطلق سراحهم الا اذا تعهدت

(١) الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٩٦.

(٢) النبّاج هي النبكية الحالية (ويسميها السكان أيضا النبحية) وتبعد ٢٥ ميلا الى الشمال الشرقي من بريدة

سجاح بمغادرة منطقتهم. فقبلت شرطهم.

فاجتمع زعماء القبائل الذين يسيرون وراءها وقالوا لها: «ما تأمريننا؟» قالت: «اليمامة». فقالوا: «ان شوكة أهل اليمامة شديدة، وقد غلظ أمر مسيلمة». فقالت «اليمامة». ثم قالت: «عليكم باليمامة ودفّوا دفيف الحمامة، فانها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ملامة».[1]

كان مسيلمة الكذاب اكثر اعداء الاسلام خطرا اذ راح يهدد وجود الدولة الجديدة. وهو ابن حبيب من بني حنيفة. وهم من القبائل الكبيرة التي كانت تقطن منطقة اليمامة.

ظهر مسيلمة على مسرح التاريخ لأول مرة في أواخر العام التاسع للهجرة، وهو «عام الوفود». عندما جاء مع وفد بني حنيفة الى المدينة. وكان الوفد يضم رجلين بارزين قاما بدور هام بالنسبة لمسيلمة ولقبيلته، أحدهما ساعد مسيلمة للوصول الى مركز القوة، والثاني أنقذ القبيلة من الهلاك. وهذان الرجلان هما نهار الرّجال بن عنفوة، ومجاعة بن مرارة.

وصل الوفد الى المدينة. وربطت الابل في معسكر للمسافرين، وبقي مسيلمة للعناية بالابل بينما دخل العضوان الآخران المدينة. وتكلما مع النبي (ص)، ثم قدما له الطاعة واعتنقا الاسلام. وكما هي العادة لدى النبي (ص) فقد قدّم لهما هداياهما، الا أن احدهما علّق قائلاً: «انا قد خلّفنا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظها لنا. فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به لهما، وقال: «أما انه ليس بشركم مكاناً»[2] أي: لحفظه ضيعة أصحابه، ذلك الذي يريد النبي (ص). وقد فسّر مسيلمة كلام النبي (ص) فيما بعد، عندما ادعى النبوة، لصالحه.

وعندما عاد الوفد، نشر رسالة الاسلام واقام الدين الجديد بين بني حنيفة. واعتنقت القبيلة بكاملها الدين الاسلامي. وبنوا مسجداً في اليمامة وأقاموا الصلاة بانتظام. وبعد مرور بضعة أشهر، ارتد مسيلمة عن دينه

---

(١) الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٩٨.

(٢) ابن هشام — جزء ٢، صفحة ٥٧٦ — ٥٧٧.

وأعلن نبوته . فجمع الناس وخاطبهم مشيراً الى النبي محمد (ص) : «اني قد أشركت في الأمر معه . ألم يقل لموفدينا . أما انه ليس بشرّكم مكاناً ؟ ما ذاك الا لما كان يعلم أنه قد اشركت في الأمر معه»[1] . وهذا الأمر الذي يقصده مسيلمة الكذاب هو النبوّة .

بعد ذلك ادهش مسيلمة الحاضرين بحيله العجيبة . فقد كان ساحراً ماهراً يستطيع أن يصنع الاعاجيب . وكان يقوم بهذه الأعمال السحرية لاقناع الناس بأنه رسول من عند الله . وكان يسجع للناس الاساجيع ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : «لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق وحشا»[2] . وكانت معظم الاساجيع تدعي تفوق قبيلته ، بني حنيفة ، على قريش .

انبهر الناس بحكمته ، فتجمهروا حوله . ومن العجيب أن هؤلاء الناس لم يشكوا برسالة محمد (ص) الالهية. فقبلوا محمداً رسولاً لله وقبلوامسيلمة شريكاً له في النبوة وهذا كل ما كان يبغيه مسيلمة .

وبدأ نفوذ مسيلمة يتعاظم تدريجياً . وفي أحد الأيام من أواخر عام عشرة للهجرة ، كتب الى النبي (ص) : «من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد ، فاني قد أشركت في الأمر معك ، وان لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً قوم يعتدون» .

وكتب النبي (ص) الى مسيلمة ردّاً على رسالته : «بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى ، أمّا بعد ، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين»[3] .

وعرف الدجّال منذ ذلك الحين بمسيلمة الكذاب .

---

(١) ابن هشام ــ جزء ٢ ، صفحة ٥٧٧ .

(٢) ابن هشام ــ جزء ٢ ، صفحة ٥٧٧ .

(٣) ابن هشام ــ الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٠ ــ ٦٠١ .

وبدأ نهار الرّجّال العمل ، وهو أحد أعضاء الوفد من بني حنيفة الذي جاء الى النبي في «عام الوفود» . وكان هذا الرجل قد تخلّف في المدينة عندما عاد باقي الوفد الى قبيلته ، وبقي ملازماً للنبي (ص) ، مما أكسبه سعة الاطلاع بالدين الاسلامي . فقرأ القرآن وبرز كصديق محترم للنبي . وفي غضون بضعة أشهر كوّن لنفسه سمعة يحسد عليها ، مسلماً فاضلاً وتقياً ، وذاع صيته في الجزيرة العربية .

أمام هذا الخطر بدأ النبي بدراسة الطرق والوسائل الكفيلة بالحدّ من نفوذ مسيلمة الكذاب . واذ كانت اليمامة بعيدة جداً ، قرّر النبي أن يرسل رجلاً للعمل ضد مسيلمة بين الناس . فاختار النبي (ص) نهار الرّجّال لهذه المهمة . فهو زعيم من زعماء بني حنيفة ، قرأ القرآن ، وتعلم الحكمة والفضيلة على يدي النبي (ص) . فأرسله النبي لكي يقضي على نفوذ مسيلمة في اليمامة .

وعندما وصل هذا الرجل الى اليمامة ، صرّح بأن مسيلمة هو نبي حقاً ، فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة اذ شهد له أنه سمع محمداً ﷺ يقول أنه أشرك معه . فصدقوه واستجابوا له . ومن يجرؤ على التشكيك بقول هذا الصاحب المحترم ؟ وكان وصول هذا الزنديق سعادة لا توصف لمسيلمة ، وبدأ بنو حنيفة بالتوافد بأعداد كبيرة على مسيلمة لتقديم آيات الولاء والطاعة . وكوّن مسيلمة والرّجّال تحالفاً شريراً بينهما . وأصبح الرّجّال الساعد الأيمن لمسيلمة ، وكان هذا لا يتخذ قراراً إلا استشاره .

وبموت الرسول العربي (ص) ، أصبحت قبضة مسيلمة على بني حنيفة شاملة . وبدأ الناس بالتوافد عليه ، وبدأ مسيلمة بوضع قوانينه وأحكامه الخاصة في الأمور التي تتعلق بالأخلاق والسلوك الديني ، فأحلّ الخمر وأباح الزنا .

وبدأ الناس يصدقون أن مسيلمة يملك قوى خارقة ، وساعد الرّجّال على ترسيخ هذه الصورة في أذهانهم . واقترح الرّجّال يوماً أن يقوم مسيلمة بلمس رأس كل طفل يولد ، كما كان يفعل النبي (ص) ، ليباركه .

فأعطيت التعليات طبقاً لذلك . وكان كل طفل يولد يرسل الى اليمامة لكي يباركه مسيلمة .

ومع ان قبيلة بني حنيفة سارت وراء مسيلمة كلها ، الا انهم لم يؤمنوا جميعا برسالته المزعومة. فبعضهم آمن به لاسباب سياسية ، أو لأسباب شخصية تتعلق بحب الظهور، بينما دافع الكثير ممن اتبعوه كان العصبية القبلية والدليل على ذلك ان رجلاً صافي الذهن قدم لزيارة مسيلمة ولم يسبق له أن رأى مسيلمة من قبل ، وكان يدعى طلحة . وعندما وصل الى باب منزل مسيلمة قال : «أين مسيلمة ؟» فقالوا :«مه رسول الله» . فقال : «لا حتى أراه» . فلما جاءه قال : «أنت مسيلمة؟» قال : «نعم» . قال : «من يأتيك ؟» قال : «رحمان» . قال : «أفي نور أو في ظلمة ؟» قال : في «ظلمة» . فقال طلحة : «أشهد أنك كذاب وان محمدا صادق . ولكن كذاب ربيعة أحب الينا من صادق مضر» . وقد قتل طلحة مع مسيلمة يوم عقرباء .

كان مظهر مسيلمة مرعبا . فهو قصير القامة ، قوي البنية ، اصفر اللون ، وذو عينين صغيرتين ومتقاربتين ، وأنف مسطح . وكان دميما للغاية . ولكن كما يحدث غالبا مع كل رجل دميم وشرير ، كان ذا تأثير سحري على النساء . فهن لا يستطعن أن يقلن : «لا» . وكان مسيلمة رجلا موهوبا ولكن بدون ضمير، فأي امرأة تنفرد به لا تستطيع ان تهرب من سحره الشيطاني .

لكن سجاح الدّجالة لم تعرف حقيقة مسيلمة عندما قدمت الى اليمامة .

سارت سجاح مع جيشها الى اليمامة . فسمع مسيلمة بهذا المسير وانزعج لهذا النبأ ، لانه لم يكن يعرف مقاصدها . وهو يستطيع ابلا شك ، ان يهزم جيشها في المعركة ، لكن عكرمة كان يعسكر بعيدا مع لوائه ، الى الغرب ، وكان مسيلمة ينتظر منذ عدة أسابيع هجوم المسلمين . فاذا كان على عكرمة ان يتحرك في الوقت الذي يكون فيه مسيلمة مشتبكا مع جيش سجاح ، فانه سيكون في موقف حرج . وهذا يعني الاشتباك بجيشين في آن واحد : جيش سجاح ، وجيش المسلمين . فقرر مسيلمة أن يستميل سجاح ويجعلها

على الحياد. وعرف كيف يتعامل معها. فهو سيتعامل معها كما يتعامل مع أي امرأة، وهذا الأمر يتقنه جيدا.

فأرسل الى سجاح ان لا تجلب معها محاربين، لانه لن يكون لهم عمل في اليمامة. وبإمكانها ان تحضر لوحدها من أجل المحادثات. فتركت سجاح جيشها في معسكر وجاءت مع أربعين مقاتلا لمقابلة مسيلمة الكذاب. فوصلت اليمامة لكنها وجدت الحصن مغلقا، وتسلّمت وبُلغت تعليمات بترك المحاربين خارج الحصن ودخولها وِحدها. وافقت سجاح، وتركت رجالها خارج الحصن في معسكر، ودخلت. فقال مسيلمة لرجاله: «اضربوا لها قبّة وجمّروها لعلها تذكر الباه»، ففعلوا. فلما دخلت القبة نزل مسيلمة وقال: ليقف ههنا عشرة وههنا عشرة ثم دارسها فقال: «ما أوحي اليك». فقالت: «هل تكون النساء يبتدئن؟ ولكن أنت ما أوحي اليك؟» فقال: ألم تر الى ربك كيف فعل بالحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا». فقالت: «وماذا أيضا؟» قال «أوحي اليّ ان الله خلق النساء أفراجا وجعل الرجال لهن ازواجا فنولج فيهن قعسا ايلاجا ثم نخرجها اذا نشاء اخراجا فينتجن لنا سخالا انتاجا». فقالت: «أشهد انك نبي». قال: «هل لك ان اتزوجك فآكل بقومي وقومك العرب؟» قالت: «نعم» [1].

فأقامت عنده ثلاثة ايام ثم انصرفت الى قومها. فقالوا: «ما عندك». قالت: «كان على الحق فاتبعته فتزوجته». قالوا: «فهل أصدقك شيئا؟» قالت: «لا». قالوا: «ارجعي اليه فقبيح بمثلك ان ترجع بغير صداق» [2]. فرجعت. فلما رآها مسيلمة أغلق الحصن وقال: «مالك؟» قالت: «اصدقني صداقا.» قال: «من مؤذنك!» قالت: «شبث بن ربعيّ الرّياحيّ». قال: «عليّ به». فجاء، فقال: «ناد في أصحابك ان مسيلمة بن حبيب، رسول الله، قد وضع عنكم صلاتين مما أتاكم به محمد

---

(١) الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٩٩.

(٢) الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٩٩.

صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر[1] » .

وعادت سجاح بهذا الصداق الى قومها :

وهكذا انتهت علاقة مسيلمة بسجاح . كما انتهت علاقة سجاح بالسياسة والنبوة . فاقامت عند عشيرة امها وعاشت بقية حياتها في غموض . وقد اعتنقت الاسلام ، وأصبحت امرأة تقية فاضلة . وفي أيام خلافة معاوية ، انتقلت الى الكوفة ، حيث ماتت هناك .

(١) الطبري — الجزء٢، صفحة ٤٩٩ .

٦ — موقعة اليمامة :

عندما نظّم أبو بكر قوات المسلمين في ألوية مستقلة في ذي القصّة ، عيّن عكرمة بن أبي جهل قائدا على أحد الألوية. وكانت الأوامر التي اعطيت الى عكرمة تنصّ على أن يتقدم لملاقاة قوات مسيلمة الكذاب في اليمامة ، على ان لا يتورط معه في معركة فاصلة . كان أبو بكر يعرف أكثر من قواده قوة مسيلمة وامكاناته ، فلم يرغب في قتاله بقوات غير كافية . ولما كان خالد أكفأ قادة أبي بكر ، كان الخليفة يفكر في اسناد مهمة قتال مسيلمة الى خالد بعد ان ينتهي من قتال أعداء الثورة الاسلامية الآخرين .

كان أبو بكر يهدف من اعطاء مهمة عكرمة الى تثبيت مسيلمة في اليمامة . فطالما بقي عكرمة في الميدان ، سيظل الكذّاب يتوقع هجوم المسلمين ولن يتمكن من ترك قواعده . بالاضافة الى ذلك ان تجميد مسيلمة في مكانه يتيح لخالد فرصة السير الى القبائل المرتدة في أواسط شمال الجزيرة العربية دون تدخل اليمامة . كان أبو بكر موفقا في اختيار عكرمة للمهمة التي أسندها اليه لان عكرمة كان رجلا شهما وشجاعا . بالاضافة الى ذلك ، كان عكرمة متحمسا لاثبات اخلاصه للاسلام ، وللتكفير عن عدواته الشديدة للنبي (ص) قبل ان يعتنق الدين الجديد .

تقدم عكرمة بلوائه وأقام معسكراً في مكان ما من منطقة اليمامة . ومن هذا المعسكر كان يراقب قوات بني حنيفة انتظاراً لتعليمات الخليفة ، كما أن وجود عكرمة ساعد على ابقاء مسيلمة في اليمامة كما ذكرنا .

عندما تلقى عكرمة التقارير عن هزيمة طليحة على يد خالد ، بدأ

يتشوق للمعركة . فالانتظار سبّب له الضيق . وكان عكرمة رجلاً شجاعاً وقائداً جزيئاً ، ولكن كان ينقصه حكمة خالد وهدوؤه : — الصفتان اللتان تميزان القائد المقدام عن القائد المتهور.

سمع عكرمة بنجاح ثان وهو أن شرحبيل بن حسنة كان يتقدم للانضمام اليه . وكان شرحبيل يقود لواء أيضاً ، وكان قد تلقى أوامر الخليفة بالتحرك خلف عكرمة وانتظار التعليمات . وبعد بضعة أيام سيكون شرحبيل معه .

ثم جاءت الأنباء عن هزيمة سلمى ومصرعها . فلم يستطع عكرمة أن ينتظر أكثر من ذلك . فلماذا يترك خالداً ينال كلّ الأمجاد ؟ ولماذا لا ينتظر شرحبيل ؟ لماذا لا يهجم على مسيلمة بنفسه ؟ فان استطاع أن يهزمه لوحده ، فانه سيفوز بالمجد ويفوق الآخرين . وكم سيكون وقع المفاجأة السارة على الخليفة ! فحرّك عكرمة لواءه . في نهاية تشرين الأول عام ٦٣٢ م (نهاية رجب ، عام ١١ هجري) .

وبعد بضعة أيام عاد الى معسكره وقد تلقى ضربة قوية من مسيلمة . فكتب الى أبي بكر وأعلمه بما حدث له . كذلك سمع شرحبيل بهذه الأنباء السيئة ووقف على مسافة من معسكر عكرمة .

تألم أبو بكر وغضب لتهور عكرمة وعدم اطاعته الأوامر التي اعطيت اليه . ولم يخف غضبه في الكتاب الذي وجهه الى عكرمة والذي قال فيه : «يا ابن ام عكرمة ، لا أرينك ولا تراني على حالها ، لا ترجع فتوهن الناس . إمض على وجهك حتى مساندة حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان ومهرة ، وان شغلا فامض أنت ثم تسير وتسير جندك تستبرئون من مررتم به حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت» [1] . وهؤلاء الثلاثة كانوا قادة ألوية .

سار عكرمة بلوائه الى عمان . وبقي شرحبيل في منطقة اليمامة . ولكي لا يقع بما وقع فيه عكرمة من خطأ كتب إليه أبو بكر : «ابق حيث أنت حتى يأتيك أمري» [2] .

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ — ٥٠٩ .

(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ .

بعد أن أمر الخليفة بدفع الديّة لورثة مالك بن نويرة ، استدعى خالداً وأسند اليه مهمة تدمير قوات مسيلمة الكذاب في اليمامة . وبالاضافة الى لوائه الكبير فقد وضع لواء شرحبيل تحت قيادته . كما أن قوات الأنصار والمهاجرين التي جمعها أبو بكر في المدينة سوف ترسل الى البطاح بعد وقت قصير للانضمام الى قوات خالد . وبذلك يكون خالد قد كلف بقيادة جيش الثورة الاسلامية الرئيسي .

سار خالد الى البطاح حيث ينتظره لواؤه القديم . وفي غضون ذلك كتب الخليفة أبو بكر الى شرحبيل : « اذا قدم عليك خالد ثم فرغتم ان شاء الله فالحق بقضاعة حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالف » (١) . وكانت قضاعة هذه قبيلة مرتدة سبق أن قاتلها أسامة لكنه لم يقهرها ، وهي تسكن قرب حدود الشام .

انتظر خالد في البطاح لحين وصول الأنصار والمهاجرين من المدينة ، ثم سار الى اليمامة . وسرّ خالد لوضع قوات شرحبيل بامرته . وكان شرحبيل قد فعل فعل عكرمة اذ بادر بقتال مسيلمة قبل قدوم خالد عليه لكنه لم يحقق نجاحاً . فلما قدم عليه خالد لامه بشدة .

كان خالد ما يزال على مسافة من اليمامة عندما وصلته المعلومات من عناصر الاستطلاع أن مسيلمة يعسكر في سهل عقرباء ، عند الضفة الشمالية من وادي حنيفة حيث الطريق المؤدية الى اليمامة .

ولعدم رغبة خالد في الاقتراب من عدوه عبر الوادي ، فقد ترك الطريق على مسافة بضعة أميال الى الغرب من عقرباء ، وتحرك جنوباً حتى ظهر على الأرض المرتفعة الواقعة على بعد ميل واحد جنوب الوادي ، مقابل مدينة جبلية . ومن هذه الأرض المرتفعة ، استطاع خالد أن يرى سهل عقرباء بكامله ، وكان يمتد على الحد الأمامي للسهل معسكر بني حنيفة . فأقام خالد معسكره على الأرض المرتفعة . وبلغ قوام جيشه القتالي ثلاثة عشر ألفاً .

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٤ ، ٥٠٥ .

عندما انطلق خالد من البطاح ، وصلت انباء مسير المسلمين الى مسيلمة بواسطة العملاء الذين أكدوا له أن هذا الجيش هو جيش الثورة الاسلامية الرئيسي . كانت الطريق من البطاح الى اليمامة تمر عبر وادي حنيفة ، ويقع سهل عقرباء عند الضفة الشمالية للوادي ، خلف جبيلة ، وهذا السهل يرسم الحدّ الخارجي للمنطقة الخصبة التي تمتد من عقرباء الى اليمامة وباتجاه جنوب شرق . وكانت هذه المنطقة تحتوي على المزارع والبساتين والحقول المزروعة ، وبكلمة موجزة ، فان اليمامة ذاتها عبارة عن اقليم أكثر منه مكان ، وكانت عاصمتها «حجر» ، وهذه أيضاً تسمى اليمامة بشكل عام . وتقع مدينة الرياض الحالية حيث كانت تقع حجر القديمة .

كان مسيلمة لا يرغب في السماح للمسلمين بانزال الدمار والخراب في المدن والقرى . لذلك تقدم بجيشه الى جبيلة ، على مسافة خمسة وعشرين ميلاً شمال غرب اليمامة ، وأقام معسكره قرب جبيلة ، حيث يبدأ سهل عقرباء . ومن هذا المكان يستطيع مسيلمة الدفاع عن سهول اليمامة الخصبة ، ويكون في آن واحد على مجنبة طريق تقدم خالد ، فاذا أخطأ خالد وسار في وادي حنيفة ، فان بني حنيفة ستهاجم مجنبته اليسرى . وهنا لا يستطيع خالد أن يتجنب المعركة ويتقدم الى اليمامة ، لان مسيلمة عندئذ سينقض على مؤخرته (١) .

كان مسيلمة متأهبا للمعركة في سهل عقرباء مع جيش مؤلف من أربعين ألف مقاتل، جميعهم متحمسون للقتال. فالعمليتان الناجحتان ، ضد عكرمة وشرحبيل، زادتا من ثقتهم بأنفسهم وخلقتا هالة حول «الكذّاب» ، أنه لا يقهر. وأصبح رجاله مستعدين الآن للتضحية بأرواحهم دفاعا عن زعيمهم وقضيته. وكان مسيلمة واثقا من انه سينزل العقاب بخالد كما أنزله من قبل بعكرمة وشرحبيل.

قبل وصول خالد بأيام، فقد مسيلمة واحدا من أكفأ قواده ، هو مجّاعة بن مرارة ، الذي سبق ان كان عضوا هاما في وفد بني حنيفة الذي

---

(١) — نفس الفكرة العملياتية التي طبقها الرسول العربي (ص) في معركة أحد .

أرسل الى النبي (ص). وكان هذا الرجل قد خرج مع أربعين رجلا للاغارة على قبيلة مجاورة طلبا للثأر. وعند عودتهم من الاغارة، توقفوا ليلا عند ممر يدعى ثنية اليمامة، التي تبعد مسيرة يوم عن عقرباء، ونامت جماعة مجّاعة نوما عميقا، لكن نومهم هذا كان الأخير، لأنه تم أسر جميع هذه الجماعة في الصباح الباكر من قبل احدى سرايا الخيالة التي كانت تتقدم أمام جيش خالد. وقدّم هؤلاء المرتدون الى سيف الله.

فاستجوبهم خالد، وسألهم هل يؤمنون بمحمد أم بمسيلمة؟ فأجابوا مجمعين: بمسيلمة. وأردف بعضهم قائلا: «نقول منا نبيّ ومنكم نبيّ». [1] لكن خالدا لا يريد اضاعة الوقت في مثل هذه الترّهات، فأمر بقتلهم جميعا إلا زعيمهم مجّاعة، الذي كبّل بالحديد أسيرا. وكان مجّاعة رجلا بارزا في قبيلته فابقاؤه رهينة قد يكون ذا فائدة. ووصل جيش المسلمين، ومعهم مجاعة مكبلا بالحديد، بالقرب من عقرباء وأقاموا معسكرهم كما ذكر آنفا. وأصبح الجيشان على اهبة تامة.

كان وادي حنيفة الحد الفاصل بين الجيشين. وضفة الوادي عند الجانب الشمالي، ترتفع نحو مائة قدم. أما عند الجانب الجنوبي فالضفة ترتفع تدريجيا حتى تصل الى مائتي قدم، على بعد ميل واحد من الوادي حيث كان يعسكر جيش خالد. وكانت تقع على الضفة الشمالية أيضا قرية جبيلة، وعند الطرف الغربي من القرية كان يمتد خندق حتى يصل الى الوادي. كان الحدّ الامامي للمسلمين يمتد على طول ضبفة الوادي الجنوبية مسافة ثلاثة أميال، وكان المرتدون يقفون على ضفة الوادي الشمالية. وكانت قرية جبيلة والخندق يقعان في وسط جيش مسيلمة. وكان سهل عقرباء يمتد خلف المرتدين، وفي هذا السهل على بعد ميلين من الوادي حديقة كبيرة يحيط بها سور سميت بعد المعركة «بحديقة الموت». (راجع خريطة موقعة اليمامة في الشكل رقم ٩).

---

(١) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٥١٠.

بقيادة رجّال ، والجناح الايمن بقيادة طفيل . ولكي يثير مسيلمة همم رجاله وحماسهم ، جعل ابنه شرحبيل بن مسيلمة يتقدم الصفوف وهو يصيح بأعلى صوته : «يا بني حنيفة ، اليوم ان هزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير حظيّات فقاتلوا عن احسابكم وامنعوا نساءكم [1] » .

قرر مسيلمة ان ينتظر هجوم خالد . أي أنه سيتخذ وضعية الدفاع ، فبعد ان يصدّ الهجوم ، سيتحول الى الهجوم المعاكس ضد قوات خالد لزعزعة صفوفه ودحره .

قضى المسلمون الليل في قلق ظاهر . فقوات العدو التي أمامهم هي أكبر قوات قابلوها حتى الآن ، وقائدها من أدهى الرجال . ولذلك لجأوا الى الصلاة لا راحة أعصابهم وتوجهوا الى العلي القدير أن ينصرهم على أعدائهم . وبعد صلاة الصبح ، حرّك خالد قواته للمعركة ، بعد أن شكلها على النحو التالي : القلب وهو بامرة خالد مباشرة ، والجناح الايسر بامرة ابي حذيفة ، والجناح الايمن بامرة زيد (الأخ الأكبر لعمر) . لم ينظم خالد رجاله لهذه المعركة بمجموعات قبلية ، كما كانت العادة من قبل ، بل نظمهم في كتائب وسرايا حسب متطلبات المعركة وكانت هذه الكتائب والسرايا تضم عناصر مختلطة من القبائل المختلفة .

خطط خالد ، كما كانت عادته ، على اساس ان يقوم بالهجوم منذ البداية ، وان يجبر خصمه على اتخاذ وضعية الدفاع وعدم السماح له بالانتقال الى الهجوم المعاكس . وبهذه الطريقة فانه سيحرم مسيلمة من المناورة ويجعله يتصرف وفق مشيئته كمهاجم . لكن خالدا لم يكن لديه تصور عما سيواجهه المسلمون . فان هذه المعركة ستكون أعنف معركة دموية يخوضونها . فنسبة قوات مسيلمة الى قوات المسلمين ثلاثة الى واحد ، بالاضافة الى ان مسيلمة قائدها كان رجلا شجاعا وداهية . لكن خالدا كان واثقا من النصر . وكان يثق بنفسه وبمهارة وشجاعة قادته ورجاله . وعندما تقدم أمام جيشه ، نظر بفخر ورضى الى قادته الأبطال . وكان يوجد رجال مشهورون في هذا

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٠٩ .

الجيش ، كما ان بعضا آخر سيبلغ درجة من الشهرة في السنوات التالية. كان في الجيش زيد شقيق عمر ، وعبدالله بن عمر. كما كان ابو دجانة الذي درأ السهام بجسمه حماية للنبي في غزوة أحد. وكان عبد الرحمن ابن الخليفة ابي بكر ، ومعاوية بن أبي سفيان الذي سيصبح أول خليفة اموي. كذلك كان يوجد ام عمارة ، وهي السيدة التي قاتلت بجانب النبي في أحد ، مع ابنها. وكان يوجد ايضا الوحشي المعروف باستخدام حربته.

سار قادة جيش المسلمين أمام كتائبهم ، وهم يتلون آيات من القرآن الكريم. وكانوا يذّكرون الناس بجنات النعيم التي أعدها الله للشهداء ، وبالنار التي تنتظر المتخاذلين.

بدأت المعركة في صباح أحد الأيام الباردة من الاسبوع الثالث من شهر كانون الاول عام ٦٣٢م (الاول من شوال ، عام ١١ هجري).

أمر خالد بشن الهجوم العام ، وتقدم سيل المسلمين وهم يصيحون : «الله أكبر». قاد خالد هجوم القلب ، وقاد ابو حذيفة وزيد هجوم الجناحين. وتقابل الجيشان وامتلأ الجو بالصيحات ، واشتبك الرجال الأشداء واندفعوا للاقتتال. وأخذ خالد يجندل كل عدو يقترب منه. وأظهر أبطال المسلمين شجاعة نادرة وحققوا المعجزات. وشعر خالد بأن محاربيه سوف يقتحمون صفوف الأعداء سريعاً.

لكن جيش مسيلمة وقف صامداً كالصخر. وسقط الكثيرون من المرتدين في المعركة ، ولم يستطع المسلمون اختراق صفوفهم. وكان المرتدون يحاربون بحماس ويفضلون الموت على التخلي عن شبر من الأرض ، وأدرك المسلمون أنهم غير قادرين على التقدم عبر صفوف اعدائهم. فبعد فترة من الصدام بين الجيشين ، ظهر شيء قليل من عدم النظام في صفوف المسلمين بسبب اندفاعهم الى الأمام وبسبب محاولاتهم لاختراق جبهة المشركين. لكن هذا لم يؤثر في جبهة المسلمين ، فطالما هم مهاجمون ، والعدو بوضعية الدفاع ، فشيء قليل من عدم النظام لا يؤثر في مجمل الموقعة.

أدرك مسيلمة بأن بقاءه بوضعية الدفاع مدة أطول سيزيد امكان اختراق

المسلمين صفوفه . فأمر بهجوم معاكس عام على طول الجبهة . فتقدم المرتدون الى الأمام كالموج العرم ، ووجد المسلمون أنفسهم يدفعون الى الوراء . واشتد القتال عندما حاول المسلمون بكل ما اتوا من قوة ان يوقفوا تقدم المرتدين الذين دفعوا ثمناً غالياً لكل شبر كسبوه من الأرض ، وقد صمدوا بسبب ايمانهم بوعد مسيلمة الكذاب بأن الجنة تنتظر اولئك الذين يسقطون ، وضغطوا على المسلمين بدون هوادة . وبدأ يتراخى التماسك قليلاً في صفوف المسلمين بسبب دمج أفراد القبائل في كتائب مختلطة وعدم تعودهم على القتال بهذه الطريقة .

وبدأ يلمس تفوق المرتدين العددي . فقد هجموا بكتل متراصة على صفوف المسلمين الرقيقة ، وأخذوا يزيدون ضغطهم عليهم ، عندئذ تزعزعت صفوف المسلمين وبدؤوا بالتراجع . وشدّد المرتدون هجماتهم الجريئة ، وأجبروا المسلمين على الانسحاب غير المنتظم . وأخذت الكتائب المسلمة ترتد الى الخلف وتترك أرض المعركة . ولم يستطع قادة المسلمين ايقاف التراجع . واستمروا في ذلك الى أن توقفوا خلف معسكرهم الذي انطلقوا منه .

عندما ترك المسلمون سهل عقرباء ، طاردهم المرتدون بقوة . ولم تكن هذه المطاردة مخططة ، بل كانت ردّ فعل غريزي ، مثل ردّ فعل المسلمين ومطاردتهم لفلول قريش في الموقف الأول من غزوة أحد . وكما فعل المسلمون في أحد استمر المرتدون في المطاردة حتى وصلوا معسكر المسلمين وبدؤوا بنهبه . وكما حصل في أحد أيضاً ، فان انشغال المرتدين بالسلب قد أعطى خالداً الفرصة للاستعداد ولشن هجمة معاكسة .

كانت خيمة خالد موجودة في معسكر المسلمين ، وكانت زوجته ليلى تقيم فيها ، وكان بجوارها مجّاعة مكبلاً بالحديد . فاندفع عدد قليل من المشركين الى خيمة خالد بغرض النهب والسلب . فرأوا مجاعة وتعرفوه . ورأوا ليلى وأرادوا أن يقتلوها لكن مجّاعة منعهم من ذلك وقال لهم : « صه أنا لها جار فنعمت الحرّة ، عليكم بالرجال » . وفي مسارعتهم لوضع يدهم على

الغنائم ، نسي المرتدون أن ينقذوا زعيمهم مجاعة .

تم اجتياح المعسكر بشكل مخيف ، فكان المشركون ينهبون كل ما يستطيعون حمله ، ويحطّمون ويتلفون الأشياء مما لا يستطيعون حمله . فمزقوا خيمة خالد . ثم توقف النهب والسلب فجأة ، وأسرع المرتدون بالعودة الى سهل عقرباء ، لأنهم استطاعوا أن يشاهدوا من جهة الجنوب جيش المسلمين وهو يتقدم مرة ثانية بنظام وبصفوف متراصة .

عندما توقف المسلمون خلف معسكرهم بعد تراجعهم أمام المرتدين ، أخذوا يفكرون بما حدث لهم فلم يجدوا أي أثر للخوف في نفوسهم . وكانوا لا يشعرون الا بالغضب على اضطراب صفوفهم الذي سبب تراجعهم . فكيف حصل ذلك ، وكيف يمكن أن يحدث ؟ وانهم خاصة انزلوا بالعدو خسائر جسيمة تفوق كثيراً خسائرهم .

بقيت شجاعتهم ثابتة لا تتزعزع ، لكنهم شعروا أيضاً بأنهم غلبوا . ووجدوا متنفّساً لغضبهم عندما أخذوا يتبادلون التهم : قبيلة ضد قبيلة ، وبطن ضد بطن ، والقرية ضد البادية . وأخذوا يلومون بعضهم على الهزيمة التي لحقت بهم . فقال سكان القرى : « يا أهل البوادي نحن أدرى بالحرب منكم » ، فأجاب سكان البادية : « يا أهل القرى انكم لا تحسنون القتال ، ولا تدرون ما الحرب » [1] . فتعالت الأصوات بأن يقاتل كل فريق ضمن مجموعته القبلية ، أي أن أهل القرى يقاتلون معاً ، وأهل البادية يقاتلون ضمن قبائلهم . عندئذ يظهر من المتخاذل .

استطاع خالد أن يدرك ما حدث . فجبهة المرتدين لم تتهاو تحت تأثير هجوم المسلمين العنيف ، كما حدث لجميع الجبهات قبل ذلك . والمرتدون قاموا بهجومهم المعاكس وقد فقد المسلمون بعض انتظامهم . فاختل توازن المسلمين ولم يستطيعوا اعادته أمام ضغط الهجوم المعاكس . كما أن المسلمين لم تنقصهم الشجاعة اثناء القتال .

وأدرك خالد أيضاً أن تشكيل الكتائب المختلطة من أهل القرى

---

(١) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٥١٣.

والبوادي كان خطأ ، لأن الانتماء القبلي كان لا يزال قوياً بين العرب . وهذا الشعور القبلي أضاف ركيزة أخرى من ركائز القوة الى الحميّة الاسلامية والى الشجاعة الفردية والمهارة التّي كانت تميز جيش المسلمين. فأمام تفوق المرتدين العددي ، والذي بلغت نسبته ثلاثة الى واحد ، والتعصب الأعمى لأتباع مسيلمة ، وغياب الاخلاص القبلي ، كل ذلك أدى الى عدم تماسك كتائب المسلمين أثناء القتال .

أصلح خالد خطأه فاعاد تجميع جيشه . وقد نظّم هذا الجيش كالسابق من حيث ترتيب القتال وقادته انفسهم أما الجنود ففي وحدات حسب قبائلهم وبطونهم. والآن أصبح كل جندي لا يقاتل من أجل الاسلام فحسب ، بل من أجل شرف القبيلة. وسيكون هنالك تنافس بريء بين هذه القبائل والبطون من أجل رفع راية الثورة الاسلامية .

عندما اكتملت اعادة التنظيم ، مرّ خالد يرافقه قادته على الكتائب . فتكلموا مع الجنود وشدّوا من عزائمهم لانزال العقاب بمسيلمة بسبب العار الذي لحق بهم. وأقسم الرجال على ان يحاربوا بأسنانهم عند الضرورة .

اختار خالد ايضا بضعة محاربين وجعل منهم حراسا له. وكان ينوي ان يضرب مثلا لرجاله بالنزول الى ساحة القتال بنفسه. وهؤلاء الحراس سيكونون مفيدين دونما شك ، فقال لهم : «كونوا دائما قريبين مني» .

وتقدم المسلمون ، بعد ان أعيد تنظيمهم في صفوف متراصة ، الى سهل عقرباء فعادوا الى المعركة ليس كالأسود فحسب ، بل كالأسود الجائعة المجروحة في كرامتها وكبريائها .

في غضون ذلك ، نشر مسيلمة الكذاب جيشه مرة ثانية بترتيب المعركة السابق. وانتظر الهجوم الثاني لسيف الله ، وهو واثق من انه سيطرد المسلمين من ميدان المعركة .

اندفع المسلمون مرة ثانية الى الامام وفق أوامر خالد ، وهو يصيحون : الله أكبر ، ويا محمداه ! واشتبك جيش المسلمين الصغير بجيش المرتدين الجرّار. وتصادم الجناحان بالجناحين والقلب بالقلب. وتقابل قائد ميمنة

المسلمين زيد وقائد ميسرة المشركين الرّجّال. فقال زيد: «يا رجّال، الله الله، فوالله لقد تركت الدين، وان الذي أدعوك اليه لأشرف لك وأكثر لدنياك[1]». فأبى فاجتلدا فقتل الرّجّال.

شنّ المسلمون هجمات عنيفة على طول الجبهة، وكان المرتدون يدافعون بضراوة للمحافظة على مواقعهم. فسقط المئات منهم، وبدأت خسائر المسلمين أيضا بالتصاعد. وكان الجانبان متعادلين تقريبا فهناك تفوق المرتدين العددي وشجاعة تقابله مهارة المسلمين واحتدم القتال بين الجانبين كراً وفراً. وكان الغبار يتصاعد الى عنان السماء من وقع اقدام آلاف المتحاربين. وكانت السيوف والحراب المتكسرة تملأ الوادي والسهل كما ان الجثث والاشلاء الممزقة كانت تتكدس على الأرض وهي تنزف دما. وأخذ الدم يجري في خندق يؤدي الى وادي حنيفة. ونتيجة لذلك، أصبح هذا الخندق يعرف باسم «خندق الدم». ولا يزال هذا الخندق يعرف بهذا الاسم حتى اليوم. وظلت المعركة متأرجحة بين الطرفين بلا حسم.

وعندما خفت حدّة القتال، توقف المحاربون ليلتقطوا أنفاسهم. وكانت هنالك فترة هدوء. فخرج خالد أمام صف المسلمين ودعا الى المبارزة وقال: «أنا ابن الوليد! من يبارز؟» فخرج عدة أبطال من بين صفوف المرتدين الواحد تلو الآخر نحو خالد فقضى عليهم واحدا تلو الآخر وهو يرتجز:

«أنا ابن أشياخ وسيفي السّخت أعظم شيء حين يأتي التّفت»[2]

تقدم خالد ببطء وثبات نحو مسيلمة، وكلما برز له بطل قتله ولم يبق أحد يجرؤ على مبارزته، وأصبح خالد قريبا من مسيلمة بحيث يستطيع ان يكلمه دون أن يرفع صوته. وكان مسيلمة، محاطا بحراسة، ولا سبيل لخالد اليه.

اقترح خالد اجراء محادثات بينه وبين مسيلمة. فوافق مسيلمة، وخرج الى الامام بحذر وتوقف قريبا من خالد. فعرض عليه خالد اشياء مما يشتهي

---

(١) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٥١٤.

(٢) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٥١٣ (السخت: الحادّ، التفت: أوار المعركة).

مسيلمة وقال له: «ان قبلنا النصف فأي النصاف تعطينا»[1] ، وكان مسيلمة اذا همّ بجوابه أعرض بوجهه مستشيرا فينهاه شيطانه أن يقبل، فأعرض بوجهه بعد أن أستلهم شيطانه. وعندما شاهد خالد ذلك تذكر كلمات النبي التي قالها بشأن مسيلمة: «ان مع مسيلمة شيطانا لا يعصيه، فاذا اعتراه أزبد كأن شدقيه زبيتان لا يهم بخير الا صرفه عنه. فاذا رأيتم منه عورة فلا تقيلوه العثرة[2] ».

كان خالد ينوي قتل مسيلمة. وكان اقتراحه باجراء المحادثات عبارة عن طعم لكي يجعله يقترب منه. وكان على خالد ان يعمل بسرعة قبل أن يعود مسيلمة الى حماية حرّاسه. فسأله خالد سؤالا آخر. فأعرض مسيلمة بوجهه ليستشير شيطانه. وفي هذه اللحظة هجم خالد عليه.

كان خالد سريعا. لكن مسيلمة كان أسرع. في لمح البصر عاد أدراجه بسرعة.

أصبح مسيلمة آمنا مرة أخرى بين أيدي حرّاسه، لكن شيئا ذا مغزى طرأ، عندما هرب مسيلمة، على الجيشين، فقد ارتفعت قوى جيش المسلمين المعنوية وانخفضت قوى جيش المرتدين فهرب نبيّهم وقائدهم أمام خالد كان شيئا معيبا في أعينهم، وابتهج المسلمون من جهة أخرى لشجاعة قائدهم. ولكي يستثمر خالد هذه الفرصة النفسية التي برزت أمامه، أمر بشن هجوم جديد في الحال.

هجم المسلمون مرة أخرى وهم يصيحون: «الله أكبر». وقاتلوا ببسالة واندفاع، وأخيرا لاح النصر في الافق. فبدأ المرتدون بالتراجع من جرّاء ضربات المسلمين المحكمة بالسيوف والحراب، وأخذوا ينسحبون بسرعة أمام ضغط المسلمين. وبلغت حماسة المسلمين أوجها فضاعفوا جهودهم، وبعد ذلك انهارت وتحطمت جبهة المرتدين.

لم يستطع مسيلمة أن يفعل شيئا، فقائده الكفء رجّال قد قتل. فجاء الآن قائد ميمنته «المحكّم» لانقاذ موقف المرتدين. فنادى المحكّم: «يا بني

(١) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٥١٤.

حنيفة ، الحديقة ، الحديقة ، ادخلوا الحديقة وسأحمي ظهوركم » .

لكن عقد المرتدين كان قد انفرط . وهربت الكتلة الرئيسية من جيشهم وتفرقت في جميع الاتجاهات . بقي ربع جيش مسيلمة تقريبا في حالة قتال ، فأسرع هذا الجزء بدخول الحديقة المسوّرة بينما المحكّم يحمي تراجعه بحرس مؤخرة صغير، سرعان ما قضى عليه المسلمون وسقط المحكّم قتيلا على يد نجل الخليفة ، عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق .

قام المسلمون بعد ذلك بمطاردة فلول المرتدين في سهل عقرباء وهم يضربون ذات اليمين وذات الشمال . وسرعان ما وصلوا الى الحديقة المسوّرة التي تضم نحو سبعة آلاف مرتد ، ومسيلمة بينهم . وكان المرتدون قد اغلقوا باب الحديقة وهم يعتقدون أنهم أصبحوا في مأمن .

تجمع الجزء الأكبر من جيش المسلمين قرب « حديقة الموت » ، وذلك بعد الظهيرة ، والمسلمون متحمسون لاقتحام الحديقة وانهاء المهمة التي بدؤوها ، قبل ان يحل الظلام ، ولكن لا يوجد أي منفذ يؤدي الى الحديقة . فالسور يحيط بها من جميع جهاتها ، وكانت البوابة موصدة . ولم يكن بحوزتهم تجهيزات حصار ، وليس لديهم وقت ليقضوه في الحصار.

بينما كان خالد يقدح زناد فكره ، قال محارب قديم الى زملائه ، وكان يدعى البراء بن مالك : « يا معشر المسلمين ، احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه » . لكنهم رفضوا في بادىء الأمر ، لان البراء كان أحد الصحابة البارزين ، وخشوا أن يؤدي ذلك الى موته . لكن البراء أصرّ على طلبه . وأخيرا وافق رفاقه وحملوه ووضعوه على الحائط . فوضع يديه على طرف الحائط وقفز الى داخل الحديقة . وفي لحظات . تمكن من قتل مشركين أو ثلاثة حاولوا منعه من الوصول الى البوابة ، وقبل أن يتمكن آخرون من اعتراضه ، فتح باب الحديقة على مصراعيه ، فاندفع المسلمون الى داخل الحديقة كالسيل العارم ، وهنا بدأت آخر واعنف مرحلة من معركة اليمامة .

كان من الممكن ان يتغلب المرتدون على المسلمين داخل الحديقة بسبب تجمعهم الكثيف عند مدخل الحديقة الضيق . لكن المسلمين شقوا طريقهم

بثبات الى داخل الحديقة ، وكان المرتدون يتساقطون امامهم اكواما. وبدأ المرتدون يتراجعون أمام وطأة ضربات المسلمين.

وأصبح القتال يدور بعنف شديد ، نظراً لتعذر المناورة داخل الحديقة والتحام الجانبين في قتال قريب. وبدأت صفوف المرتدين بالانهيار لكثرة قتلاهم. لكن مسيلمة كان ما يزال يقاتل: اذ لم تكن لديه نية الاستسلام. وعندما اقترب منه المسلمون، استل سيفه واشترك في القتال المتلاحم، وقد اندهش المسلمون بقوته وبراعته. فقد كان قائدا داهية ، ومقاتلا شجاعا وماهرا. لكن الزبد بدأ يخرج من فمه دلالة على الغضب ، وأعرض بوجهه ليستشير شيطانه.

بلغت المرحلة الأخيرة من المعركة ذروتها. فضغط جيش المسلمين على المرتدين في كل مكان ، ولم يبق سوى محاولات مسيلمة الاخيرة لمنع الانهيار التام لجيشه.

كان المسلمون يقاتلون قتالا ضاريا. وقد انزلوا بالمرتدين افدح الخسائر ، وكانت الجثث تغطي ميدان المعركة وأصبح لون التراب أحمر بفعل دماء القتلى والجرحى.

هرع الكثيرون من المرتدين الى مسيلمة وقالوا له في يأس: «اين ما كنت تعدنا؟» فقال: «قاتلوا عن أحسابكم».

أدرك مسيلمة انه لن ينال صفح خالد ، فهو مدان بقتل الكثيرين من المسلمين ، وسيفه لا يزال يقطر بدمائهم ، وقرر أن يقاتل مع أفراد قبيلته حتى النهاية ، وكان حرسه الخاص يقاتلون حوله بتعصب. وتقدم وحشي من مسيلمة. وكان هذا أحد مجرمي الحرب الذين نوه عنهم النبي (ص) ، في مساء يوم فتح مكة. وخشية من الأسوأ ، هرب وحشي من مكة وذهب الى الطائف ، وعاش بين قبيلة ثقيف ردحا من الزمن. وفي العام التاسع للهجرة ، عندما اعلنت ثقيف ولاءها للنبي (ص) ، ذهب وحشي الى النبي (ص) أيضا واعتنق الاسلام وأقسم يمين الولاء.

وكان النبي (ص) لم يره منذ عدة سنين ولم يكن متأكدا اذا كان هو

الرجل ذاته. فسأله النبي (ص): «هل أنت وحشي؟» فقال: «نعم يا رسول الله». فقال النبي: «أخبرني كيف قتلت حمزة». فقص وحشيّ القصة بكاملها منذ البداية حتى النهاية. ولم يدر بخلده شيء آخر وأنه قتل رجلا شهما نبيلا لهمكانة خاصة في قلب النبي (ص). بل سرد القصة كجندي قديم يتحدث عن بطولاته ومآثره. كما ان قتل محارب فذ مثل حمزة، كان مأثرة في نظره.

برهن وحشيّ على انه راوية ممتاز. لكن أحدا لم يصفق له. فكانت امارات الأسى ترتسم على محيّا الرسول العربي (ص) وهو يستمع اليه، ثم قال له: «لا تريني وجهك مرة ثانية». فأدرك وحشيّ ان بقاءه في المدينة خطر عليه لان ذكرى حمزة لا تزال ماثلة هناك. فغادرها على الفور.

عاش وحشيّ في السنتين التاليتين في قرى متعددة حول الطائف متخفيا ومبتعدا عن الناس. فكان ضميره يؤنبه على حياته التعيسة. ثم جاءت الردّة. فبقي وحشيّ مخلصا لدينه الجديد واختار أن يحارب المرتدين من أجل الاسلام. وخدم بامرة سيف الله.

عندما وقعت عينا وحشيّ على مسيلمة، شدّد قبضته على حربته، هذه الحربة التي أودت بحياة الكثيرين. كان الكذّاب يقاتل بشراسة. وكان يصدّ عنه ضربات المسلمين وهو محاط بحرّاسه، وأحيانا كان يقاتل أمامهم ولكنه لم يغب لحظة عن نظر القاتل الاسود. لقد اختار وحشيّ ضحيته الثانية، وموتها سيخفف من الألم الذي يعتصر في قلبه. فتسلل وحشيّ من مكانه خلف صف المسلمين وتقدم الى الامام ليضع مسيلمة ضمن مدى حربته. ولم يشاهد وحشيّ وهو يتقدم، الجموع الحاشدة، أو المحاربين الذين تغطيهم الدماء والذين يحيطون بمسيلمة. وكان وحشيّ لا يرى الاّ ضحيته.

رأى وحشيّ أمّ عمارة، السيدة العظيمة التي قاتلت في أحد، وهي تحاول الوصول الى مسيلمة. وكانت تبارز مشركاً سدّ الطريق أمامها. وفجأة ضربها المشرك ضربة افقدتها يدها. فتلقاه ابنها الذي كان يقف بجوارها بضربة قاضية وساعد والدته على النجاة. وكانت كسيرة الخاطر لانها لم

تتمكن من الوصول الى مسيلمة .

اقترب وحشيّ من مسيلمة . وكان يتخيل شهيد أحد ، حمزة ، الذي كان مقتله سبب كل متاعبه . وكان يستطيع أن يميز في مخيلته صورة حمزة الشجاع والوسيم . لكنه طرد من ذهنه التخيلات المؤلمة ونظر مرة أخرى الى مسيلمة . وقد أصيب بصدمة من جرّاء التباين بينهما . اذ كان منظر مسيلمة ذي الوجه البشع الأصفر ، وذي الأنف المسطح مخيفاً والزبد خاصة يملأ فمه وهو بحالة هياج وغضب . ورأى وحشيّ جميع الآثام والشرور واضحة في وجهه .

قاس وحشيّ المسافة بينه وبين مسيلمة بعينه الخبيرة . فكان المدى ملائماً وبينما كان يهمّ برمي وتسديد حربته ، شاهد أبا دجانة (وهو الرجل الذي جعل من جسمه ترساً لحماية النبي (ص) في أحد) وهو يتقدم نحو مسيلمة شاهراً سيفه . وكان أبو دجانة ماهراً في استخدام السيف وسوف يصل الى هدفه بسرعة . فرمى وحشيّ حربته فأصابت مسيلمة في بطنه . فوقع مسيلمة الكذاب على الأرض وهو يتلوى من الألم . وفي لحظة كان أبو دجانة فوق مسيلمة . وبضربة محكمة من سيفه فصل رأس الكذاب عن جسده . وعندما نهض أبو دجانة ليعلن النبأ السارّ ، انقض عليه أحد المشركين وطعنه بالسيف . فلما رأى أحد المرتدين مسيلمة على هذه الحال ، صرخ قائلاً : «ان العبد الأسود قتل مسيلمة» . وانتشر النبأ في أرجاء الحديقة ، وأخذ المسلمون والمرتدون يقولون : «قتل مسيلمة» (١) .

تسبّب نبأ مقتل مسيلمة الكذّاب في انهيار المرتدين بسرعة . فبعضهم صار يقاتل بعنف نتيجة اليأس ، لكن هؤلاء لم يستمروا طويلاً ، وفقدوا حياتهم ثمناً لذلك . لكن معظمهم توقف عن القتال ، وأخذوا ينتظرون

---

(١) خدم وحشيّ فيما بعد بامرة خالد في حملة الشام . وعندما تم فتح الشام وأصبحت ولاية للدولة الاسلامية ، استقر وحشي في مدينة حمص وعاش فيها حتى سن متقدمة . لكنه قضى معظم أيامه في احتساء الخمرة . وقد جلده عمر ثمانين جلدة بسبب شرب الخمر (وكان أول مسلم في التاريخ يعاقب على شرب الخمر) ،

بيأس كامل سيوف المسلمين لانهاء حياتهم . وقام المسلمون بهجمة أخيرة على جموع المرتدين وقتلوا منهم الكثير. وتحولت المعركة الى مذبحة .

غابت الشمس ، فخيّم الهدوء على حديقة الموت. والمسلمون ما يكادون يقوون على رفع سيوفهم بسبب الاجهاد .

قضى المسلمون ليلتهم في نفس المكان ليستريحوا من هول المعركة ، وناموا قريري العين منتصرين .

في صباح اليوم التالي ، خرج خالد ليتفقد ميدان المعركة . وكانت آثار المعركة بادية في كل زاوية . فالاشلاء والجثث تملأ وادي حنيفة ، وسهل عقرباء ، وحديقة الموت . وكانت الأرض مخضبة بالدماء حيثما سار.

لقد قتل جميع قادة المرتدين الكبار في اليمامة ، إلا الأسير مجّاعة الذي جاء به خالد وهو يرسف في الحديد ليريه مسيلمة وأعلام جنده ، والهزيمة الساحقة لبني حنيفة .

كانت حالة المسلمين أيضاً سيئة . فالمعركة كانت رهيبة ، وهم الآن في حالة لا يستطيعون حتى الدفاع عن أنفسهم . كانوا مرهقين ، وقد ناموا الليلة الماضية في المكان الذي وصلوا اليه ليريحوا أطرافهم المتعبة . لكن خالداً كان راضياً من نتيجة المعركة ، فمسيلمة قد قتل وجيشه مزّق شرّ ممزق . وارتسمت علامات الفرح على وجهه ، لكن مجاعة سرعان ما أزال هذه العلامات اذ قال لخالد : « وانه والله ما جاءك الا سرعان الناس ، وان جماهير الناس لفي الحصون » . فقال خالد : « ويلك ما تقول ؟ » قال مجاعة : « هو والله الحق ، فهلمّ لأصالحك على قومي » . ثم قال : « انطلق اليهم فأشاورهم وننظر في هذا الأمر ثم أرجع اليك » .

كان خالد يعلم أن رجاله المنهكين غير قادرين على متابعة القتال ، فوافق على اقتراح مجاعة وقال له : « فليكن الصلح » .

اتفق خالد مع مجاعة على شروط الصلح : فالمسلمون يأخذون الذهب ،

والسيوف ، والدروع ، والخيل ، ونصف السبّي . ثم طلب مجاعة أن يذهب الى قومه ليعرض عليهم ما اتفق عليه . فسمح له خالد بالذهاب . ولما عاد الى خالد قال له : « لقد أبوا ما صالحتك عليه ، وبامكانك أن تهاجم اذا شئت » .

فقرر خالد أن يلقي نظرة على اليمامة بنفسه . وأوعز الى قواته المنهكة أن تدفن الشهداء وتجمع الغنائم ، وأخذ معه سرية من الخيالة وانطلق صوب اليمامة وبصحبته مجاعة . وعندما اقترب من الحائط الشمالي للمدينة المسوّرة رأى رجالاً على الحصون وعليهم الحديد الذي يلمع تحت أشعة الشمس ، فقال في نفسه كيف يستطيع أن يجابه مثل هذا الجيش ؟ فرجاله في حالة منهكة لا تساعدهم على القتال ، وبحاجة ماسّة الى الراحة .

فكسر صوت مجاعة الصمت قائلاً : « انهم مستعدون لتسليم الحصن اذا لم تأخذ منهم السبّي . وهم مستعدون أيضاً لاعطائك الذهب ، والسيوف ، والدروع ، والخيل » .

فسأله خالد : « هل وافقوا على ذلك ؟ » فقال مجاعة : « لقد بحثت الأمر معهم لكنهم لم يتخذوا قراراً بعد » .

لم يكن خالد على استعداد للتنازل أكثر مما عرض على مجاعة . فنظر الى مجاعة عابسا وقال : « سأمنحك ثلاثة ايام ، فاذا لم تفتح أبواب الحصن وفق شروطي الأخيرة فانني سأهاجم . وعندئذ لن تكون هناك تنازلات من أي نوع » . فذهب مجاعة مرة ثانية الى الحصن . وعاد هذه المرة باسما وأعلن : « لقد وافقوا » [1] .

وتم الصلح طبقا للشروط التي اتفق عليها . ووقع خالد نيابة عن المسلمين ووقع مجاعة نيابة عن بني حنيفة .

عاد مجاعة بن مرارة بعد توقيع معاهدة الصلح الى الحصن ، وسرعان ما فتحت أبوابه . فتجول خالد ومعه خيالته ومجاعة في المدينة وهو يتوقع أن يرى حشود المحاربين المسلحين ، ولكنه حيثما نظر ، كان لا يرى الا النساء والشيوخ

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة : ٥١٥ — ٥١٧ — ، البلاذري — صفحة ٩٩ — ١٠٠ .

والأطفال. فالتفت الى مجاعة قائلا: «اين المحاربون الذين رأيتهم على الحصون؟» فأشار مجاعة الى النساء وقال: «هؤلاء هم المحاربون الذين شاهدتهم. فعندما جئت الى الحصن البستهنّ الدروع، وحمّلتهن الأسلحة، وجعلتهن يقفن على الحصون». فقال خالد: «ويحك يا مجاعة لقد خدعتني». فقال مجاعة: «انهم قومي ولم أستطع الاّ ما صنعت». وكان بوسع خالد أن يمزق المعاهدة ويقضي على مجاعة. لكنه لم يفعل، وتم توقيع المعاهدة واحترمت بنودها. وقد اعتبر جميع افراد بني حنيفة الموجودين في الحصن آمنين. ثم بعد ذلك سمح لهم بالتجول في الجوار كما يشاؤون.

بعد يوم أو يومين وصلت رسالة من الخليفة، الذي لم يكن على علم بأن معركة اليمامة قد انتهت، تأمر خالدا بأن يقتل جميع المرتدين من بني حنيفة. فكتب خالد الى الخليفة بأن الأمر لا يمكن تنفيذه بسبب اتفاقات الصلح التي وقّعها معهم. فوافق أبو بكر على ذلك.

كان اتفاق الصلح يشمل الموجودين في الحصن فقط. لكن باقي أفراد قبيلة بني حنيفة، الذين يبلغ تعدادهم عشرات الالوف ويعيشون في المنطقة المحيطة باليمامة، كانوا غير مشمولين بالاتفاق. وكان أهم عناصر بني حنيفة بقايا جيش مسيلمة الذين فرّوا من سهل عقرباء. وكان هؤلاء المحاربون. الذين يصل عددهم الى عشرين الفا، يتحركون كيفما اتفق في جماعات حسب البطون التي ينتمون اليها. ولا يخشى خطرهم على الاسلام بعد موت مسيلمة، لكنهم مع ذلك كانوا يعيثون فسادا. وكان ينبغي سحقهم. وحسب شريعة الحرب القاسية، لا يعفى هؤلاء من العقاب الا اذا استسلموا بلا قيد أو شرط.

كان خالد ينوي القضاء على جميع المقاومات بين بني حنيفة لكي يسود السلام تلك المنطقة. فسمح لجيشه بالراحة لمدة يومين، ثم قسّم جيشه الى مفارز، وأرسل هذه المفارز لاخضاع المنطقة المحيطة باليمامة وأمرها بقتل أو أسر جميع الذين يقاومون. وانطلقت هذه المفارز لتمشيط المنطقة.

لوحق المرتدون الهاربون في كل مكان. وقد ظل الآلاف منهم غير نادمين

ومتحدّين السلطة الاسلامية، فهوجم هؤلاء وتم القضاء عليهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم. لكن آلافا آخرين استسلموا وتم اطلاق سبيلهم. وقد عاد جميع الذين بقوا على قيد الحياة من بني حنيفة الى حظيرة الاسلام مرة ثانية.

بعد انتصار المسلمين في معركة اليمامة، تحرر معظم الجزيرة العربية من الردّة. وقد بقي القليل من المرتدين في أطراف الجزيرة، لكن هؤلاء لم يشكلوا خطرا يذكر. كما استمرت بعض المعارك مع المرتدين، لكنها كانت معارك صغيرة اذا ما قورنت بمعركة اليمامة والمعارك الاخرى التي حدثت قبلها.

كانت معركة اليمامة أعنف معركة حدثت في التاريخ الاسلامي. فلم يسبق للمسلمين أن واجهوا قوة متفوقة كهذه. وقد حاربوا ببسالة نادرة تحت قيادة سيف الله. وقد برهنوا أيضا في قتالهم قوات بني حنيفة بامرة مسيلمة بأنهم رجال من الفولاذ. وبعد نصف قرن تال، كان الرجال الطاعنون في السن يصفون هذه المعركة بالتفصيل الى أحفادهم، وكان الرجل منهم ينهي حديثه قائلا بفخر واعتزاز: «لقد حاربت في اليمامة».

كانت الخسائر فادحة في هذه المعركة. فالمرتدون خسروا واحدا وعشرين الفا: منهم سبعة آلاف في سهل عقرباء، وسبعة آلاف في حديقة الموت، وسبعة آلاف في عمليات التطهير والتمشيط التي قامت بها المفارز التي أرسلها خالد حول منطقة اليمامة.

وكانت خسائر المسلمين قليلة اذا ما قورنت بخسائر المرتدين، ولكن اذا ما قيست بخسائرهم في المعارك السابقة، بدت كبيرة. فقد سقط منه ألفا ومئتا شهيد منهم زهاء خمسمائة من القراء وحفظة القرآن، [1] معظمهم في وادي حنيفة أو بالقرب منه. كان نصف خسائر المسلمين من الأنصار والمهاجرين الذين كانوا من أصحاب النبي وأقرب الناس إليه. وقيل أيضا أن

(١) — ولهذا السبب أشار عمر بن الخطاب على ابي بكر الصديق أن يجمع القرآن لئلا يذهب منه شيء بسبب موت من يحفظه (راجع فضائل القرآن لابن كثير ص٢٠ أو ما بعدها).

من بين شهداء المسلمين ثلاثمائة شهيد كانوا يحفظون القرآن بكامله. وسقط في المعركة بعض من خيرة المسلمين منهم: أبو دجانة، وأبو حذيفة (قائد الميسرة) وزيد (شقيق عمر، وقائد الميمنة). ونجا في المعركة عبدالله بن عمر.

عندما عاد عبدالله الى المدينة، مرّ على والده لتقديم فروض الاحترام، لكن عمر نظر الى ابنه وقال: «ما جاء بك وقد هلك زيد؟ الا واريت وجهك عني». فقال عبد الله: «يا أبت، ان زيدا قد طلب الشهادة فأعطيها، وجهدت ان تساق اليّ فلم أعطها». [١]

بلغت حملة أبي بكر على المرتدين ذروتها في معركة اليمامة. وقد لاقت استراتيجية أبي بكر نجاحا بتعيينه خالدا لمحاربة زعماء المرتدين وبدءا بالاهداف القريبة ثم البعيدة. فالامور غدت أكثر سهولة.

هنالك حادثة لا بد من ذكرها قبل الانتهاء من سرد معركة اليمامة. ففي اليوم الذي فتحت فيه أبواب حصن اليمامة، جلس خالد خارج فسطاطه في المساء. وكان يجلس بجانبه مجاعة. وكانا بمفردهما. وفجأة التفت خالد الى مجاعة وقال له: «زوجني ابنتك». فقال له مجاعة: «مهلا، انك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك» — يقصد الخليفة أبا بكر. فقال خالد: «لا عليك» فزوجه ابنته الجميلة. فبلغ ذلك الخليفة أبا بكر، فكتب اليه: «لعمري يا ابن أم خالد انك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجف بعد». [٢]

وفي هذا المجال لا بد من التنويه بأن عادة أخذ الفتيات الجميلات من الخصوم كانت سارية ابان ذلك العصر ليس في الجزيرة العربية فحسب بل في كل بلاد العالم وكان للقادة في هذا المجال نصيب الأسد وكانوا يعتبرون ذلك ضربا من الفروسية «أن يحوز القائد على زوجة خصمه أو شقيقته أو ابنته» وعندما جاء الأسلام الغى هذه العادة — اغتصاب فتيات

(١) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٥١٢— ٥١٣.

(٢) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٥١٩.

العدو — وطورها حتى تكون زواجاً ومع ذلك لم يكن قادة الثورة الاسلامية ، والخلفاء الراشدين خاصة ، راضين عنْ تصرفات قادة الحملات الميدانية وكانوا يسمَعونهم قوارص الكلم كتابة وشفاها . ولكن بعد ذلك يغفرون لهم .. لأن من يقدم دمه فداء لوطنه يحق له ان يتمتع ولو ساعة من الزمان ولا سيا بعد خوضه معركة ناجحة . وهذا ما يسمى «باستراحة المحارب» .

٧ — نهاية المرتدين :

تم القضاء على بقايا المرتدين في مناطق الجزيرة العربية الأقل شأنا بسلسلة من الحملات المنظمة جيدا ، قام بها المسلمون في غضون خمسة أشهر.

أرسل عمرو بن العاص بلوائه الى تخوم الشام لاخضاع المرتدين في تلك المنطقة. وكانت القبيلتان اللتان بحاجة الى عقاب هما قضاعة ، ووديعة. وبينما كان خالد يقاتل المرتدين في أواسط الجزيرة العربية ، كان عمرو يضرب المرتدين في الشمال ، لكن نجاحه كان محدوداً ، فلم يستطع أن يخضع القبائل إخضاعا تاماً ويجعلها تستسلم.

وعندما انتهت معركة اليمامة ، توجه شرحبيل بن حسنة على رأس لوائه بأوامر من الخليفة ، لتعزيز عمرو، وقد عمل القائدان معا بانسجام تام لاخضاع القبائل الشمالية. وكان معظم المرتدين يحتشدون في منطقة تبوك ودومة الجندل ، حيث قام القائدان في هذه المنطقة بأعنف ضرباتهما. وفي غضون اسابيع قليلة ، تم القضاء على المرتدين ، وعادت القبائل الى حظيرة الثورة الاسلامية مرة ثانية. وعاد السلام الى شمال الجزيرة العربية.

كانت القبيلة الرئيسية التي تسكن عمان هي قبيلة «الأزد». وكان زعيم هذه القبيلة لقيط بن مالك الازدي ، وكان يلقب «بذي التاج». وكان عرب هذه القبيلة قد اعتنقوا الاسلام في زمن النبي ، وقبلوا ان يلتزموا بشروط الثورة الاسلامية.

وعند سماعهم نبأ وفاة النبي ، ثاروا بقيادة ذي التاج وارتدوا عن الاسلام وأعلن ذو التاج نفسه ملكا على عمان عندما كان أبو بكر مشغولا بالخطر

الذي كان يتهدد المدينة، وجعل مركز قيادته في «دبا».

وبعد ان ترك خالد ذا القصّة ليقاتل طليحة، أرسل الخليفة حذيفة بن محصن (أحد امراء الالوية) للقضاء على المرتدين في عمان. ودخل حذيفة منطقة عمان، وليس لديه قوات كافية لمحاربة ذي التاج، فقرر ان ينتظر وصول التعزيزات. وكتب الى الخليفة يعلمه بالأمر، فأمر الخليفة، كما ذكر سابقا، عكرمة بالتحرك من اليمامة لمساعدة حذيفة. وعند وصول عكرمة، قام القائدان بالعمل معا ضد ذي التاج في دبا.

حدثت معركة دبا في نهاية تشرين الثاني عام ٦٣٢م (أوائل رمضان بعام ١١ هجري). ولم تسر المعركة في بادىء الأمر لصالح المسلمين، لكن في اللحظة الحرجة، ظهرت قوة من المسلمين المحليين، عادت الى دينها رغم أنف ذي التاج، في ميدان المعركة وحاربت مع المسلمين ضد المرتدين. وبمساندة هذه القوة، استطاع المسلمون هزيمة جنيش المرتدين. وقتل ذو التاج في المعركة.

قام حذيفة بعد تعيينه حاكما على عمان، باعادة النظام والقانون الى ربوع البلاد. وتفرغ عكرمة الذي لم تكن لديه مسؤوليات ادارية، لقتال المرتدين في المنطقة المجاورة لدبا، وتمكن من القضاء على مقاومة المرتدين من قبيلة الأزد في عدد من المعارك الصغيرة. وبذلك عاد الهدوء والسلام الى قبيلة الأزد، ولم تسبب هذه القبيلة بعد ذلك أية متاعب للثورة الاسلامية في المدينة.

من عمان توجه عكرمة الى مهرة بناء على أوامر أبي بكر، وهنا أيضا أصابت عدوى الردّة السكان المحليين، ولكن الارتداد هنا كان أقل خطرا من المناطق الأخرى. وكانت مهرة هي هدف عرفجة البارقيّ (أحد امراء الاولوية)، وكانت التعليمات التي صدرت الى عكرمة تقضي بأن يساعد عرفجة، ولكن نظرا لتأخر وصول عرفجة قرر ان يقضي على المرتدين المحليين بقواته بدلاً من الانتظار.

كان جيش المرتدين المحليين الذي تجمع في «جيروت» يتألف من

مجموعتين .

وقبل أن يبدأ الهجوم طلب عكرمة من المرتدين ان يعودوا الى الدين الاسلامي . فمن بين مجموعتي المرتدين ، رفضت المجموعة الكبيرة نداء عكرمة ، لكن المجموعة الصغيرة قبلت العودة الى الاسلام وانضمت الى المسلمين . فهاجم عكرمة المرتدين وهزمهم . وقتل قائد المرتدين . واستولى عكرمة على عدد كبير من الاسلاب والغنائم .

بعد أن وطّد عكرمة دعائم الاسلام في مهرة ، تحرك بلوائه الى مكان يدعى «أبين» حيث أراح جنوده وانتظر تطورات الموقف .

تم في البحرين عمل عسكري مستقل ضد المرتدين بواسطة لواء العلاء ابن الحضرمي. فبعد معركة اليمامة، آرسل أبو بكر هذا القائد للقضاء على المرتدين في البحرين ، وأخبره أنه قد لا يستطيع تعزيزه بأي قوات أخرى من المسلمين ، وعليه أن يعمل بالقوات التي معه . وعندما وصل العلاء الى البحرين ، وجد المرتدين متجمعين في هجر وهم يتخندقون في مواقع قوية .

وشن العلاء عدة هجمات واستمرت المعركة بضعة أيام وهو لم يحقق نجاحاً ، لأن اجتياز خط الاستحكامات كان صعباً . وكان كلما خطط لعبور بعض القوات ، كان المرتدون يصدّونهم . وبدأ العلاء يفكر في طريقة اجتياز هذه المواقع التي لا تخترق .

وفي إحدى الأمسيات ، سمع العلاء أصوات ابتهاج تنطلق من مواقع المرتدين . فلم يعرف كنه هذه الأصوات ، فأرسل عيوناً لاستطلاع الأمر . فعاد هؤلاء ليخبروه بأن حالة من السكر والعربدة تعمّ معسكر المرتدين . فأمر العلاء على الفور بشن هجوم ليلي . وعندما قام المسلمون بهجومهم ، لم يجدوا أياً من الحرس ، وأخذوا العدو على حين غرة ، فانقضوا على العصاة وقتلوا المئات منهم قبل أن يعودوا الى رشدهم .

وفي اليوم التالي طارد العلاء فلول المرتدين حتى الساحل حيث لم يبدوا أية مقاومة .. واستسلم معظمهم وعادوا مرة ثانية الى الاسلام .

وانتهت هذه العملية في أواخر كانون الثاني عام ٦٣٣ م (الاسبوع الثاني من ذي القعدة ، عام ١١ هجري) .

وعندما وصل نبأ وفاة النبي (ص) ، ثار أهل اليمن مرة ثانية بقيادة قيس ابن عبد يغوث بن مكشوح. وكان هدف المرتدين المعلن هو طرد المسلمين من اليمن ، وقرروا أن يحققوا هذا الهدف باغتيال فيروز وبعض القادة الهامين من المسلمين ، وبذلك يصبح المسلمون في اليمن بدون قيادة ، فطردهم سيكون سهلاً .

ولتنفيذ هذه الخطة ، دعا قيس فيروز وبعض القادة من المسلمين الى منزله لاجراء محادثات . فوقع بعض المسلمين في الفخ وقتلوا على الفور بيد المتآمرين ، ولكن فيروز كان قد علم بالمؤامرة في آخر لحظة وعرف التنظيم الذي يقف وراءها . ونظراً لعدم وجود قوة عسكرية تحت تصرفه ، هرب طلباً للنجاة . وغادر صنعاء . فعلم قيس بذلك وحاول اللحاق به ، لكنه تمكن من تضليل مطارديه ووصل الى منطقة التلال حيث وجد ملجأ أميناً . وكان ذلك في حزيران أو تموز عام ٦٣٢ م (ربيع الاول أو ربيع الثاني عام ١١ هجري) .

بقي فيروز طيلة الأشهر الستة التالية في مخبئه الجبلي الحصين ، وقد التحق به في غضون تلك الشهور آلاف المسلمين الذين كانوا على استعداد لبذل دمائهم في سبيل طرد قيس واعادة الحكم الاسلامي الى اليمن . فنظم فيروز هؤلاء المسلمين في جيش . وعندما شعر بأن قوته كافية لمواجهة قيس ، سار الى صنعاء بهذا الجيش ، وكان قيس بانتظاره فيها .

وفي منتصف كانون الثاني عام ٦٣٣ م (أواخر شوّال ، عام ١١ هجري) تقابلا للمعركة في ظاهر المدينة . فانتصر المسلمون في المعركة ، وهرب قيس الى «أبين» وهو المكان الذي استراح فيه عكرمة فيما بعد ، بعد اخضاع مهرة .

في «أبين» انضم الى قيس بعض زعماء المرتدين ، لكنهم تشاجروا فيما بينهم . وبعد أن رأوا أنه لا أمل لهم بمعارضة المدينة ، استسلموا جميعاً

للمسلمين وعفا الخليفة عنهم نتيجة لذلك .

وحارب بعض زعماء المرتدين ، بعد عودتهم الى الاسلام ، بشجاعة في العراق والشام في السنوات التالية .

كانت آخر حركة كبيرة للمرتدين هي تمرد قبيلة كندة ، التي كانت تسكن منطقة نجران ، وحضرموت ، واليمن الشرقي . وكان تسلسل الأحداث في هذه الردة مثل سائر الحركات التي قام بها المرتدون .

فعند وفاة النبي (ص) ، اتخذت قبيلة كندة موقفاً عدائياً ، بالرغم من انها لم تقم بالانقضاض على الثورة الاسلامية في الحال . وكان حاكم حضرموت زياد بن لبيد الذي كان يعيش في ظفار، عاصمة حضرموت . وكان زياد رجلاً أميناً ، ويخشى الله ، وكان صارماً في جمع الزكاة ، التي سبّبت الكرب في نفوس قبيلة كندة . وباءت جميع محاولاتهم للتهرب من دفع كامل الزكاة ، بالاخفاق .

وفي كانون الثاني عام ٦٣٣م (شوال ، عام ١١ هجري) ، حدثت حادثة فجّرت موقف قبيلة كندة : اذ قدّم أحد زعماء القبيلة الثانويين ناقة جزءاً من الزكاة . لكنه غيّر رأيه وأراد ان يسترجع الناقة ، لكن زياداً رفض تلبية طلبه . فأرسل هذا الزعيم بعض رجاله فسرقوا الناقة .

فأرسل زياد بعض الجنود لالقاء القبض على سارقي الناقة . فأعادوا الناقة وقبضوا على الجناة الذين تم توقيفهم . وفي صباح اليوم التالي تجمهر حشد من كندة وطالبوا باطلاق سراح رجالهم . لكن زياداً رفض اطلاق سراح اللصوص ، وأعلن بأنهم سيحاكمون طبقاً للشريعة الاسلامية . وهنا تفجر الموقف .

وانتفضت أعداد كبيرة من كندة وارتدت عن الدين الاسلامي ، ولم يكتف هؤلاء بالامتناع عن دفع الزكاة وعدم التقيد بالشرائع الاسلامية ، بل حملوا السلاح على سلطة المدينة . وانضم اليهم عدد كبير من المنشقين ، فأقاموا المعسكرات واستعدوا للحرب .

لم يكن أحد معسكرات الثائرين في الرياض ، بعيدا عن ظفار. فأرسل

اليهم زياد قوة للاغارة على هذا المعسكر ليلا ، فعادت القوة بعد أن أدت مهمتها بنجاح. وقتل بعض المرتدين ، وأسر الكثيرون منهم ، وتم طرد الباقين. وبينما كان الأسرى يساقون الى ظفار، مرّوا بأكبر زعماء كندة ، الاشعث بن قيس ، الذي لم يكن قد ارتدّ بعد. فاستغاثت به نسوة بني عمرو بن معاوية وناديته : «يا أشعث ، يا أشعث ، خالاتك ، خالاتك» . وقد برهن الاشعث ان ولاءه لقبيلته أقوى من ولائه لدينه أو للسلطة المركزية. فاعترض سبيل قوة المسلمين، ومعه عدد كبير من المحاربين ، وأطلق سراح الأسرى ، وأرسل المسلمين المكلفين باصطحاب الاسرى الى زياد بخفي حنين .

وكان هذا العمل بداية لتمرد الاشعث. فتوافد أفراد قبيلة كندة الى الاشعث بأعداد كبيرة وانضووا تحت لوائه واستعدوا للمعركة ، لكن القوتين : قوة المسلمين ، وقوة المرتدين ، كانتا متكافئتين فلم تشعر احداهما بانها قادرة على الشروع في أعمال عدائية هامة. وانتظر زياد التعزيزات قبل ان يشن هجومه على الاشعث.

كانت التعزيزات في الطريق. فقد أرسل المهاجر بن أبي أمية ، آخر امراء الألوية ، من قبل أبي بكر الى اليمن بعد أن أتم اخضاع بعض الثائرين في نجران. وأمره أبو بكر أن يذهب للانضمام الى زياد من أجل قتال مرتدي قبيلة كندة ، بدلا من الذهاب الى حضرموت. وصدرت تعليمات مماثلة الى عكرمة الذي كان موجودا في «أبين».

انضمت قوات زياد الى قوات المهاجر في ظفر وتولى القيادة على القوتين المهاجر وانطلق لمحاربة الاشعث.

كان الاشعث بن قيس أحد الرجال البارزين في عصره. وهو ينحدر من سلالة امراء كندة ، وكان متعدد الصفات والمزايا : فهو قائد قدير ، وزعيم ذكي ، ومحارب ، جريء ، وشاعر ملهم ، كما كان خصب الخيال ، ذرب اللسان ، جذّابا ، وداهية. ولكن كانت فيه نقيصة واحدة وهي أنه كان غدّارا. ويذكر المؤرخون ان اسرته هي الوحيدة التي اخرجت أربعة من

ناقضي العهود في خط متسلسل: الاشعث، ووالده، وابنه، وحفيده.

وكان الاشعث يعيش قريبا من الخط الفاصل بين الفضيلة والشرّ، وبين الايمان والكفر، ولكنه لم يجتز ذلك الخط أبدا. وكان يمارس نوعا من التهديد المفتعل بالحرب، وكان ذكيا بحيث لا يتورط بحرب فعلية. غير انه في أواخر كانون الثاني عام ٦٣٣م (الاسبوع الثاني من ذي القعدة، عام ١١ هجري) واجه جيش المسلمين في معركة.

لم تستمر المعركة طويلا. وانهزم الاشعث، لكن هزيمته لم تكن ساحقة. اذ سحب جيشه بسرعة من ميدان المعركة وتراجع الى حصن «النّجير». حيث انضمت اليه قبائل اخرى منشقة وهنا استعد الاشعث للحصار.

بعد هذه المعركة مباشرة، وصل لواء عكرمة ايضا. فتقدمت ألوية المسلمين الثلاثة بقيادة المهاجر الى «النّجير»، وضربت حصارا على المدينة المحصّنة. وكان يوجد ثلاثة طرق تؤدي الى المدينة. فنشر امراء الألوية قواتهم للمعركة على الطرق الثلاث، وضربوا حصارا كاملا حول المدينة وعزلوها. وكانت التعزيزات التي تصل الى الأشعث اما ان تؤسر أو تطرد بعيدا.

دام الحصار عدة أيام. وشنّت الحامية المحاصرة عددا من الهجمات، لكنها صدّت جميعها وتكبدت الحامية بعض الخسائر. ومع ذلك بقيت قبيلة كندة ماضية في تصميمها على القتال.

وعند منتصف شباط عام ٦٣٣م (أوائل ذي الحجة، عام ١١ هجري) أيقن الاشعث ان الموقف ميؤوس منه. ولاتوجد آية امكانية للنجاح. وان الحصن سيسقط ان عاجلا أو آجلا بيد المسلمين، وان المسألة وقت فقط، وبعد ذلك سيكون هنالك حمّام من الدم. وكان تصرف الأشعث ينم عن حقيقة اخلاقه، فقرر أن يبيع قبيلته لقاء انقاذ نفسه.

لذلك أرسل الاشعث رسالة الى عكرمة يقترح فيها اجراء محادثات بينهما، وكان الاشعث يعرف عكرمة معرفة جيدة، حيث كانا صديقين قبل اعتناقهما الاسلام. ونتيجة للاقتراح، تم اتخاذ الترتيبات للمحادثات بين

عكرمة والمهاجر من جهة وبين الاشعث من جهة أخرى. وخرج الاشعث من الحصن سرا وبصحبته بعض الرجال لاجراء المحادثات. فقال الأشعث: «سأفتح لكم أبواب الحصن اذا أنقذتم حياة عشرة رجال وأهليهم». فوافق عكرمة والمهاجر على ذلك. فقال المهاجر: «أكتب أسماء العشرة رجال، وسوف نختم الكتاب». فانتحى الاشعث جانبا مع رجاله وبدؤوا بكتابة الاسماء. وكان الاشعث ينوي كتابة تسعة أسماء من المقربين اليه ثم يضيف اسمه كعاشر رجل، لكنه لم يلحظ وجود آحد رجاله وهو ينظر من فوق كتفه ويقرأ الاسماء التي كتبها. كان اسم هذا الرجل «جحدم»، ولم يكن له اسم بين الاسماء التسعة. وعندما كتب الاشعث الاسم التاسع، ولم يبق الا ان يكتب نفسه وثب عليه جحدم وبيده خنجر وقال له: «نفسك أو تكتبني [1]». فكتبه وترك نفسه على أمل أن ينقذ نفسه فيما بعد باستخدام ذكائه. فاكتملت اللائحة وختمها المهاجر.

عاد الاشعث ورجاله الى الحصن. وفي الوقت المحدّد، فتح أحد أبواب الحصن، وتدفق المسلمون الى داخله وانقضوا على الحامية التي لم تكن تتوقع مثل هذه المفاجأة. وحدثت مجزرة رهيبة، واستمرت حتى ألقى جميع من في الحصن سلاحهم. وتم انقاذ الاشعث ومجموعة من الرجال واهليهم الذين بقوا بجانبه.

وسقط حصن «النّجير». وعندما تفحص المهاجر لائحة الاسماء التي أعدها الاشعث، لاحظ ان اسم الاشعث غير موجود في اللائحة. فقال المهاجر للأشعث: الحمد لله الذي أمكن منك يا أشعث يا عدو الله. قد كنت أشتهي أن يخزيك الله [2]». فشدّه وثاقا وهمّ بقتله، فقال له عكرمة: «أخرّه وأبلغه أبا بكر فهو أعلم بالحكم في هذا». فكبّل بالحديد.

استولى المسلمون على عدد كبير من الاسرى والسبايا داخل الحصن.

---

(١) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٥٤٧.

(٢) — الطبري — الجزء٢، صفحة ٥٤٨.

وكان بين السبايا كثير من الفتيات الجميلات. فسيق الاسرى والسبايا من الحصن الى المدينة. ومرّوا بالاشعث، وقد علموا في هذا الوقت بخيانته، فأخذت السبايا تلعنه وتقول: «خائن، خائن! [1]». وأرسل الاشعث مع الاسرى والسبايا الى المدينة.

لم يكن الاشعث غريبا على المدينة. فقد زارها خلال «عام الوفود»، عندما قدّمت كندة ولاءها الى النبي (ص) واعتنقت الاسلام. وخلال تلك الزيارة، تزوج الاشعث ام فروة، شقيقة أبي بكر، ولكن عندما غادر المدينة تركها مع أبي بكر، على ان يأخذها في زيارته التالية. لكن هذه الزيارة تمت الآن في ظروف مختلفة!

اتهم الخليفة الاشعث بجميع الجرائم التي ارتكبها ضد الاسلام والدولة. قال له: «ماذا تراني أصنع بك فانك قد فعلت ما علمت» فقال الاشعث: «تمنّ عليّ فتفكّني من الحديد وتزوجني اختك فاني قد راجعت وأسلمت». فقال ابو بكر: «قد فعلت». فزوجه ام فروة ابنة أبي قحافة. وبقي الاشعث في المدينة. وفي السنوات التالية، قاتل بشجاعة في الشام، والعراق، وبلاد فارس، وفي زمن عثمان عيّن حاكما على اذربيجان.

لكن خيانته بقيت ملازمة له. وكان الكثير من الناس، ومنهم أبو بكر، يتمنون لو لم يتم الصفح عنه بعد ارتداده. وفي الحقيقة، عندما كان أبو بكر على فراش الموت، وكان يتحدث الى أصحابه عن أسفه على الاشياء التي لم ينفذها وكان يتمنى لو فعلها، وعلى الاشياء التي نفذها وكان يتمنى ان لم يفعلها، قال: «وددت اني يوم أتيت بالاشعث بن قيس أسيرا كنت ضربت عنقه فانه يخيل اليّ انه لا يرى شرا الا اعان عليه [2]».

بهزيمة قبيلة كندة في النّجير، انهارت آخر حركات الردّة. وأصبحت الجزيرة العربية أمينة على الثورة الاسلامية. وانطفأت جذوة نار المرتدين التي اجتاحت الجزيرة.

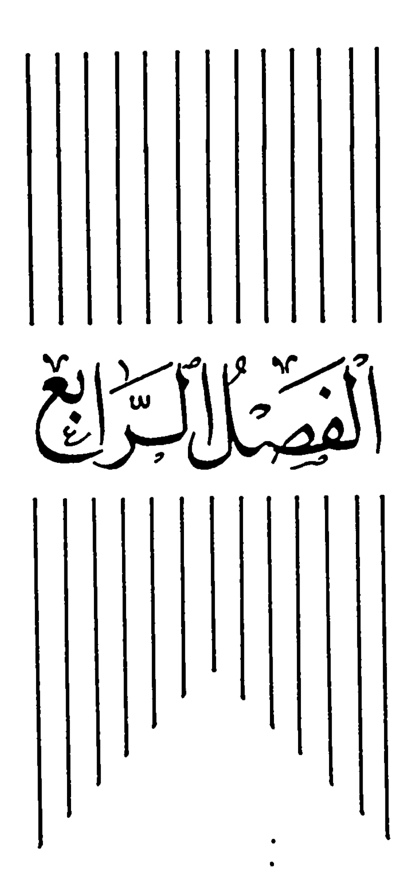
---

(1) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٦١٩.

(2) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٥٤٨.

لقد بدأت حروب الردّة وانتهت خلال العام الحادي عشر للهجرة. وأشرق فجر العام الثاني عشر للهجرة.، في الثامن عشر من آذار عام ٦٣٣م، على الجزيرة العربية وهي تحت سلطة الخليفة المركزية في المدينة.

وكانت حروب الردّة أكبر انتصار سياسي وعسكري لأبي بكر. ومع ان الخليفة حقق انجازات عسكرية جريئة بفتح العراق والشام، الا أنه بادارته الناجحة لحروب الردّة قد قدّم خدمة جليلة للاسلام. وان هذه الانجازات الرائعـة لم تكن ممكنة لو لم يسهم بها سيف الله.



فتح العراق

«عجزت النساء أن يلدن مثلك يا خالد»
(أبو بكر الصديق)

١ ـــ التوجه الى العراق :

سقط حصن النّجير ، وهو آخر حصن من حصون الردّة ، بأيدي المسلمين عند منتصف شباط عام ٦٣٣م. فكتب أبو بكر الى خالد ، الذي كان ما زال في اليمامة ، «سر الى العراق حتى تدخلها، وابدأ بمنطقة الابلة وقاتل أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم . وليكن هدفك الحيرة [١] » .

كـان لهذه الأوامر التي اعطيت الى خالد من أبي بكر شأن كبير. فقد أخذ أبو بكر على عاتقه مجابهة أقوى امبراطورية في ذلك العصر ، وقف العالم أمامها مضطرباً أكثر من ألف سنة .

لم يكن للامبراطورية الفارسية نظير من عدة وجوه . فهي أول امبراطورية عظيمة حقا في التاريخ ، امتدت من شمال اليونان غرباً حتى البنجاب شرقاً . وكانت فريدة أيضاً في طول الزمن الذي ازدهرت به : من القرن السادس قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد ، باستثناء الثغرة التي حدثت بسبب الفتح الاغريقي . ولم تعمّر أية امبراطورية أخرى في التاريخ مثلها من حيث مستوى الثقافة والحضارة والقوة العسكرية التي بلغتها . ولقد عرفت الامبراطورية الفارسية التقهقر. لكنها كانت بعد كل تقهقر تنهض ثانية بكل قواها .

كان آخر عصر ذهبي عرفته بلاد فارس ، في القرن السادس بعد

---

(١) ـــ الطبري ـــ الجزء ٢، صفحة ٥٥٣ ـــ ٥٥٤ .

الميلاد ، عندما أعاد انوشروان العادل الامبراطورية الى مستواها السابق من العظمة والازدهار. وحكم أنوشروان مدة ثمانية وأربعين عاماً ، وعادى الامبراطور الروماني جوستنيان . فانتزع الشام من الرومان ، واليمن من الحبشة ، وكثيراً من أواسط آسيا من الأتراك . ومات هذا الامبراطور في عام ٥٧٩م. بعد مولد النبي (ص) بتسع سنوات .

وكما يحدث عندما يموت حاكم عظيم ، جاء بعد أنو شروان عدد من الأباطرة الأقل بأساً . وبدأ مجد الامبراطورية وازدهارها بالانحطاط . فالحروب الأهلية والمنازعات بددت قوة الدولة . وبلغ الانحطاط دركه في زمن شيري (سيروس) ، وهو حفيد أنو شروان ، الذي سجن أباه «كسرى بارويز» ثم قتله . ولم يكتف بهذه الجريمة الشنعاء ، بل قام بإعمال أسوأ . ولكي لا ينازعه أحد حقه في العرش أو في السلطة ، قام بقتل جميع الذكور في اسرته باستثناء اردشير . ويقدر عدد الذين قتلهم من آل انو شروان ما بين خمسة عشر الى ثمانية عشر. ودام حكم «شيري» مدة سبعة أشهر فقط حيث قتل هو أيضاً .

وبموته تفاقمت الفوضى الى ان تسلم السلطة الامبراطور «يزدجرد بن شهريار بن بارويز» ، الذي استطاع أن ينجو من القتل وأصبح آخر امبراطور فارسي من سلالة ساسان . وكان على هذا الامبراطور الشاب السيء الطالع أن يشهد انحطاط امبراطورية آل كسروى العظيمة .

كان بين «شيري» و«يزدجرد» ثمانية اباطرة في فترة أربع أو خمس سنوات ، من بينهم كانت امرأتان هما «بوران» و«أزرمدخت» . وهما ابنتا كسرويه باروبز . وبرهنت الأولى — وهي بوران — أنها حاكمة عاقلة وفاضلة لكن كان ينقصها الحزم المطلوب في السلطان . وقد توجّت في أثناء حياة النبي (ص) . وقد قيل أن النبي (ص) عندما سمع بتتويجها قال أن الأمة التي تَكِلُ امرها الى امرأة لن تفلح أبداً .

كان العراق أقل من دولة ذات سيادة ، وأكثر من ولاية . وكان من اراضي الامبراطورية الفارسية ، وكانت أرضاً عربية وان احتلها الفرس .

كان العرب معروفين في العراق منذ أيام بختنصر ، لكنهم لم يكونوا مالكين لأي من الأراضي آنذاك . ولم تأت هجرة جديدة الى العراق من القبائل العربية الا في أوائل ظهور المسيحية ، حيث قدمت احدى موجات العرب من اليمن وبدؤوا بالتمتع بالسلطة والنفوذ . وكان من بين زعماء العرب المهاجرين مالك بن فهم ، الذي أعلن نفسه ملكاً ، وبدأ يحكم الجزء الغربي من العراق . وبعد مالك بجيلين ، انتقل العرش الى عمرو بن عدي ، من قبيلة لخم ، الذي بدأ الاسرة المالكة اللخمية ، والتي كانت تسمى في بعض الأحيان آل منذر . وقد حكم ملوك هذه الأسرة عدة أجيال تابعين للامبراطور الفارسي .

وكان آخر آل منذر ، النعمان بن منذر ، الذي قام بعمل عدائي ضد كسرى بارويز قتله بفيل ظل يطأ عليه حتى مات . وقد أدى ذلك الى قيام ثورة قام بها عرب العراق ، وسحقها الامبراطور على الفور وانتهى بها حكم آل منذر .

بعد ذلك عيّن كسرى ملكاً جديداً هو قبيصة بن اياس بن حية الطائي ، ليحكم العراق . وتمتع الملك الجديد بنوع من الحكم الذاتي لبضع سنوات . لكن معظم صلاحياته سحبت منه ومنحت للامراء الفرس الذين تولوا السلطة الكاملة على البلاد . وظل قبيصة ملكاً بالاسم .

كانت العراق ، بلد الثقافة والثروة والخصب ، أثمن ممتلكات الامبراطورية الفارسية . وكانت بالنسبة للعرب القادمين من الصحراء القاحلة واحة خضراء . وأرض اللبن والعسل . وكان نهراها ، الفرات ، ودجلة ، أكبر نهرين معروفين في ذلك الوقت . لكنهما لم يكونا يجريان آنذاك كما يجريان اليوم ، كما ان مدن العراق آنذاك لم تكن كمدنه اليوم . فالكوفة والبصرة لم تكونا موجودتين (انشئت هاتان المدينتان في عام ١٧ هجري) . وكانت بغداد مدينة صغيرة وسوقاً تجارياً على الضفة الغربية لنهر دجلة . كما ان المدينتين العظيمتين كتسفون والحيرة أصبحتا أثراً بعد عين . كانت كتسفون العاصمة تحتل مركزاً هاماً في الامبراطورية الفارسية . وقد ذكر أنها

بنيت من قبل اردشوري بن بابك. وكانت مبنية على جانبي نهر دجلة وكانت تعرف من قبل المسلمين باسم : «المدائن» ، لأنها كانت تضم ثلاث مدن في مدينة واحدة . كانت الحيرة عاصمة لأسرة لخم العربية . وكانت تقع على ضفة الفرات الغربية وكانت مدينة مزدهرة ، تزخر بالقلاع. وكانت أبلّة ، الميناء الرئيسي للامبراطورية الفارسية تؤمه السفن من الهند والصين ومن عدة أقطار بحرية في الشرق .

هكذا كانت العراق سياسياً وجغرافياً عندما أرسل أبو بكر خالداً اليها . كانت العراق أيضاً يحتلها الفرس والعرب . ويحكمها البلاط الفارسي . وبدأت الامبراطورية بالانحطاط سياسياً ولكن من الخطأ التصور أنها تقهقرت عسكرياً . فهيبتها العسكرية استمرت لعشرات السنين بعد انحطاطها سياسياً . هكذا كان وضع الفرس في عام ٦٣٣م.

كان جيش الفرس ، ومعه العرب الملحقون عليه ، أقوى أداة عسكرية مرهوبة الجانب في عصرها . وكان على رأس الجيش نخبة من الأبطال المحنّكين . وكان هذا الجيش يفخر بانجازاته الماضية وقوته الراهنة . وكان الجندي الفارسي أفضل محارب في زمانه من حيث التجهيزات . فكان يرتدي درعاً من الزرد ، أو بتراء ، وكان يضع على رأسه خوذة من الزرد الرفيع أو المعدن المطروق . وكانت ذراعاه تغطيان بأكمام معدنية ، أما ساقاه فكان يغطيهما درع لوقايتهما . وكان يحمل حربة ، ورمحا وسيفا ، وفأسا أو عصا حديدية لكسر الدروع . وكان يحمل أيضاً قوساً أو قوسين مع ثلاثين نبلة ووَتريْ قوس احتياطيين يتدليان من خوذته . وهكذا كان الجندي الفارسي مسلحاً حتى أسنانه . انما تنقصه خفة الحركة . وعلى العموم ، كان لا يضاهى في معركة الكتل الثابتة ، الى أن ظهرت خيالة خالد الخفيفة التسليح ، السريعة الحركة .

كان المثنى بن حارثة الشيباني رجلاً كالنمر وكان زعيم قبيلة بني بكر ، التي كانت تسكن الجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية وجنوب العراق .

بعد مرور مدة وجيزة على معركة اليمامة ، حوّل المثنى نشاطه نحو العراق . فأخذ رهطاً من أتباعه وبدأ الاغارة على العراق طلباً للمغامرة وللغنائم ، وقد شجعته على ذلك الفوضى السياسية في الامبراطورية الفارسية . في بادىء الأمر ، التصق المثنى بالمحيط الخارجي للصحراء لكي يستطيع أن ينسحب بسرعة الى داخل الصحراء ، لكن اغاراته بدأت تأخذ طابعاً جريئاً ، تدريجياً . فنوّع اهدافه ، وصار يضرب مرة في الشرق وأخرى في الغرب . وكانت معظم اغاراته في منطقة أبلّه ، وكان يعود بالغنائم والأسلاب التي بهرت عرب الصحراء . وكانت الحاميات الفارسية تقف مكتوفة الأيدي أمام فرسان المثنى الذين يظهرون ثم يختفون كالأشباح بعد أن يضربوا ضربتهم .

جاء المثنى الى أبي بكر في أوائل شباط عام ٦٣٣م. (أواخر ذي القعدة ، عام ١١ هجري) . وقد شجعه على ذلك الانتصارات التي حققها في اغاراته على الفرس . ورسم صورة مشرقة عن الحالة المتردية في العراق ، وعن الثروة التي تنتظر من يستخدمها ، والأزمة السياسية المستعصية التي أقضت مضاجع البلاط الفارسي ، وعجز الحاميات الفارسية عن القتال في المناوشات خفيفة الحركة والسريعة . ثم قال لأبي بكر : «أمرني على من قبلي من قومي أقاتل من يليني من أهل فارس وأكفيك ناحيتي [1] » .

فوافق الخليفة وزوّده بكتاب تعيينه قائداً على جميع مسلمي بني بكر . فعاد المثنى ، ومعه كتاب تخويله السلطة ، الى شمال شرق الجزيرة العربية . وهنا جعل الكثيرين من رجال القبيلة يعتنقون الاسلام ، وجمع جيشاً صغيراً قوامه ألفي رجل واستأنف اغاراته بحماسة وعنف .

ذهب المثنى من المدينة ، لكن كلماته ظلت ترن في أذني الخليفة . وبعد بضعة أيام ، اتخذ أبو بكر قراراً بفتح العراق على ان لا يحارب الامبراطورية الفارسية بكاملها لتعذر ذلك في الظروف الحالية . انما سيكتفي بالاستيلاء على عراق العرب ، وهذا يعني المنطقة الواقعة غرب دجلة . وبذلك ستتسع

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٢ .

حدود الثورة الاسلامية وسينتشر الدين الجديد . في موطن الدعوة كان السلام مستتباً ، حيث عاد الاسلام الى ربوع الجزيرة العربية كسابق عهده بعد هزيمة كندة في حصن النجير المعروف ، والذي ذكره عدد من المؤرخين العرب والأجانب ، ان موقعة ذي قار (التي لم يكن مضى عليها أكثر من نصف قرن) قد بدلت هذا المفهوم «مناعة الامبراطورية الفارسية» سواء عند العرب أو عند الفرس .

صمّم أبو بكر على فتح العراق ، ولكن كان عليه أن يعمل بحرص شديد ، لأن العرب كانوا يخشون الفرس بدون سبب سوى ما كان يتناقله الناس عن قوة الفرس وبأسهم عبر القرون : وكان الفرس بدورهم ينظرون الى العرب نظرة ازدراء . وكان من الاهمية بمكان أن لا يصاب العرب بهزيمة ، لأن ذلك لو تم فسيؤكد ويقوي الخوف الغريزي من الفرس . ولكي يضمن أبو بكر النصر فقد قرر أن يقوم باجرائين : أولهما ، أن يكون الجيش الفاتح مؤلفاً من المتطوعين ، وثانيهما ، ان يكون خالد قائداً للحملة .

أرسل أبو بكر الأوامر الى خالد لكي يقوم بفتح العراق ومحاربة الفرس . وطلب إليه أن يستدعي أولئك الرجال الذين قاتلوا المرتدين وظلوا ثابتين على دينهم بعد وفاة رسول الله . وأن يستبعد من الحملة الذين ارتدوا عن الدين . وأضاف : «وأذن لمن شاء بالرجوع [1]» . مشيراً بذلك الى الجنود .

وعندما أعلن خالد لقواته ان الخليفة قد سمح لمن شاء منهم ان يعود لبيته اذا رغب في ذلك ، ذهل خالد من النتيجة : لقد ترك الآلاف من المقاتلين الجيش وعادوا الى المدينة وما حولها . فبينما كان لديه في معركة اليمامة ثلاثة عشر ألفا ، بقي معه الآن ألفان فقط . فكتب خالد على الفور الى الخليفة يعلمه بما حدث ويطلب منه العون والمدد . وعندما وصل كتاب خالد الى الخليفة ، كان جالساً بين أصحابه ومستشاريه . فقرأ الكتاب بصوت مرتفع ليسمعه جميع الحاضرين . ثم أرسل في طلب شاب شجاع

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٣ .

يدعى القعقاع بن عمرو.

جاء القعقاع الى الخليفة ، وهو مسلّح ومجهّز للسفر . فأمره الخليفة ان يذهب الى اليمامة تعزيزاً لجيش خالد . فنظر الأصحاب الى أبي بكر بدهشة وقالوا : «أتمد رجلاً قد أرفض عنه جنوده برجل؟[1] »

فنظر أبو بكر الى القعقاع هنيهة ثم قال : «لا يهزم جيش فيهم مثل هذا[2] » . وذهب القعقاع بن عمرو لتعزيز جيش خالد !

لكن أبا بكر لم يرسل القعقاع وحده ، بل كتب أيضاً الى المثنى . ومذعور بن عدى (وهو زعيم هام في شمال شرق الجزيرة العربية) ، يأمرهما أن يجمعا محاربيهما ويضعا نفسيهما تحت امرة خالد من أجل فتح العراق .

بعد أن أصدر أبو بكر هذه التعليمات ، جلس مستريحاً . فقد أسند الى خالد مهمة فتح العراق ومحاربة الفرس ، وظلب منه أن يبدأ بمنطقة الابلّه ، وحددّ لخالد «الحيرة» كهدف له ، ووضع تحت أمرة خالد جميع القوات التي أمكن جمعها . ولم يستطع أبو بكر ان يفعل أكثر من ذلك . والآن جاء دور خالد لانجاز هذه المهمة التاريخية . (راجع خريطة فتح العراق في الشكل رقم ١٠) .

(١) ــ الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحت ٥٥٣ــ٥٥٤ .

(٢) ــ الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .

٢ — معركة السلاسل :

عندما تلقى خالد أوامر الخليفة أبي بكر الصديق، شرع على الفور بالاعداد والتحضير لتشكيل جيش جديد . وانطلقت خيالة خالد في منطقة اليمامة ، وفي أواسط وشمال الجزيرة العربية ، لدعوة الرجال الشجعان لحمل السلاح من أجل فتح العراق . وتجمع الرجال المقاتلون بالآلاف والكثيرون منهم رفاق سلاح ساهموا مع خالد في حروب الردّة . فقرروا العودة للعمل تحت لوائه بعد ان زاروا أسرهم . كان اسم خالد كالشعلة المتوهجة يجذب المحاربين اليه . فالقتال تحت أمرة خالد لا يعني الجهاد فقط في سبيل الله ، ولكن النصر والسؤدد أيضاً . وفي غضون بضعة أسابيع كان لدى خالد جيش مؤلف من عشرة آلاف مقاتل متأهبين للزحف [١] .

وكان أربعة أمراء من المسلمين ذوي الشأن في شمال شرق الجزيرة العربية ، ومعهم أعداد كبيرة من مشايعيهم ، وهم : المثّنى بن حارثة ، ومذعور بن عدي ، وحرملة ، وسلمة . وكتب الخليفة الى هؤلاء الامراء أن يجمعوا المحاربين ويكونوا بقيادة خالد . ثم كتب خالد اليهم يعلمهم بتعيينه قائداً لجيش المسلمين ، وبالمهمة التي القاها على عاتقه الخليفة . وأمرهم أن يأتوا اليه مع رجالهم ، في منطقة الابلّه . وعلى الرغم من أن المثنى ، وهو عندئذ في الخفّان [٢] ، كان يأمل أن يمنحه الخليفة قيادة مستقلة كبيرة في العراق ، لأنه جدير بذلك ، لكنه نفذ الأوامر ووضع نفسه ورجاله تحت

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .

(٢) — الخفان: مكان يقع على بعد ٢٠ ميلاً الى الجنوب من الحيرة .

إمرة خالد . وبرهن المثنى أنه من أفضل القادة المرؤوسين .

أحضر كل أمير من الأمراء الأربعة ألفي رجل . وبذلك دخل خالد العراق ومعه ثمانية عشر ألف محارب [1] . وكان هذا أكبر جيش للمسلمين سبق ان تجمع للمعركة .

وعند الأسبوع الثالث من آذار عام ٦٣٣ م . (الأول من محرم ، عام ١٢ هجري) ، انطلق خالد من اليمامة . وقبل أن يغادر خالد اليمامة كتب الى هرمز ، الحاكم الفارسي على ولاية «داست ميسان» : «أما بعد ، فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرر بالجزية ، والا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.[2] » .

قرأ هرمز كتاب خالد بمزيج من الغضب والازدراء ، وأبلغ الامبراطور الفارسي يزدجرد تهديد خالد . فصمم على أن يلقن هؤلاء العرب درساً لن ينسوه .

بدأ خالد تقدمه من اليمامة بعد أن قسّم جيشه الى ثلاث فرق . ولم يسر على طريق واحد ، لئلا ينهك قواته ، ويستغرق زمناً أطول اذا حرّك جميع قواته على الطريق ذاته . وانطلقت الفرق ، وجعل بين الفرقة والأخرى مسيرة يوم . وبهذه الطريقة أمن خالد سهولة الحركة اضافة الى تقاربها ، بعضها من بعض ليتمكن من حشدها بسرعة للمعركة اذا اقتضى الأمر . وتحرك خالد مع الفرقة الثالثة في اليوم الثالث . وكان على جميع الفرق أن تتجمع ثانية قرب الحفير ، وقبل ان يغادر اليمامة وعد رجاله بأن معركته مع هرمز ستكون حاسمة . (راجع خريطة معركة السلاسل في الشكل رقم ١١) .

كان هرمز حاكماً عسكرياً لولاية «داست ميسان» . وكان رجلاً محنكاً وخادماً أميناً للامبراطورية ، وقد أسند اليه هذا المنصب بسبب الأهمية السياسية والاقتصادية للولاية . وكانت هذه الولاية متاخمة للجزيرة العربية ، وقد حدث فيها كثير من المتاعب نتيجة الاغارات العربية عليها

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .

(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٤ .

بقيادة المثنى . وكانت أيضاً ولاية غنية في حاصلاتها الطبيعية وفي التجارة . وكانت الأبلّة مدينة رئيسية في الاقليم ، وهي الميناء الرئيسي أيضاً للامبراطورية الفارسية ، وكانت لهذا السبب حيوية بالنسبة لازدهار تجارة الامبراطورية . كما كانت أيضاً عقدة مواصلات لعدة طرق برية قادمة من البحرين ، ومن الجزيرة العربية ، ومن غرب وأواسط العراق ، لذلك كانت لها أهمية استراتيجية خاصة . وكانت عبارة عن بوابة لبلاد فارس على هرمز ان يحكمها ويدافع عنها بصفته حاكماً ادارياً أيضاً .

كان المجتمع الفارسي آنذاك مجتمعاً امبراطورياً ارستقراطياً . وفي مجتمع كهذا ، كان يوجد نظام دقيق للمراتب والمناصب التي تدل على مركز الرجل الاجتماعي والرسمي في البلاط . وكان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر احسابهم في عشائرهم فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف درهم . فكان هرمز ممن تم شرفه فكانت قيمة قلنسوته مائة ألف[1] .

وكان هرمز رجلاً استعمارياً ، متعجرفاً ، يعامل العرب المحليين بازدراء دون أن يخفي ذلك . وكان شديداً ومتعالياً في معاملته للعرب الذين كانوا يبادلونه الكراهية ويخافونه . وكان العرب يضربونه مثلاً في الخبث حتى قالوا : «أخبث من هرمز»[2] . لكن العرب المحليين كانوا رعايا الامبراطورية الفارسية وليس لهم خيار سوى الخضوع والاطاعة .

وبعد أن تلقى هرمز رسالة خالد ، وعرف انها قادمة من اليمامة ، أخبر الامبراطور بأن خالدا على وشك غزو العراق ، فاستعد لمحاربته وجمع جيشه وانطلق من الأبلّة ، ودفع أمامه قوة تغطية من الخيالة .

كان الطريق المباشر من اليمامة الى الأبلّة يقع عبر كاظمة (في أراضي الكويت حالياً) فجاء هرمز اليها متوقعاً ان يسلك خالد هذا الطريق . وعند وصوله الى كاظمة ، فتح جيشه للمعركة بحيث يواجه الجنوب الغربي . ورتب جيشه بترتيب قتال يتكون من قلب وجناحين ، وأمر ان يربط الرجال

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٦

(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٥ .

بالسلاسل . وانتظر وصول خالد وهو على هذه الوضعية من الفتح للمعركة . لكن لم تظهر أية اشارة تدل على وصول خالد . وفي صباح اليوم التالي ، وصلت ألأنباء من الكشافين ان خالدا لم يكن يتحرك نحو كاظمة وانما نحو « الحفير » [١] .

كان خالد قبل أن يغادر اليمامة قد توصل الى فكرة عملياتية عامة في منازلة جيش هرمز وطريقة معاملته . فمهمته محاربة الفرس الذين لا بد من هزيمتهم إذا أريد فتح العراق وفق توجيهات الخليفة . لكن وجود جيش الفرس في الابلّة ، يشد خالداً الى المنطقة ويتطلب بقاءه فيها ، كما ان الاتجاه الذي حدّده له الخليفة ، وهو « الابلة » ، كان كافياً لجذب الفرس الى المعركة ، لأنه لا يمكن لأي قائد فارسي ان يدع الابلة تسقط .

كان خالد يعرف مزايا جيش فارس الحسنة وقوته العددية ، وكذلك شجاعة الجندي الفارسي ومهارته وتسليحه الجيد . وكان هذا الجندي ، المسلح والمجهز جيداً مثالياً في المعارك الجبهية التي تصطرع فيها مجموعات من الكتل البشرية . وكانت نقطة الضعف الوحيدة في الجندي الفارسي وفي الجيش الفارسي تكمن في بطء الحركة . فالجندي الفارسي لا يستطيع أن يتحرك بسرعة ، وأية حركة لمسافة طويلة تجعله منهكاً . أما قوات خالد فكانت متحركة حيث كانت تركب الجمال وتسير والخيل وراءها متأهبة جاهزة لتنفيذ هجمات الخيالة اذا اقتضى الأمر ، ويضاف الى ذلك شجاعة المقاتلين العرب المسلمين وذكاؤهم وبراعتهم في التحرك عبر أية أرض ، والصحراء خاصة . فالآلاف منهم قد اشتركت في حروب الردة فازدادت خبرتهم في القتال .

قرر خالد أن يستغل خفة الحركة التي يمتاز بها جيشه على جيش الفرس .

---

(١) — كانت كاظمة تقع على الساحل الشمالي لخليج الكويت ، على بعد خمسة أميال من طريق البصرة — الكويت الحالي . وكانت مدينة كبيرة نسبياً ، وكان قطرها يربو على الميل ؛ ولم يبق منها سوى بعض الخرائب . وربما تكون هذه الخرائب من أيام ما بعد خالد . ولا توجد أية آثار تدل على الحفير . ولا يوجد ما يدل على موقعها الصحيح . وحسب رواية ابن رستة فانها تقع على بعد ١٨ ميلاً من البصرة على الطريق الى المدينة .

البطيء الحركة . فقرر أن يرغم الفرس على القيام بالمسير والمسير المعاكس حتى ينهكهم ، ثم يقوم بضربته . فميدان المعركة يساعده ، لأن للابلّة طريقين : كاظمة والحفير ، وهذا ما سيسهل مناورته .

بعد ان كتب خالد الى هرمز من اليمامة ، عرف ان الفرس سيتوقعون تقدمه على الطريق المباشر من اليمامة الى الابلّة عن طريق كاظمة ، وانهم سيضعون خططهم الدفاعية طبقاً لذلك . فقرر خالد ألاّ يسير على ذلك الطريق ، وان يتقدم الى الابلّة من الجهة الجنوبية الغربية حيث تتاح له حرية المناورة على محورين : محور كاظمة ، ومحور الحفير ، وبذلك يخلق مشكلة صعبة أمام الفرس البطيئي الحركة . ووفقا لهذه الخطة ، سار الى النبّاج ، وقسّم جيشه الى ثلاث فرق كما شرحنا سابقاً ، وضم الى قيادته الألفي محارب التابعين للمثنى ، وكان هؤلاء مع قائدهم بانتظار خالد في النبّاج [1] . ومن النبّاج سار خالد باتجاه الحفير ، وفي أثناء تقدمه انضم اليه الأمراء الثلاثة الآخرون ، واقترب من الحفير ومعه ثمانية عشر ألف مقاتل .

لم يكترث خالد لوجود جيش الفرس في كاظمة . اذ لا قبل لهرمز بتهديده منها . فالفرس لا يجرؤون على دخول الصحراء لقطع خطوط مواصلاته ، بصرف النظر عن ان خفة حركة قوات خالد في الصحراء لا خطوط مواصلات لها يؤذيها قطعها . فلم يحاول خالد ان يندفع الى الحفير ويتوجه الى الأبلّة ، لأن وجود هرمز الكبير على مجنبته يجعل من تحركه للامام خلف الحفير مشكلة خطيرة . فيستطيع هرمز ان ينقض على مؤخرته ويقطع خط تراجعه . ولا يمكن لأي عربي أن يقبل التدخل ، أو حتى التهديد بالتدخل في طريق عودته الى الصحراء التي يطمئن اليها وهو سيدها دائماً : لذلك انتظر خالد أمام الحفير ، وخصّص مفارز خفيفة من الخيالة لمراقبة هرمز باستمرار . وعرف خالد ان وجوده قرب الحفير سيسبب الهلع لهرمز .

وهذا ما حدث فعلاً . ففي اللحظة التي علم فيها هرمز بتحرك خالد نحو الحفير ، أدرك الخطر الذي يحدق بجيشه . فالعرب ليسوا بسطاء . وهو

(١) ـــ النبّاج القديمة هي «النبكية» الحالية ، وهي تقع على بعد ٢٥ ميلاً شمال شرق «بريدة» .

الاستراتيجي المحنك عرف ان قاعدته أصبحت مهددة . فأمر بالتحرك على الفوز الى الحفير التي تبعد ٥٠ ميلاً ، وكان جيشه المثقل بالتجهيزات والمعدات الثقيلة يتقدم ببطء على الطريق . وكانت مسيرة اليومين مضنية له ، لكن الجندي الفارسي الخشن والنظامي قبل الأمر الواقع بلا تذمر. وعندما وصل هرمز الى الحفير ، لم يجد أثراً لخالد . ففتح جيشه للمعركة متوقعاً سرعة وصول المسلمين مثلما فعل في كاظمة ، ولكن لم يكد رجاله يتخذون مواقعهم حتى أخبره الكشافة أن خالدا يتقدم باتجاه كاظمة .

وفي الحقيقة كان خالد يتحرك نحو كاظمة . فقد انتظر قرب الحفير الى ان سمع باقتراب هرمز منها . ثم انسحب مسافة قصيرة وبدأ مسيرا معاكسا عبر الصحراء باتجاه كاظمة ، ولم يذهب بعيداً في الصحراء لئلا يصبح غير مرئي من قبل كشافة هرمز . ولم يكن خالد على عجلة من أمره . فرواحل رجاله جيدة ، والوقت متوفر لديه ، كما انه لا يرغب في الذهاب الى كاظمة واحتلالها ، لأنه عندئذ سيثبت نفسه في مواقع محددة لخوض المعركة ، بينما يكون خصمه قادراً على حرية المناورة . وفضل خالد ان يدع الفرس يثبتون أنفسهم في مواقع ، بينما يبقى هو قادراً على المناورة والهجوم كما يشاء والصحراء من خلفه .

مرة أخرى حزم الفرس حقائبهم وانطلقوا الى كاظمة ، لأن هرمز لا يستطيع أن يترك طريق كاظمة تحت سيطرة المسلمين . وكان بامكان هرمز ان يقاتل في معركة دفاعية قريباً من الأبلّة ، لكن تجربته مع المثنى الذي قام بعدة اغارات مفزعة في ولايته ، جعلته يقرر عدم السماح لخالد بالاقتراب مسافة كافية لئلا يتمكن فرسانه من العبث في منطقة الابلة الخصبة . وصمم على قتال خالد وتدميره على مسافة أمان من الولاية التي كان عليه حمايتها . وسر لتصوره امكان نشوب معركة الكتلة الواحدة بينه وبين العرب الصحراويين . علاوة على ذلك ، كانت الجيوش تتصرف كالمغناطيس ، وهي تنجذب تلقائياً بعضها الى بعض . فأحياناً تصبح منطقة هامة تلك المنطقة غير الهامة استراتيجياً ، عندما يكون فيها جيش معاد . والآن انجذب

هرمز الى كاظمة لا لكونها هامة استراتيجياً فقط ، بل لوجود جيش خالد فيها .

في هذه المرة لم يتم المسير الاجباري حسب ما يشتهي الفرس ، وكان هنالك تذمر ، بين صفوف العناصر العربية خاصة ، التي تعمل تحت قيادة هرمز الفارسي ، وأخذت هذه العناصر تلعن الذي سبب لها هذا العناء . ووصل الفرس الى كاظمة وهم في حالة يرثى لها من الاعياء . لم يضع هرمز ، وهو الجندي المحترف ، الفرصة ففتح جيشه للمعركة بترتيب القتال المألوف وهو القلب والجناحان . وكان يقود ميمنته وميسرته أميران من بيت الملك هما قباذ ، وأنو شجان ، وهما أولاد اردشير الملك .

كان جيش الفرس يكثر استعمال السلاسل لربط الجنود في المعركة . وهي ذات أربعة أطوال ، لربط ثلاثة جنود ، أو خمسة ، أو سبعة ، أو عشرة [1] . وكانت بمثابة مصدر قوة للجيش . ومن الخطأ القول ، كما يذكر بعض النقاد ، ان السلاسل كانت تستخدم من قبل الضباط خشية هرب جنودهم ، انما كانت تلك السلاسل تستخدم لاظهار الشجاعة الانتحارية ، والتأكيد ان الجنود يؤثرون الموت على الفرار . كذلك تضعف السلاسل امكانية اختراق صفوفهم من قبل الخيالة المعادية . بحيث يسهل عليها القاء بعض الجنود أرضاً واحداث ثغرة تخترق صفوفهم منها . ولما كان جيش الفرس منظماً ومدرباً لمعركة الكتلة الواحدة ، فان هذا التكتيك مكّنه من الوقوف كالصخرة أمام هجمة العرب . لكن للسلاسل سيئة هامة واحدة هي انها قد تصبح قيداً . فالرجال المربوطون بزملائهم الصرعى يفقدون كل قدرة على الحركة ويصبحون ضحايا لا حيلة لهم أمام المهاجمين المنتصرين .

سميت هذه الموقعة في كتب التاريخ « بموقعة السلاسل » لاستخدام السلاسل .

أما العناصر العربية التي كانت تعمل تحت قيادة هرمز فلم تستخدمها ،

---

(١) — الطبري — الجزء ٣ . صفحة ٢٠٦ .

فالعرب لم يستسيغوها . وعندما استخدم الفرس هذا الأسلوب ، حذرهم العرب من مغبة ذلك وقالوا لهم : «لقد قيّدتم أنفسكم للمسلمين . واياكم اللجوء الى السلاسل» . فأجابهم الفرس : «نفهم من ذلك أنكم ترغبون في البقاء احراراً لكي تستطيعوا الهرب [1] » .

خرج خالد من الصحراء واقترب من الفرس عازماً على خوض معركة حاسمة في هذا المكان قبل ان يستعيد جيش الفرس نشاطه . لكن جيش المسلمين لم يكن لديه ماء . وسبب هذا خوفاً لدى المسلمين الذين لم يكتموا خالدا مخاوفهم . فأمرهم خالد بأن يحطوا أثقالهم وقال : «لعمري ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين [2] » . وكانت ثقتهم بقائدهم عظيمة ، فاستعدوا للمعركة . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ المطر ينهمر ، ونزل مطر كاف لشربهم وللمرء قربهم . وكان ذلك تحية من السماء لجنود الثورة الاسلامية .

نشر هرمز جيشه للمعركة أمام الطرف الغربي لكاظمة ، وجعل المدينة تغص بالمقاتلين ، وكان يمتد أمام الفرس سهل رملي تغطيه الاعشاب عمقه ثلاثة أميال . وترتفع بعد السهل مجموعة تلال جرداء ، من ٢٠٠–٣٠٠ قدم ، وهي جزء من الصحراء يمتد حتى الحفير ، وقد سلكها خالد عندما سار الى كاظمة . وبعد ان تركها انتقل بجيشه الى السهل الرملي ، وبعد ان جعل ظهره للتلال وللصحراء ، فتح بتشكيلة القتال المعتادة وهي القلب والجناحان . وعين عاصم بن عمرو (شقيق قعقاع بن عمرو) وعدي بن حاتم (زعيم قبيلة طيىء) ، قائدين للجناحين . وبدأت موقعة السلاسل في الأسبوع الأول من نيسان عام ٦٣٣م. (الأسبوع الثالث من محرم ، عام ١٢ هجري) .

بدأت المعركة بمبارزة بين قائدي الجيشين . وكان هرمز محارباً قوياً وقد عُرف في الامبراطورية بطلاً لا يجرؤ على منازلته سوى القليل . (في تلك الأيام كان المرء لا يستطيع ان يصبح قائداً الا اذا كان مقاتلاً شجاعاً

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ . صفحة ٥٥٥ .

(٢) — الطبري — الجزء ٢ . صفحة ٥٥٦ .

وماهراً) . فتقدم هرمز على فرسه ووقف في الساحة بين الجيشين، وكان أقرب الى صفوف جيشه . ثم نادى : «أين خالد؟» فخرج خالد من بين صفوف المسلمين ووقف على بعد بضعة خطوات من هرمز ، وعيون الجند شاخصة ، وكأن على رؤوسهم الطير. (راجع خريطة سير الاعمال القتالية لمعركة السلاسل في الشكل رقم ١٢) .

نزل هرمز عن فرسه ، وأومأ الى خالد ان يفعل مثله . فنزل خالد . كان هذا الاجراء دليلاً على شجاعة هرمز ، لأن المبارزة بين مترجلين لا تدع مجالاً للهرب ، لكن هرمز لم يكن فارساً في هذه الحادثة ، كما قد يتخيل المرء. لأنه، قبل ان يخرج للمبارزة اتفق مع بعض رجاله الشجعان ووضعهم في الصف الامامي قرب المكان الذي اختاره للمبارزة . وأخبرهم انه سيبارز خالداً، وفي الوقت المناسب سوف يناديهم، ليندفعوا ويحيطوا بالمتبارزين ويقتلوا خالدا . وأخذ هؤلاء الرجال يراقبون القائدين وهما يترجلان ، بانتباه شديد ، متأكدين من أن خالدا لن ينجو من القتل .

بدأ القائدان يتضاربان بالسيف والترس . وضرب كل منهما خصمه عدة مرات لكن هذه الضربات لم تؤثر في أي منهما . وكان كل منهما مندهشاً لمهارة الآخر. وهنا اقترح هرمز ان يلقيا بسيفيهما ويتصارعا . فألقى خالد بسيفه على الأرض كما فعل هرمز. وبدءا بالمصارعة . وبينما كان خالد يحتضن هرمزا ، نادى هرمز رجاله ، فاندفع هؤلاء الى الأمام . وقبل ان يعرف خالد ما الذي يجري ، وجد نفسه وهرمز وقد أحدق بهما رجال أشداء من الفرس .عرف خالد المؤامرة ،وهو أعزل من سيفه وترسه ، الا انه موطد العزم على ألا يدع هرمز يتخلص من قبضته الحديدية .

وبدا أنه لا مهرب من الورطة ، ولكن بما أن خالدا كان أقوى من هرمز ، بدأ يدير خصمه باتجاه الرجال الأشداء بحيث لا يستطيع هؤلاء ان يضربوا ضربتهم خشية أن يصيبوا قائدهم هرمز.

وهنا علا ضجيج الجيشين ابتهاجاً هنا وهلعاً هناك . وفي هذا الضجيج ،

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٥ .

والأنظار متجهة الى المتصارعين ، لم يسمع رجال هرمز وقع الحوافر تقترب منهم . ولم يعرفوا ما الذي أصابهم . فسقط منهم رجلان أو ثلاثة على الأرض بعد ان تدحرجت رؤوسهم أمامهم . قبل أن يدرك الآخرون ان عدد المتحاربين في هذا الاقتتال قد ازداد رجلاً واحداً . ان هذا الرجل الاضافي هو قعقاع بن عمرو ، الرجل الذي أرسله أبو بكر لتعزيز خالد .

رأى القعقاع رجال هرمز يندفعون نحو القائدين ، فأدرك بسرعة غدر القائد الفارسي والخطر الذي يتهدد خالدا . ولم يكن الوقت يتيح له الكلام ليشرح أو ليجمع من يريد مساعدته . فامتطى صهوة حصانه وانطلق كالسهم ووصل في اللحظة المناسبة وهجم على رجال هرمز بسيفه . فقتلهم جميعاً .

بعد ان تحرر خالد من تهديد القتلة ، وجه انتباهه الكلي الى هرمز ، وبعد دقائق كان هرمز ممددا على الأرض بلا حراك، وقد نهض خالد عن صدره وبيده خنجر يقطر دماً .

أمر خالد رجاله بالهجوم العام ، واندفع المسلمون بحماسة للثأر من الفرس الذين حاولوا الغدر بخالد . واندفع القلب والجناحان عبر السهل لمهاجمة جيش الفرس . وكان الفرس قد أصيبوا بصدمة معنوية بسبب مقتل قائدهم ، لكن عددهم كان يفوق عدد المسلمين ، كما ان النظام الحديدي الذي كانوا يتميزون به جعلهم يحافظون على تماسكهم ، فقاتلوا بشدة . وكانت المعركة سجالا بين الجانبيَن لفترة من الوقت ، فالمسلمون السريعو الحركة يهاجمون الفرس ، وهؤلاء يصدونهم وهم يقاتلون كتلة واحدة ، تربط السلاسل بعضهم ببعض . ولكن سرعان ما بدأت تظهر دلائل الشجاعة والمهارة لدى العرب المسلمين ، والتعب والانهاك على الفرس ، وبعد عدة محاولات ، نجح المسلمون في كسر جبهة الفرس في عدة أماكن .

وعندما لمس قائدا جناحي الفرس قباذ وأنوشجان ، دلائل الهزيمة ، أمرا بالانسحاب الى الخلف . فأدّى ذلك الى تراجع عام ، وحيال استمرار المسلمين في الضغط على الفرس بعنف ، انقلب التراجع الى هزيمة ساحقة . وعمد معظم رجال الفرس غير المربوطين بالسلاسل الى الفرار ، لكن أولئك

الذين كانوا مربوطين بالسلاسل وجدوا ان هذه السلاسل أشبه بفخاخ الموت . فبسبب عدم قدرتهم على التحرك السريع ، وقعوا فريسة سهلة للمسلمين الظافرين وذبحوا بالآلاف قبل ان يحل الظلام ويضع حداً للمأساة . ودبر قباذ وأنوشجان أمر هربهما . ونجحا في انقاذ عدد كبير من الجيش واخراجه من ميدان المعركة .

وانتهت المعركة الأولى مع الفرس بنصر شامل للعرب المسلمين .

وقضى المسلمون اليوم التالي في رعاية الجرحى وجمع الغنائم المؤلفة من : الأسلحة والدروع ، والمخازن الثمينة ، والخيل ، والأسرى . ووزع خالد أربعة أخماس هذه الغنائم على رجاله . وكانت حصة الخيّال ألف درهم . وحصة الراجل ثلث هذا المبلغ . وكانت نسبة التوزيع هذه تقليداً سنّه الرسول العربي (ص) . وكان الخيّال ينال ثلاث حصص لصيانة حصانه ولما لعمله من شأن في العمليات السريعة الحركة التي برع بها العرب المسلمون .

وأرسل خمس الغنائم الي الخليفة ، حصة الدولة ، ومنها قلنسوة هرمز التي قدر ثمنها بمائة ألف درهم .

وكانت القلنسوة ، حسب تقاليد الحرب السائدة آنذاك ملكاً لخالد ، لأن جميع الأشياء التي تخص المغلوب تؤول الى المنتصر في المبارزات ، فأعاد أبو بكر القلنسوة الى خالد .

أسر المسلمون فيلا في موقعة السلاسل ، وأرسل هذا الفيل الى المدينة ولم يكن العرب قد شاهدوا في حياتهم الفيل فطافوا به في المدينة ، ورأى أبو بكر انه لا نفع فيه فرده الى خالد .

أسرت أُسَر الفرس ، وأسر عرب العراق الذين ناصروا الفرس ، وترك سائر سكان الولاية وشأنهم . وكانوا من صغار المزارعين ، والفلاحين ، والرعاة فوافقوا جميعهم على دفع الجزية والبقاء تحت حماية المسلمين .

اهتم خالد بضعة أيام بالأمور التنظيمية . ثم حرك جيشه نحو الشمال وأرسل المثنى على رأس القوة الرئيسية ومعه خيالته الألفان وذلك لاستطلاع

المنطقة وقتل أي متخلف من جنود الفرس المتراجعين .

وصل المثنى الى نهر صغير يقع شمال المكان الذي تقع عليه الزبير حاليا ، وعلى ضفته حصن يعرف باسم «حصن المرأة» ، وسمي بذلك لأن امرأة كانت تحكمه [1] . فحاصر المثنى هذا الحصن ، ولكي يتجنب التأخير في تقدمه ، ترك أخاه «معنّى» مسؤولاً عن عمليات الحصار وترك معه بضع مئات من الرجال ، وسار شمالاً مع بقية قواته .

بعد يومين أو ثلاثة من الحصار اقتنعت المرأة بعدم جدوى المقاومة ، فجيش الفرس في الأبلة قد دحر ، وهي لا تتوقع مساعدة أحد . فعرض «معنّى» أن يقبل استسلام الحصن بدون اراقة دماء ، وبدون نهب ، وبدون سبي . فوافقت المرأة ، واستسلم المدافعون . ويبدو ان اللقاء بين معنى والمرأة بعد استسلام الحصن كان ايجابياً وساراً . فالمرأة أصبحت مسلمة ، وتزوجها معنّى .

في غضون ذلك ، كان خالد يتقدم شمالاً من كاظمة مع الكتلة الرئيسية من جيشه الباسل .

---

(١) — لا يزال النهر موجودا حتى الآن ويعرف باسم نهر المرأة ، ولكن لا يوجد أي أثر للحصن .

٣ — معركة النهر [١] :

كان هرمز قبل أن يلتقي بخالد قد بعث برسالة الى الامبراطور الفارسي يزدجرد ينبئه بقدوم خالد من اليمامة ، فجهز الامبراطور جيشاً كبير العدد بقيادة « قارن بن وقريانس » ، أحد الأمراء الذين تم شرفهم . وكانت قلنسوته أيضاً تعادل مائة ألف درهم . فأمره الامبراطور ان يسير الى الأبلة على رأس جيشه لتعزيز هرمز . فانطلق « قارن » من « كتسفون » لتنفيذ المهمة .

سار « قارن » على امتداد الضفة اليسرى لنهر دجلة حتى وصل « المذار » .. ثم اجتاز دجلة . وتحرك جنوباً على امتداد الضفة اليمنى حتى وصل الى نهر « مكيل » . فاجتاز هذا النهر أيضا عند اتصاله بدجلة ، ولم يكد يفعل ذلك حتى وصلته أنباء كارثة كاظمة . وتبع ذلك وصول بقايا جيش الفرس الذين نجوا من معركة كاظمة الى معسكر « قارن » بامرة القائدين قباذ وأنوشجان . وكان بين هؤلاء آلاف من العناصر العربية تحت قيادة هرمز ، وكما يجري في مثل هذه الحالات ، أخذ الشريكان — الفرس والعرب — يتبادلان اللوم بسبب الهزيمة وقواهم المعنوية أضعف مما كانت عليه في كاظمة . لكنهم كانوا رجالا شجعانا وكان رد فعليهم نابعاً عن الغضب أكثر منه خوفاً ، بسبب الهزيمة التي حلت بهم . وكان قباذ وأنوشجان متشوقين للمعركة مرة أخرى . ووجدا مع « قارن » ان من الصعب

(١) — وتسمى وقعة الثني أو المذار الثني : نهر في المذار . والمذار بينها وبين المعرة أربعة أيام الى الشمال بالقرب من واسط ، وتسمى أيضا وقعة المذار.

ان يؤمنوا بأن جيشا امبراطورياً يمكن أن يقهره في معركة قوات العرب المسلمين البسيطة القادمة من الصحراء . ولم يدركوا ان معركة كاظمة خاضها جيش رفيع المستوى قوي العقيدة . كان « قارن » حكيما فلم يتقدم وراء الضفة الجنوبية . وهكذا يستطيع ان يقاتل وظهره للنهر وبذلك يحمي مؤخرته . وبتحديده من امكانات المناورة ، يستطيع أن يحارب بأسلوب الكتلة الزاحفة الجبهية الذي يحبه الفرس والذي يناسب تدريبهم ونظامهم .

لقد تمت مطاردة فلول جيش الفرس الذي كان في الأبلة ، فقد لاحقتها خيالة المثنى الخفيفة ، وعند التماس بالفرس ، كانت خيالة المسلمين تفتش المنطقة بحثاً عن المؤن بينما يقوم المثنى باشغال الفرس ومتابعة الاستطلاع . ولم يحاول الفرس أن يخرجوا من معسكرهم . فأرسل المثنى رسولاً الى خالد ليعلمه بأنه حقق التماس بقوة العدو الكبيرة في مكان يسمى « الثني » ، كما حقق التماس بهم على ضفة نهر مكيل الجنوبية . ولهذا السبب سميت المعركة « معركة النهر » .

عندما ترك خالد كاظمة ، سار شمالاً حتى وصل بعض الخرائب قرب الزبير الحالية ، على بعد عشرة أميال تقريباً : غرب الأبلة . وكان خالد قد قرر مسبقاً ان لا يتجه نحو الأبلّة ، حيث لا عدو يحاربه استناداً للمعلومات التي جاء بها رسول المثنى عن تحشد جيش قارن مع الذين نجوا من معركة كاظمة . وكان خالد حريصاً على تحقيق التماس وجيش الفرس الجديد وتدميره قبل ان يزول أثر صدمة معركة كاظمة من أذهان الفرس . لذلك أرسل خالد معقل بنِ مقرن مع سرية لدخول الأبلّة وجمع الغنائم (وقد نفّذ معقل ذلك) ، واتجه هو نحو نهر مكيل مع الكتلة الرئيسية من جيشه . واجتمع بالمثنى في الأسبوع الثالث من نيسان عام ٦٣٣م. (الأول من صفر ، عام ١٢ هجري) .

ثم قام خالد باستطلاع شخصي لموقع الفرس . ولما كان ظهر الفرس للنهر ، لم يتمكن من الالتفاف على جناح العدو ، كما لم يجد وسيلة لجعل الفرس يغادرون مواقعهم مثلما فعل هرمز . لذلك ، قرر خالد ان يخوض

معركة الكتلة الواحدة ، بأسلوب الفرس ذاته ، فلا وسيلة أخرى لخوضها .

وما دام «قارن» مستعدا للقتال بهذا الشكل ، فلا يستطيع خالد ان يجتاز النهر للدخول في عمق العراق . ولا ان يتقدم غربا نحو الحيرة .

احتشد الجيشان للمعركة . وقباذ وأنوشجان يقودان جناحي جيش الفرس ، بينما احتفظ «قارن» بقيادة القلب ووقف في الأمام . وكانت عناصر عربية تعمل تحت قيادة قارن قد انتشرت بين صفوف الفرس . كان «قارن» قائداً شجاعاً وحكيماً . ففتح للمعركة وظهره قريب من النهر . وكان عدد كبير من القوارب جاهزة قرب ضفة النهر . وفتح خالد أيضاً للمعركة بترتيب القتال المألوف . وهو القلب والجناحان . وعيّن مرة أخرى لقيادة الجناحين عاصم بن عمرو ، وعدي بن حاتم .

بدأت المعركة بثلاث مبارزات . وكان قارن أول من خرج للمبارزة من بين الصفوف متحدياً عدوه . وعندما حثّ خالد فرسه الى الأمام ، خرج مسلم آخر يدعى معقل بن الأعشى من الصف الأمامي لجيش المسلمين واتجه نحو قارن . ووصل معقل الى «قارن» قبل خالد ، وكان ضارب سيف ممتاز قادر على المبارزة على مستوى الابطال ، فلم يطلب خالد منه العودة . واقتتل قارن ومعقل . وتمكن معقل من قتل قارن .

عندما خر قائد الفرس صريعاً بسيف معقل ، خرج من بين الصفوف القائدان الفارسيان الآخران قباذ وأنوشجان طالبين المبارزة . فقبل التحدي قائدا جناحي المسلمين عاصم وعدي . فقتل عاصم أنوشجان ، وقتل عدي قباذ . وعندما سقط القائدان الفارسيان ، أمر خالد بشن هجوم عام . واندفع المسلمون الى الأمام لمهاجمة جيش الفرس الكثيف .

كانت شخصية القائد تقوم بدور أساسي في مجرى المعركة . فعندما كان الجنود يشاهدون شجاعة قائدهم وانتصاره على عدوه في المبارزة كانت قواهم المعنوية ترتفع ويزداد اندفاعهم وحماستهم في المعركة ، بينما يضعف ذلك عند مقتل القائد أو هربه وتدب الفوضى في الصفوف . والآن فقد جيش الفرس ثلاثة من أكبر قادته . ومع ذلك فقد قاتل الفرس بشجاعة

واستطاعوا أن يصدّوا هجمات المسلمين . ولكن غياب القادة الأكفاء أدى الى الفوضى في صفوف الفرس . ففقد جيشهم تماسكه وبدأ بالهرب نحو النهر من جراء ضغط هجمات المسلمين العنيفة والمستمرة .

تحول هذا التراجع غير المنتظم الى كارثة . فقد استطاع العرب بسرعة حركتهم ان يلحقوا باعدائهم المثقلين بالمعدات والتجهيزات . وعند ضفة النهر عمّت الفوضى عندما تدافع الفرس الى القوارب . وهم في حالة هياج وذعر . وقد قتل الآلاف منهم ونجا آلاف بفضل القوارب التي كان وجودها نتيجة بعد نظر «قارن» وحرصه ، اذ لولاها لما نجا فارسي واحد وانتهت المطاردة عند النهر .

بلغ عدد قتلى الفرس في هذه المعركة ثلاثين ألفاً [١] . وغنائمها فاقت الغنائم التي تم الاستيلاء عليها في كاظمة ووزع خالد أربعة أخماس الغنائم على المقاتلين ، وأرسل الخمس الى المدينة .

التفت خالد الى ادارة الولايات التي فتحها المسلمون ، ذلك في المقام الأول . ووافق جميع السكان المحليين ، اذعانا لخالد ، على دفع الجزية وان يكونوا تحت حماية المسلمين . فتركوا لشأنهم . ونظّم خالد أمر الجباية وجعل سويد بن مقرّن مسؤولا عليها وأمره بنزول الحفير وجعل مقره فيها .

وبينما كان خالد منهمكاً في تنظيم الأمور الادارية ، انطلقت العيون عبر نهر مكيل والفرات لتتبع آثار جيش قارن المقهور . وانطلق أناس آخرون على امتداد نهر الفرات باتجاه الحيرة لاكتشاف تحركات جيش كسرى وتحشده .

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٥٨ .

٤ — جحيم ولحة :

أثارت انباء هزيمة نهر «مكيل» أهالي كتسفون . فقد مزق جيش فارسي ثان شر ممزق من قبل هذه القوة الجديدة غير المتوقعة القادمة من صحراء الجزيرة القاحلة .

وقتل قائدا الجيشين الفارسيين مع قائدين آخرين من ذوي المراتب العالية على يد المسلمين . وكانت هزيمة الجيشين الفارسيين أمرا لا يصدق ، على اعتبار ان هذا العدو الجديد لم يكن معروفا في مجال التقدم العسكري ، وبدت الهزيمة كابوسا مخيفا غير حقيقي .

فأمر الامبراطور بحشد جيشين آخرين ، وأصدر هذا الأمر في يوم معركة النهر . ولعل القارىء يعجب لذلك ، لأن ميدان المعركة كان يبعد ثلاثمائة ميل عن كتسفون برا . لكن الفرس كانوا يملكون نظاما مشهورا في وسائط الاتصال العسكري . فهم يضعون قبل المعركة خطاً من الرجال ذوي الأصوات المجلجلة ، على مسافة صوت مسموع بين الواحد والآخر ، وعلى طول الطريق من ميدان المعركة وحتى العاصمة . ويستخدم مئات الرجال في هذا الخط . فكل حادث يقع في ميدان المعركة يردده بصوت عال أ الى ب ثم ب الى ج ، ثم ج الى د وهلم جرا .. وهكذا [١] تصل أنباء المعركة الى الامبراطور في غضون بضع ساعات .

تنفيذا لأمر الامبراطور ، بدأ المحاربون الفرس بالتحشد في العاصمة الامبراطورية . فجاؤوا من جميع المدن والحاميات فيما عدا المتاخمة

---

(١) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ٤٣ .

للحدود الغربية مع الامبراطورية الرومانية الشرقية . وفي غضون بضعة أيام ، كان الجيش الأول جاهزاً .

كان البلاط الفارسي يتوقع تقدم المسلمين على امتداد نهر الفرات الى شمال غرب العراق . فالفرس كانوا يعرفون الفكر العربي جيدا ، اذ لا يعقل ان تقدم أية قوة عربية على التحرك بعيداً عن الصحراء ما دامت توجد قوات معادية على مسافة قريبة من مؤخرتها ومن طريقها الى الصحراء . ونظراً لتوقع الامبراطور ان يتقدم جيش المسلمين غرباً فقد اختار الولجة مكاناً لايقاف خالد وتدمير جيشه .

سلّمت قيادة أول الجيشين الفارسيين الجديدين الذي أُنشىء في «كتسفون» الى القائد الفارسي «الاندرزغر». وكان هذا القائد حاكماً عسكرياً على ولاية خراسان ، كما كان يحظى بتقدير الفرس والعرب على حد سواء . وكان فارسياً ولد بين عرب العراق . وكبر وترعرع بين العرب ، وكان ، خلافاً لمعظم الفرس من مرتبته ، يكنّ وداً ومحبة لهم .

أمر الاندرزغر ان يحرك جيشه الى الولجة ، حيث سينضم اليه في أقرب وقت الجيش الثاني . وانطلق من كتسفون ، وسار على امتداد الضفة الشرقية لنهر دجلة ، واجتاز دجلة حتى أتى كسكر[1] . ثم سار باتجاه جنوب غرب الى الفرات قرب الولجة ، ثم اجتاز الفرات وأقام معسكره في الولجة . وقبل أن ينطلق من العاصمة ، أرسل مبعوثين لعدة قبائل عربية يعرفها ، وفي طريقه الى الولجة انضم اليه آلاف من العرب الراغبين في القتال تحت لوائه . كذلك قابل بقايا جيش «قارن» ووضعهم تحت امرته . وعندما وصل الى الولجة كان مطمئنا لقوة جيشه . وهنا أخذ ينتظر بفارغ الصبر «بهمن بن جاذويه» قائد الجيش الثاني الذي سينضم اليه خلال بضعة أيام .

وكان بهمن من الشخصيات العسكرية البارزة ، وقد أمره الامبراطور أن يقود الجيش الثاني ، عندما يصبح جاهزاً ، الى الولجة حيث ينتظره الاندرزغر ، فيتولى بهمن قيادة الجيشين ، وبهذه القوات الهائلة يهزم

(١) كانت كسكر تقع في المكان الذي بنيت فيه واسط في عام ٨٣ هجري .

جيش المسلمين ويدمره في معركة واحدة كبيرة .

تحرك بهمن على طريق منفصل الى الاندرزغر . فمن كتسفون سار جنوبا ، بين النهرين ، وتوجه مباشرة الى الولجة . لكنه ترك كتسفون بعد عدة أيام مرت على مسير الجيش الأول وكانت حركته أبطأ .

كانت معركة النهر نصراً رائعاً للمسلمين الذين استطاعوا تدمير جيش فارسي كبير بخسائر طفيفة ، والاستيلاء على كمية كبيرة من الغنائم . لكن هذه المعركة حملت خالدا على التفكير ، فقد بدأ يدرك ضخامة موارد الامبراطورية الفارسية . لقد خاض معركتين دمويتين ضد جيشين منفصلين وطردهما من ميدان المعركة بلا هوادة ، ولكنه ما زال على تخوم الامبراطورية ، والفرس قادرون على حشد جيوش عدة ، مثل الجيشين اللذين حاربهما في كاظمة والنهر .

كان تفكير خالد رزيناً ومنطقياً . فهو أول قائد مسلم ينطلق لفتح أراض أجنبية ولم يكن خالد قائداً عسكرياً فحسب ، بل كان يحكم ، باسم الخليفة الموجود في المدينة ، جميع الأراضي التي تم فتحها من أجل نشر الدعوة الاسلامية . ولم يكن بقربه من يلجأ اليه سياسياً وادارياً لاستشارته في هذه الأمور . علاوة على ذلك ، لم يكن رجاله على ما كانوا عليه في كاظمة نشاطاً وحيوية . لقد ساروا طويلاً وسريعاً وقاتلوا بعنف ، وهم يشعرون الآن بشيء من التعب . فأراح خالد جيشه لبضعة أيام .

وكان خالد قد نظم شبكة فعالة من العيون للتجسس على العدو ، من العرب المحليين الذين استمالتهم معاملة خالد الكريمة للسكان المحليين ، خلاف ما كانوا يلقون على يد الفرس المتغطرسين . لذلك انحاز معظم السكان المحليين الى المسلمين وأحاطوا خالدا علماً بنشاط الفرس وتحركات قواتهم ، وتحرك الاندرزغر من كتسفون ، وعن العناصر العربية الكثيرة التي انضمت اليه ، وعن الحاق من بقي من جيش قارن به ، ثم عن تحركه نحو الولجة . كذلك اعلموه عن مسير الجيش الثاني بقيادة بهمن من كتسفون وتحركه باتجاه الجنوب . فاستنتج خالد أن الجيشين الفارسيين سيلتقيان

قريباً ، وعندئذ ، إما ان يسدّا عليه الطريق جنوب الفرات ، وإما أن يتقدما لمحاربته في منطقة الأبلة. ونظرا لضخامة القوات الفارسية استنتج خالد ان اشتباكه بها في معركة ناجحة قد لا يكون ممكناً . وكان يريد الذهاب الى الحيرة ، لكن الولجة كانت عقبة في طريقه .

وهنالك أمر آخر كان يقلق خالدا وهو ان كثيراً من الفرس كانوا يهزمون من المعركة ثم يعودون للقتال مرة أخرى . فالذين نجوا من كاظمة انضموا الى «قارن» وقاتلوا في معركة النهر. والذين نجوا من معركة النهر انضموا الى الاندرزغر وهم الآن في طريقهم الى الولجة . فاذا قدّر له أن يهزم الجيوش التي تواجهه ، سيحاول الحؤول دون انضمام أي جندي فارسي هارب الى جيش يعدّ للمعركة التالية .

فالمشكلتان اللتان يواجههما هما : أولاً ، مشكلة استراتيجية ، وهي وجود جيشين فارسيين على وشك الاندماج للهجوم عليه . وقد وجد لهذه حلاً استراتيجياً أيضاً ، هو التقدم بسرعة لمواجهة الجيش الأول وابادته (جيش الاندرزغر) قبل ان يصل الجيش الآخر (جيش بهمن) الى المسرح . أما الثانية فكانت تكتيكية ، وهي الطريقة لمنع جنود العدو من الهرب من معركة ما والعودة للقتال في معركة تالية . ووجد لهذه حلا تكتيكياً ، لا يخطر إلا لعبقري مثله .

أعطى خالد تعليماته الى سويد بن مقرّن لكي يقوم بادارة الولايات التي تم فتحها ، مع عدد من الاداريين ، ووضع بعض المفارز لحراسة نهر دجلة الأسفل ومنع كل محاولة اجتياز قد يقوم بها العدو من الشمال والشرق ، ولاعطاء انذار مبكر بأية قوات جديدة تأتي من هذين الاتجاهين . وانطلق خالد مع بقية جيشه البالغ عدده زهاء خمسة عشر ألفا باتجاه الحيرة ، وسار بخطى حثيثة على امتداد الطرف الجنوبي للمستنقع الكبير.

لو خيّر الاندرزغر ، لاختار بالتأكيد انتظار وصول بهمن قبل الدخول في معركة حاسمة مع المسلمين. لكن الاندرزغر لم يخيّر. فقبل وصول بهمن ببضعة أيام ، ظهر جيش المسلمين فوق الأفق الشرقي وعسكر على مسافة

قصيرة من الولجة ، وبرغم ذلك ، لم يكن الاندرزغر قلقاً ، فلديه جيش كبير من الفرس والعرب ، وشعر بأنه واثق من النصر. حتى انه لم يكلف نفسه عناء الانسحاب الى ضفة النهر ، على بعد ميل واحد ، لكي يستخدم النهر في حماية مؤخرته . واستعد للمعركة في الولجة .

بقي الجيشان في معسكريهما في اليوم التالي ، كل منهما يراقب الآخر ، بينما كان الأمراء والقادة يقومون بالاستطلاعات والاستعدادات للغد . وفي صباح اليوم التالي فتح الجيشان للمعركة ، وكان ترتيب قتال كل منهما يتألف من قلب وجناحين . وسلّمت قيادة جناحي جيش المسلمين مرة أخرى الى عاصم بن عمرو ، وعدي بن حاتم .

كان ميدان المعركة يتألف من سهل مستو يمتد بين هضبتين منبسطتين ومنخفضتين بينهما مسافة تقارب ميلين ، ويبلغ ارتفاعها من ٢٠–٣٠ قدماً . وعند نهاية الطرف الشمالي الشرقي من السهل هضبة أخرى هي امتداد للهضبة الشرقية ، بينما يمتد السهل جنوباً الى صحراء قاحلة . وعلى مسافة قصيرة من الهضبة الشمالية الشرقية يجري فرع من الفرات يعرف باسم «نهر الخسيف» وفتح الفرس للمعركة في وسط هذا السهل ، وكانوا يواجهون الشرق والجنوب الشرقي ، والهضبة الغربية خلفهم ويسارهم على سفح الهضبة الشمالية الشرقية . وفتح خالد جيشه للمعركة أمام الهضبة الشرقية مباشرة ، وأصبح يواجه الفرس . وكانت نقطة المنتصف بين الجيشين تقع على بعد ميلين جنوب شرق «عين المحارى» الحالية ، وستة أميال جنوب «الشنّيفيّة» الحالية .

فوجىء الاندرزغر بقوة جيش المسلمين التي لا تتجاوز عشرة آلاف . وكان الاندرزغر يتوقع ، بناء على المعلومات التي سمعها ، ان يكون جيش خالد أكبر من ذلك بكثير ، وتساءل بينه وبين نفسه : أين خيالة المسلمين المخيفة ؟ فمعظم هؤلاء الرجال مترجلون ! وقال في نفسه : لعلّ الذين نجوا من معركتي كاظمة والنهر قد بالغوا في تقدير قوة العدو كما يفعل الجنود المهزومون عادة ، أم ان الخيالة ستقاتل مترجلة . ولم يعرف الاندرزغر ان

المسلمين الذين يواجهونه هم أيضاً فوجئوا بعدد الفرس ، الذين ظهروا بالأمس وكأنهم أكثر عددا عما هم عليه اليوم . لكن الأمر لم يقلقهم . فسيف الله يعرف أكثر منهم .

جعل الموقف الراهن قوى الاندرزغر المعنوية عالية ، فهو سيبيد هذه القوة الصغيرة ويطهر أرض العراق من هؤلاء الأعراب سكان الصحراء . لذلك سينتظر أولا هجوم المسلمين . ثم يصده ويقوم بهجوم معاكس ويسحق جيش الثورة الاسلامية .

لذلك ، عندما قام خالد بهجوم عام ، فرح الاندرزغر كثيراً لأن هذا ما كان يريده . فتقابل الجيشان واشتبكا في قتال عنيف .

احتدم القتال بين الطرفين . وانقض المسلمون الماهرون على الفرس المثقلين بالمعدات والتجهيزات ، لكن الفرس صمدوا في مكانهم ، وصدّوا جميع الهجمات . وبعد ساعة من القتال شعر الطرفان بالاجهاد والتعب . وكان اجهاد المسلمين أكثر لأن عددهم أقل ، والواحد منهم يواجه عدة رجال من الفرس . علاوة على ذلك ، كان لدى الفرس احتياط من الجنود يستبدلون به رجالهم في الصف الأمامي .

لكن المثل الذي ضربه خالد رفع قوى المسلمين المعنوية . انه يحارب في الصف الأمامي .

وفي أثناء المرحلة الاولى من المعركة ، ازدادت ثقة المسلمين بالنصر عندما شاهدوا خالدا يبارز أحد أبطال الفرس العمالقة ويدعى « حضرمرد » قيل انه يعادل ألف رجل [1] .

وقد خرج هذا الرجل من بين صفوف الفرس وطلب المبارزة . فخرج له خالد وبارزه . وبعد بضع دقائق ضربه خالد بسيفه فقتله . فلما فرغ اتكأ عليه ودعا بغدائه [2] .

انتهت المرحلة الأولى ، وبدأت المرحلة الثانية من المعركة بهجوم معاكس

---

(١) — حضرمرد تعني بالفارسية ألف رجل .

(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٠ .

من الفرس . وكانت عين الاندرزغر الثاقبة ترى أمارات التعب بادية على وجوه المسلمين . وقدّر ان هذه هي اللحظة المناسبة لشن هجومه المعاكس ، وكان مصيباً في ذلك . وبناء على أوامره ، اندفع الفرس الى الأمام وكرّوا على المسلمين . واستطاع المسلمون ان يصدوهم لبعض الوقت بعد أن بذلوا جهودا جبارة في القتال . لكنهم بدأوا بالتراجع ببطء ، ولكن بكل نظام . وشن الفرس هجمات عنيفة ، ونظر المسلمون الى خالد لتلقي أية اشارة تدل على تغيير في خطة أو أي شيء آخر ينقذ الموقف . لكنهم لم يتلقوا شيئاً من ذلك . وكان خالد يقاتل كالأسد وحث رجاله على القتال مثله . وفعل رجاله مثلما فعل . (راجع خريطة سير الاعمال القتالية في معركة الولجة في الشكل رقم ١٣) .

خسر الفرس كثيراً في أثناء تقدمهم ، لكنهم كانوا فرحين بالنجاح الذي أحرزوه . كذلك كان الاندرزغر فرحاً ، فالنصر كان قاب قوسين منه . وهو لم يصل بعد الى المرتبة العليا في الجيش والدولة . أما المسلمون فقد استمروا في قتال يكاد يكون انتحارياً ، وبذلوا فوق طاقتهم ، وبدأ بعضهم بالتساؤل عما اذا كان مجد خالد قد أوشك على الأفول .

بعد ذلك اعطى خالد الاشارة . ولم تعرف ما هي الاشارة بالضبط ، انما بلغت القصد . وفجأة ظهر خطّان اسودان فوق قمة الهضبة الممتدة خلف الجيش الفارسي . الخط الأول من جهة المؤخرة اليسرى للفرس ، والثاني من جهة المؤخرة اليمنى . انهم خيالة المسلمين وجلجلت صيحة « الله أكبر » وهم على صهوات جيادهم كالمردة ، واهتز سهل الولجة تحت وقع حوافر خيول المسلمين الهادرة . وانقلب فرح الفرس الى رعب ، وأخذوا يصرخون بفزع عندما انقضت خيالة المسلمين على مؤخرة جيش الفرس ، وانتعشت كتلة المسلمين الأساسية التي كانت بامرة خالد لمرأى خيالة المسلمين وقويت عزائمهم واستأنفوا الهجوم على جبهة الفرس ، وفي آن واحد أطال المسلمون الجناحين للاتصال بالخيالة ثم تطويق الفرس بشكل تام . ووقع جيش الاندرزغر بالفخ الذي لا مهرب منه .

وفي لحظات تحول الفرس النظاميون الى غوغاء . وعندما كان يحاول جنودهم الفرار الى المؤخرة كانوا يقابلون بالرماح أو يطعنون بالسيوف . وعندما كانوا يتوجهون الى المقدمة كانوا يضربون بالسيوف أو يطعنون بالخناجر . ونتيجة للهجمات من جميع الاتجاهات تجمع الفرس على شكل كتلة غير متماسكة ، ولم يستطيعوا استخدام أسلحتهم بحرية كما لم يستطيعوا تجنب ضربات المسلمين المهاجمين . فضاقت في وجههم سبل القتال والفرار في آن واحد . الى أين يذهبون . وأخذوا يدوسون بعضهم بعضاً وهم يتسابقون للهرب من الخطر المحدق بهم . وأصبح ميدان المعركة في الولجة جحيماً لجيش الاندرزغر .

أحكمت الحلقة الفولاذية المحدقة بالفرس ، وازدادت هجمات المسلمين عنفا وضراوة . وأقسم المسلمون ان لا يدعوا الفرس ومن معهم من عرب العراق يهربون هذه المرة .

وقد نجح المسلمون في ذلك ، اذ تم تدمير جيش الفرس ، سوى بضعة آلاف تمكنوا من الهرب ، اذ لا يمكن تدمير جيش بكامله دون أن يتمكن بعض عناصره من الفرار . وانتهى جيش الفرس وكأن هوة فتحت من تحته وابتلعته . وبينما دحر جيشا « هرمز » و« قارن » وانهزما ، فان جيش الاندرزغر قد أبيد . وتلاشى وزال ما كان يسمى جيش الاندرزغر .

ومن الغريب حقاً ان يلجأ الاندرزغر الى الهرب . لكن اتجاه هربه كان نحو الصحراء وليس نحو الفرات ، اذ كان همه الابتعاد ما أمكن عن جحيم الولجة . وأوغل الاندرزغر السيء الحظ في الصحراء حيث أضاع طريقه ومات عطشاً .

جمع خالد رجاله المنهكين بعد المعركة . وأدرك ان هذه المعركة كانت عبئا كبيرا عليهم ، فهي أعنف المعارك الثلاث التي خاضوها في العراق . وكان خالد حريصاً على معنوياتهم لئلا تتأثر بتجارب هذه المعارك . فثمة تجارب أخرى تنتظرهم . وقام خالد في الناس خطيباً يرغّبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب وقال : « ألا ترون الى الطعام كرفع التراب وبالله لو

لم يلزمنا الجهاد في الله ، والدعاء الى الله عز وجل ولم يكن الا المعاش ، لكان الرأي ان نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ونولي الجوع والاقلال من تولاه ، ممن اثاقل عما أنتم عليه »[1] .

ووافق المقاتلون على رأي خالد .

لا بد أن يتساءل القارىء عن حدوث هذا الانعطاف الكبير في الموقف العسكري ؟ ..

في اليوم السابق لمعركة الولجة ، أرسل خالد قائدين هما بشر بن أبي رهم وسعيد بن مرة . وجعل كلاً منهما مسؤولا عن ألفي خيّال وأسند اليهما المهمات التالية :

١ — عليهما ان يذهبا بقواتهما في أثناء الليل وأن يلتفا على جنوب معسكر الفرس .

٢ — عند الوصول الى الجانب البعيد من الهضبة الممتدة خلف معسكر الفرس ، ينبغي ان يخفيا رجالهما على ان يكونوا جاهزين للتحرك عند أول اشارة .

٣ — عند نشوب المعركة في الصباح ، عليهما ان يبقيا رجالهما على الخيل خلف قمة الهضبة وان يضعا مراقبين ليروا اشارة خالد .

٤ — عندما يعطي خالد الاشارة ، على القوتين الضاربتين ان تهاجما جيش الفرس من المؤخرة .

وأصدر خالد الأوامر الضرورية لأولئك الذين ينبغي ان يكونوا على علم بهذه الخطة ، لكي يتم التجهيز والاعداد للقوتين الضاربتين بدون تعقيد ، وخفيت الخطة ولم يعلم من ليس له علاقة بها شيئاً عنها . وفي الصباح لم يظهر أحد من القوتين الضاربتين ، وفتح خالد للمعركة بباقي جيشه الذي يبلغ عشرة آلاف ، أمام الفرس .

هذه هي معركة الولجة التي حدثت في أوائل أيار عام ٦٣٣م. (الأسبوع الثالث من صفر ، عام ١٢ هجري) . وكانت عبارة عن هجوم جبهي رافقته

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٠ .

عملية التفاف واسعة . وقد تمت العملية ، حتى أصغر دقائقها وتفصيلاتها ، كما خطط لها خالد .

لم تكن هذه أول مناورة باهرة تنفذ في التاريخ . لقد حدث مثلها قبل ذلك . وأشهر مثال على هذا النوع من المناورة هو معركة كاني عام ٢١٦ قبل الميلاد ، عندما قام القائد العربي السوري هاني بعل بتنفيذ مناورة مماثلة ضد الرومان . وأصبح هذا النوع من المناورة يدعى بعد معركة هاني بعل باسم « المناورة الكانيّة » .

ولعل خالدا ما سمع قط بهاني بعل . ومناورته هذه نابعة من صميم أفكاره .

٥ — نهر الدم :

تم كسب المعركة الثالثة الكبيرة ، وأصبح خالد قريباً من هدفه النهائي وهو الحيرة . ولكن كان لا يزال امامه طريق طويل وليس لديه فكرة عن المسيرة . ولم يكن انسحاب الفرس المتشامخين من طريقه بالأمر المحتمل وقوعه . وكان لا بد من اراقة دم كثير .

وعلى الرغم من مناورة خالد البارعة وجهوده الضخمة ، استطاع بضعة آلاف من جنود الاعداء ان يهربوا من معركة الولجة . ومعظمهم من العرب النصارى من قبيلة بني بكر (وهي قبيلة المثنى) التي ما زال بعض بطونها على نصرانيتهم في العراق ، رعايا فارسيين . وقد استجابوا لنداء الاندرزغر وحاربوا معه وذاقوا الهزيمة معه في الولجة .

هؤلاء العرب ، الذين نجوا من معركة الولجة هاربين عبروا نهر الخسيف وساروا بينه وبين الفرات (كان يفصل بين النهرين مسافة ثلاثة أميال . وكان نهر الخسيف فرعاً من الفرات) . وانتهى بهم المطاف الى «أليّس» وهي تبعد زهاء عشرة أميال عن الولجة . وهنا شعروا بالأمان . لأن المكان يقع على الضفة اليمنى من الفرات، وعلى الجانب الآخر من أليّس كان يجري الخسيف ، وهو يبدأ فعلياً من الفرات فوق أليّس . ولا يمكن الاقتراب من أليّس الا جبهياً ، أي من الجهة الجنوبية الشرقية .

أراح خالد جنوده بضعة أيام وبقي هو مشغولا بتوزيع الغنائم والاعداد للمسير القادم . ونظرا لوجود جيش بهمن.، كان خالد يتوقع حدوث معركة دموية أخرى لا بد من خوضها قبل الذهاب الى الحيرة . وبما ان مركز ثقل

الحملة في العراق قد انتقل الآن من دجلة الى الفرات ، استدعى خالد مفارز المسلمين التي تركها عند نهر دجلة الأسفل .

عرف خالد من عيونه بوجود عرب معادين في أليّس ، هم الناجون من معركة الولجة ، فلم يعتبرهم مشكلة عسكرية . وعلى أي حال ، كان حريصاً على عدم زج قواته في معركة أخرى قبل ان تنال قسطا من الراحة وتستعيد نشاطها بعد التجربة الكبرى التي خاضوها مع الاندرزغر . ولكن بعد مرور عشرة أيام بلغه وصول قوات عربية أخرى الى أليّس ، فأدرك ان عليه ان يقاتل جيشاً جديداً كاملاً . كما ان الحشد المعادي غدا كبيرا الى حد ينذر بحدوث معركة هامة . وعندما وصلت مفارز المسلمين من دجلة الأسفل وانضمت الى خالد ، انطلق من الولجة ومعه جيش مؤلف من ثمانية عشر ألفاً ، ونظرا لعدم وجود طريق يؤدي الى اليّس من الجنب بسبب وجود النهرين ، فلم يكن أمام خالد من خيار سوى اجتياز الخسيف والاقتراب من هدفه جبهياً .

اهتزت امبراطورية الفرس من أساسها بسبب تدمير جيش الاندرزغر بعد هزيمة جيشي الفرس الآخرين في معركة كاظمة والنهر . وبدأ جيش الثورة الاسلامية كقوة لا تقهر . وكان كل جيش فارسي يحاول مقاومة زحف المسلمين يصاب بالهزيمة والدمار . وكانت الصفعة التي أصابت البلاط الفارسي أليمة ، لأن الفرس اعتادوا على معاملة أهل الصحراء بازدراء . ولم تصب الامبراطورية في تاريخها الطويل بمثل هذه الهزائم العسكرية ، وبمثل هذه السرعة ، على أيدي قوات أقل حجماً وأضعف تسليحاً .

ولأول مرة وجد الفرس ان من الضروري ان يعيدوا النظر بفكرتهم عن العرب . وكان واضحا ان هنالك شيئاً ما يكتنف الاسلام الذي استطاع ان يحوّل العرب من أمة بدوية غير منظمة وصعبة المراس الى أمة مرهوبة الجانب ، وقوة فتح منظمة . وكان واضحاً أيضاً ان شيئاً ما يحيط بخالد ، الذي أصبح اسمه يثير الرعب في نفوس الفرس ، والذي اضاف لمسة من العبقرية على عمليات جيشه . ولكن امبراطورية عظيمة يبلغ عمرها اثني

عشر قرناً لا تهزم بخسارة ثلاث معارك. وكان الفرس أمة من الفاتحين والحكام الذين خسروا معارك في الماضي لكنهم نهضوا ثانية. وقد انقضت حالة اليأس والفزع التي أصابت أهل مدينة كتسفون بعد أنباء هزيمة الولجة، وحلّ محلها تصميم على سحق هذا الجيش الفاتح وطرده الى الصحراء، من حيث أتى. لقد وقف الفرس على أقدامهم ونفضوا غبار الهزيمة واستعدوا لجولة أخرى.

في غضون ذلك وصل مبعوثون من العرب النصارى من بني بكر الى كتسفون وأخبروا الامبراطور بوضعهم. وطلبوا مساعدة زملائهم العرب الذين يسكنون المنطقة الواقعة بين الّيس والحيرة، واستجابة لذلك، زحف الآلاف من العرب للانضمام الى بني بكر في الّيس ليخوضوا معركة حياة أو موت ضد خالد، وكانوا يتساءلون ما اذا كان الامبراطور سيقدم المساعدة بارساله جيشا آخر من المقاتلين الفرس ليعملوا جنبا الى جنب مع رعاياه العرب المخلصين من أجل انقاذ الامبراطورية.

كان الامبراطور ينوي تقديم المساعدة فعلاً. ولذلك فقد أرسل اوامره الى بهمن الذي كان لا يزال موجوداً شمال الفرات. وعندما سمع بهمن بمعركة الولجة، توقف في مكانه وقرر ان لا يتحرك حتى وصول تعليمات جديدة. ولم يطل انتظاره فقد تسلّم أمر الامبراطور القاضي بالتقدم مع جيشه الى الّيس، وبأن يضم الى قواته المفارز العربية المتجمعة هناك ثم يسد الطريق على خالد ويمنعه من التقدم الى الحيرة.

لكن بهمن لم يذهب هو نفسه الى الّيس. وأرسل الجيش بأمرة نائبه «جابان»، بعد ان بلغه أوامر الامبراطور، وقال بهمن لجابان: «كفكف نفسك وجندك من قتال القوم حتى الحق بك الا ان يعجلوك [1]». وبعد ان انطلق جابان مع الجيش، عاد بهمن الى كتسفون.

لم يعرف سبب ذهابه الى العاصمة. ولكن المعروف أنه رغب في بحث بعض الأمور مع الامبراطور. وعندما وصل الى كتسفون، وجد الامبراطور

(١) — الطبري — الجزء ٢، صفحة ٥٦٠.

اردشير مريضاً جداً وبقي بجانبه للسهر عليه .

سار جابان مع جيشه الى اليّس حيث وجد آلاف العرب النصارى الذين جاؤوا من منطقة الحيرة وأمغيشيا [1] . وأدرك الجميع أن هدف خالد هو الاستيلاء على الحيرة، وايقنوا أيضا ان نجاح خالد معناه مزيداً من اراقة الدم ومن السبي . ولمنع ذلك ، جاؤوا لقتال خالد ، وهم على استعداد للقتال حتى الموت اذا لزم الأمر . وتولى جابان قيادة جميع القوات ، وكان على رأس قوة العرب النصارى زعيم يدعى عبد الأسود فقد ولدين في الولجة فكان يتحرق للانتقام. وعسكر الفرس والعرب النصارى جنباً الى جنب وجعلوا الفرات الى يسارهم. والخسيف إلى يمينهم، ونقطة التقاء نهر الخسيف من الفرات خلفهم .

وحسب رواية المؤرخين الاوائل كان هنالك نهر. وقد ذُكر في نهاية الاشتباكات التي حدثت في معركة اليّس ، كما سنرى . ولعله كان في يوم من الأيام قناة ، لأن مياهه كانت محجوزة عند نقطة التقائه بالفرات بالقرب من أليّس، ولكن عند نشوب المعركة كان النهر جافا، أو شبه جاف، لأن فتحة السد كانت مغلقة .

قبل وصول جابان وجيشه، ظهر المثنى وخيالته الخفيفة في أليّس واصطدم بابناء عمه العرب النصارى . وأخبر خالدا عن موقع العدو، وقوته، ونواياه الظاهرة للقتال، فأسرع خالد الخطى بنيّة الانقضاض على العرب النصارى قبل ان يتم تعزيزهم بقوات فارسية أخرى . لكن جابان وصل اليّس قبل خالد ، ربما بساعات قليلة ، وهنا جوبه خالد مرة أخرى بجيش كبير. فصمم خالد على ان يقتل أكبر عدد من جنود الاعداء كيلا يرى منهم الا القليل في المعركة التالية . وقرر أيضاً اللقاء في اليوم ذاته . لأن أي تأخر في خوض المعركة سيتيح للفرس تنظيم خططهم وتنسيقها . وجرت المعركة في منتصف أيار عام ٦٣٣ م. (نهاية صفر، عام ١٢ هجري) .

توقف خالد في أثناء سيره مدة كافية لترتيب جيشه ووضعه على أهبة

---

(١) — أمغيشيا : كانت أقليا كالحيرة ، وكانت أليس من ثغورها .

القتال ، وعيّن عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو مرة أخرى قائدين للجناحين، قبل أن يبدأ التقدم الى أُلّيس. في هذه المرة لم تكن حركات الإلتفاف ممكنة . لذا كان على خالد ان يعتمد من أجل النصر على السرعة والعنف في الهجوم أكثر من اعتماده على المناورة . واستمر تقدم المسلمين للمعركة بعض الوقت قبل ان يعلم جابان بأنه على وشك ان يهاجم .

وصلت هذه المعلومات الى جابان قبل منتصف النهار بقليل . وهو موعد تناول الطعام عند الفرس . وكان الطباخون قد أعدوه للجنود ، والجندي الفارسي ، كجنود جميع الأمم وعلى مر العصور يفضل وجبة ساخنة وينفر من الهجوم بمعدة فارغة. أما العرب النصارى فكانوا جاهزين للمعركة .

نظر جابان الى جنوده وهم يحملون أوعية الطعام ويأكلون بشهية . ثم نظر الى الاتجاه الذي يقترب منه المسلمون بسرعة وبترتيب القتال . كذلك شاهد جنود الفرس جيش المسلمين . وكان جنود الفرس شجعانا ، لكنهم كانوا جائعين أيضا . فقالوا لجابان : «أنعاجلهم أم نغدي القوم ، ولا نريهم أنا نحفل بهم ، ثم نقاتل بعد الفراغ ؟» فأجابهم جابان : «ان تركوكم فتهاونوا ، ولكن ظني بهم ان سيجعلوكم ويعاجلونكم عن الطعام ، فعصوه وبسطوا البسط ووضعوا الأطعمة ، وتوافوا اليها» . وجلس الجنود على الأرض وبدأوا بتناول الطعام . وظنوا ان لديهم متسعاً من الوقت . وفي غضون ذلك انتشر العرب النصارى ، الذين ليس لديهم عادات الفرس فيما يتعلق بتناول الطعام للمعركة .

ولم يكد يتناول جنود الفرس لقمة أو لقمتين حتى بدا لهم واضحاً ان هجوم المسلمين أصبح وشيكاً . واذا تأخروا في خوض المعركة مدة أطول ، فان امتلاء بطونهم لن ينفعهم . فتركوا الطعام على الفور ، وفتحوا للمعركة بناء على أمر جابان . ووضع جابان قواته في المنتصف وطلب من العرب النصارى ان يشكلوا الجناحين لجيشه تحت امرة عبد الأسود والابجر .

كان ميدان المعركة يمتد جنوب شرق أُلّيس بين الفرات والنهر . وفتح

جيش الفرس وظهره الى أليّس ، بينما فتح جيش المسلمين أمامه . وكانت مجنبتا الجيشين الشماليتان تستندان على الفرات ، والمجنبتان الجنوبيتان على الخسيف . وكانت جبهة المعركة من النهر الى الخسيف ، تبلغ زهاء الميلين .

كانت معركة أليّس عنيفة جدا . وكانت معركة الولجة أعنف معركة من معارك خالد في العراق حتى الآن ، لكن هذه المعركة كانت أقسى وأعنف . وما نسيها خالد قط .

قتل خالد قائد العرب النصارى عبد الأسود في مبارزة بينهما . وعلى الرغم من الخسائر الجسيمة التي مني بها جيش الفرس ، لم يستسلم أمام هجمات المسلمين بل على العكس كان مستعدا للقتال حتى النهاية . كما ان العرب النصارى كانوا يقاتلون قتال حياة أو موت ، لأنهم اذا خسروا هذه المعركة لن ينقذ الحيرة شيء

استمر العراك بين الجيشين زهاء ساعتين . وكان القتال على أشده عند ضفة النهر ، حيث سقط العديد من الفرس . ولم ير المسلمون المنهكون الجائعون أية بارقة أمل ، ولم يلمسوا أي ضعف في مقاومة الفرس والعرب النصارى . ثم رفع خالد يديه بالدعاء الى الله وأنذر قائلاً : « اللهم ان لك علي ان منحتنا أكتافهم ألا استبقي منهم أحداً قدرنا عليه حتى يجري نهرهم بدمائهم [1] » .

ولم يذر خالد أثناء ذلك لوناً من ألوان المداورة الا ضيق به الخناق على أعدائه ، فلما عيل صبرهم وتداعت قوتهم ، ولم يبق لهم من الهزيمة مفر تحطمت صفوفهم وانقلبوا على أعقابهم يسارعون الى الهرب ، ولا مأرب لهم الا النجاة، وسقط الآلاف منهم قتلى ، على ضفة الخسيف وفي الخسيف نفسه خاصة ، حيث أصبح لون النهر الرملي أحمر من كثرة الدماء .

عندما فر جيش الفرس من ميدان المعركة أطلق خالد خيالته في أثره . وأمرهم قائلاً : « الأسر الأسر ، لا تقتلوا الا من امتنع [2] » . وكان سرير

(١) ــ الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦١ .

(٢) ــ الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٦١ .

النهر مبتلاً بالدماء ، لكن النهر « لم يجر دما » كما أنذر خالد .

انطلقت خيالة المسلمين في عدة مفارز . وبدأت بمطاردة الهاربين الذين اجتازوا الخسيف واتجهوا نحو الحيرة . وتمكنت الخيالة من عزل مجموعات من الفرس والعرب النصارى وتطويقها والتغلب عليها ونزع أسلحتها وسوقها الى ميدان المعركة سوق الغنم ، وكانت كل مجموعة تصل الى الميدان تساق الى النهر ، فأمر خالد بضرب اعناقهم بعد ان سد الماء عن النهر ، وجعل رجاله يضربون اعناق الأسرى يوماً وليلة ، والنهر لا يجري دما . فقال له أحد أصحابه وهو القعقاع : « لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم . ان الدماء لا تزيد على ان تترقرق ، فأرسل عليها الماء تبر يمينك [1] » .

وأضاف آخرون : « لقد سمعنا أن الأرض تمتص بعض دم أبناء آدم ، فانها ترفض المزيد[2] » . وأمر خالد فأعيد الماء الى النهر فجرى دماً عبيطا [3] ، فسمي نهر الدم لذلك الشأن الى اليوم .

عند حلول الظلام بعد انتهاء المعركة ، وبينما كانت خيالة خالد تطارد فلول الهاربين لاحضارهم الى ميدان القتال . وقف خالد على طعام الفرس الذي كان موضوعاً على البسط على الأرض وقال لجنوده : « قد نفلتكموه فهو لكم » . فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل .

انتهت معركة أليّس ، وغنم المسلمون كميات كبيرة من الغنائم من بينها أسر المحاربين المهزومين من جيش الفرس . وقد بلغ عدد القتلى من الفرس والعرب النصارى سبعين ألفا منهم الذين ضربت اعناقهم عند النهر . ولكن جابان تمكن من الهرب .

وفي اليوم التالي ، تحالف خالد مع سكان الولاية المحليين . واتفق معهم على دفع الجزية ووضعهم تحت حماية المسلمين ، وفي هذه المرة أضيف بند الى الاتفاقية يقضي بجعل السكان المحليين عيوناً ومرشدين للمسلمين .

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦١ .

(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦١ — ٥٦٢ .

(٣) — طريا .

من بين المعارك التي خاضها خالد في زمن النبي (ص) ، كانت مؤتة تحتل مكاناً خاصا في ذاكرته . فلم يتول قيادة في أي مكان مثلما تولاها عندما كانت الكارثة وشيكة الوقوع من انقاذ المسلمين من براثن الموت . ومن بين المعارك التي خاضها في العراق ، حفرت معركة أليّس في ذاكرته مثل معركة مؤتة .

وفي أحد الأيام ، بعد ان تكللت حملة العراق بالنجاح ، جلس خالد يتسامر وبعض أصحابه . فقال : «لقد قاتلت يوم مؤتة فانقطع في يدي تسعة أسياف ، وما لقيت قوما كقوم لقيتهم من أهل فارس ، وما لقيت من أهل فارس قوماً كأهل أليّس» .

هذه الشهادة من خالد على شجاعة الفرس لا يعادلها شيء . لكن البلاط الفارسي بدأ ينهار الآن . فأردشير يحتضر ، والامبراطورية الفارسية لن ترسل جيوشا أخرى لمجابهة سيف الله . وكانت أليّس «مسك الختام» بالنسبة لأردشير حفيد أنوشروان العادل .

٦ — فتح الحيرة :

في منتصف أيار عام ٦٣٣م. (أول ربيع الأول عام ١٢ هجري) تقدم خالد من أليّس الى امغيشيا . وكانت هذه قريبة من أليّس، وفي الحقيقة كانت أليّس بمثابة مخفر أمامي لامغيشيا [1] . وفي صباح اليوم ذاته ، وصل جيش المسلمين الى امغيشيا فوجدوها خالية من اهلها .

كانت امغيشيا احدى مدن العراق الكبيرة ، وكانت تنافس الحيرة في حجمها ، وفي كثرة سكانها ، وفي غنى أسواقها وفخامتها . ووصل المسلمون ليجدوا المدينة سليمة ، تغص أسواقها ومبانيها بالأثاث والعتاد والأموال . أما شباب المدينة فقد قتلوا في أليس . والباقون من النساء والأطفال والشيوخ هجروا مدينتهم بسرعة عندما سمعوا باقتراب خالد وانتشروا في الريف المجاور بعيداً عن طريق تقدم جيش المسلمين . فالخوف الذي كان يثيره اسم خالد أصبح عاملاً نفسياً ذا تأثير كبير في العمليات التي يخوضها جيشه .

استولى المسلمون على امغيشيا غنيمة باردة . وأخذوا كل شيء يمكن حمله أو نقله . وتجمع لديهم ثروة كبيرة . وبعد أن أصاب منها ما لم يصب من غيرها هدمها خالد [2] . ويعتقد ان الغنائم التي أُخذت من امغيشيا تعادل جميع الغنائم التي تم الاستيلاء عليها في المعارك الاربع السابقة .

اعتاد الخليفة أبو بكر على تلقي أنباء النصر من جبهة العراق . وكانت

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣ : كانت امغيشيا تعرف أيضا باسم : منيشيا .

(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٢ .

غنائم الحرب تصل تباعاً بعد كل رسالة . وقد أغنت هذه الغنائم خزائن الدولة وأثلجت صدور المؤمنين . حتى ان أبا بكر قد فرح بانتصار خالد وبالغنائم التي أرسلت من امغيشيا . فجمع المسلمين في الجامع وخطب فيهم قائلاً : «يا معشر قريش ، عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله [1] عجزت النساء ان ينشئن مثل خالد [2] » .

وكان هذا أفضل ثناء للاشادة بفضل خالد بن الوليد .

كانت الحيرة عاصمة العراق العربي ودرة فارس اللامعة . وكان حاكم الحيرة مرزبانا فارسيا يدعى آزاذبه . وكانت هذه الأيام عصيبة عند آزاذوبه . لقد سمع بالكارثة التي حلت بجيوش الفرس في كاظمة ، والمكيل ، والولجة ، وأليس . وكان واضحاً ان خالداً يتقدم باتجاه الحيرة . فاذا كانت تلك الجيوش التي يقودها ألمع القادة ، تحطمت أمام هجوم خالد ، فهل يستطيع بجيشه الصغير أن يقاوم ؟ ولم تصله تعليمات من الامبراطور المريض .

كان آزاذبه حاكماً للحيرة كما كان قائداً لحاميتها . وكان شخصية رسمية هامة في الدولة . وكان ملك الحيرة العربي أياس بن قبيصة ، ملكاً بالاسم فقط . كذلك كان الزعماء الآخرون والامراء بدون سلطة حكومية سوى ما يتعلق بالشؤون العربية أو القبلية . ووقع عبء الدفاع عن الحيرة على عاتق آزاذبه . وهو كابن بار لفارس صمم على بذل أقصى جهده للدفاع عنها .

فأخرج آزاذبه الحامية العسكرية من ثكناتها وأقام معسكرا في ضواحي الحيرة . ومن هناك أرسل ابنه مع مجموعة من الخيالة لايقاف تقدم خالد ، ونصحه أن يسد قناطر الفرات ، ليحول دون مسيل الماء فيما وراءها ، فيعوق سير السفن اليه اذا فكر خالد بالتحرك في السفن التي استولى عليها في (امغيشيا) . فانطلق ابن آزاذبه الى مكان التقاء العتيق بالفرات ، وهو يبعد

(١) الخراذيل — أي لحم مقطع .

(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣ .

اثني عشر ميلاً من البحيرة . وهنا شكل قاعدة له ، حيث أرسل منها مفرزة من الخيالة الى الأمام بضعة أميال ، حيث ينساب «بادقلى» الى الفرات على مقربة من امغيشيا [١] .

تابع خالد سيره الى الحيرة . وقرر أن يستخدم النهر للنقل . ووضع جميع الحمولات الثقيلة للجيش في السفن . وبينما كان الجيش يتقدم على الابل والخيل ، كانت السفن التي يقودها العرب المحليون تتحرك على مقربة منه . ولم يكد خالد يتقدم بعيداً عندما بدأ مستوى الماء في النهر بالانخفاض ، وسرعان ما ارتطمت السفن بقاع النهر . وعلم خالد بالسر ، لقد سد ابن آزاذبه قناطر الفرات .

ترك خالد جيشه عند ضفة الفرات ، وخرج في كتيبة من فرسانه وانطلق بسرعة على طريق الحيرة . وعندما وصل بادقلى ، وجد خيالة الفرس التي أرسلها ابن آزاذبه مخفراً أمامي . ولم يكن هؤلاء الفرس أنداداً للمسلمين الاشداء ، فقبل ان يتمكنوا من تنظيم انفسهم للدفاع ، هاجمهم خالد مع فرسانه وتمكن من ذبحهم حتى آخر رجل . بعد ذلك أمر خالد بفتح القناطر كي يتدفق الماء مرة ثانية الى النهر ، ثم تابع الجيش سيره عبر النهر .

لم تكن يقظة ابن آزاذبه على مستوى الموقف . وقد ظن ان مخفره الامامي في بادقلى كان كافياً لأية مفاجأة وانه سيبلغه بدنو الخطر ، فخلد الى الراحة . وفجأة داهمه خالد . فقتل ابن آزاذبه مع معظم الفرس الذين كانوا في مجموعته ، واستطاع نفر قليل من خيالته الافلات وحمل النبأ الحزين الى آزاذبه .

سمع آزاذبه من هؤلاء الخيالة بفقدان مجموعة الخيالة وموت ابنه . وسمع من المبعوثين القادمين من كتسفون نبأ موت الامبراطور أزدشير . ووجد آزاذبه نفسه غير قادر على تحمل أعباء مسؤوليته على أثر موت ابنه ، وموت

---

(١) — لا يزال النهر العتيق موجوداً حتى الآن . وهو نهر صغير جداً يشبه جدول الماء وربما كان قناة في تلك الأيام . وهو يبدأ من منطقة أبو صخير وينساب غرب الفرات مسافة خمسة أميال ثم ينضم الى الفرات على بعد ميل من القادسية الحالية (وهي على بعد ثمانية أميال جنوب شرق القادسية التاريخية) . الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٦٣ .

الامبراطور. فتخلى عن مهمة الدفاع عن الحيرة ، واجتاز نهر الفرات وانسحب الى كتسفون وكتب الى بهمن يعلمه بالأمر. وتركت الحيرة للعرب النصارى للدفاع عنها .

تابع خالد تقدمه نحو هدفه . ونظراً لتوقع خالد حدوث مقاومة عنيفة في الحيرة ، قرر ألا يقترب منها جبهياً . فحرك جيشه والتف نحو اليسار مبتعداً عن الحيرة من جهة الغرب وظهر في الخورنق ، وهي مدينة مزدهرة تبعد ثلاثة أميال شمال الحيرة وشمال غربها [١] . ثم اجتاز خالد الخورنق واقترب من الحيرة من الخلف . وعندما دخل المدينة لم يلق أية مقاومة . وكان جميع السكان في المدينة ، لم يهربوا ولم يقاوموا ، فلم يؤذهم جنود المسلمين عندما تغلغلوا في مدينتهم .

وسرعان ما تبلور الموقف ، لقد كان موقفاً مختلطاً بين السلم والحرب . فالحيرة مدينة مفتوحة ، وبامكان المسلمين أن يستولوا عليها . لكن قلاع الحيرة الأربع وكلٌ منها تضم حامية قوية من العرب النصارى ويقودها زعماء عرب ، كانت مستعدة للدفاع والقتال من أجل ذلك . واذا كان خالد يريد واحدة منها فعليه ان يحارب .

وفي كل قلعة من القلاع الأربع قصر يعيش فيه قائد القلعة ، وكل قلعة تسمى باسم قصرها . فهي : القصر الابيض وفيه اياس بن قبيصة (ملك العراق) . وقصر العدسيّين وفيه عدي بن عدي . وقصر بني مازن وفيه ابن أكال ، وقصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح .

وجه خالد جزءاً من جيشه إلى كل قلعة من القلاع بإمرة قائد مرؤوس . وهؤلاء القادة الذين حاصروا القلاع هم حسب الترتيب الذي ذكرت فيه القلاع آنفاً : ضرار بن الازور ، وضرار بن الخطاب ، وضرار بن المقرن ، والمثنى . واصدر خالد أوامره الى هؤلاء بمهاجمة القلاع ، إنما بعد ان يخيروا حامياتها بين ثلاث : الدخول في الاسلام ، أو دفع الجزية ، أو القتال ، وان يعطوهم مهلة يوم وأحد للتفكير بالأمر . وتحرك القادة مع قواتهم

(١) لم يبق أي أثر لمدينة الخورنق سوى رابية تبعد ٦٠٠ ياردة الى الغرب من طريق النجف .

وحاصروا القلاع . وأبلغوا الحاميات بالانذار . ولكن في اليوم التالي ، رفض العرب النصارى الانذار وبدأت الاعمال القتالية .

وكان ضرار بن الأزور أول من يشن هجومه على القصر الأبيض . ووقف المدافعون على فتحات القلعة ، وبدؤوا باطلاق السهام على المسلمين ، واستخدموا المنجنيق لقذف كرات من الطين على المهاجمين . فقرر ضرار تدمير المنجنيق . فشق طريقه الى الأمام مع مجموعة مختارة من رماة السهام ، وعندما أصبح المنجنيق في مدى رمي السهام ، أمر ضرار برمي رشقة من السهام دفعة واحدة على سدنة المنجنيق فقتلوا جميعاً ، بالاضافة الى عدد كبير من رماة العدو أيضاً . وانسحب الباقون بسرعة من فتحات القلعة .

وحدث تبادل في رمي السهام في القلاع الأخرى حيث لا يوجد المنجنيق . ولم يمض وقت طويل حتى طلب زعماء القلاع الأربع شروط المسلمين . واتفقوا على ارسال رجل منهم ليتحدث باسمهم جميعاً الى خالد . وكان هذا الرجل زعيم قصر ابن بقيلة ، عمرو بن عبد المسيح .

خرج عمرو بن عبد المسيح من قلعته وسار باتجاه المسلمين . وسار ببطء شديد لأنه كان رجلاً طاعناً في السن ، « وكان حاجباه يتدليان فوق عينيه [1] » .

كان عمرو بن عبد المسيح من أشهر أبناء عرب العراق في زمانه . وكان أميراً ومعروفاً برجاحة رأيه . وكان يتمتع بسلطة رسمية منحه اياها البلاط الفارسي ، لكنه كان محترماً من قبل العرب العراقيين وكان ذا نفوذ كبير في شؤونهم . وكان يتصف بروح المرح والفكاهة . وأصبح شخصية مرموقة في أوائل أيام انوشروان العادل . وعندما قابل عمرو بن عبد المسيح أنو شروان قبل وفاة الأخير ، حذره عمرو بن عبد المسيح من ان امبراطوريته ستؤول الى الانحطاط بعد موته .

اقترب هذا الرجل الحكيم من خالد ، وعندما توقف ، جرى حوار بينه وبين خالد وهو يعتبر أغرب حوار دونه المؤرخون .

(١) — أبو يوسف . صفحة ١٤٣

أدرك خالد أنه أمام رجل غير عادي . فكل كلمة قالها عمرو كانت في محلها ، وكل اجابة لها معنى وفكاهة . وكانت نبرة خالد تنم عن الاحترام الزائد عندما قال لعمرو : «أخبرني بما تتذكر» . فأمعن عمرو بالتفكير ، وأخذ ينظر باهتمام الى أبراج القلاع المنتشرة في المدينة أمامه ثم قال : «انني اذكر عندما أبحرت سفن الصين خلف هذه القلاع » . وكان يشير بذلك الى عصر أنو شروان الذهبي .

انتهى الحديث الجانبي ، وانتقل خالد الى صلب الموضوع فقال : «اني ادعوكم الى الله والى الاسلام . فان قبلتم أن تدخلوا في ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا . واذا أبيتم فالجزية ، واذا رفضتم دفع الجزية ، فانني والله قد أتيتكم بقوم هم أحرص على الموت منكم على الحياة » .

فأجاب عمرو : «ليست لدينا رغبة في قتالكم ، وسنبقى على ديننا . وسنعطيكم الجزية » .

وانتهت المحادثات . وتم التوصل الى اتفاق . وأوشك خالد ان يطرد الرجل عندما لاحظ كيساً صغيراً يتدلى من نطاق خادم مرافق لعمرو وقد وقف على بعد بضع خطوات خلفه فمشى خالد الى الخادم ، وخطف الكيس وأفرغه في راحة يده . فسأل عمرا : «ما هذا يا عمرو؟» .

فقال عمرو : هذا وأمانة الله سم ساعة » .

فقال خالد : «ولم تحتقب السمّ؟» .

فقال عمرو : خشيت ان تكونوا على غير ما رأيت وقد أتيت على أجلي والموت أحب اليّ من مكروه أدخله على قومي وأهل قريتي [1] » .

وفي نهاية أيار عام ٦٣٣م. (منتصف ربيع الأول ، عام ١٢ هجري) كتبت شروط الاستسلام ووقع الاتفاق . وفتحت القلاع أبوابها وعاد السلام الى الحيرة. وقد تم تحقيق المهمة التي حددها الخليفة بعد أربع معارك دموية وعدة اشتباكات صغيرة ، وصلى خالد الفتح ثماني ركعات .

كان على أهل الحيرة ـــ وفق الاتفاق ـــ أن يدفعوا الى الدولة الاسلامية مائة وتسعين ألف درهم كل عام. وكان الاتفاق يتضمن بعض المواد الاضافية منها: «على أهل الحيرة ان يكونوا عيون وأدلاء للمسلمين». كما أدرجت المادة الخاصة «بالأميرة العربية، كرامة بنت عبد المسيح» وللموضوع قصة صغيرة لا بد من ذكرها لطرافتها..

في أحد الأيام كان الرسول العربي (ص) جالساً مع بعض أصحابه يتحدثون، فتطرّق الحديث الى البلدان المجاورة. فذكر النبي (ص) أن المسلمين سيفتحون الحيرة. وكان هنالك رجل مسلم، بسيط، غير متعلم، سمع رسول الله يذكر فتح الحيرة، وكان هذا الرجل يدعى «شويل [1]».

فقال للرسول: «يا رسول الله، اذا فتحنا الحيرة، هل تعطيني كرامة بنت عبد المسيح؟».

كانت كرامة، ابنة عبد المسيح، أميرة. وكان سكان الجزيرة العربية قد سمعوا بجمالها الأخاذ، وكانت أجمل امرأة موجودة في الحيرة. فابتسم الرسول (ص) وقال: «هي لك [2]».

والآن تم فتح الحيرة. وعندما جاء جنود خالد ليستمعوا الى محادثاته مع عمرو بن عبد المسيح، ولكتابة شروط الاستسلام اقترب شويل، الذي كان يعمل خادماً لدى خالد، من سيف الله. وقال لخالد: «أيها الأمير، عندما تستسلم الحيرة هل بامكاني ان أخذ كرامة بنت عبد المسيح؟ لقد وعدني بها رسول الله».

وجد خالد ان من الصعب عليه ان يصدق ان النبي (ص) قد وعد باعطاء أميرة من بيت عبد المسيح الى هذا الرجل البسيط. فقال خالد: «هل لديك شهود؟» فقال شويل: «نعم والله». واحضر شويل شهوده الذين أيدوا كلامه. عندئذ أضاف خالد هذه النقطة عادة في الاتفاق: وتعطى «كرامة» بنت عبد المسيح الى شويل.

(١) الطبري الجزء ٢. صفحة ٥٦٩.

(٢) الطبري. الجزء ٢. صفحة ٥٦٩.

فبكت نساء بيت عبد المسيح عندما سمعن بذلك النبأ . فكيف لأميرة عاشت في سؤدد ورفاهية ان تكون لأعرابي بسيط يعيش في الصحراء . ومما جعل الأمر مأساوياً أن «كرامة» كانت تبلغ الثمانين من عمرها . لقد كانت في يوم ما أجمل بنات زمانها .

ووجدت الاميرة نفسها الحل . فقالت : «خذوني إليه . فإنما هذا رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن ان الشباب يدوم» [1] . ثم غادرت قصر إبن بقيلة وبصحبتها خادمة .

وكان شويل ينتظر جائزته ، وهو غارق في أحلامه الوردية . فجاءت كرامة ووقفت أمامه . وعندما نظر شويل إلى تجاعيد وجهها ، أصيب بالذهول ، وعلت وجهه امارات الكآبة . وظل صامتاً لا ينطق ببنت شفة . فكسرت الأميرة الصمت حيث قالت : «ما أربك الى عجوز كما ترى؟ فدعني أرحل» .

ووجد شويل ان الفرصة سانحة الآن لكي تدفع له ثمن حريتها . فأجابها : «لا الاّ على حكمي» . فقالت : «لك حكمك فاسأل» . فقال : «لست لأم شويل ان نقصتك من ألف درهم» . فاستكثرت العجوز ذلك لتخدعه . ثم دفعت إليه المبلغ في الحال ورجعت الى أهلها . فتسامع الناس بذلك فعنفوه فقال : «ما كنت أرى ان عدداً يزيد على ألف» .

وعندما سمع خالد بذلك ضحك وقال : «يريد المرء امراً ، ولكن الله يريد غيره» .

ولما تم لخالد فتح الحيرة ، انصرف الى اخضاع أجزاء أخرى من العراق ، مبتدئاً بالأقاليم القريبة اليه . فكتب الرسائل الشخصية الى رؤساء الأقاليم وكبار المسؤولين فيها ، وطلب اليهم ان يختاروا واحدة من ثلاث : الدخول في الاسلام . أو دفع الجزية ، أو السيف . فاختارت جميع الأقاليم المجاورة للحيرة دفع الجزية والعيش تحت حماية المسلمين . وكتبت العهود

(١) الطبري — الجزء ٢ . صفحة ٥٦٩ .

والاتفاقات بشأن ذلك ، وشهد على هذه الاتفاقات العديد من أمراء المسلمين ، وبينهم هشام ، شقيق خالد ، الذي قاتل في هذه الحملة بامرة أخيه .

في أثناء ذلك ، كانت أحوال الفرس تسير من سيء الى أسوأ . حيث انقسموا على أنفسهم بشأن مسألة وراثة العرش . لقد كان الفرس متحدين لمواجهة خالد ، لكن هذه الوحدة كانت عقيمة ، ولم تؤد الى نتائج ايجابية . تسلم « بهمن » منصب القائد العام في الوقت الذي كان فيه الجيش الفارسي في حالة يرثى لها من الفوضى ، فعمل بكل طاقته لتنظيم الدفاع عن «كتسفون» عند هجوم اسلامي كان متأكداً من أنه سيحدث . ولم يكن بهمن يطمح الى شيء سوى الدفاع عن كتسفون ، وكان واقعياً بذلك ، لأن الفرس لم يكونوا يسيطرون على باقي المنطقة الواقعة غرب دجلة الأسفل .

وكانت خيل العرب تسيطر على هذه المنطقة . كما ان خالداً كان يعلم ، بعد أن دحر أربعة جيوش فارسية كبيرة ، بأنه لم يعد هناك تهديد بشن هجوم معاكس من كتسفون ، وان بامكانه أن يغامر في الهجوم على أواسط العراق بقوة . وجعل الحيرة قاعدة لعملياته وقذف بخيالته عبر الفرات . وانطلقت هذه القوات الراكبة الى أواسط العراق حتى دجلة ، وأخذت تقتل أولئك الذين أبدوا مقاومة في وجهها ، وعقدت الاتفاقات مع الذين قبلوا بدفع الجزية . وأسند خالد امرة هذه القوات السريعة الى أكفأ امرائه : ضرار بن الأزور ، والقعقاع ، والمثنى . وبنهاية حزيران عام ٦٣٣ (منتصف ربيع الثاني ، عام ١٢ هجري) أصبحت المنطقة الواقعة بين النهرين خاضعة له . ولم يكن هنالك من يتحدى سلطاته السياسية والعسكرية .

كان خالد ينظم ادارة الأراضي التي يخضعها جنباً الى جنب مع الفتوحات العسكرية . وعيّن موظفين في جميع المناطق لمراقبة دفع الجزية وللتأكد من أن السكان يزودون المسلمين بالمعلومات عن تحركات جيوش الفرس . كذلك أرسل خالد كتابين الى كتسفون ، واحد للخاصة وواحد

للعامة . وكان نصّ الكتاب الموجه الى البلاط الفارسي كما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد الى ملوك فارس . أما بعد ، فالحمد لله الذي حلّ نظامكم ووهن كيدكم وفرّق كلمتكم . ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم . فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم الى غيركم والا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة [1] » .

وكان الكتاب الموجّه الى العامة مماثل تقريبا للكتاب الموجّه الى الخاصّة، مع اضافة وعد بأن يقوم المسلمون بحمايتهم لقاء دفعهم الجزية. وقد حمل الكتاب سكان الحيرة العرب الى كتسفون . ولم يرد الجواب على الكتابين .

(١) ــ الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٢ .

٧ — فتح الأنبار وعين التمر :

أصبح الجزء الأوسط من العراق بين الفرات ودجلة ، تحت سيطرة العرب المسلمين . كما ان جمود الفرس أكد اعتقاد خالد بأن كتسفون غدت عاجزة عن التدخل في عملياته أو تهديد قاعدته في الحيرة أو خطوط مواصلاته عبر الصحراء . وهنا وجه خالد اهتمامه نحو الشمال حيث لم تصل قواته . وكان هنالك مدينتان قد تقاومان خالدا ، وهما : الأنبار ، وعين التمر ، وكان يدافع عن كليهما حامية لا بأس بها من الفرس ومن العرب ويحكمهما امراء من الفرس .

قرر خالد ان يستولي على الأنبار أولا . وكانت الانبار مدينة قديمة محصنة ومركزاً تجارياً تأتي اليه قوافل التجارة من بلاد الشام وبلاد فارس . كذلك كانت شهيرة أيضاً بمخازن الغلال الكبيرة . وفي نهاية حزيران عام ٦٣٣م. (منتصف ربيع الثاني ، عام ١٢ هجري) ، سار خالد من الحيرة بنصف جيشه (زهاء تسعة آلاف رجل) ، وترك وراءه حامية قوية في الحيرة وعدة مفارز من الجند في أواسط العراق . وتحرك على امتداد ضفة الفرات الغربية ، واجتاز النهر في مكان ما قرب الأنبار . وبعد ان سارت عناصر كشافته شرقاً لمراقبة طرق الاقتراب من كتسفون ، حرك جيشه الى الأنبار وضرب الحصار على المدينة . ووجد المسلمون ان المدينة بالاضافة الى الأسوار المحيطة بها ، محصنة بخندق عميق مليء بالماء . وكان هذا الخندق ضمن مدى رمي السهام ، فتكون أية محاولة لاجتيازه تحت تأثير النبالة الموجودين على الأسوار . وعندما اقترب المسلمون من المدينة دمرت الجسور

التي فوق الخندق [1] .

كانت الأنبار المدينة الرئيسية في ولاية «ساباط» ، التي تقع بين النهرين غربي كتسفون ، وكان حاكم ساباط يسكن في الأنبار ، وكان هذا الحاكم ، واسمه «شيرزاذ» ، مشهوراً بالذكاء والثقافة أكثر من شهرته بالكفاءة العسكرية . وكان على شيرزاذ ان يقوم الآن بمهمة الدفاع عن الحصن بما لديه من قوات هي الحامية الفارسية وعدد كبير من العرب الذين لا يثق فيهم كثيراً على ما يبدو.

قام خالد غداة وصوله بجولة حول الحصن لتفحص تحصيناته الدفاعية . فوجد آلافاً من الفرس والعرب يقفون حول السور بدون مبالاة وهم ينظرون الى المسلمين وكأنهم يشاهدون احدى المباريات . فقال خالد عندما رأى هذا المنظر : «اني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب [2] » .

جمع خالد ألف نبّال، من أحسن رماته، وشرح لهم خطته: عليهم ان يتقدموا بحرص الى طرف الخندق وأقواسهم جاهزة للرمي ، دون ان يضعوا فيها السهام . وعندما يعطي خالد الاشارة عليهم ان يضعوا السهام بالأقواس بسرعة ثم يرموا الرشقة تلو الرشقة على حامية الحصن . وقال لهم خالد : «فارموا عيونهم ولا ترموا غيرها [3] » .

وتحركت مفرزة النبالة باتجاه الحصن . وأخذ الفرس والعرب الواقفون على السور ينظرون بدهشة الى النبالة وماذا عساهم ان يفعلوا بعد ذلك . وعندما وصل النبالة الى الخندق ، أعطى الأمر ، فانطلق ألف سهم عبر الخندق ، وتلا هذه الرشقة رشقات أخرى من السهام . وفي غضون ثوان فقىء للحامية ألف عين . وتصايح أهل المدينة : «ذهبت عيون أهل الأنبار» . فسميت تلك الواقعة بذات العيون [4] .

---

(١) لا يوجد الآن من الأنبار سوى بعض الروابي التي تقع على بعد ثلاثة أميال شمال غرب (الفلوجة) الحالية ، وحوالي ميل من الفرات . وحسب رواية ياقوت (الجزء الأول ، صفحة ٣٧٦) ، فان الفرس كانوا يسمون هذه المدينة (فيروز سابور) .

(٢) ـــ الطبري ـــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٥ .

(٣) ـــ الطبري ـــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٥ .

(٤) ـــ الطبري ـــ الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٥ .

عندما سمع شيرزاذ بما حل بالحامية ، عرض على خالد ان تستسلم الحامية وفق شروط معينة . لكن خالداً رفض العرض ، وقال يجب ان يتم الاستسلام بدون قيد وشرط . فقرر شيرزاذ استمرار المقاومة .

عزم خالد على مهاجمة الحصن . وكان لا بد من تسلق الأسوار ، ولم يكن هذا جد صعب . وكانت الصعوبة في اختراق الخندق ، الذي كان عميقاً وعريضاً ، ولا قوارب لدى خالد . وكذلك المواد التي تصنع منها ، كما ان عرب الصحراء كانوا يجهلون السباحة . فقرر خالد ان يضع جسراً من اللحم والعظم . (راجع خريطة فتح الانبار وعيد التمر في الشكل رقم ١٤) .

اختار خالد مكان الهجوم عند أضيق نقطة من الخندق ، وقرب بوابة الحصن الرئيسية. ووضع رماته بحيث يستطيعون الرمي على نبّالة العدو الذين يواجهون مكان الهجوم، كما أمر رماته بأن يمنعوا نبّالة العدو من الرمي على الخندق .

ثم أمر خالد بجمع ابل الجيش الضعيفة والكبيرة في السن فنحرت هذه الابل وألقي بها في الخندق فأقامت جسراً فوق مستوى سطح الماء الموجود في الخندق . بعد ذلك عبرت مجموعة من محاربي خالد فوق جثث الابل الى ما وراء الخندق .

وعندما استعد هؤلاء المحاربون للتسلق على السور ، فتحت بوابة الحصن وخرجت منها مجموعة من الفرس وبدأت بمهاجمة المسلمين محاولةً طردهم الى الخندق . ونشب قتال عنيف بينهم وبين المسلمين ، لكن المسلمين نجحوا في صد هذه الهجمة المعاكسة ، وانسحب الفرس بسرعة الى داخل الحصن وأغلقوا البوابة خلفهم . حدث هذا بينما كان رماة المسلمين يرمون سهامهم على الفرس وعلى العرب الموجودين على السور لمنعهم من التدخل في عملية اقامة الجسر واختراق الخندق .

كان خالد على وشك ان يأمر بتسلق السور عندما ظهر مبعوث عند بوابة الحصن أرسله شيرزاذ وقدم عرضاً آخر من الحاكم : انه سيسلم الحصن اذا سمح له المسلمون بمغادرته بأمان هو وجنوده الفرس . فألقى خالد نظرة

أخرى على السور فرأى ان تسلق السور ، والقتال بعد ذلك داخل الحصن ، ليس أمراً سهلاً . فأخبر خالد المبعوث بأنه يوافق على شروط شيرزاذ شريطة ان يترك الفرس جميع ممتلكاتهم .

فسرّ شيرزاذ بالسماح له بمغادرة المدينة ، وقبل بشروط خالد . وفي اليوم التالي اتجه الجنود الفرس وأسرهم الى كتسفون ، ودخل المسلمون الحصن . وألقى العرب النصارى أسلحتهم ووافقوا على دفع الجزية . وقد حدث هذا في الأسبوع الثاني من تموز عام ٦٣٣م. (نهاية ربيع الثاني ، عام ١٢ هجري) . وفي الايام القليلة التالية استسلمت جميع القبائل التي تسكن في منطقة الانبار .

مضى شيرزاذ مع الحامية الفارسية الى كتسفون ، حيث لامه بهمن بشدة. فوضع شيرزاذ اللوم على جنوده ، شأنه شأن كل قائد فاشل ، ولومه هذه المرة ، على الجنود من العرب النصارى .

ولما فرغ خالد من الأنبار واستحكمت له استخلف على الأنبار الزبرقان ابن بدر وانطلق مرة أخرى بجيشه. واجتاز نهر الفرات مرة ثانية وسار جنوباً . وعندما اقترب من «عين التمر»[1] . وجد جيشاً عربياً صرفاً منتشراً بترتيب القتال في طريق تقدمه .

كانت عين التمر مدينة كبيرة محاطة بأشجار النخيل ، ويعتقد انها سميت باسمها لهذا السبب . وكانت حامية هذه المدينة تتكون من الجنود الفرس والعرب النصارى ، لذلك كانت أقوى مركزا من الأنبار لمقاومة تقدم خالد . وكان القائد الفارسي لعين التمر يدعى «مهران بن بهرام جوبين» . وكان ، بالاضافة الى كونه قائداً ماهراً ، سياسياً محنكاً. كانت حامية عين التمر الفارسية كبيرة ، وكان العرب هناك ينتمون الى قبيلة النمر الشديدة البأس . وكانت هنالك قبائل أخرى من العرب النصارى الذين انضموا الى قبيلة النمر لتشكيل جبهة متحدة ضد المسلمين . وكان قائد جميع القبائل العربية «عقة ابن أبي عقة» .

(١) بلدة قريبة من الانبار غرب الكوفة .

وعندما جاءت كشافة العرب بأنباء تقدم المسلمين من الأنبار باتجاه عين التمر ، ذهب عقة الى القائد الفارسي وقال له : «ان العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالدا» .

فوافق مهران وقال : «صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وانكم لمثلنا في قتال العجم[1] » فخدع عقة بمديح مهران . ثم قال مهران : «دونكموهم وان احتجتم الينا أعناكم[2] » .

وكان عدد من قادة الفرس قرب مهران في أثناء حديثه مع عقة . فلما مضى عقه نحو خالد قالوا له : «ما حملك على ان تقول هذا القول؟» فقال مهران «دعوني فاني لم أرد الا ما هو خير لكم وشر لهم ، انه قد جاءكم من قتل ملوككم وفلّ حدكم ، فاتّقيته بهم ، فان كانت لهم على خالد فهي لكم . وان كانت الأخرى فلم يبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون[3] » . فاعترفوا له بفضل الرأي .

وبقي الفرس في عين التمر بينما تحرك العرب مسافة عشرة أميال على الطريق المؤدي الى الأنبار . وهنا نشر عقة جيشه العربي للمعركة .

وعندما وصل خالد ليواجه عقة ، دهش لوجود قوة عربية صرفة منتشرة أمامه ، فجميع المعارك التي خاضها في العراق كانت ضد قوات مشتركة من الفرس والعرب ، فتح خالد جيشه للقتال متخذاً ترتيب القلب والجناحين واتخذ لنفسه مكاناً أمام القلب ، وكان بصحبته مفرزة قوية من الحرس الخاص . وكان عقّة يقف أمام قلب جيشه . فقرر خالد أن يأخذ عقّة حياً .

عندما كان خالد ينشر قواته في ترتيب القتال ، أصدر تعليماته الى قائدي الجناحين ان يشتبكا بجناحي العدو عند صدور اشارة منه ، دون أن يدخلا معركة عنيفة ، بشكل يكفل تثبيتهما ريثما يشن هجومه بواسطة القلب . وأعطى خالد الاشارة ، وتقدم جناحا المسلمين الى الأمام واشتبكا بجناحي العدو . واستمر الاشتباك بين الأجنحة بعض الوقت . وظل عقّة حائراً بسبب

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٦ .

(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٦ .

(٣) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٧ .

عدم هجوم قلب المسلمين . ثم هجم خالد على عقة يتبعه حرسه الخاص .

اشتبك حرس خالد الخاص بالمحاربين الذين وقفوا بالقرب من عقة ، بينما بدأ خالد وعقة بالمبارزة . وكان عقة شجاعاً ومقاتلاً ماهراً ، ولكن خالدا تمكن من احتضانه وأخذه أسيراً . وعندما وجد الجنود العرب قائدهم أسيراً ، استسلم الكثيرون منهم ، وفر الباقون بسرعة الى عين التمر .

وعندما وصل العرب الى الحصن وجدوه خالياً من الفرس . لقد أرسل مهران بعض الكشافة ليراقبوا المعركة ويبلغوه تفاصيلها . وعندما شاهد الكشافة العرب الفارين امام خالد ، عادوا بسرعة الى مهران وأخبروه بهزيمة العرب . وبدون أن يضيع دقيقة من الوقت ، قاد مهران جيشه من عين التمر الى كتسفون . وعندما اكتشف العرب الموالون للفرس ان الفرس قد أخلوا المدينة ، اندفعوا الى داخلها واغلقوا أبوابها ، واستعدوا للحصار .

ووصل المسلمون وحاصروا الحصن . وجلب عقة وباقي الأسرى واقتيدوا أمام الحصن لكي يرى المدافعون قائدهم وزملاءهم مكبلين بالحديد . وقد أثر هذا المشهد على المدافعين وطلبوا التسليم بشروط ، لكن خالداً رفض طلبهم . وقال يجب ان يستسلموا بدون قيد أو شرط . فتشاور ذوو الرأي من العرب فيما بينهم لفترة قصيرة ، ثم قرروا ان التسليم بدون قيد أو شرط خير من مغامرة القتال ، لأن حظهم في البقاء على قيد الحياة اذا اختاروا القتال غير مضمون . وفي نهاية تموز عام ٦٣٣م. (منتصف جمادي الأول — عام ١٢ هجري) استسلم المدافعون عن «عين التمر» الى خالد .

وبناء على أوامر خالد ، فقد ضربت أعناق المحاربين الذين دافعوا عن الحصن ، وأولئك الذين حاربوا المسلمين في الطريق الى الأنبار[١] . وكان من بين هؤلاء الزعيم عقّة بن أبي عقة . أما الباقون فقد اعتبروا أسرى[٢] ،

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٧ .

(٢) — وجد المسلمون أربعين غلاماً في دير — وهم من العرب النصارى — كانوا يتعلمون الانجيل لكي يصبحوا من رجال الكهنوت . وقد أخذوا أسرى . وكان من بين هؤلاء غلام يدعى نصير ، هو أبو البطل الفاتح موسى بن نصير ، وأصبح موسى شهيراً كحاكم لشمال افريقية ، وهو الذي أرسل طارق بن زياد لفتح اسبانيا .

وتم الاستيلاء على ثروات عين التمر حيث وزعت كغنائم حرب :

بعد ان قضى خالد بضعة أيام في التنظيم وفي الأمور الادارية ﷺ استعد للعودة الى الحيرة . وكان على وشك الرحيل عندما تسلم طلبا للمساعدة من شمال الجزيرة العربية . وبعد دراسة قصيرة لهذا الطلب ، غير خالد اتجاه سيره وحدد لرجاله اتجاها جديداً — هو « دومة الجندل » .

٨ — العودة الى دومة الجندل :

كانت دومة الجندل من المدن التجارية الكبيرة في الجزيرة العربية ، وهي مشهورة بأسواقها الغنية . كذلك كانت مركزاً هاماً للمواصلات ، ونقطة التقاء الطرق القادمة من أواسط الجزيرة العربية ، والعراق ، والشام . وقد مرّ معنا كيف جاء خالد الى دومة الجندل في أثناء حملة النبي (ص) الى تبوك وأسر أكيدر بن عبد الملك ، قائد الحصن . ثم كيف أعلن أكيدر خضوعه وأقسم يمين الولاء للنبي (ص) . ولكن بعد عمليات عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة في حرب الردة ، نكث أكيدر بوعده وقرر الانفصال عن المدينة . وأصبح حاكماً على ولاية من النصارى والوثنيين .

بينما كان خالد ينطلق من اليمامة لفتح العراق ، أرسل أبو بكر عياض بن غنم للاستيلاء على دومة الجندل واعادة القبائل الشمالية الى ولائها السابق للاسلام . ومن المحتمل ان الخليفة كان ينوي ارسال عياض الى العراق ، لمعاونة خالد ، بعد الانتهاء من مهمته . وعندما وصل عياض الى دومة الجندل وجدها محصنة يحميها أفراد من قبيلة «كلب» ، وهي قبيلة كبيرة من العرب النصارى تقطن هذه المنطقة والطرف الشرقي من بلاد الشام . ففتح قواته ونشرها في مواجهة الجبهة الجنوبية من الحصن . وكان الموقف من وجهة النظر العسكرية غير مقبول . فالعرب النصارى اعتبروا أنفسهم محاصرين لكن الطرق من الجانب الشمالي للحصن كانت مفتوحة . واشتبك المسلمون مع الحصن من مسافة قريبة واعتبروا أنفسهم متورطين ولا يمكنهم كسر التماس والتملص . وكان كلا الجانبين محاصرا . وكانت العمليات مقتصرة

على رمايات النبالة وهجمات حامية الحصن التي صدّها المسلمون . واستمر هذا الوضع عدة أسابيع وشعر كلا الجانبين بالتعب والملل من جراء هذا الجمود .

وفي احدى الأيام قال الوليد بن عقبة — الذي أرسله أبو بكر لمعاونة عياض بن غنم — لعياض : «الرأي في بعض الحالات خير من الجند الكثيف ، ابعث الى خالد فاستعده [1] » . وقبل عياض مشورة الوليد فبعث يستنجد بخالد . فكتب اليه رسالة يشرح فيها الموقف في دومة الجندل ويطلب مساعدته . ووصلت الرسالة الى خالد وهو على وشك مغادرة عين التمر الى الحيرة .

لم يطل التفكير بخالد فالاستقرار يسود الجبهة العراقية ، ولديه قادة أكفاء يستطيعون التعامل مع الفرس اذا ما فكروا بشن هجوم معاكس من كتسفون وأرسل رسالة الى القعقاع في الحيرة يطلب منه ان يتصرف كنائب له وان يقود الجبهة في أثناء غيابه . وترك حامية في عين التمر . ثم غادر عين التمر في اليوم التالي على رأس جيش مؤلف من ستة آلاف رجل للالتحاق بعياض . وأرسل أمامه مبعوث عياض وحمّله رسالة إليه يقول فيها :

«لبّث قليلاً تأتك الحلائب [2]
يحملن أساداً عليها القاشب [3]
كتائب تتبعها كتائب»

اكتشف المدافعون عن دومة الجندل حركة خالد قبل وصوله بعدة أيام . واتخذت الاستعدادات داخل الحصن . وهم يستطيعون صدّ قوة المسلمين التي يقودها عياض بقوتهم الحالية ، ولكنهم لا يستطيعون ذلك اذا اشترك جيش خالد في قتالهم . وعلى الفور بدأوا بارسال المبعوثين الى القبائل المجاورة طلباً للنجدة . فاستجابت قبائل العرب النصارى بحماسة الى طلب المساعدة .

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٨ .

(٢) الحلائب — جمع حلوبة وهي الناقة المحلوبة اللبن .

(٣) — القاشب — السيف الصقيل المجلو.

وبدأ المقاتلون يتوافدون من بطون قبيلتي غسان وكلب للانضمام الى المدافعين عن الحصن ، وعسكر الكثيرون منهم خارج أسوار الحصن بسبب اكتظاظ الحصن بالمقاتلين . وأصبح عياض نتيجة لذلك في موقف حرج ، وأخذ يدعو الله أن يصل خالد بسرعة .

وكان يقود قوات العرب النصارى زعيمان كبيرآن هما : الجودي بن ربيعة ، وأكيدر بن عبد الملك . وكان الزعيم الوحيد الذي لديه تجربة في التعامل مع خالد هو أكيدر ، وقد انزعج هذا الرجل لسماعه أنباء تحرك خالد من عين التمر . وعندما تجمعت القبائل في دومة الجندل ، دعا أكيدر زعماء هذه القبائل الى الاجتماع وقال لهم : « أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أحدّ في حرب، ولا يرى قوم وجه خالد قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم [1] » .

لكنهم استنكروا نصيحته وصمموا على قتال خالد . غير أن أعصاب أكيدر انهارت . فهو لا يستطيع أن يواجه سيف الله مرة أخرى . وفي احدى الليالي تسلل من الحصن وانطلق على الطريق المؤدية الى الأردن . ولكن الأوان كان قد فات . فجيش خالد وصل لتوّه واعترضته احدى مفارز الخيالة بامرة عاصم بن عمرو وأسرته .

ووقف أكيدر أمام خالد مرة أخرى . لقد كان يأمل أن تثير ذكريات المقابلة السابقة مع خالد والتي انتهت الى سلام الرحمة في قلب خالد الا ان ظنه قد خاب . فالموقف في ذهن خالد كان واضحاً كل الوضوح : لقد نقض أكيدر العهد ، وثار على الخليفة . فأمر خالد بضرب عنقه ، ونفذ الأمر على الفور . وهذه كانت نهاية أكيدر بن عبد الملك ، أمير كندة ، وسيّد دومة الجندل .

في اليوم التالي وضع خالد عياضاً تحت أمرته وضم قوته الى جيشه . ونشر رجال عياض جنوب الحصن لاغلاق طريق الجزيرة العربية ، ووضع جزءاً من جيشه الذي كان في العراق الى الشرق ، والشمال ، والغرب من

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٧٨ .

الحصن ، للسيطرة على الطرق المؤدية الى العراق والأردن . واحتفظ بباقي جيشه كاحتياط قوى . قدّر خالد ان الدفاع عن الحصن قوي والهجوم عليه سيكلف غالياً . لذلك قرر الانتظار أملاً بأن يقوم المدافعون بمهاجمته خارج الحصن بعد أن يملّوا من الحصار. وبهذه الحالة فانه سيترل بهم أقسى الخسائر وسيهاجم الحصن بعد ان تكون حاميته قد ضعفت ، وبناء على ذلك وضع قواته خلف الحصن بمسافة .

وكان جميع جيش العرب النصارى قد أصبح تحت أمرة الجودي بن ربيعة بعد ان ترك أكيدر الحصن . وانتظر الجودي أن يقوم المسلمون بالهجوم أولاً ، لكن المسلمين ظلوا قابعين في أماكنهم . وبعد مرور بعض الوقت رأى الجودي ان المحاصرين لا يحاولون الهجوم على الحصن فتفذ صبره وأراد ان يهاجم خالداً . لذلك أمر بشن هجومين : الهجوم الأول تقوم به مجموعة على عياض على طريق الجزيرة العربية ، والثاني تقوم به قبيلته نفسها ، وهي قبيلة وديعة ، بامرته مباشرة ، على معسكر خالد الى الشمال .

ارتد العرب الذين خرجوا لمهاجمة عياض تاركين وراءهم كثيرا من القتلى . وعادوا بسرعة الى الحصن واغلقوا بابه . وكانت هذه أحسن حظاً ، اذ واجهت قائدا غير مجرب مثل عياض بن غنم وجنودا ليسوا من وزن جنود خالد المتمرسين بالقتال .

قامت المجموعة الأخرى ، في آن واحد ، وهي أكبر عدداً وتتألف من قبيلة وديعة ، بقيادة الجودي بالتقدم نحو خالد ، الذي كان ناشراً قواته بترتيب القتال على مسافة خلف الحصن . وعندما رأى الجودي ان خالداً في مكانه لا يتقدم ازداد جرأة ونشر مجموعته للمعركة وتقدم لملاقاة خالد . وتقاربت القوتان كثيراً ، وتصور الجودي ان بامكانه دحر المسلمين من ساحة المعركة . وفجأة هجم خالد على الجودي بمنتهى العنف والسرعة .

لم يدرك العرب النصارى ما الذي أصابهم ، اذ في غضون دقائق انهارت قواتهم كبيت من الورق . وأسر الجودي مع المئات من أبناء قبيلته ، بينما فر الباقون بفوضى وفزع نحو الحصن . ولم يكن المسلمون في حالة مطاردة

لأنهم كانوا معهم ، وبينهم ، وأمامهم ، وخلفهم لـذا كان أول من وصل الحصن عربياً نصرانياً والثاني عربياً مسلماً . وشاهد العرب الذين بقوا في الحصن جمعا غفيرا يتجه نحو باب الحصن ، نصفه على الأقل من المسلمين . فأغلقوا باب الحصن في وجه زملائهم . وبقية قبيلة وديعة التي هاجمت بامرة الجودي خارج الحصن . وتم أسر المئات من قبل المسلمين . وقتل الباقون إما في أثناء المعركة القصيرة العنيفة أو في اثناء المطاردة حتى باب الحصن والقتال الذي جرى عنده . وتذكر العرب النصارى نصيحة أكيدر بمرارة . كان خالد كما قال أكيدر حقا ، ولكن كان الأوان قد فات .

تم انجاز القسم الأول من خطة خالد . بعد ذلك حرّك جيشه قريباً من الحصن ليرى المدافعون أن لا سبيل الى الهرب ، ثم طلب من الحامية ان تستسلم فرفضت .

فأمر خالد بأن يجلب الجودي وباقي الأسرى من قبيلته لكي يراهم المدافعون عن الحصن . ثم ضربت أعناقهم على مرأى من المدافعين . لكن ذلك لم يفت من عضدهم فبدلا من اضعافهم لهؤلاء كما كان يأمل خالد ، تصلّب موقفهم وصمموا على القتال حتى النهاية .

استمر الحصار عدة أيام . بعد ذلك هاجم خالد الحصن . وحاول المدافعون الصمود أمام هذا الهجوم لكنهم فشلوا أمام قوات خالد المتمرسة في القتال . وذبح معظم الحامية ، لكن النساء والأطفال والكثير من الشبان أخذوا أسرى . وانتهت معركة دومة الجندل في الأسبوع الاخير من آب عام ٦٣٣م . (منتصف جمادي الآخرة — عام ١٢ هجري) .

كان خالد دائماً ينجذب الى النساء الجميلات . ونساء الزعماء الذين يحاربهم خاصة . فقد اشترى ابنة الجودي الجميلة واحتفظ بها كجارية .

قضى خالد الأيام القليلة التالية في تدبير شؤون دومة الجندل . ثم انطلق الى الحيرة . وأخذ معه عياضاً قائداً مرؤوساً . لقد عاد خالد الى العراق ليجد ان الموقف قد تغير بعض الشيء فالفرس كانوا في طريق الحرب مرة أخرى .

٩ ـــ المغامرة الاخيرة :

لم يكد خالد يذهب من عين التمر حتى وصلت أنباء مغادرته الى البلاط الفارسي ، وكان يعتقد بأن خالداً قد عاد الى الجزيرة العربية بجزء كبير من جيشه ، وتنفست كتسفون الصعداء . وبعد مرور أيام اجتاحت الفرس موجة من الغضب والرغبة في قذف المسلمين الى الصحراء واستعادة الأراضي التي فتحوها والهيبة التي فقدتها الامبراطورية . وصمم الفرس على عدم محاربة خالد مرة أخرى ، ولكنهم كانوا مستعدين تماماً لمحاربة المسلمين بدون خالد .

وبدأ بهمن بالعمل . وفي هذا الوقت نظّم جيشاً جديداً يتألف من بقايا « أليّس » ومن المقاتلين الذين سحبوا من الحاميات الموجودة في أجزاء أخرى من الامبراطورية ، ومن مقاتلين جدد . وأصبح هذا الجيش جاهزاً للمعركة . غير ان وجود عدد كبير من المتطوعين الجدد في هذا الجيش جعله أقل كفاءة من الجيوش التي حاربها خالد جنوب نهر الفرات .

وقرر بهمن ان لا يزج هذا الجيش في المعركة قبل ان يتم تعزيزه بقوات العرب النصارى الكبيرة التي بقيت مخلصة للامبراطورية . لذلك بدأ بالتفاوض مع العرب .

فاستجاب العرب النصارى الى طلبات البلاط الفارسي . فبالاضافة الى هزيمة عين التمر ، كان عرب هذه المنطقة يطلبون الثأر لمقتل زعيمهم الكبير « عقّة » . كذلك كانوا راغبين في استعادة الأراضي التي فقدوها ، وفي اطلاق سراح الذين أسرهم المسلمون . وبدأ عدد كبير من القبائل

بالاستعداد للحرب .

قسّم بهمن القوات الفارسية الى جيشي ميدان وأرسلها من كتسفون . فالجيش الأول الذي كان بقيادة «روزبة» تحرك الى الحصيد ، والجيش الثاني بامرة « زرمهر » ، تحرك الى خنافس . وقد تم حشد هذين الجيشين في مكانين متباعدين من أجل سهولة الحركة والنواحي الادارية ، وكان عليهما ان لا يتقدما من مكانيهما حتى يتم استعداد العرب النصارى للمعركة . وكانت خطة بهمن تقضي بأن يتجمع الجيش الامبراطوري وينتظر هجوم المسلمين أو يتحرك جنوباً لقتال المسلمين في الحيرة .

لكن العرب النصارى لم يكونوا مستعدين بعد . وكانوا منظمين في مجموعتين : الأولى بامرة زعيم يدعى هذيل بن عمران وكانت تتجمع في المصيّخ ، والثانية بامرة الزعيم ربيعة بن بجير وكانت تتجمع في مكانين متقاربين وهما : الثني [١] ، والرمّيل (وهذه تعرف أيضاً باسم البشر [٢]) .

وعندما تصبح هاتان المجموعتان جاهزتين تنضمان الى الفرس ليتألف منهم جميعاً جيش واحد كبير.

وعندما كانت هذه الاستعدادات جارية ، اتخذ القعقاع ، قائد جبهة العراق في أثناء غياب خالد ، اجراءات معاكسة . فسحب بعض المفارز التي أرسلها خالد عبر الفرات وحشدها في الحيرة . وأرسل كتيبتين الى الأمام : واحدة الى « الحصيد » ، والثانية الى « الخنافس » . وقد أمر قائدا هاتين الكتيبتين بأن يظلا على تماس بقوات الفرس في هذين المكانين ، وذلك لتأخير تقدم الفرس فيهما اذا ما اتخذ هؤلاء قرارا بالزحف الى الأمام ، وليظل القعقاع مطلعا على قوة الفرس وتحركاتهم . وتحركت هاتان الكتيبتان الى اهدافها المحددة وحققتا التماس بالفرس . وفي أثناء ذلك ، احتفظ القعقاع بباقي الجيش في حالة الأهبة القتالية للمعركة .

هذا هو الموقف الذي واجه خالدا عند وصوله الى الحيرة في الأسبوع

(١) — جبل في عرض الفرات من أرض الشام .

(٢) — جبل يمتد من الثني .

الرابع من أيلول عام ٦٣٣ (منتصف رجب ، عام ١٢ هجري) . وقد يكون الموقف خطيراً اذا ما نجحت القوات الإمبراطورية الأربع بتشكيل جيش واحد يهاجم الحيرة . وان أية خطة يتبناها المسلمون ينبغي ان تستجيب لمطلبين استراتيجيين وهما :

١ — منع تجميع القوات الامبراطورية في جيش واحد كبير لا يمكن قهره .

٢ — حماية الحيرة في قطاع واحد بينما يقوم المسلمون بعمليات حربية في قطاع آخر .

قرر خالد ان يخوض العملية بطريقة معينة توضحت في ذهنه . فهو سيبدأ الاعمال الهجومية ويدمر كل قوة امبراطورية على حدة وفي مكانها . وبناء على الافكار الاستراتيجية التي كانت تدور بخلده ، قسّم حامية الحيرة الاسلامية الى مجموعتين : الأولى بأمرة القعقاع ، والثانية بأمرة أبي ليلى . وأرسلها خالد الى عين التمر حيث سيلحق بهما بعد حين ، وبعد ان تكون القوات التي حاربت في دومة الجندل قد نالت قسطاً من الراحة . وبعد مضي بضعة أيام احتشد جيش المسلمين كله في عين التمر ، باستثناء حامية صغيرة تركت بقيادة عياض بن غنم لحراسة الحيرة . ونظم الجيش الآن في ثلاثة ألوية وكل لواء يتألف من خمسة آلاف رجل ، وتم الاحتفاظ بأحد هذه الألوية احتياطا وأرسل خالد القعقاع الى الحصيد ، وأبا ليلى الى الخنافس وأمرهما ان يدمرا جيشي الفرس في هذين المكانين . وكان على هذين القائدين ان يتوليا قيادة كتائب المسلمين المنتشرة مسبقا في القطاعات المخصصة لها . وكانت نية خالد محاربة الجيشين الفارسيين بسرعة وفي آن واحد . فلا يستطيع ان يفلت احدهما ، بينما يتمزق الثاني ارباً . ولكن هذا لم يتم ، لأن المسير الى الخنافس كان أطول منه الى الحصيد ، كما ان أبا ليلى قد فشل في تحريك قواته بالسرعة المطلوبة لكي يعوض الفرق في المسافة . وفي غضون ذلك بقي خالد مع لوائه الاحتياطي في عين التمر للتعامل مع أية حركة هجومية قد توجه نحو الحيرة من الثني أو الزميل .

سار القعقاع الى الحصيد ، وتبعه أبو ليلى من عين التمر في طريقه الى الخنافس . وتقدم كلاهما الى هدفيهما على طريقين منفصلتين . وعندما اقترب القعقاع من هدفه. طلب «روزبة»، القائد الفارسي في الحصيد، المساعدة من « زرمهر » ، القائد الفارسي في الخنافس . فلم يستطع زرمهر ان يرسل جيشه الى الحصيد ، لأن عليه ان يستأذن بهمن قبل ان يحرك جيشه من الخنافس . لكنه ذهب الى الحصيد بنفسه ليرى الأمور على الطبيعة ، ووصل في الوقت المناسب ليشترك في معركة الحصيد ، التي تم خوضها عند منتصف تشرين الأول عام ٦٣٣م. (الأسبوع الأول من شعبان ، عام ١٢ هجري) .

حالما وصل القعقاع الى الحصيد، فتح لواءه للمعركة وهاجم به الجيش الفارسي، الذي كان يفوقه عدداً. وتم ذبح روزبة على يد القعقاع. وتقدم زرمهر أيضاً الى الامام وطلب المبارزة ، فبارزه أحد قادة المسلمين وقتله . لم يكن ينقص الفرس الشجاعة ؛ لكن القعقاع هزمهم وأخرجهم من ميدان المعركة . وتراجعوا بسرعة الى الخنافس بعد ان تركوا وراءهم عددا كبيرا من القتلى . وانضموا الى الجيش الفارسي الآخر ، الذي أصبح الآن تحت قيادة قائد آخر يدعى « صهبوزان » .

وصل جنود الفرس الفارّون من الحصيد الى الخنافس قبل وصول لواء أبي ليلى بفترة قصيرة . وقد وصلت أنباء اقتراب المسلمين . وكان صهبوزان قائداً حكيماً ، وقد اتخذ من هزيمة الحصيد عبرة ، فقرر ان يتجنب الدخول في معركة مع المسلمين. وخرج من خنافس على الفور، وسار الى المصيّخ حيث انضم الى قوات العرب النصارى المحتشدين بامرة هذيل بن عمران . وعندما وصل أبو ليلى الى خنافس وجدها خالية من الفرس . فاحتلها وأبلغ خالدا بذهاب الفرس الى المصيّخ .

سمع خالد وهو في عين التمر أنباء هزيمة الجيش الفارسي في الحصيد . ثم سمع بعد ذلك أنباء تحرك جيش الفرس الثاني ، مع بقايا الجيش الأول ، من الخنافس الى المصيّخ . وقد ترك هذا التحرك مدينة كتسفون غير محمية

ومعرضة للهجوم ، على الرغم من وجود حامية فيها للدفاع المحلي . وأصبحت المصيّخ تضم الآن أقوى تحشد للقوات الفارسية . ومن جهة أخرى لم تكن تحشدات العرب النصارى في الثني والزميل تهدد الحيرة ، فما حل بالفرس في الحصيد والخنافس ، لا يشجع هؤلاء العرب على المغامرة والقيام بأعمال عدائية .

كان أمام خالد الآن ان يختار هدفاً من ثلاثة : العاصمة الامبراطورية ، أو الجيش الامبراطوري في المصيّخ ، أو قوات العرب النصارى في الثنّي والزميّل . لقد قدّر خالد امكانية الهجوم على كتسفون ، لكنه نبذ هذه الفكرة لسببين : الأول هو خشيته من استياء الخليفة لمهاجمة كتسفون ، حسب رواية الطبري [1] . ويبدو ان أبا بكر لا يرغب في ذلك . والثاني ، سبب عسكري صرف ، وهو ان التقدم الى كتسفون يجعل مجنبة خالد ومؤخرته معرضتين لهجوم قوات الفرس الهائلة في المصيّخ . ومن الممكن ان تهاجم هذه القوات مؤخرته في أثناء اشتباكه بقوات كتسفون ، أو ان تتقدم وتستولي على قاعدته في الحيرة ، وبذلك يتم قطع خطوط مواصلاته بالصحراء .

اختار خالد من الهدفين الباقيين المصيّخ . لأن الهدف الآخر كان صغيراً لا تحول دونه صعوبة هامة . وقد تم تحديد مكان المعسكر الفارسي في المصيّخ بدقة بوساطة عيون خالد ، ومن أجل التعامل مع هذا الهدف خطط خالد لتنفيذ مناورة من النادر ان ينفذ مثلها في التاريخ ، وهي صعبة من حيث السيطرة والتعاون ، وتتلخص هذه المناورة بشن هجوم ليلي وفي آن واحد من ثلاثة اتجاهات ، وأصدر خالد من أول الأمر أوامره من أجل التحرك . اذ على الألوية الثلاثة ان تتقدم من أماكنها الحالية في الحصيد ، والخنافس ، وعين التمر ، على ثلاثة محاور منفصلة ومحددة مسبقاً بين الفرات وطريق الثني ــ الزميّل ، ثم تلتقي في ليلة معينة وفي ساعة محدّدة في مكان يبعد بضعة أميال قبل المصيّخ . وتم تنفيذ هذا التحرك كما هو مخطط ، واحتشدت

(١) ــ لأن مهمة خالد هي فتح العراق .

الألوية الثلاثة في المكان المحدد ، ولا يمكن تنفيذ مثل هذه المناورة بتوقيتها الدقيق الا من قبل جيش رفيع المستوى .

كان خالد يطبق استراتيجية الهجوم غير المباشر وهي كما نعلم أرقى أنواع الاستراتيجيات اطلاقاً وأقلها خسائر «تلاقي ثلاثة أرتال في هدف استراتيجي واحد» . وسنعرض لهذا الموضوع بشيء من التفصيل عند كلامنا عن عبقرية خالد العسكرية .

وهكذا تم تنفيذ هذه المناورة . فقد نام الفرس والعرب باطمئنان ، لأن آخر التقارير أفادت بأن المسلمين ما زالوا على مسافة بعيدة ، ولا ظواهر تدل على خطر هجوم مفاجىء . وكانت هذه هي آخر ليلة لهم في المصيّخ . فقد علم الجيش الامبراطوري بالهجوم فقط عندما انقضت ألوية المسلمين الثلاثة على معسكر الفرس .

ودبّت الفوضى في صفوف الفرس وانتابهم الخوف والفزع وبدأوا يتراكضون في ظلام الليل واختلط الحابل بالنابل . وذبح الآلاف منهم . وأخذ المسلمون يضربون بشدة للقضاء على هذا الجيش قضاء مبرماً مثلما قضوا على جيش «اندرزغر» في الولجة ، ومع ذلك فقد استطاع عدد كبير من الفرس والعرب ان يهربوا تحت جنح الظلام الذي ساعد على تحقيق المفاجأة .

وعندما أشرقت الشمس فوق الأفق الشرقي لم يبق محارب من الجيش الامبراطوري على قيد الحياة في المصيّخ . ولا نعرف مصير القائد الفارسي صهبوزان. لكن القائد العربي هذيل بن عمران تمكن من الفرار والتحق بقوات العرب النصارى في الزميّل .

وانتهت معركة المصيّخ في الأسبوع الأول من تشرين الثاني عام ٦٣٣م (الأسبوع الرابع من شعبان عام ١٢ هجري) . لقد نجحت مناورة خالد ، وكان توقيتها صحيحاً ودقيقاً .

ومن المصيّخ اتجه خالد الى الثنّي والزميّل . وكانت الثنّي أقرب من الزميّل لذا أصبحت الهدف الأول ، حيث قرر خالد ان يكرر مناورة

المصيّخ . وسوف يعمل جيشه بالألوية الثلاثة كالسابق . وسوف تنطلق الالوية من المصيّخ على محاور منفصلة ، ثم تهاجم الثّني في ليلة محددة وفي وقت معين . وتقدم خالد على الطريق المباشر من المضيّخ بينما سار اللواءان الآخران على مجنبتيه . ففي الليلة المحددة . وفي الوقت المعين — في الأسبوع الثاني من تشرين الثاني عام ٦٣٣م. (الأسبوع الأول من رمضان عام ١٢ هجري) انقضت الألوية الثلاثة على معسكر العرب النصارى في الثّني . وفي هذه المرة نجا القليلون من المذبحة . تركت النساء والأطفال وعدد كبير من الفتيان وأخذوا أسرى . كذلك فقد قتل قائد العرب النصارى ، ربيعة بن بجير ، وسبيت ابنته الجميلة ، ولكنها لم تكن هذه المرة من نصيب خالد ، فأرسلت الى المدينة ، وتزوجها علي بن أبي طالب[1] .

كان خالد يناور بجيشه بمنتهى السهولة كلاعب الشطرنج . فبعد معركة الثني بليلتين أو ثلاث فعل بالزميّل مثلما فعل بالثني — ثلاثة ألوية تهاجم من اتجاهات مختلفة — وكذلك ابتلعت العرب النصارى في الزميّل ألوية خالد التي ضربت المصيّخ والثنيّ .

وبعد ان تخلص خالد من الأسرى والغنائم التي تم الاستيلاء عليها في الزميّل ، اتجه نحو الرضّاب ، حيث كان هلال بن عقّة يجمع القبائل العربية لكي يثأر لقتل والده . ولكن عندما وصل المسلمون الى الرضاب لم يجدوا أحداً فيها . اذ في اللحظة الأخيرة قرر هؤلاء العرب ان المقاومة لن تجدي فانتشروا في الصحراء .

يحقّ لخالد الآن ان يفخر بانتصاراته . ففي أقل من شهر استطاع ان يسحق قوات امبراطورية هائلة في أربع معارك منفصلة ضمن منطقة عمليات يبلغ طولها مائة ميل . وحقق ذلك باستغلال قابلية الحركة الكبيرة التي كان يتمتع بها جيشه الراكب . لقد انجز المهمة التي أسندها اليه الخليفة . ولم يبق أمامه أية مقاومة .

لقد غامر الفرس وخرجوا من العاصمة الامبراطورية عند سماعهم نبأ

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٨٢ .

مغادرة خالد لعين التمر ، لكن خالداً عاد وخاض غمار الحرب ثانية وتقوقعت كتسفون على نفسها .

شن خالد عدة اغارات في المنطقة الواقعة بين النهرين . كما ان الأماكن التي لم تشعر بوطأة الحرب حتى الآن بدأت تردد أصداء وقع حوافر خيالة المسلمين ونداء «الله أكبر» . لكن جماهير الشعب في العراق تركوا بدون ازعاج . فهؤلاء الناس اعتبروا وصول المسلمين نعمة لهم ، لأن المسلمين جلبوا النظام والاستقرار اللذين لم يعرفا منذ أيام أنو شروان الذهبية .

ولكن لم يكن من طبيعة خالد ان يركن الى الهدوء والراحة . وكان من طبيعته ان لا يقنع بالانجازات التي تمت مهما كانت كبيرة ، بل كان دائماً يسعى الى المجد والاعمال الجليلة . وكانت العاصمة الامبراطورية تبدو محجمة عن ارواء ظمئه بارسال جيوش أخرى ضدّه ، لذا كان من دواعي سروره ان يذكّر بأن حامية فارسية كبيرة ما زالت موجودة على الفرات عند «الفراض» — قرب أبو كمال الحالية — ، التي كانت على الحدود بين امبراطورية الفرس والامبراطورية الرومانية الشرقية . وكانت حامية الفراض هي الحامية الفارسية الوحيدة التي تركت الى الغرب من كتسفون ، وإذ كانت تعليمات الخليفة تقتضي محاربة الفرس ، فقد قرر خالد ان يبيد هذه القوة أيضاً . فتحرك الى الفراض . وعندما وصل خالد اليها في الأسبوع الأول من تشرين الثاني عام ٦٣٣م. (نهاية رمضان ، عام ١٠ هجري) ، وجد فيها حاميتين احداهما فارسية والأخرى رومانية . وهاتان الحاميتان اللتان تمثلان امبراطوريتين تنازعتا في العقدين الماضيين في حرب طويلة باهظة الثمن ، اتحدتا الآن لمحاربة المسلمين ، وانضم اليهما عدة قبائل من العرب النصارى المحليين .

لم يحدث شيء طيلة ستة أسابيع . فالجيشان كانا يتناظران عبر نهر الفرات ، المسلمون على الضفة الجنوبية ، والروم والفرس على الضفة الشمالية ، وكلاهما لا يرغب في عبور النهر . وفي الحادي والعشرين من كانون الثاني عام ٦٣٤م. (الخامس عشر من ذي القعدة عام ١٢ هجري)

استطاع خالد أن يجذب الحليفين عبر نهر الفرات الى الضفة التي يقف عليها جيشه . ولم يكد يتم عبور الروم والفرس حتى قام خالد بهجوم سريع وعنيف كالمعتاد . وذبح الآلاف من الاعداء قبل ان يتمكن الباقون من الفرار بسلام .

لم تكن هذه المعركة كبيرة ولا فاصلة . كما ان قوة العدو لم تكن كبيرة كذلك وفقا لروايات بعض المؤرخين الأوائل . وتكمن أهميتها بأنها آخر معارك خالد في العراق .

قضى خالد الأيام العشرة التالية في الفراض . وفي الحادي والثلاثين من كانون الثاني عام ٦٣٤م، غادر الجيش الفراض متوجهاً الى الحيرة . ونظم مسير الجيش هذا بترتيب : حرس مقدمة ، ثم القوة الرئيسية ، ثم حرس مؤخرة . ولكن عندما خرج حرس المؤخرة من الفراض ، اتجه خالد خفية ومعه عدد من أصحابه الى الجنوب.. لقد كانوا في طريقهم الى مكة لاداء فريضة الحج الذي كان موعده بعد أسبوعين .

ان الطريق الفعلي الذي سلكه خالد غير معروف . «لقد سار في طريق من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب منه ولا أشدّ على صعوبته منه [1] » . وفي مكة أدى خالد وصحبه فريضة الحج متنكرين لئلا يعرفهم أحد . ثم عادوا بسرعة الى العراق . ويمكن تخيل السرعة التي سار بها خالد وأصحابه اذا عرفنا ان حرس المؤخرة لم يكد يدخل الحيرة حتى انضم اليه ودخل الحيرة مع حرس المؤخرة وكأنه لم يفارقه . وكان قائد حرس المؤخرة ، فقط يعرف السر ، ولكن رجال حرس المؤخرة عجبوا من ان خالدا وبعض أصحابه قد قصوا شعورهم .

بعد هذه المغامرة بوقت قصير ، ذهب خالد في مغامرة أخرى . فبعد ان سئم من السلام والهدوء اللذين يعمان العراق ، قرر ان يقود اغارة بنفسه في المنطقة القريبة من كتسفون . فأغار عليها ومعه المثنى وعاد محملاً بالغنائم .

لكن أخطأ في اعتقاده ان سره ظل مجهولا . اذ لم يكد يعود من اغارته هذه حتى تلقى رسالة من أبي بكر يحذره قائلاً : «اياك ان تعود لمثل

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٨٣ .

ذلك » . وكان مع التحذير مهمة أخرى كبيرة : كان على خالد ان يتوجه الى بلاد الشام . فالحملة في العراق قد انتهت .

كان فتح العراق نجاحا باهرا . فالمسلمون خاضوا معارك عنيفة ضد الجيوش الفارسية التي تفوقهم عدداً ، ولم يقتصر عملهم على كسب كل معركة ، بل أوقعوا الهزائم الساحقة بالفرس والعرب النصارى . علما بأن جيش الفرس في ذلك الوقت كان أكبر أداة حربية يخشى جانبها .

كانت استراتيجية خالد في هذه الحملة ، وهي استراتيجية لم يحد عنها أبداً ، تقضي بأن يخوض معاركه قريباً من الصحراء ، بحيث تكون الطرق المؤدية الى الصحراء مفتوحة أمامه في حالة اضطراره للتراجع ولم تكن الصحراء ملجأ أميناً لا يستطيع الفرس المغامرة باقتحامها فقط ، بل كانت أيضاً منطقة تسمح بالتحرك السريع الى أي هدف يختاره بسهولة ويسر . ولم يدخل خالد في عمق العراق الى ان فقد الجيش الفارسي قدرته على تهديد الطرق المؤدية الى الصحراء .

أما استراتيجية الفرس العسكرية فقد كانت متأثرة بالضرورة السياسية للدفاع عن الحدود الامبراطورية ، وأدّى ذلك الى ان يخوضوا معاركهم ضد المسلمين على الحدود بين الصحراء والأراضي الزراعية ، كما كان يتمنى خالد . ولكنهم ، ضمن هذا التحديد السياسي ، اتبعوا اسلوباً سليماً وخططوا لتنفيذ تحشدات كبيرة لقواتهم من أجل المعركة . فكان على « قارن » ان ينضم الى « هرمز » . وبهمن الى « اندرزغر » ، « وروزبة » ، « وزرمهر » الى العرب النصارى في المصيّخ والثنيّ والزميّل . ولو قدّر لهذا التجميع ان يتم ، لتغير مجرى الحملة . لكن هذا التجميع لم يتم ، فتحية لسيف الله على تحركه السريع وعلى تخطيطه القاضي بخوض المعارك ضد الجيوش الفارسية الواحد بعد الآخر ، في الزمان والمكان اللذين اختارهما .

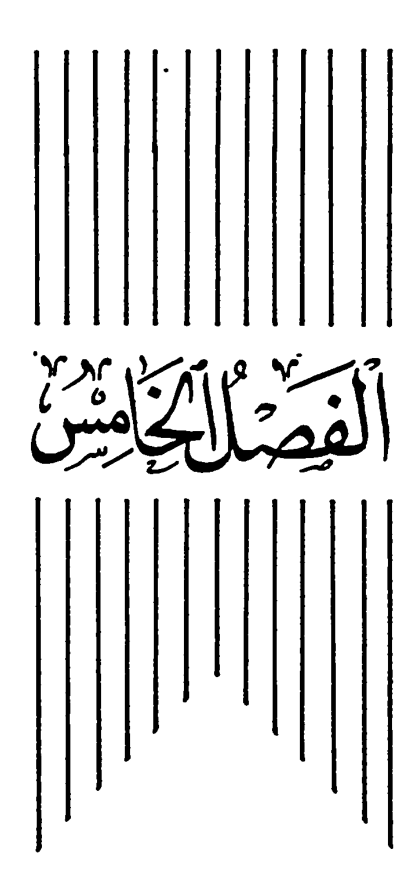
وكان العاملان الهامان اللذان اعتمد عليهما خالد في تحقيق مناوراته وتحركاته الناجحة هما مزايا المسلمين القتالية وخصائصهم الحربية ، ولا سيما خفة حركتهم . واستثمر خالد تلك المزايا والعوامل الى حدود تكاد تعجز عنها

طاقة البشر. ومع ان جزءا فقط من جيشه كان من الخيالة ، الا ان باقي الجيش كان يركب الابل من أجل التحرك وبامكانه ان يضرب في المكان والزمان اللذين يختارهما خالد . وكان جيش خالد يستطيع ان يتحرك بسرعة لخوض معركة في (أ) . ثم ينتقل الى (ب) لخوض معركة ثانية قبل ان يستطيع العدو الرد على الهجوم .

ولم نتوصل الى معلومات مؤكدة عن قوة الجيوش الفارسية التي واجهها خالد في المعارك المختلفة ، ولا عن الخسائر التي تكبدها الطرفان ، فالخسائر التي ذكرتها عن الفرس لا تخلو من المبالغة . انما الشيء الثابت هو ان تلك الجيوش كانت جرّارة وتكبدت خسائر كبيرة ، ولا سيما في الولجة ، وأليّس والمصيّخ ، والثنّي ، والزميّل ، حتى فقدت قدرتها القتالية . وتقديري الشخصي لتعداد الجيوش الفارسية التي واجهت خالدا في كاظمة ، ومكيل ، والولجة ، وأليس هو من أربعين ألفا الى سبعين ألفا . ان هذه القوة التي تفوق جيش خالد أربعة أضعاف لم تؤثر على خالد أو جنوده الشجعان . والجيوش الفارسية هذه لا تعد كبيرة جدا بالمعايير الفارسية. «في معركة القادسية ، التي حدثت بعده ثلاث سنوات ، حشد الفرس جيشاً تعداده مائة وثلاثون ألفاً» . وأما بالنسبة لخسائر المسلمين ، فهي قليلة لأن جيشهم بقي فعّالاً طيلة مدة الحملة .

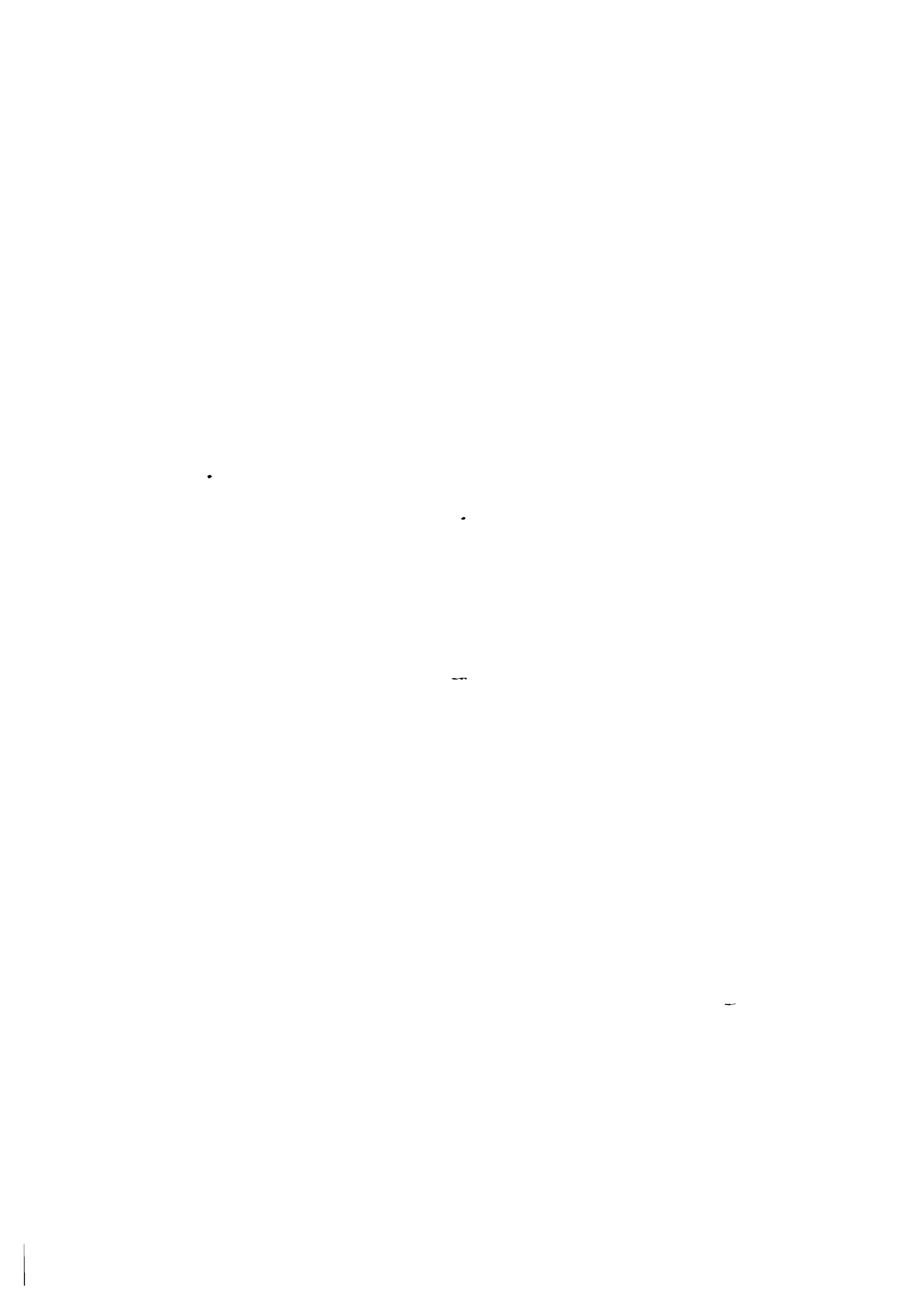
بالاضافة الى ما تقدم ، كان لشخصية خالد دور كبير وهام في فتح العراق . فهو أول القادة المسلمين البارعين الذين انطلقوا لفتح أراضي اجنبية وغيروا خريطة العالم السياسية والدينية . ولم يكن ليفرض أي عمل شاق على جنوده لا يستطيع هو تحمله . وكان ايمان رجاله به بلا حدود وهذا مما جعلهم يركبون الاهوال بشجاعة نادرة .

لقد اجتاح خالد العراق كالعاصفة الهوجاء . وسيجتاح بعد قليل أيضاً بلاد الشام وسيضرب جيوش امبراطورية أخرى متشامخة — انها الامبراطورية الرومانية الشرقية. ليحرر أبناء عمومته من الاحتلال الروماني البغيض .



فتح بلاد الشام

> « وداعًا يا سورية وداعًا لا لقاء بعده »
>
> « هرقل »



١ ـــ المسير الصعب :

في اواخر شهر أيار عام ٦٣٤م ، تلقّى خالد رسالة الخليفة أبي بكر وقرأ ما جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله ، عتيق ، ابن أبي قحافة [١] ، الى خالد بن الوليد . السلام عليك . أحمد الله الذي لا اله الا هو ، وأصلي على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام . سر حتى تصل جموع المسلمين في بلاد الشام ، فهم في حالة كبيرة من القلق » .

« وانني أعيّنك قائدا على جيوش المسلمين وآمرك أن تقاتل الروم . وأنت القائد على أبي عبيدة ومن معه . واذهب بسرعة ، أبا سليمان ، وأتمم عملك بمعونة الله جلّ شأنه . واقسم جيشك الى قسمين ودع النصف مع المثنى الذي سيخلفك في العراق . فإذا فتح الله عليكم بالشام فارجع الى عملك بالعراق . ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، واياك ان تتباطأ بعمل ، فان الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء » .

وهكذا تم تعيين خالد قائدا لقوات المسلمين في الشام من قبل الخليفة أبي بكر . وبدأ خالد بالتحضير للمسير . فشرح تعليمات الخليفة الى المثنى ، وقسّم الجيش الى قسمين ، حاول خالد في البداية ان يحتفظ بجميع أصحاب النبي (ص) من المهاجرين والأنصار ، وهؤلاء يكّن لهم الجنود كل تقدير واحترام ، لكن المثنى اعترض بشدة وقال لخالد : « والله لا أقيم

(١) ان الخليفة الأول في الاسلام يعرف تاريخياً باسم « أبي بكر » ، ولكن اسمه الحقيقي هو عبدالله ، وقد لُقب بالعتيق لجلال ملامحه ولأنه أول رجل اعتنق الإسلام .

الا على انفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف وبالله ما أرجو النصر الا بهم [1] » .

ورأى خالد ان طلب المثنى هو طلب عادل . فترك معه قسما كافيا من أصحاب رسول الله (ص) ، وكان من بينهم عدد كبير من خيرة أمراء الجيش . وبعد ان تم ذلك ، كان خالد جاهزا للمسير الى الشام .

كان أبو بكر يحدد لقادته مهمتهم ، والمنطقة الجغرافية التي ستنفذ فيها ، والموارد التي يمكن توافرها لتنفيذها ، ثم يترك لهم انجاز مهمتهم بالاسلوب الذي يختارونه . وقد اتبع هذه الطريقة عندما أرسل خالدا الى العراق ، وهو يتّبعها الآن مع خالد وهو يوجهه الى الشام . كانت المهمة التي أعطيت لخالد واضحة : عليه أن يتحرك بسرعة الى الشام ، ويتولى قيادة قوات المسلمين ، ويقاتل الروم حتى يتحقق النصر . وترك لخالد أن يختار طريقه الى بلاد الشام . وكان هذا هو أهم قرار سريع ينبغي على خالد أن يتخذه . كما أن خالدا لم يكن يعرف مواقع قوات المسلمين الموجودة في بلاد الشام بشكل تفصيلي . وهو يعرف بشكل عام أن هذه القوات موجودة في منطقة بصرى والجابية ، وأن عليه أن يذهب الى هناك بأقصى سرعة .

وكان هنالك طريقان يمكن لخالد أن يختار احدهما . فالأول هو الطريق الجنوبي الذي يمر عبر دومة الجندل ويستطيع الجيش أن يسير على هذا الطريق الذي تستخدمه القوافل المتجهة الى الشام . وهو يعتبر أسهل الطرق ، وكثير من المياه على امتداده ولا يمكن للعدو أن يتدخل في تحرك الجيش عليه ، لكنه أطول الطرق واجتيازه يستغرق وقتا طويلا ، والخليفة قد أكّد على السرعة ، لأن موقف المسلمين في الشام كان خطيرا على ما يبدو . فقرّر خالد أن يختار سواه .

أما الطريق الثاني فهو الطريق الشمالي الذي يمتد على طول نهر الفرات ويؤدي الى شمال شرق بلاد الشام . وكان جيدا أيضا وملائما الا أنه يبعده عن الجيوش الاسلامية ، كما ان الحاميات الرومانية الموجودة على الفرات قد

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٥ .

تسدّه عليه . ويستطيع خالد ، بلا شك ، أن يتغلب على هذه الحاميات ، لكنه مع ذلك سيصل متأخرا . وكان عليه أن يجد طريقا آخر للوصول الى قوات المسلمين في الشام .

دعا خالد الى عقد مجلس عسكري وشرح الموقف لقادته . ثم سألهم : «كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم فاني ان استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين» .

وكان يشير بذلك الى حاميات الروم الموجودة على طول الطريق الشمالي . فقال له قادته : «لا نعرف الا طريقا لا يحمل الجيوش يأخذه الفذّ الراكب فاياك ان تغرّر بالمسلمين[1] » .

لكن خالدا كان مصمما على ايجاد طريق جديد ، وطرح سؤاله على قادته مرة ثانية . فلم يوافقه على ذلك سوى رافع بن عُميرة وهو محارب ذائع الصيت . وأوضح رافع أنه يوجد طريق عبر أرض السماوة . ويمكن للجيش أن يتقدم من الحيرة الى «قراقر» عبر عين التمر والمصيّخ ، ومن الممكن أن يكون هذا المسير سهلا . فقراقر كانت واحة مشهورة بوفرة مياهها وهي تقع في صحراء جرداء لا ماء فيها . وفي «سوى» يوجد ماء غزير . وقبل «سوى» بمسيرة يوم نبع ماء يعرفه ، وهو يؤمن الماء الكافي للجيش . ويعتبر الطريق من قراقر الى هذا النبع أخطر جزء في الرحلة ، اذ يبلغ طوله زهاء مائة وعشرين ميلا .

ولكن رافعاً حذّره قائلا : «انك لن تطيق ذلك بالخيل والاثقال . والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها الا مغّررا انها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها »[2] . فهزّ القادة رؤوسهم علامة عدم الموافقة . لان تقدم الجيش على طريق كهذا ، قد يضلّ الجيش فيه بكامله ويموت عطشا ، لا يمكن ان يقبله رجل ذو رأي سديد .

قال خالد بصوت هادىء : «لا بدّ من اجتياز هذا الطريق» . وأضاف

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٣ ، ٦ .

(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٩ .

قائلا ، عندما رأى التجهم يكسو وجوه قادته : «لا يختلفنّ هديكم ، ولا يضعفنّ يقينكم ، واعلموا ان المعونة تأتي على قدر النيّة ، والاجر على قدر الحسبة ، وان المسلم لا ينبغي له أن يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له[1] » . أثارت كلمته وعزيمته وقوة حماسته أصحابه فقالوا في عزم وثقة وأمل : «أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك»[2] وبدأ جيش خالد يستعد للمسير الى الشام بحماسة منقطعة النظير عبر طريق لم يسر عليه أي جيش في السابق ولا يعرفه سوى رجل واحد هو رافع بن عميرة . (راجع خريطة المسير الصعب في الشكل رقم ١٥) .

في أوائل حزيران عام ٦٣٤م (أوائل ربيع الثاني ، عام ١٣ هجرى) سار خالد من الحيرة ومعه تسعة آلاف رجل . ولم يرافق هذا الجيش الاطفال والنساء ، حيث تركوا في الخلف ، بناء على أوامر خالد ، تمهيدا لترحيلهم الى المدينة ليبقوا فيها حتى يحين الوقت المناسب لنقلهم الى بلاد الشام . وسار الجيش عبر عين التمر ، وصندودة ، والمصيّخ الى قراقر ، ورافق المثنى خالدا حتى قراقر، حيث عاد الى الحيرة وفق تعليمات الخليفة ليكون مسؤولا عن العراق في أثناء وجود خالد في الشام ، وعسكر جيش خالد في قراقر لقضاء الليل ولملء قرب الماء والاوعية الاخرى التي تكفي الرجال والرواحل مدة خمسة أيام .

وفي صباح اليوم التالي ، عندما كان المسير الخطر على وشك الابتداء ، اقترب رافع من خالد وقال له مرة ثانية ما سبق ان قاله : «انك لن تطيق ذلك بالخيل والاثقال . والله ان الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه» . فالتفت خالد الى رافع وقال له : «الويل لك يا رافع . والله لو عرفت طريقا يؤدي بي الى الشام بسرعة لسلكته . ولا بدّ والله من ذلك فمر بأمرك[3] » .

وسقط في يد رافع ولم يجد مفرا من التنفيذ فقال : «استكثروا اذن من الماء من استطاع منكم ان يصر اذن ناقته على ماء فليفعل ، فانها المهالك الا

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٣ .
(٢) — الطبري الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٩ .
(٣) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٩ .

ما دفع الله» .

وانطلق الجيش بقيادة خالد وارشاد رافع بن عميرة لتنفيذ أكبر مأثرة عسكرية في التاريخ . وركب الرجال على الجمال كالمعتاد ، بينما جرّوا الخيل خلفهم . وكان ذلك في شهر حزيران ، وكانت الرمال اللاهبة تلفح الوجوه وتلسع الاقدام .

ومرت الايام الثلاثة الاولى سهلة يسيرة . فعلى الرغم من الحرارة الشديدة ، استطاع جنود خالد ان يتحملوا وطأة الحرّ ، فالمياه متوافرة لديهم . ولكن الماء الذي قدر له مدة خمسة أيام نفذ في نهاية اليوم الثالث . وكان أمامهم يومان آخران بلا قطرة ماء .

وسار الجيش في اليوم الرابع بصمت . وبدأت الحرارة بالارتفاع . وتوقف الحديث بين الرجال في أثناء المسير ، لانهم كانوا يفكرون بالماء فقط وبالاهوال التي سيلاقونها إذا ما ضاعوا في الصحراء ، ولا ماء . وبدؤوا يشعرون بالارتعاد عند التفكير في ان رافعاً قد يضلّ طريقه ، وماذا يحدث لو تم ذلك . وعسكر الرجال في تلك الليلة كالمعتاد ، ولكنهم لم يعرفوا طعم النوم . وكانوا يرددون : «حسبنا الله ونعم الوكيل[1] » .

وفي صباح اليوم الخامس بدأت المرحلة الاخيرة من المسير حيث سيصلون في نهايتها الى نبع الماء الذي يعرفه رافع . وكان الجيش يقطع ميلا بعد ميل في صمت مطبق . وكان الرجال يسيرون ساعة بعد اخرى فوق الرمال المحرقة . واستطاعوا أن يكملوا مسيرة اليوم المقررة وهم ما يزالون على قيد الحياة ، مع ان معظمهم قد بلغ حدود التحمل البشري . ولم تكن أرتال جيش المسلمين منتظمة كما كانت عند بدء المسيرة . وكان العديد من المحاربين يسيرون ببطء خلف الأرتال ، وهم يأملون ان لا يقعوا على جانبي الطريق .

وعندما وصل رأس رتل جيش المسلمين الى المنطقة التي يفترض ان يكون فيها نبع الماء ، لم يعد رافع يرى بعينيه ؛ فقد كان يعاني من التهاب في

---

١) — قرآن كريم : سورة آل عمران — آية ١٧٣ .

العينين ، كما ان اشعة الشمس المحرقة زادته سوءا فغطى عينيه بجزء من عمامته واوقف جمله . وذعر الذين كانوا يسيرون خلفه عندما رأوا حالته ، وقالوا له : « يا رافع ، نحن على شفا الموت . هلاّ وجدت الماء ؟ » لكن رافعاً غدا لا يرى شيئا . فقال بصوت خفيض متحشرج : « أيها الناس ، انظروا علمين كأنهما ثديان » . فلما أتوهما وقف عليهما وقال : « اضربوا يمنة ويسرة لعوسجة كقعدة الرجل » فنظروا وقالوا : « ما نراها » . فقال : « انا لله وانا اليه راجعون . هلكتم والله اذن وهلكت لا أبالكم ! انظروا » . فنظروا ثانية فوجدوها قد قطعت وبقيت منها بقية . فلما رآها المسلمون كبّروا وكّبر رافع ابن عميرة ثم قال: «احفروا في اصلها» ، فحفروا فنبع الماء فشربوا حتى ارتووا . وحمدوا الله على نعمته وشكروا رافعا على دلالته . ثم شربت الابل والخيل ، وبقي ماء وفير. وملأ المئات من الجنود قرب الماء ورجعوا الى الوراء على الطريق الذي ساروا عليه للبحث عن المتأخرين ، وكان عددهم كبيرا ، وتم العثور عليهم جميعا واحضروا احياء .

وانتهى المسير الخطر ، الذي نفذه المسلمون . و مثل هذا المسير لم يتم في الماضي ولن يحدث مرة ثانية . ووصل خالد الى تخوم بلاد الشام تاركا وراءه الحدود الرومانية وحاميات الروم وهي تواجه العراق . وأصبح المسلمون على مسيرة يوم واحد فقط من « سوى » ، حيث انتهت الصحراء وبدأ العمران .

كان خالد لا يشك في انه وجيشه قد اجتازوا الجحيم وكانوا على وشك الهلاك . ولكن الخطر الحقيقي الذي واجهوه لم يدرك الا عندما جاء رافع الى خالد وقال له باسما : « والله ما وردت هذا الماء قط الا مرة واحدة ، وكان ذلك منذ ثلاثين عاما ، وردته مع أبي وأنا غلام » [1] .

لقد كتب أحد الخلفاء ، في السنوات التالية ، الى أديب رفيع الشأن يطلب منه أن يصف له الأراضي التي تحت الحكم الاسلامي . فكتب الأديب الوصف المطلوب وأرسله الى الخليفة . وعندما وصل الى وصف بلاد الشام قال : « وأعلم يا أمير المؤمنين ان بلاد الشام هي أرض السّحب

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٠٤ ، ٦٠٩ .

والتلال والرياح والخصب . فهي تنعش الجسد وتنقّي البشرة ، وفيها أرض حمص ، التي تجمّل الجسم وتنمّي المدارك . وماؤها نقي يرهف الحواس . ان بلاد الشام ، يا أمير المؤمنين ، هي أرض الخضرة البهيجة والغابات الكبيرة . وأنهارها تجري في مجراها الصحيح ، ونوقها تدرّ اللبن الوفير[1] » .

وفي الحقيقة ، كانت بلاد الشام أرضاً جميلة ، وهي أجمل أقاليم الامبراطورية البيزنطية . فمناخها معتدل بتأثير البحر المتوسط الذي يلطف حرارة الصحراء وبرودة الاجواء الشمالية . وكانت انطاكية ، عاصمة المنطقة الآسيوية من الامبراطورية البيزنطية ، تأتي بعد القسطنطينية في البهاء والاهمية السياسية . والمدن الكبرى في بلاد الشام هي : حلب ، وحمص ، ودمشق . وهذه المدن ، بالاضافة الى مركزها المالي والتجاري كانت مركزا للثقافة والحضارة . ومن موانئها المزدهرة على البحر الأبيض المتوسط : اللاذقية ، وطرابلس ، وبيروت ، وصور ، وعكا ، ويافا ، وكانت هذه الموانىء ملتقى السفن القادمة من كل مكان والمحمّلة بالبضائع .

كانت بلاد الشام تتألف ، سياسيا ، من اقليمين : اقليم سورية وهو يمتد من انطاكية وحلب في الشمال وحتى الجزء الاعلى من البحر الميت ، واقليم فلسطين وهو يقع غرب البحر الميت وجنوبه ويضم الاماكن المقدسة في الاديان السماوية ، ومدنا لا تقل غنى ومدنية عن سائر مدن العالم . وكان العرب في ذلك العصر يتحدثون عن اقليم الاردن وهو يقع بين سورية وفلسطين ، وكانت جميع هذه الاقاليم جزءا من الامبراطورية البيزنطية لذا فان فتح بلاد الشام يعني غزو روما ، وهذا ليس بالأمر السهل .

كانت الامبراطورية الرومانية الشرقية تسير نحو الانحطاط ، وكان هذا الانحطاط مستمرا منذ مدة أطول من بدء فترة انحطاط امبراطورية الفرس ، فامبراطورية الفرس كانت ما تزال تتمتع بدرجة من الاستقرار والقوة تعزى الى عدة عوامل منها قوة الاسرة المالكة الساسانية التي حكمت ، بلا انقطاع ، طيلة القرون الاربعة الماضية . أما الروم ، من جهة اخرى ، فلم يكن لديهم مثل هذه الاسرة الحاكمة ، كما لم يكن لديهم تصور لانتقال

(١) — المسعودي : مروج الذهب — الجزء ٢ ، صفحة ٦١ ، ٦٢ .

العرش ، ضمن اسرة مالكة ، من شخص لآخر من سلالته . فعندما يموت الحاكم ، كان العرش ينتقل الى أكفأ قائد عسكري ، أو سياسي ، أو مدبّر للدسائس .

لكن جيش الامبراطورية الرومانية الشرقية كان لا يزال اداة قوة لشن الحروب الامبراطورية ، وهو ، بعد الجيش الفارسي ، أقوى أداة عسكرية في العالم . وكانت فرق جيش الروم مجهزة جيدا ولها قيادات قديرة ، وتستطيع ان تثير الرعب في قلوب الناس الذين تجتاح أراضيهم . وكأي جيش امبراطوري كبير ، لم يكن هذا الجيش وطنيا بل كان يضم مجموعات من مختلف الاجناس والشعوب . وكان في صفوفه الروم ، والسلاف ، والفرنجة ، والاغريق ، والجيورجيون ، والارمن ، والعرب ، وقبائل من مناطق مختلفة . وكان هؤلاء الجنود يقيمون في حاميات في مدن الشام ، وكانت معظم هذه المدن محصنة .

كانت بلاد الشام ، مثل العراق ، أرضا عربية . وكان العرب فيها قبل غزو الروم لها ، وعندما جعل الامبراطور قسطنطين الديانة المسيحية دين الدولة في أوائل القرن الرابع للميلاد ، اعتنق هؤلاء العرب أيضا المسيحية . لكن عرب الشام لم يكن لهم تأثير الى ان هاجرت قبيلة غسّان من اليمن الى الشام ، وذلك قبل الاسلام ببضعة قرون .

وتحاربت قبيلة غسّان مع حاميات الروم شرقي الشام . وبعد أن أدرك الروم قيمة الصفات العسكرية والروح العالية التي يتميز بها الغساسنة ، عقدوا معهم صلحا ووافقوا على اقامتهم في الشام ، ومنحوهم الحكم الذاتي ، وأصبح لهم ملكهم الخاص بهم . وأصبحت اسرة الغساسنة احدى الاسر الحاكمة النبيلة في الامبراطورية ، كما أصبح أمير غسّان ملكاً على العرب في الأردن وجنوبي سورية وعاصمته بصرى ، وكان آخر ملوك الغساسنة ، الذي حكم أيام فتوحات خالد هو جبلة بن الايهم .

هذه هي بلاد الشام ، وهذا هو وضعها السياسي والعسكري ، وهي التي رحبت بجيش المسلمين في الاسابيع الاولى من العام الثالث عشر

للهجرة .

كان أول من قاد حملة عسكرية هامة الى بلاد الشام خالد بن سعيد بن العاص ، وكانت مواهبه العسكرية على نقيض مواهب خالد بن الوليد . ففي أواخر عام ١٢ هجري (أوائل عام ٦٣٤م) عينه أبو بكر بتيماء ، وهي على مسافة ما شمال المدينة ، مع مفرزة من الجند كاحتياط عام .

وعندما كان في تيماء ، بعث الى أبي بكر يسأله الاذن في منازلة الروم خوفا من أن يأخذوه على غرة . وكان أبو بكر لا ينوي محاولة فتح الشام بقوة عسكرية صغيرة ، وبامرة قائد غير مجرب خاصة ، ولا يعوّل عليه .لكن المسلمين كانوا يعرفون القليل عن الموقف العسكري في بلاد الشام ، وقرر أبو بكر أن تتم هذه العملية كعملية استطلاع بالقوة . لذلك كتب الى خالد بن سعيد وسمح له بدخول الشام ، ولكنه حذّره من التورط بأعمال عسكرية لان ذلك يعرض للخطر انسحابه الى الجزيرة العربية .

وانطلق خالد بن سعيد بقوته الصغيرة ، ودخل بلاد الشام وتقدم بسرعة نحو بعض قوات الروم. وكان قائد الروم الذين أصبحوا بتماس مع قوات المسلمين ، «باهان» وكان تكتيكياً بارعا ، فأغرى المسلمين المندفعين بالوقوع في فخ نصبه لهم وقام بحركة كمّاشة للاحاطة بهم . وعندما شاهد خالد بن سعيد ذلك ، فقد أعصابه وهرب تاركا وراءه معظم رجاله . ومن حسن حظ المسلمين إن عكرمة بن أبي جهل كان موجوداً ، فتولى القيادة ، وخلّص المسلمين من خطأ كاد ينقلب الى مأساة كبيرة . وبذلك استطاع عكرمة ان ينقذ المسلمين ، لكن الحملة وصمت بالهزيمة وخالد بن سعيد بالعار ، ولم يخف أبو بكر احتقاره لجبن هذا القائد وخور عزيمته [1] .

عندما عاد أبو بكر من الحج السنوي في مكة ، في شباط عام ٦٣٤م ، دعا الى حمل السلاح من أجل فتح بلاد الشام . وكان كل شيء هادئا على الجبهة العراقية . وقد حققت حملة العراق نجاحا منقطع النظير : فهي لم تقتصر على توسيع الحدود السياسية للدولة الاسلامية ، بل ملأت أيضا

(١) — لقد كفر هذا القائد عن خطيئته واسترد شرفه العسكري بالاستشهاد في المعركة في بلاد الشام.

خزائن المدينة . وبدأ المسلمون يشعرون بأنهم قادرون على محاربة الروم بعد أن انتصروا على الفرس .

ولبّى دعوة أبي بكر المحاربون من جميع القبائل العربية التي انضوت تحت راية الثورة الاسلامية . جاؤوا بالآلاف من ارجاء شبه الجزيرة العربية كافة . وكذلك من عمان واليمن . جاؤوا راكبين ومسلحين للمعركة . لكنهم أيضا جلبوا معهم نساءهم وأطفالهم . واستبعد من هؤلاء الذين سبق أن ارتدوا فقط . كذلك فقد تم تعبئة جميع القادرين على حمل السلاح من مسلمي الجزيرة العربية في شهر آذار ٦٣٤م (شهر محرم ، عام ١٣ هجري) .

نظّم أبو بكر القوة البشرية المتوافرة لديه في أربعة ألوية ، وكل لواء من نحو سبعة آلاف رجل . وكان قادة هذه الالوية والاهداف التي اعطيت لهم كما يلي :

١ — عمرو بن العاص : الهدف فلسطين . ويتحرك على طريق أم الرشراش [1] ، ثم عبر وادي عزبة .
٢ — يزيد بن أبي سفيان : الهدف دمشق . ويتحرك على طريق تبوك .
٣ — شرحبيل بن حسنة : الهدف الاردن . ويتحرك على طريق تبوك بعد تحرك يزيد .
٤ — أبو عبيدة بن الجراح : الهدف حمص . ويتحرك على طريق تبوك خلف شرحبيل . كان هدف أبي بكر ان يفتح بلاد الشام ويستولي على أكبر مساحة منها . ولما كان أبو بكر لا يعرف بالضبط حجم جيش الروم وتنظيماته ، فلم يعزّز أي لواء على حساب الالوية الاخرى ، لكنه كان متأكدا من أن الروم سيحشدون جيشا كبيرا في أي قطاع من مسرح العمليات ، لذلك أمر قادته بأن يحافظوا على التماس فيما بينهم لكي يستطيعوا مساعدة بعضهم بعضا في

(١) — العقبة الحالية.

حال تعرض احدهم لخطر كبير من قبل قوات الروم . كما أمر بأن يتولى قيادة جميع جيش المسلمين أبو عبيدة ، في حالة حشد جميع الألوية في معركة واحدة .

وفي الاسبوع الاول من نيسان عام ٦٣٤م (الاول من صفر ، عام ١٣ هجري) بدأت قوات المسلمين بالتحرك . وكان يزيد أول من تحرك ، وعندما غادرت قواته معسكرها خارج المدينة ، سار معه أبو بكر مسافة قصيرة . وكانت وصيته ليزيد ، وقد كررها على مسامع قادة الألوية ، هي ما يلي :

— في أثناء سيرك لا تقسُ على نفسك أو على جيشك . ولا تكن شديدا على رجالك أو قادتك المرؤوسين ، وعليك أن تشاورهم في جميع الامور .

— كن عادلا واقلع عن الشر والظلم . فالامة التي لا تحكم بالعدل لا يمكن ان تفلح وتنتصر على اعدائها.

— وعند ملاقاتك للعدو لا تول الادبار ، لان من يولي الادبار ، الا لمناورة أو لاعادة تجميع ، يبوء بغضب من الله ومصيره جهنم وبئس القرار .

—وعندما يمن الله عليك بالنصر على أعدائك ، لا تقتل امرأة أو طفلا أو شيخا ولا تذبح حيوانا الا اذا ابتغيت أكله ، ولا تنقض عهدا اخذته على نفسك .

— وسوف تأتي أناسا يعيشون كالرهبان في الاديرة ، وهم يعتقدون أنهم يتعبدون الى الله . فدعهم وشأنهم ولا تدمر أديرتهم . وسوف تقابل أناسا آخرين موالين للشيطان وعبدة للصليب ، وهم يحلقون بشعرهم من منتصف رؤوسهم فترى فروة رؤوسهم . فاحمل عليهم بسيفك حتى يعتنقوا الاسلام أو يدفعوا الجزية .

واني اتركك لعناية الله [١] .

كان أبو بكر في وصيته يحذو حذو الرسول الكريم (ص) . الذي كان

(١) — الواقدي — صفحة ٤ .

عندما يرسل حملة عسكرية يوصي قائدها بما يلي :

قاتل باسم الله : قاتل ولكن لا تتعدَّ الحدود ، ولا تكن غادرا ، ولا تمثل بالقتلى ، ولا تقتل النساء والاطفال ، ولا تقتل أهل الاديرة [1] . وقيل ان أبا بكر قد سار مع زيد مسافة ميلين تقريباً ، وعندما طلب منه يزيد أن يعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ان الاقدام التي تعفّر بالتراب في سبيل الله لن تصيبها نار جهنم . وانطلق يزيد ، وكلمات أبي بكر ترن في أذنيه ، من المدينة. لقد بدأ فتح بلاد الشام. (راجع خريطة فتح الشام في الشكل رقم ١٦) .

سار يزيد على الطريق الى تبوك بسرعة جيدة . وسار خلفه لواء شرحبيل ، ثم لواء أبي عبيدة ، وكان بين اللواء والآخر مسيرة يوم . وسار عمرو بن العاص بلوائه على الطريق الغربي الى أم الرشراش . وبعد أن قطع يزيد مرحلتين أو ثلاثاً بعد تبوك كان أول من اصطدم بالعدو. وكان هذا العدو عبارة عن قوة من العرب النصارى أرسلت من قبل الروم الى الامام كمفرزة استطلاع . وقد انسحب هؤلاء العرب بسرعة بعد مناوشة بسيطة مع حرس مقدمة لواء المسلمين . وبعد انسحابهم ، تابع يزيد سيره الى وادي عربة الذي يلتقي بالطرف الجنوبي من البحر الميت .

وصل يزيد الى وادي عربة الوقت ذاته تقريبا ، الذي وصل فيه عمرو ابن العاص الى أم الرشراش. واصطدم كلا اللواءين بقوات من الروم ، تماثل قوات اللواءين ، وجهت من قبل جيش الروم الرئيسي لمنع المسلمين من دخول فلسطين . وحارب يزيد وعمرو بن العاص قوات الروم التي اتجهت ناحيتهما ودمراها بعد أن انزلا بها خسائر جسيمة . وعندما انسحبت قوات الروم المواجهة ليزيد بسرعة كبيرة ، أرسل يزيد مفرزة لمطاردة الروم وتمكنت هذه المفرزة من اللحاق بهم على مسافة بضعة أميال قبل الوصول الى غزة ، وأوقعت بهم خسائر فادحة ثم عادت وانضمت الى يزيد في وادي عربة . وقد تم كل ذلك خلال اسبوعين من بدء مسير المسلمين من المدينة .

---

(١) — أبو يوسف — صفحة ١٩٣ — ١٩٥ .

وبينما كانت هذه الاشتباكات دائرة تابع شرحبيل وأبو عبيدة مسيرهما شمالا على الطريق الرئيسي : معان — مؤته — عمّان . وبعد فترة قصيرة لحق بهما يزيد وفي نهاية شهر صفر (أوائل أيار) وصل شرحبيل وأبو عبيدة الى المنطقة الواقعة بين بصري والجابية [1] . وعسكر يزيد في مكان ما شمال شرق الاردن ، وبقي عمرو في وادي عربة . وفي هذه المرحلة أيقن المسلمون ان الروم بدؤوا يستعدون . وفي الحقيقة كان الروم متأهبين للقتال .

كان الامبراطور هرقل في حمص ، يخطط لاجراءات معاكسة ضد المسلمين . وعندما سمع لأول مرة بالهزائم الساحقة التي مني بها جيش الفرس على يد خالد ، لم يفاجأ بذلك أبدا ، لانه كان يحمل الفكرة ذاتها التي يحملها البلاط الفارسي عن العرب . لكنه لم يكن مفرطا في الحذر . ثم جاءت أنباء فشل خالد بن سعيد ، فشعر هرقل بالاطمئنان . وعلى سبيل الحيطة أمر، بوضع عدة فرق رومانية في اجنادين، حيث تستطيع من هناك ان تتعامل ضد أية قوة للمسلمين تدخل فلسطين أو الاردن .

عندما انطلقت ألوية المسلمين من المدينة ، تلقى جيش الروم معلومات عن التحرك بوساطة العرب النصارى وبعد أن أخطر هرقل بآخر المعلومات عن الموقف وعن اتجاه تحرك المسلمين ، أدرك ان هذا التحرك هو محاولة خطيرة لفتح مملكته . وبعد ذلك بوقت قصير سمع هرقل بأنباء هزيمة قوات التغطية الرومانية التي أرسلت من اجنادين على يد اللواء الذي كان في طليعة جيش المسلمين . فقرر أن ينزل العقاب بهؤلاء المهاجمين ويلقي بهم في الصحراء التي قدموا منها . وبناء على أوامره ، بدأت مجموعات كبيرة من جيش الروم بالاستعداد للتحرك الى اجنادين من الحاميات المنتشرة في فلسطين وسورية .

في هذه الاثناء أقام قادة المسلمين اتصالات بالسكان المحليين ووضعوا الاساس لشبكة استخبارات دقيقة . وبواسطة هذه الشبكة علموا بوجود جيش الروم في اجنادين . وبعد ذلك ببضعة أيام تلقوا معلومات عن تحرك

---

(١) — يحدد المسعودي (مروج الذهب — الجزء ٤ . صفحة ٦٦) موقع الجابية على بعد ميلين من جاسم . وهي تقع الى الغرب قليلا من خط جاسم — نوى . وبعد وصول المسلمين أصبحت الجابية مركزاعسكرياً .

قوات اخرى باتجاه اجنادين ، وأرسل جميع قادة الألوية رسائل الى أبي عبيدة بن الجراح لابلاغه عن هذه التحركات. وكانت ألوية من جيش المسلمين موجودة في المنطقة تقريبا — وهي المنطقة الواقعة شرق الاردن وجنوب سورية — وفي الحال ، وضع أبو عبيدة هذه الألوية بأمرته . وكان عمرو بن العاص منعزلا بعض الشيء عن سائر ألوية المسلمين ، وشعر بأن الاستعدادات الرومانية كانت موجهة ضد لوائه ، لذلك طلب المساعدة من أبي عبيدة .

في منتصف ربيع الأول (الاسبوع الثالث من أيار) ، تلقى الخليفة رسالة من أبي عبيدة يشرح فيها ويصف الموقف في سورية وفلسطين . وكانت تقديرات المسلمين تتلخص بأن الروم يستطيعون في الوقت الحاضر حشد جيش تعداده مائة ألف رجل في اجنادين ، حيث يستطيع هذا الجيش من هنا أن يضرب في المواجهة لواء عمرو بن العاص ، او أن يقوم بمناورة للالتفاف حول اجناب ومؤخرة ألوية المسلمين الثلاثة الاخرى . وكانت هذه التقديرات قريبة من الحقيقة ، كما سنرى .

بدأ الموقف يسوء ، فقوة الروم أكبر بكثير مما توقع المسلمون عندما بدأ التحرك للفتح ، وكان واضحا ان الروم لن يقبعوا في مدنهم الحصينة وينتظروا الهجوم . وكانوا يحشدون قواتهم في جيش واحد كبير لخوض معركة هجومية كبيرة في الميدان . وليس أمام المسلمين الا أن يختاروا حلا من اثنين وهما : الحرب ضد الروم في معركة في حالة الثبات ، أو الانسحاب بسرعة الى الجزيرة العربية ، وكلاهما لا يستحق التفكير وقد عارض الخليفة الحلّ الثاني بحسم فالعودة الى الجزيرة أمام تهديد الروم ليس حلّاً ، ففتح بلاد الشام قد بدأ ولا يمكن الرجوع عنه ، بل يجب تدعيمه . ولكن الشيء الذي أقلق أبا بكر هو من سيقود جيش المسلمين ؟ فأبو بكر كان قد أمر بأن يتولى أبو عبيدة قيادة الجيش عندما تعمل جميع الألوية مجتمعة في معركة واحدة . وكان أبو عبيدة رجلا عاقلا وذكيا والجميع يكنون له التقدير والاحترام . وكان ايضا رجلا شجاعا . ولكن أبا بكر كان يعرف طبيعته

الوديعة وعدم خبرته في قيادة قوات عسكرية في عمليات كبيرة ، لذلك شك أبو بكر في قدرته على تولي قيادة جميع جيوش المسلمين في مجابهة مع جيش الروم القوي والمدرب .

وأخيرا توصل أبو بكر الى حلّ لهذه المعضلة : لقد قرّر أن يرسل خالد ابن الوليد لقيادة جيش المسلمين في بلاد الشام . فخالد قد حطّم منذ عهد قريب جيش الفرس في عدة معارك دموية . كما ان خالدا يعرف ماذا عليه أن يفعل . وشعر أبو بكر بأن حملا قد انزاح عن كاهله . وقال : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد [1] » . لذلك وجه رسولا سريعا الى الحيرة ومعه تعليمات الى خالد بأن يسير بنصف جيشه الى الشام ويتولى قيادة قوات المسلمين في أثناء محاربة الروم .

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ . صفحة ٦٠٣

٢ ــ التوغل في بلاد الشام :

اذا كان الجنود يأملون بالحصول على يوم من الراحة بعد تجربة الايام الخمسة من المسير الوعر . الذي أوشك ان يودي بهم الى الهلاك قبل أن يخوضوا أية معركة ، فهم مخطئون . ففي صبيحة اليوم التالي تحرك خالد مع جيشه نحو «سوى» ولم يستطع الرجال ان يشتكوا ، لان قائدهم نفسه لم ينل قسطا من الراحة ، ولا يبدو عليه أنه بحاجة لهذه الراحة . وفي الحقيقة عندما بدأ المسير وأخذ خالد يتفقد جنوده وهم يتقدمون ، دب النشاط في هؤلاء الجنود حينما رأوا قائدهم في ذروة النشاط والحماسة ، ونسوا ذكريات المسير الوعر المريرة . وأصبحوا في هذا اليوم على استعداد لبذل دمائهم في حملة الشام . وعليهم ان يفعلوا ذلك ، لان خالدا قائدهم .

وبدأ خالد حملته لبلاد الشام وهو يرتدي درعا من الزّرد كان قد حصل عليه من مسيلمة الكذاب . وكان يتدلى من حزامه الجلدي سيف نفيس حصل عليه من مسيلمة أيضا . وكان الدرع والسيف تذكارين من معركة اليمامة . وكان يرتدي فوق خوذته عمامة حمراء ، وتحت الخوذة ، كان يضع قلنسوة حمراء ، واذا أمعنّا النظر في هذه القلنسوة وجدنا بضع خطوط سوداء ، وكان يحمل في يده راية سوداء كان النبي (ص) قد أعطاه اياها . وكانت في يوم ما تخص النبي (ص) وكانت تعرف باسم «العقاب» .

وسار مع خالد تسعة آلاف من المحاربين الشجعان المتمرسين في القتال الذين اشتركوا في عدة معارك ناجحة ، وهم مستعدون للتضحية بأرواحهم

عند صدور الاوامر من قائدهم المحبوب . وسار مع هذا الجيش أيضا بعض القادة الصغار الذين أثبتوا شجاعة نادرة ، وهم على استعداد لصنع المعجزات وتحدي الموت . كان في هذا الجيش ابن خالد ، عبد الرحمن . وفيه رافع بن عميرة دليل خالد بن الوليد في اثناء « المسير الصعب » ، وهو محارب جبّار ، وزوج ابنة خالد . كذلك كان القعقاع بن عمرو ، الذي أرسله أبو بكر لتعزيز خالد في معركة سابقة ، وفيه ضرار بن الأزور وكان شابا نحيلا ، قوي البنية ، يفيض حيوية ، ويشتعل حماسة يستطيع ان يلهب بها أي رجل منهك القوى ويجعله يندفع الى القتال . وقد أصبح ضرار فيما بعد الساعد الايمن لخالد . حيث اسندت اليه بعد ذلك معظم المهام الصعبة ، وأظهر رجولة وتحديا للموت بشكل يدعو الى التقدير والاعجاب .

بعد منتصف النهار بقليل ، وصل جيش خالد الى « سوى » وكانت أول قرية قرب حدود الشام ، وواحة محاطة بمنطقة معشوشبة تستخدم لرعي قطعان الماشية . واجتاز خالد هذه القرية ، بعد أن قضى على جميع المقاومات فيها ، وساق أمامه قطعان الماشية التي كانت في المراعي لاطعام جيشه .

وفي اليوم التالي وصل الجيش الى « أرك » وهي مدينة محصنة كانت تدافع عنها حامية من العرب النصارى بامرة قائد من الروم . وعندما تحصنت الحامية داخل الحصن لدى مشاهدتها المسلمين ، فرض المسلمون الحصار على « أرك » . وهنا أدرك خالد مدى شهرته المنتشرة خارج حدود الاراضي التي حارب فيها . وكانت شهرته كفيلة بأن تؤدي الى استسلام الحامية بدون قتال .

وكان يعيش في « أرك » رجل حكيم كبير السن ، على علم بأحداث العالم وشؤونها . وعندما أخبر بوصول جيش الثورة الاسلامية عبر الصحراء ، سأل قائلا : « هل راية الجيش سوداء ؟ وهل قائد هذا الجيش طويل القامة ، قوي البنية ، عريض المنكبين ، ذو لحية كبيرة ، على وجهه بعض آثار مرض

الجدري[1] ؟» فأكد الذين شاهدوا خالدا وهو يتقدم مع جيشه هذه الاوصاف . فقال الرجل الحكيم : «اذن اياكم ومحاربة هذا الجيش» .

لقد عرض قائد الحامية الروماني تسليم الحصن، ودهش للشروط السخية التي قدمها المسلمون . فما على أهل أرك سوى دفع الجزية . وتم توقيع الاتفاق واستسلم الحصن ، وعسكر جيش المسلمين خارجه لقضاء الليل .

وفي اليوم التالي أرسل خالد مجموعتين لاخضاع السخنة وكدمة (تعرف اليوم باسم «كديم»). وأرسل في آن واحد رجلا على بعير ليفتش عن أبي عبيدة في منطقة الجابية ويخبره ان يبقى في مكانه حتى يصل خالد أو تلقي تعليمات جديدة. ثم سار خالد بباقي جيشه الى تدمر.

وعندما وصلت المجموعتان اللتان أرسلها خالد الى السخنة ، وكدمة ، استقبلها السكان بالترحيب والفرح بعد أن سمعوا بالشروط السخية التي قدّمت في اليوم السابق الى «أرك» . وكانوا حريصين على اقامة علاقات ودية بجيش المسلمين. لذلك ساد الهدوء وعادت المجموعتان بدون اراقة دماء .

وفي تدمر ، أغلقت حاميتها باب الحصن . وعندما وصل المسلمون وأحاطوا به بدأت المفاوضات لتسليمه بدون قتال . ووافق أهل تدمر على دفع الجزية واطعام جنود المسلمين الذين يمّرون بمدينتهم وايوائهم . كما ان زعيم تدمر العربي قدّم حصانا هدية الى خالد ، وقد استخدمه خالد في معارك عدة قادها في هذه الحملة .

وسار الجيش من تدمر الى القريتين ، وقاوم أهل القريتين الفاتحين المسلمين فتمّت محاربتهم وهزيمتهم.

توقف الجيش في «حوّارين» (وتقع بعد القريتين بعشرة أميال») ، وفيها قطعان كبيرة من الماشية . وبينما كان المسلمون يجمعون المواشي ، قام العرب النصارى بمهاجمتهم . وكان هؤلاء من السكان المحليين المعزّزين بقوات من

---

(١) — الواقدي — صفحة ١٥ .

الغساسنة قدمت من بصرى لنصرتهم . وقد تمّت هزيمتهم أيضا .

وفي صباح اليوم التالي تابع خالد تقدمه باتجاه دمشق ، وبعد مسيرة ثلاثة أيام وصل الجيش الى ممّر يقع بين عدرا والقطيفة (الحاليتين) ويجتاز هذا الممر قمـة جبلية منحدرة ترتفع تدريجيا حتى تصل الى ارتفاع يفوق سبعمائـة متـر عن مستـوى الأراضي المحيطـة بها ، وهذه القمة الجبلية جزء من السلسلة الجبلية التي تعرف باسم : «جبل الشرق» ، الذي هو فرع من سلسلة جبال لبنان الشرقية ، وتمتد باتجاه شمال شرق الى تدمر . والممر نفسه ليس كبيراً ولكنه طويل . ووقف خالد على أعلى جزء من الممر ، وركز فيه رايته . ونتيجة لذلك أصبح الممر يعرف باسم : «ثنية العقاب» ، أي ممر العقاب ، نسبة الى راية خالد التي تسمى «العقاب» [1] ، مكث خالد في هذا الممر ساعة كاملة ورايته تخفق فوقه ، وأخذ ينظر الى غوطة دمشق . ولم يستطع خالد من مكانه في الممر أن يرى دمشق نفسها ، فالأرض المرتفعة التي تمتد من الشرق الى الغرب ، والشمال كانت تخفيها ، وقد أعجب خالد بجمال الغوطة وغناها .

تحرك خالد من ممر العقاب الى مرج راهط ، وهي مدينة غسانية كبيرة قرب عدرا (الحالية) على الطريق الى دمشق . ووصل المسلمون في الوقت المناسب ليشاركوا الغساسنة في مهرجان كانوا يحتفلون به في مرح ، ولكن هذه المشاركة كانت على شكل اغارة عنيفة . ففي مرج راهط ، تجمع عدد كبير من اللاجئين الذين فروا من المنطقة التي كانت مسرحا لعمليات خالد منذ فترة وجيزة ، واختلط هؤلاء اللاجئون بالجماهير المحتفلة بالمهرجان . ولم يكن الغساسنة غير مكترثين بالخطر الذي سبّبه دخول خالد الى بلاد الشام . فقد وضعوا قوات تغطية قوية على الطريق من تدمر ، أسفل الممر ، ولكن قوات التغطية هذه انهارت في دقائق أمام هجوم خيّالة المسلمين الخاطف . ومع ان مقاومة الغساسنة استمرت في اثناء تقدم المسلمين ، الا انها توقفت عند وصول المسلمين الى المدينة وقيامهم بالاغارة عليها . وبعد ان جمع

(١) — رسم الثنايا حاليا .

المسلمون كمية كبيرة من الغنائم وعددا من الاسرى ، انسحب خالد من المدينة وعسكر خارجها .

وفي صباح اليوم التالي أرسل خالد بمجموعة راكبة قوية نحو دمشق للاغارة على الغوطة . وبعد أن أرسل رسولا يحمل تعليمات الى ابي عبيدة في بُصرى ، توجه مع القوة الرئيسية الى بصرى ، (مارا من الشرق) متجنبا دمشق . ووصلت المجموعة الراكبة التي أرسلت الى دمشق ضواحي المدينة ، واستولت على المزيد من الغنائم والاسرى ، ثم عادت وانضمت الى خالد وهو في طريقه الى بصرى.

انتهت بذلك العمليات الثانوية التي جرت بعد دخول خالد الى بلاد الشام .

كان أبو عبيدة قد احتل منطقة حوران التي تقع شمال شرق نهر اليرموك وكان بامرته ثلاثة ألوية من جيش المسلمين وهي لواؤه، ولواء يزيد ، ولواء شرحبيل ، لكنه لم يخض أية معركة ولم يستول على أية مدينة . وكان يقلقه كثيرا مكان واحد هو « بصرى » ، وبصرى مدينة كبيرة ، وهي عاصمة مملكة الغساسنة ، وفيها قوة كبيرة من الروم والعرب النصارى بامرة قادة من الروم .

وبينما كان خالد ينظف المنطقة الشرقية من بلاد الشام ، علم أبو عبيدة بأنه سيصبح تحت امرة خالد عند وصول الأخير. لذلك قرر أن يستولي على بصرى بسرعة ، لكي لا يهتم بهذه المشكلة . فأرسل شرحبيل في الحال مع أربعة آلاف رجل للاستيلاء على بصرى. وسار شرحبيل اليها، وما أن وصل المسلمون حتى انسحبت الحامية الى المدينة المحصنة . وكانت الحامية تتألف من اثني عشر ألف جندي ، ولكن نظرا لتوقعها وصول المزيد من قوات المسلمين ؛ على اعتبار ان قوة شرحبيل عبارة عن حرس مقدمة ، بقيت داخل أسوار الحصن . وعسكر شرحبيل على الجانب الغربي من المدينة ، ووضع جماعات من رجاله حول الحصن من جميع الاتجاهات .

لم يحدث أي شيء لمدة يومين . وفي اليوم التالي ؛ عندما استأنف خالد المسير الى بصرى في يومه الاخير ؛ خرجت الحامية من المدينة للدخول في

معركة مع المسلمين خارج الاسوار. وانتظمت القوتان بترتيب المعركة، ولكن جرت في البدء محادثات بين شرحبيل والقائد الروماني، حيث عرض شرحبيل على قائد الروم أن يختار احدى ثلاث: الاسلام، أو الجزية، أو السيف. فاختار قائد الروم السيف، وعند الضحى بدأت المعركة.

استمر القتال ساعتين دون أن يحرز أي من الطرفين نجاحا بارزا، وعند الظهر بدأ يظهر تفوق الروم العددي واتجه القتال لصالحهم. واستطاع الروم أن يرسلوا قوات للاحاطة بأجناب المسلمين، وزادت حدّة القتال وضراوته. وعندما شعر المسلمون بالخطر المحدق بهم قاتلوا بشكل منقطع النظير لمنع الروم من تطويقهم، حيث كان الروم يهدفون الى ذلك بوضوح. وبعد الظهيرة تقدم جناحا الروم الى الأمام، وبات تطويق قوات شرحبيل أمرا مؤكدا. وفجأة لاحظ المتحاربون قوة هائلة من الخيالة تعدو بمجموعات كبيرة نحو ميدان المعركة وهي قادمة من الاتجاه الشمالي الغربي. وكان أمام هذه القوة رجلان يلوحان بسيفيهما، وكان احدهما ضخما يرتدي عمامة حمراء.

كان خالد على بعد ميل واحد من بصرى عندما حملت اليه الريح أصداء المعركة. وفي الحال أمر رجاله بركوب الخيل، وعندما أصبحت الخيالة جاهزة، انطلق بها عدوا نحو ميدان المعركة. وكان يعدو بجانبه على فرسه عبد الرحمن بن أبي بكر. لكن خالدا لم يتقابل مع الروم أبدا. فحالما اكتشف الروم وصول خيّالة المسلمين، قطعوا التماس بشرحبيل وانسحبوا بسرعة الى الحصن. واعتبر جنود شرحبيل ذلك معجزة: فسيف الله قد أرسل اليهم لانقاذهم من الدّمار.

كان شرحبيل رجلا شجاعا ومسلما تقيا في منتصف الستينات من عمره. وكان من أصحاب رسول الله (ص) المقربين، وكان أحد الذين يكتبون القرآن الذي انزل على النبي (ص)، ولذلك أصبح يعرف باسم «كاتب رسول الله». وكثيرا ما كان يخاطب بهذا الاسم. وكان شرحبيل ايضا قائدا عسكريا سليم المنطق، وقد تعلم الكثير من فنون الحرب على يدي خالد

عندما حارب بامرته في اليمامة وفي حملة العراق .

بنظرة فاحصة سريعة أدرك خالد مقدار قوة المسلمين وقوة الروم وتعجب لعدم انتظار شرحبيل وصوله قبل ان يشتبك بحامية بصرى . وعندما تقابلا بسرور وترحيب قال خالد لشرحبيل : «ألا تعلم ان هذه مدينة هامة تضم حامية قوية بأمرة قائد شهير؟ لماذا تزج بنفسك في المعركة بهذه القوة الصغيرة؟» .

فأجاب شرحبيل : «بناء على أوامر أبي عبيدة» . فقال خالد : «ان أبا عبيدة رجل نقي السريرة ، لكنه لا يعرف فنون الحرب [1]» .

وفي صبيحة اليوم التالي خرجت الحامية الرومانية من الحصن للقتال . فالصدمة التي تلقاها الروم في اليوم السابق لدى وصول خالد ، قد زال اثرها ، اذ انهم عندما رأوا ان جميع قوات المسلمين التي أمامهم تقارب قواتهم حجما ، قرروا ان يجربوا حظهم مرة أخرى . كذلك توقعوا ان يحاربوا ويهزموا المسلمين قبل أن ينالوا قسطا من الراحة بعد سيرهم الطويل . ولكنهم لم يعرفوا أنهم ، مع خالد ، غير معتادين على الراحة .

وانتظم الجيشان بترتيب المعركة على السهل الموجود في ظاهر المدينة . أخذ خالد قيادة القلب ، وعيّن رافع بن عميرة قائدا للجناح الأيمن وضرار بن الأزور قائدا للجناح الأيسر. في بدء المعركة تبارز عبد الرحمن مع قائد جيش الروم وهزمه . وعندما هرب القائد الروماني الى صفوف جيشه ، شن خالد هجوماً عاما على طول المواجهة . وقد قاوم الروم بشجاعة فترة من الوقت . وفي غضون ذلك كان جناحا المسلمين يدمران جناحي الروم ، وضرار خاصة ، الذي أصبح مشهورا منذ هذه الموقعة في الحملة على بلاد الشام ، يحبه جنود المسلمين ويخشى بأسه الروم . وبسبب شدة الحرارة في هذا اليوم القائظ ، خلع ضرار درعه المصنوع من الزرد ، فشعر بخفة الحركة والسعادة ، ثم خلع قميصه وأصبح صدره مكشوفا . فازداد احساسه بخفة الحركة والسعادة . وانقض ضرار على الروم وأعمل فيهم السيف وقضى على

(١) — الواقدي — صفحة ١٧ .

كل رومي تقدم نحوه في مبارزة فردية . وفي غضون أسبوع انتشرت أخبار البطل العاري الصدر في أرجاء بلاد الشام ، ولم يعد يجرؤ على مبارزته من الروم سوى أشجع الفرسان .

وبعد قتال دام فترة من الوقت بين الجانبين . قطع الروم التماس وانسحبوا الى الحصن ، وكان خالد يقاتل مترجلا أمام قلب جيشه . وبينما كان يهمّ بالذهاب لاصدار الأوامر من أجل بدء الحصار . رأى خيّالا يقترب من بين صفوف المسلمين .

كان هذا الخيّال في أوائل الخمسينات من عمره . طويلا . نحيلا . ذا انحناءة خفيفة . وكان وجهه النحيف واضح القسمات جذّابا . وكانت عيناه تنمّان عن الفهم والوداعة . وكانت لحيته الدقيقة مخضبة بالحناء . وكان يحمل في يده راية لا يحملها الا القادة . وكان الدرع الذي يرتديه لا يخفي بساطة الملابس التي يرتديها . وعندما كان يبتسم لخالد . ظهرت فجوة في أسنانه الأمامية [1] .

وكانت هذه الفجوة موضع حسد جميع المسلمين . هذا الخيّال هو أبو عبيدة بن الجراح .

كان أبو عبيدة بن الجراح من أعزّ المسلمين الى قلب رسول الله (ص) . وقد قال عنه النبي (ص) يوماً : (لكل أمة أمين . وأمين هذه الأمة أبو عبيدة [2]). وبعد ذلك أصبح يعرف باسم «أمين الأمة» . وكان أحد العشرة المبشرين بالجنة .

هذا هو الرجل الذي وضع تحت قيادة خالد ، وقد نظر اليه القائد الجديد بامعان وهو يقترب نحوه . فقد كان خالد يعرف أبا عبيدة جيداً في المدينة ، وكان يحبه ويحترمه لفضائله الكثيرة ولورعه وتقاه . كما ان أبا عبيدة كان يحب خالدا حبّ النبي (ص) له . ووجد فيه أداة عسكرية اختارها الله

---

(١) — كانت هذه الفجوة موضع حسد جميع المسلمين لأن أبو عبيدة فقد قواطعه عندما كان يسحب حلقتين من حلق خوذة النبي (ص) انغرزتا في وجنة الرسول العربي (ص) في غزوة أحد . ويقال بأن أبا عبيدة كان أوسم من كانوا بدون قواطع (راجع ابن قتيبة ص ٢٤٧) .

(٢) — ابن قتيبة — صفحة ٢٤٨ .

لسحق الكافرين . واطمأن خالد لابتسامة أبي عبيدة . وعندما اقترب أكثر بدأ أبو عبيدة بالترجل عن فرسه ، لأن خالدا كان لا يزال مترجلاً . فقال له خالد : «ابق على فرسك» ، وبقي أبو عبيدة على فرسه . فسار خالد اليه وتصافح القائدان الكبيران .

وبدأ أبو عبيدة الحديث قائلاً : «يا أبا سليمان ، لقد تلقيت بسرور كتاب أبي بكر بخصوص تعيينك قائداً علي . ولا يوجد غل في صدري ، لأنني اعرف مهارتك بشؤون الحرب» .

فأجاب خالد : «والله لولا ضرورة اطاعة أوامر الخليفة لما قبلت أبداً ان اتأمر عليك . فأنت أعلى منزلة مني في الاسلام . انني من أصحاب رسول الله . أما أنت فقد دعاك الرسول : أمين هذه الأمة» . واعتباراً من هذه اللحظة أصبح جيش الثورة الاسلامية بامرة خالد .

فرض المسلمون الحصار على بصرى . وفقد قائد الروم الأمل ، لأنه كان يعلم ان معظم الاحتياط المتوافر ، اما قد تحرّك الى اجنادين أو في الطريق اليها ، وشك في امكانية وصول أية مساعدة اليه . وبعد بضعة أيام من الهدوء ، سلّم الحصن بدون قتال ، والشرط الوحيد الذي فرضه خالد على بصرى هو دفع الجزية . وجرى الاستسلام عند منتصف تموز عام ٦٣٤م. (منتصف جمادي الأولى عام ١٣ هجري) .

كانت بصرى أول مدينة هامة استولى عليها المسلمون في سورية ، بعد معركة خسروا فيها مائة وثلاثين رجلاً في يومين من القتال . أما خسائر الروم والعرب النصارى فلم تعرف . وكتب خالد الى أبي بكر يعلمه بانجازاته وانتصاراته منذ دخوله الى بلاد الشام ، وأرسل خمس الغنائم التي تم الاستيلاء عليها خلال الأسابيع القليلة الماضية ، ولم تكد تستسلم بصرى حتى عاد كشاف ، أرسل من قبل شرحبيل الى منطقة اجنادين ، ومعه معلومات تشير الى تحشدات الروم الجارية هناك على قدم وساق . وانهم سيحشدون في أجنادين جيشاً كبيراً يبلغ تعداده تسعين ألفاً . وأدرك خالد على الفور انه ينبغي عليه ان لا يضيع الوقت .

في هذا الوقت كان يزيد بن أبي سفيان لا يزال جنوب نهر اليرموك ، وكان عمرو بن العاص لايزال في وادي عربة، وكانت مفارزعدة من لوائي شرحبيل وأبي عبيدة منتشرة في منطقة حوران . فكتب خالد الى جميع القادة للبدء بالتحرك فوراً والتحشد في اجنادين ، وسار المسلمون ومعهم زوجاتهم وأطفالهم وعدد كبير من قطعان الماشية التي كانت بمثابة احتياط تعيينات متحرك .

٣ ــ معركة اجنادين :

في الأسبوع الثالث من تموز عام ٦٣٤م، سار جيش المسلمين من بصرى ، وكان منظر مسير هذا الجيش مدهشاً ، فهو لا يشبه أي جيش نظامي . وكان تقدمه يشبه مسيرة ثورية أكثر من مسير قوة عسكرية .

فجنود هذا الجيش لا يرتدون زياً موحداً ، ولم يكن لديهم اشارات تدل على الرتب للتمييز بين الرئيس والمرؤوس . وفي الحقيقة لم يكن يوجد قادة بمعنى التسلسل العسكري حتى ذلك الوقت ، لأن القيادة كانت منصباً وليست رتبة . فأي مسلم يستطيع ان ينضم الى جيش المسلمين . وبغض النظر عن المركز القبلي لهذا المسلم فان انضمامه الى الجيش يعد شرفاً له . ويمكن ان يحارب الرجل كجندي عادي في أحد الأيام ثم يصبح قائداً لكتيبة في اليوم التالي ، أو حتى قائداً لقوة أكبر . وكان القادة يعينون لقيادة معركة أو حملة . وعند انتهاء العملية يعود هؤلاء الى صفوف الجنود مرة أخرى . وكان الجيش منظماً على النظام العشري ، وهو نظام بدأه النبي (ص) في المدينة [١] . فكان هناك قائد لكل عشرة رجال ، ولكل مائة رجل ، ولكل ألف رجل . وكان تنظيم الألف رجل يقابل تنظيم الكتيبة . وكان تجميع عدد من الكتائب لتشكيل قوة أكبر أمرا مرناً يتغير بتغير الموقف العملياتي .

أما الأسلحة والمعدات لم يكن لها مقياس أو قاعدة ثابتة في الجيش . فالرجال يقاتلون بأسلحة ملكوها شراء أو من الأعداء الذين سقطوا في

---

(١) الطبري ــ الجزء ٣ ، صفحة ٨ .

المعركة . وكان لديهم جميع الأسلحة المعروفة في ذلك الوقت مثل : الرمح ، والحربة ، والمزراق ، والسيف ، والخنجر ، والقوس ، كما كانوا يرتدون دروعاً من الزرد وخوذاً من السلاسل ، بألوان وتصاميم مختلفة ، وفي الحقيقة كان معظمها مأخوذا عن الفرس والروم . وكان معظم الرجال يركبون الابل ، أما الذين يملكون الخيل فقد كانوا يشكلون مفارز الخيالة .

وكانت هنالك سمة بارزة لتحرك هذا الجيش الكبير وهي عدم وجود خطوط مواصلات وراءه . أي أنه لم يكن وراءه خطوط تموين ، إذ لا قاعدة شؤون ادارية له . فطعام الجيش كان ينقل معه ، واذا نفد اللحم ، يستطيع الرجال والنساء والأطفال ان يعيشوا أسابيع على تعيين بسيط مكون من التمور والماء . فمثل هذا الجيش لا يمكن عزله عن قواعد تموينه . اذ ليس لديه مستودعات تموين . وهو لا يحتاج الى طرق لتحركه ، لأنه لا يملك عربات نقل وكل شيء يحمل على الابل . لذا فان بامكان هذا الجيش ان يذهب الى أي مكان ويجتاز جميع أنواع الأراضي عبر أي ممر أو مدق يستطيع الرجال والحيوانات المرور فيه . ان سهولة الحركة هذه أعطت جيش الثورة الاسلامية ميزة كبيرة على الروم من حيث خفة الحركة والسرعة .

وعلى الرغم من أن هذا الجيش تحرّك على شكل مسيرة وأعطى انطباعا انه عبارة عن حشد غير مدرب ، الا انه من وجهة النظر العسكرية كان مثار اعجاب . فعندما تقدم الجيش أرسل أمامه حرس مقدمة متحرك بقوة كتيبة أو أكثر . ثم تحركت القوة الرئيسية للجيش خلف حرس المقدمة ، وتحركت خلف القوة الرئيسية النساء والأطفال والمتاع على ظهور الجمال . وفي نهاية هذا الرتل، تحرك حرس المؤخرة. كانت الخيل تجري في المسيرات الطويلة، ولكن اذا كان هنالك أي خطر قد ينجم عن تدخل العدو في أثناء السير ، كان الرجال يركبون صهوات خيولهم ، ويتقدمون جاعلين من أنفسهم حرس مقدمة أو حرس مؤخرة ، أو يتحركون على احدى المجنبات ، ويتوقف ذلك على الاتجاه الأكثر خطراً . وعند الحاجة ، يستطيع الجيش ان يختفي في نحو ساعة ويصبح آمناً على مسافة خلف أرض صعبة لا يستطيع العدو

اجتيازها . على هذه الصورة سار المسلمون من بصرى .

لم تذكر المصادر التاريخية الطريق الذي سلكه الجيش ، ولكن المرجح انه يقع شمال البحر الميت ، لأن الجيش وصل الى اجنادين قبل لواء عمرو ابن العاص، الذي انضم الى الجيش في اجنادين. فلو ان الجيش سار جنوب البحر الميت، لتقابل مع عمرو بن العاص، الذي كان مايزال في وادي عربة ، على الطريق . ومن المحتمل ان يكون الجيش قد سار عبر جرش وأريحا ، ثم التف حول القدس ، التي كانت محمية بقوة من قبل الروم . واجتاز الجبال الممتدة الى الجنوب منها ، ثم انحدر الى سهل اجنادين . ووصل اليها في الرابع والعشرين من تموز. وفي اليوم التالي وصل الى اجنادين عمرو بن العاص ، الذي تحرك من وادي عربة بناء على أوامر خالد ، وكان فرح عمرو بالوصول لا يوصف . فقد كان في حالة من القلق اسابيع عدة، لأنه كان يتوقع ان تهب العاصفة المتجمعة في اجنادين فوق رأسه في أي يوم .

أقام المسلمون معسكراً، وهذا عمل كبير في جيش هائل بلغ عدده اثنين وثلاثين ألف رجل ، وهو أكبر جيش اسلامي احتشد لخوض معركة . أقيم المعسكر على بعد زهاء ميل من معسكر الروم الذي كان أكبر من معسكر المسلمين ، ويسيطر على طريق القدس — بيت جبرين . وكان المعسكران يمتدان متقابلين متوازيين بحيث يسهل على كليهما المبادرةُ الى الهجوم بدون تحركات غير ضرورية .

استغرق حشد جيش المسلمين في اجنادين اسبوعا ، بينما استغرق حشد الروم فيها أكثر من شهرين . فجيش الروم ، مثله مثل أي جيش نظامي ، احتاج الى وقت لاجراء تحركاته ، واستغرق أسابيع في الإستعدادات مثل : تكديس المؤن ، والعربات والخيل ، وتوزيع الأسلحة والمعدات . واذ كان جيش الروم يتحرك على آلاف العربات والمركبات ، فقد احتاج الى طرق جيدة للتحرك عليها ، واستطاع الروم ان يحشدوا في غضون الشهرين المذكورين جيشاً مؤلفاً من تسعين ألف رجل ، في اجنادين ، بقيادة

«وردان» ، حاكم حمص ، وكان يعاونه قائد آخر هو القبقلار، نائبه .

سار المسلمون الى اجنادين بمحض اختيارهم. ولبقاء جيش الروم في اجنادين لم يكن ثمة أي خطر يتهدد ألوية المسلمين. فلو قام الروم بتحرك الى الأمام ، لهددوا في هذه الحالة المسلمين. ولكانت استراتيجية العرب المنطقية عندئذ تقضي بأن يتراجعوا الى الجزء الشرقي أو الجنوبي من الأردن ويخوضوا المعركة وظهرهم مستند الى الصحراء التي يستطيعون الانسحاب اليها في حالة خسارة المعركة .

في هذه الحالة ، لماذا تحرك جيش المسلمين من الصحراء وتوغل في أعماق منطقة خصبة ومأهولة لمواجهة جيش الروم الذي يفوقه بثلاثة أضعاف ؟ ان الجواب يكمن في شخصية خالد . كان قدره المحتوم ان يخوض المعارك ، وكانت هذه المعارك تجذبه كالمغناطيس . وقد قال ، وبعد اثني عشر قرناً قائد مشهور هو نابليون : «لا شيء يسعدني أكثر من خوض معركة كبيرة» ، وكذلك كان الأمر مع خالد . فلو كان قائد جيش المسلمين غيره ، لما غامر في التحرك الى اجنادين .

وعلى مر الأيام ، ظهر ان قرار خالد كان صواباً . فمع وجود جيش كبير في اجنادين ، من الممكن ان يبقى المسلمون مثبّتين في المنطقة التي احتلوها ، وهذه المنطقة كانت قليلة الاهمية . لذلك كان من الضروري التخلص من التهديد الروماني الذي خطط بدهاء من قبل هرقل .

وهكذا أصبح الجيشان وجها لوجه ، كلاهما في معسكره باجنادين . وكانت الحراسات والمخافر الأمامية مدفوعة من كلا الجانبين لمنع المفاجأة . وكان القادة يقومون باستطلاعاتهم الشخصية ، بينما كان الجنود يستعدون للمعركة .

كان لمنظر معسكر الروم الضخم وقع سيء في نفوس المسلمين . اذ كان كل شخص يعرف مدى قوة جيش الروم — وهي نحو تسعين ألفاً . وكانت غالبية المسلمين لم تشترك قط في معركة كبيرة . وكان الرجال الوحيدون الذين لم يتأثروا بقوة معسكر الروم هم جنود خالد ، البالغ عددهم تسعة آلاف ،

والذين خاضوا معارك نظامية ضد جيوش كبيرة في العراق ، حتى هؤلاء لم يسبق ان واجهوا مثل هذا الجيش الجرّار.

قام خالد بجولة تفقدية على الوحدات المختلفة في المعسكر وخاطب قادة الوحدات والجنود وقال : «اعلموا أيها المسلمون انكم لم تروا قط جيشاً للروم كما ترون اليوم . فاذا هزمهم الله على أيديكم ، فانه لن تقوم لهم قائمة . فاثبتوا في المعركة ودافعوا عن دينكم . واياكم ان تولوا الادبار ، لان من يولي الادبار يكون جزاؤه نار جهنم . كونوا يقظين وصامدين في صفوفكم ، ولا تهاجموا الا بأمر مني [1] » . كان لشخصية خالد والثقة بالنفس التي يتمتع بها أثر عجيب في رفع روح جنوده المعنوية .

وفي المعسكر المعادي ، عقد «وردان» مجلساً عسكرياً وخاطب قادته قائلاً : «أيها الرومان ، لقد وضع قيصر ثقته بكم . فاذا هزمتم ، فانكم لن تستطيعوا أبدا الوقوف أمام العرب ، وهم سوف يفتحون أرضكم ويسبون نساءكم فاصمدوا . وعندما تهاجموا ، هاجموا كرجل واحد ولا تشتتوا جهودكم . اطلبوا عون الصليب ، وتذكروا أنكم ثلاثة لكل واحد منهم [1] » .

وكجزء من الاستعدادات للمعركة ، التي لم تنشب في الحقيقة الا بعد مضي بضعة أيام ، قرر خالد ان يرسل كشافا جريئاً ليقوم باستطلاع لمعسكر الروم عن كثب . وتطوع ضرار لهذه المهمة فأرسل الى الامام بناء على ذلك . ركب ضرار حصانه ، بعد ان نزع قميصه وأصبح عاري الصدر ، وصعد الى تل صغير ليس بعيداً عن قلب معسكر الروم . وهناك شاهده الروم وأرسلوا مفرزة من ثلاثين محارباً لالقاء القبض عليه . وعندما اقتربوا منه ، بدأ ضرار بالعودة خببا الى معسكر المسلمين ، وعندما اقتربوا منه أكثر زاد في سرعته ، وكان هدف ضرار جذب هؤلاء الروم بعيداً عن معسكرهم ، بحيث لا يستطيع آخرون المجيء لنجدتهم . وعندما وصل الى بقعة بين الجيشين ، اتجه نحو مطارديه وبدأ بمهاجمة أقرب رجل برمحه ، وبعد ان

---

(١) — الواقدي — صفحة ٣٥ .

طرحه أرضاً ، هاجم ثانياً ، ثم ثالثاً ورابعاً واستمر في القتال ، وكان يناور بحصانه في أثناء القتال فلا يواجه سوى رجل واحد في كل مرة . واستخدم سيفه أيضاً ، وقيل بأنه قتل تسعة عشر من الروم قبل أن يهرب الباقون نحو معسكرهم . وفي تلك الليلة كان معسكر الروم يزخر بقصص البُطل ، العاري الصدر الشديد البأس .

وعندما عاد ضرار الى معسكر المسلمين قوبل بالترحيب والثناء ، لكن خالدا نظر اليه بغضب وأنّبه على اشتباكه بالروم لأن مهمته كانت ان يستطلع فقط .

بعد هذه الحادثة ، أرسل القبقلار ، نائب قائد الروم ، أحد العرب النصارى ليدخل معسكر المسلمين ، ويقضي يوماً وليلة مع المسلمين ، ويجمع كل المعلومات الممكنة عن قوة جيش المسلمين وسماته . ولم يجد هذا العربي النصراني أية صعوبة في دخول معسكر المسلمين . حيث ظنوه أحدهم وفي اليوم التالي عاد الى القبقلار فسأله بهذا عن المسلمين فقال العربي النصراني : « بالليل رهبان ، وبالنهار فرسان . ولو سرق ابن ملكهم ، قطعوا يده ، ولو زنى رجم لاقامة الحق فيهم » . فقال القبقلار : « لئن كنت صدقتني ، لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ولوددت ان حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم ، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي [1] » . وكان قائد الروم « وردان » متحمساً للقتال ، أما القبقلار فقد انهارت اعصابه .

وفي صباح الثلاثين من تموز عام ٦٣٤م . (الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٣ هجري) ، بعد ان انتهى الرجال من أداء صلاة الصبح ، أمر خالد بالتحرك الى مواضع المعركة ، وكانت قد أعطيت تعليمات مفصلة للقادة في اليوم السابق . فتحرك المسلمون الى الامام وفتحوا بتشكيل المعركة على السهل الكائن أمام معسكر الروم . كان جيش خالد يتجه نحو الغرب على مواجهة تبلغ زهاء خمسة أميال ، وقد فتح خالد على

---

(١) الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦١٠ .

هذه المواجهة الكبيرة لكي يحول دون تطويق مجنباته من قبل جيش الروم الكبير العدد . وكان ترتيب قتال جيش المسلمين يتألف من القلب وجناحين قويين . ودفع خالد احراس مجنبتيه على كلا جانبي الجناحين ليزيد في طول مواجهته وليمنع التفاف العدو حول الجناحين أو محاولته تطويق قوات المسلمين بكاملها .

وضع القلب بامرة معاذ بن جبل ، والجناح الأيسر بامرة سعيد بن عمير والجناح الأيمن بإمرة عبد الرحمن ، ابن الخليفة . ونعرف أيضاً ان حرس الجنب الأيسر كان بامرة شرحبيل : أما قائد حرس الجنب الأيمن فهو غير معروف لأنه لم يذكر في روايات المؤرخين . ووضع خالد خلف القلب أربعة آلاف رجل بامرة يزيد ، احتياطا ، وللحماية القريبة لمعسكر المسلمين الذي يضم النساء والأطفال . وكان مكان خالد قرب القلب ، واحتفظ بعدد من القادة بالقرب منه لاستخدامهم كأبطال أو كقادة مجموعات خاصة لتنفيذ أي مهام تطرأ في ميدان المعركة . وكان بين هؤلاء عمرو بن العاص ، وضرار ، ورافع وعبد الله بن عمر بن الخطاب .

وعندما شاهد الروم تقدم المسلمين ، خرجوا من أماكنهم وبدأوا بالفتح بترتيب المعركة على بعد « ١ كلم » من خط مواجهة المسلمين . وفتحوا بمواجهة المسلمين ذاتها تقريباً . لكن ترتيب قتالهم كان عميقاً ، وبالنسبة لتفاصيل ترتيب قتال الروم فهي غير معروفة لعدم ذكرها من قبل المؤرخين . ووقف وردان والقبقلار وسط حرسها الخاص في القلب . وكان منظر تشكيلات الروم الكثيفة ، وهي تحمل الصلبان والرايات ، يثير الدهشة والرهبة . وعندما فتح رجال خالد للمعركة ، سار خالد على فرسه على طول المواجهة لتفحص الوحدات ولاثارة حماسة المقاتلين في سبيل الله . وأكد خالد خلال هذه الجولة التفقدية على ضرورة تركيز الجهود في الوقت المحدد والهجوم كرجل واحد . وقال : « عندما تستخدمون أقواسكم ، دعوا السهام تطير من أقواسها كأنها تخرج من قوس واحد لتنهال على العدو كسرب من الجراد » . وتحدث خالد كذلك الى النساء في المعسكر واخبرهن ان يكن على

استعداد للدفاع عن أنفسهن ضد أي من الروم قد يستطيع اختراق جبهة المسلمين . فأكدن له ان هذا العمل هو أقل ما يمكن ان يفعلنه . وأخبرنه بغضب. ودلال انه لم يسمح لهن بالقتال في الصفوف الأمامية .

واستغرق الجيشان مدة ساعتين في الفتح بترتيب المعركة . وعندما أصبح الجيشان جاهزين للاشتباك ، خرج أسقف يرتدي قبعة سوداء من قلب جيش الروم ، وسار نصف المسافة بين الروم والمسلمين ثم صاح بأعلى صوته بلغة عربية فصيحة : « من منكم يتقدم ويتحدث معي ؟ » .

كان قائد المسلمين في تلك الأيام يقوم بنفسه بمهام إمام الجيش . لذا خرج خالد باتجاه الأسقف . فسأله هذا : « هل أنت قائد هذا الجيش ؟ » فأجاب خالد : « هكذا يعتبرونني طالما أطيع الله ورسوله . ولكنني اذا فشلت في هذا ، ليس لي حق الامارة عليهم وليس لي حق الطاعة » . ففكر الأسقف هنيهة ثم قال : « انكم بذلك تغلبوننا » . ثم تابع كلامه : « اعلموا أيها العرب أنكم قد فتحتم أرضا لم يجرؤ أي ملك على دخولها . ولقد دخلها الفرس ولكنهم عادوا بفزع . وجاء آخرون أيضاً وحاربوا لكنهم فقدوا أرواحهم . ولم يحصلوا على ما يبتغون . لقد انتصرتم علينا حتى الآن ، لكن النصر لن يكون حليفكم دوماً . وان سيدي ، وردان ، يرغب في أن يكون كريماً معكم . وقد أرسلني لاخبرك انك اذا أخذت جيشك من هنا ، فانه سيعطي كل رجل من رجالك دينارا وثوباً وعمامة . أما أنت فستعطى مائة دينار ومائة ثوب ومائة عمامة» . ثم تابع كلامه قائلاً : « أنظر . ان لدينا جيشاً جرّارا ، وهو ليس كالجيوش التي واجهتها من قبل . فقيصر أرسل مع هذا الجيش أشجع قادته واشهر أساقفته [1] » .

وكانت اجابة خالد ان على قائد الروم ان يختار احدى ثلاث : الاسلام ، أو الجزية ، أو السيف . وبدون ذلك لن يرضى المسلمون بترك بلاد الشام . أما فيما يتعلق بالدينار والملابس الفاخرة ، فقد نوّه خالد بأن المسلمين سيمتلكونها قريباً حقاً مكتسباً للفاتحين .

(١) — الواقدي — صفحة ٣٦ .

عاد الأسقف باجابة خالد الى قائده وردان وأخبره بكل ما سمع . فغضب قائد الروم وأقسم على سحق المسلمين بهجوم واحد كاسح .

أمر وردان صفا من النبالة ان يتقدم أمام مواجهة الروم بحيث يكون جيش المسلمين ضمن مدى رمي النبالة . وعندما تقدم صف نبالة الروم ، بدأ معاذ ، قائد قلب المسلمين ، باعطاء الأوامر لرجاله بالهجوم . ولكن خالدا أمره بالتوقف عن الهجوم وقال له : «لا تهجم حتى أعطي الأمر بذلك ، وهذا لن يكون قبل ان تنحرف الشمس عن كبد السماء [1] » .

كان معاذ يرغب في الهجوم لأن نبّالة الروم يملكون أقواساً جيدة ذات مدى أطول من مدى اقواس المسلمين . والطريقة الوحيدة لمعالجة الموقف هي الاقتراب من الروم . لكن خالداً لم يرغب في المغامرة بشن هجوم مبكر ضد فرق الروم المنظمة جيداً . وقبيل الظهر بساعتين ، بدأت المعركة برمايات نبالة الروم .

سارت هذه المرحلة من المعركة في غير صالح المسلمين ، اذ قتل وجرح عدد كبير منهم . وسر الروم لهذه النتيجة ، وانهالت السهام من الأقواس فترة من الزمن . ولما كان المسلمون غير قادرين على عمل أي شيء لتحويل الموقف لصالحهم ، أرادوا ان يهاجموا بالسيف والرمح ، لكن خالداً منعهم وكبح جماحهم . وأخيرا جاء ضرار العنيف الى خالد وقال له : «ولم الانتظار؟ والله سوف يظن عدونا اننا نخشاه . أعط الأمر بالهجوم ، وسوف نهاجم معك» . فقرر خالد ان يتبارز أبطال المسلمين مع أبطال الروم . في هذه المبارزة الفردية يتفوق المسلمون على الروم ، وهي مفيدة أيضاً في قتل أكبر عدد ممكن من قادة الروم ، وهذا مما يقلل فعالية جيش العدو . وقال خالد لضرار : «بامكانك ان تبدأ الهجوم يا ضرار» وانطلق ضرار الى الأمام ، وهو في غاية السرور .

كان الروم يقذفون النبال ، فلم ينزع ضرار درعه المصنوع من الزرد ولا خوذته ، وحمل بيده ترساً مصنوعاً من جلد الفيل ، كان في يوم ما ملكا

(١) الواقدي — صفحة ٣٦ .

لأحد الروم . وبعد ان أصبح في منتصف المسافة بين الروم والمسلمين ، توقف على فرسه ورفع رأسه وتحدى الروم للمبارزة . وعندما تقدم نحوه عدد قليل من أبطال الروم الذين قبلوا التحدي ، أسرع ضرار إلى نزع درعه وقميصه وأصبح عاري الصدر ، فعرفه الروم على الفور انه « البطل العاري الصدر » . وفي الدقائق القليلة التالية قتل ضرار عدة رجال من الروم كان بينهم قائدان ، أحدهما حاكم عمان والآخر طبرية .

بعد ذلك خرج من صفوف الروم عشرة من القادة الصغار وتقدموا نحو ضرار . فأرسل خالد عشرة من صناديد المسلمين فاعترضوا قادة الروم وقتلوهم . ثم خرج أبطال آخرون من كلا الجانبين ، بعضهم فرادى ، وبعض آخر جماعات . وازدادت حدة المبارزات شيئاً فشيئاً . واستمرت زهاء ساعتين .. وقد أعادت هذه المرحلة من المعركة التوازن بين الجانبين ، لأن معظم أبطال الروم قتلوا في المبارزات .

وبينما كانت المبارزات مستمرة ، وقد انقضى نصف النهار ، امر خالد بشن هجوم عام ، وتحركت صفوف المسلمين الى الأمام وانقضّت على جيش الروم . ودارت المعركة الرئيسية الآن بالسيف والترس .

لقد تم هذا الهجوم بشكل جبهي وتعذر القيام بالمناورة ، ولم يحاول أحد الجيشين ان يقوم بالالتفاف على مجنبات الجيش الآخر . وكان القتال يدور بين الجانبين على مسافة قريبة بعنف شديد واستمر كذلك بضع ساعات . وفي آخر النهار أصبح الطرفان منهكين فقطعا التماس بينهما وعاد كل منهما الى معسكره : وانتهت الأعمال القتالية لهذا اليوم .

كانت خسائر الروم مذهلة . وصعق قائد الروم « وردان » عندما علم بأن الآلاف من جنوده قد قتلوا في ميدان المعركة ، ولم يقتل من المسلمين سوى عدد قليل . فجمع مجلس الحرب وعبّر عن استيائه لنتيجة المعركة ، لكن قادته اقسموا انهم سيقاتلون حتى النهاية . وتبادل « وردان » الآراء مع قادته ، ومن بين الاقتراحات والآراء التي قدمت اليه ونالت استحسانه ، تدبير مؤامرة لقتل قائد المسلمين . وطبقاً لهذه الخطة ، يتقدم وردان شخصياً

الى الأمام في صباح اليوم التالي ، ويعرض السلام ويطلب من خالد ان يتقدم لبحث الشروط معه . وعندما يصبح خالد على مسافة كافية ينقض عليه وردان ، ثم ، عندئذٍ صدور اشارة من هذا ، ينطلق عشرة رجال يكونون مختبئين جيداً بالقرب منه وينقضون على قائد المسلمين ويقطّعونه ارباً . هكذا كانت المؤامرة . وكان وردان قائداً شجاعاً فوافق على الخطة . فالرجال العشرة سيختبئون في أماكنهم المحددة في أثناء الليل ، وسيلقّنون مهمتهم بحرص وحذر .

ثم أرسل قائد الروم أحد العرب النصارى ويدعى « داود » . وكان هذا الرجل يعمل ضمن أركان القائد الروماني . واعطاه تعليمات لكي يذهب الى جيش المسلمين ويقابل خالداً . وطلب منه ان يقول لقائد المسلمين ان دماء كثيرة قد أريقت وينبغي وقف القتال ، وعقد صلح بين الطرفين ، وان يتقابل خالد ووردان في صباح اليوم التالي في منتصف المسافة بين الجيشين لبحث شروط السلام . وينبغي ان يتقابل القائدان لوحدهما .

ذعر داود لسماع هذه التعليمات لأنها بدت مخالفة لأوامر هرقل التي تقضي بقتال المسلمين وقذفهم في الصحراء . لذلك رفض ان يقوم بهذه المهمة . فأخبره وردان بخطة المؤامرة لكي يقنعه بأن مهمته لا تتعارض وتعليمات الامبراطور الروماني .

لم تكد الشمس تشرق في صباح اليوم التالي حتى كان داود يتجه نحو جيش المسلمين ، الذي كان لا يزال يصطف بترتيب القتال ، وطلب ان يرى خالدا بخصوص سلام مقترح من قبل وردان . وحالما أخبر خالد بذلك ، خرج لرؤية داود ووقف ينظر اليه .

كان منظر خالد الذي يبلغ طوله حوالي مترين والذي يتميز بضخامة الجسم وقوة العضلات وهو يتفرس في وجه أي انسان يثير الرعب في قلبه . كما ان وجهه الصارم القسمات الذي لوّحته الشمس وغبار المعركة يبدو قاسياً في أعين من يعدهم أعداءه . وكان تأثير نظرات خالد على داود المسكين فعّالاً . فلم يصمد داود امام تفرس خالد فيه فتعجل في الكلام قائلاً : « أنا

لست رجل حرب . انني مبعوث فقط » . فاقترب خالد منه وأمره بالتكلم وقال له : « اذا كنت صادقاً فانك ستنجو . واذا كنت كاذباً فانك ستهلك » . فقال العربي النصراني : « ان وردان متألم من جرّاء اراقة الدماء غير الضرورية وهو يرغب في تجنب ذلك . وهو مستعد لتوقيع اتفاق معك وانقاذ أرواح الذين ما زالوا أحياء . ولن يكون هنالك قتال جديد حتى تنتهي المباحثات . وهو يقترح عليك ان تتقابلا لوحدكما في مكان ما بين الجيشين في صباح الغد ليبحث شروط السلام » .

فأجاب خالد : « اذا كان سيّدك ينوي الخداع ، فنحن والله أعرف منه في المكر والخداع . واذا كان يدبّر مؤامرة سريّة ، فانها ستعجل بنهاية وبابادة من تبقى منكم . أما اذا كان صادقاً ، فلن نوقّع على سلام الا بعد دفع الجزية . وبخصوص أي عرض مادي فاننا سنأخذه منكم قريباً على أية حال » .

كان لكلمات خالد ، وقد أطلقها بثبات وقوة ، تأثير عميق في نفس داود . فقال لخالد انه سوف يذهب وينقل رسالة خالد الى وردان . واتجه نحو صفوف الروم بينما كان خالد ينظر اليه وهو يقلب أفكاره بأن ما قاله له داود لايبدو كله صحيحاً. ولم يكد يذهب داود بعيداً حتى هتف في أعماقه هاتف وأدرك ان خالدا على حق . وان النصر سيكون حليف المسلمين ، وان الروم سيهلكون مهما فعلوا من مكر وخديعة . فقرر ان ينقذ نفسه وأسرته بالاعتراف بالحقيقة . لذلك عاد ثانية باتجاه صفوف المسلمين ووقف أمام خالد وكشف له مؤامرة الروم بكاملها ، وبالمكان الذي سيختبىء فيه الرجال العشرة وهو أسفل تل صغير يقع الى يمين قلب الروم . فوعد خالد بانقاذ داود وأسرته ، على ان لا يخبر وردان بأن المسلمين قد عرفوا بالمؤامرة . فوافق داود على ذلك . وهذا دليل قاطع على ان الدم لا يمكن ان ينقلب الى ماء لأن العرب عرب قبل ان يكونوا نصارى أو مسلمين .

وعندما عاد داود الى جيش الروم ، أخبر وردان عن حديثه الأول مع خالد وعن موافقته على الاجتماع الذي اقترحه وردان ، لكنه لم يخبره عن

الحديث الثاني . وسرّ وردان بأخبار داود .

فكّر خالد في بادىء الأمر بالذهاب وحده الى التل الصغير لقتل الرجال العشرة بنفسه . وكانت روح المغامرة تلح عليه ان يخوض مثل هذا القتال المجيد . ولكنه عندما بحث الأمر مع أبي عبيدة ، اقترح عليه ان لا يذهب وأن يرسل بدلاً عنه عشرة أبطال من المسلمين . فوافق خالد على هذا الاقتراح . واختار خالد عشرة من الأبطال المسلمين بينهم ضرار الذي عينه قائداً للعشرة . وأمر خالد ضراراً ان يكون مستعداً في صباح اليوم التالي ليندفع من الصف الأمامي للمسلمين ويعترض الرجال الروم العشرة ويقتلهم عند ظهورهم . ولم تكن روح المغامرة عند ضرار أقل منها عند خالد ، فأصرّ على ان يسمح له ولرجاله باستخدام ساعات الظلام ليفاجىء الرجال الروم وهم في أماكنهم مختبئون ، ثم يقتلهم في وكرهم . ولما كان خالد يعرف ضراراً حق المعرفة ، استجاب لطلبه . وقبيل منتصف الليل انطلق ضرار مع رجاله التسعة من المعسكر .

بعد شروق الشمس بقليل خرج وردان من صفوف الروم وهو يرتدي زياً رسمياً ويضع درعاً مرصعاً بالجواهر ، وقد تدلى على جنبه سيف مرصع بالجواهر . ثم تقدم خالد من قلب جيش المسلمين ووقف أمام وردان . وكان الجيشان فاتحين بتراتيب المعركة كاليوم السابق .

بدأ وردان المفاوضات بمحاولة لتخويف المسلمين . فأخذ يقلل من شأن العرب ، وبدأ بالحديث عن الظروف الصعبة التي يعيشونها ، وعن حالة الحرمان وشظف العيش التي تسود وطنهم . فكان جواب خالد حاداً وعنيفاً . اذ قال له : «أيها الرومي الكلب ! هذه فرصتك الأخيرة لتقبل الاسلام أو تدفع الجزية [1] » . عندئذ ، قفز وردان على خالد ، دون أن يستل سيفه ، وهو ينادي رجاله العشرة . ورأى وردان بأم عينه عشرة من الروم يأتون من خلف التل الصغير ويتجهون نحوه . كذلك رآهم خالد وانتابه الاضطراب ، لأنه كان يتوقع رؤية المسلمين يخرجون من خلف التل الصغير . ولم يكن قد

(١) — الواقدي — صفحة ٤١ .

اتخذ ترتيبات أخرى لحماية نفسه ، وأخذ يفكر بمصير ضرار وهل قابل أخيرا نِدّاً له . وعندما اقتربت مجموعة الرجال العشرة ، لاحظ وردان ان قائد هؤلاء «الروم» كان عاري الصدر ، عندئذ نزلت عليه الحقيقة نزول الصاعقة .

في الواقع ، ذهب ضرار مع رجاله التسعة أثناء الليل الى التل الصغير ، فقتلوا الرجال الروم العشرة بلا ضجة ، وبعد ذلك ، ارتدى ضرار ملابس الروم ودرعهم ، على سبيل المزاح . لكنه نزعها فيما بعد وعاد الى لباس القتال العادي الذي كان يرتديه . وعندما لاح الفجر ، أدّى هؤلاء المسلمون العشرة صلاة الصبح ثم انتظروا نداء القائد الروماني .

ترك وردان خالداً وتراجع الى الوراء وهو ينظر بيأس بينما كان المسلمون العشرة يحيطون بالاثنين . وتقدم الآن ضرار شاهراً سيفه . عندئذ توسل وردان الى خالد قائلاً «أتوسل اليك ، باسم الذي تعبده ، ان تقتلني بنفسك ، ولا تدع هذا الشيطان يقترب مني [1] » .

فأومأ خالد الى ضرار ، وارتفع سيف ضرار ليهوي على رأس وردان ويبتره .

كان أسلوب خالد في القتال يعتمد على التوقيت المناسب لشن هجومه ، فعندما يحصل على أية ميزة تكتيكية على خصمه ، يستغل هذه الميزة لأقصى حد ويشن الهجوم . وعندما لا تتاح له فرصة الحصول على أية ميزة تكتيكية ، ويرى امكان المناورة محدوداً ، عندئذ يلجأ الى التأثير النفسي فيقوم بقتل قائد جيش الخصم أو عدة قادة كبار ، وقبل ان يفيق العدو من صدمته المعنوية من جراء مثل هذه الخسارة يقوم بتوجيه ضربة قوية بجميع قواته في آن واحد . وهنا فعل خالد الشيء ذاته . فما كاد يقتل وردان حتى أمر خالد بشن هجوم عام : فاندفع القلب ، والجناحان ، واحراس المجنبة الى الأمام وهجموا على الروم ، الذين أصبحوا بقيادة القبقلار .

---

(١) — الواقدي — صفحة ٤١ .

وعندما تقابل الجيشان ، بدأت مرحلة أخرى من القتال القريب العنيف وازدادت حدّة القتال دون ان يحرز أي من الطرفين نجاحاً ملحوظاً . وكان المسلمون يضربون تشكيلات الروم بشدّة ، وكان الروم يقاتلون ببأس لصد هجوم المسلمين . وكان خالد وجميع قادته يقاتلون أمام جنودهم ، وكذلك فعل العديد من قادة الروم الذين كانوا مستعدين للموت دفاعاً عن مجد امبراطوريتهم . وتناثرت جثث القتلى في ساحة المعركة وكان معظمهم من الروم نتيجة للقتال الضاري الدائر بين الفريقين .

وأخيراً ، عندما بلغ الجانبان درجة الاعياء ، زج خالد احتياطه المؤلف من أربعة آلاف رجل بقيادة « يزيد » نحو القلب ، واستطاع المسلمون نتيجة لهذا التعزيز ان يخترقوا صفوف الروم في عدة أماكن على شكل أسافين عميقة اخترقت جيش الروم . وتقدمت مجموعة من قلب جيش المسلمين الى المكان الذي يقف فيه القبقلار ، وكان رأسه ملفوفاً بثوب ، فقتلوه . ويعتقد ان القبقلار أمر بأن يلف رأسه بالثوب لانه لم يستطع ان يتحمل مشاهدة مثل هذه المذبحة [1] . وبموت قبقلار ضعفت مقاومة الروم ، ثم سرعان ما انهارت كلية . وهرب الروم من ميدان المعركة .

كان الصمود والقتال ضد العرب المسلمين أسلم من الهرب أمامهم ، لأن عرب الصحراء كانوا ماهرين في مطاردة اعدائهم المنهزمين . وعندما بدأ الروم بالهرب ساروا في ثلاثة اتجاهات : بعضهم باتجاه غزة ، وبعض آخر باتجاه يافا ، أما المجموعة الكبيرة من الهاربين فقد اتجهت نحو القدس . وعلى الفور أرسل خالد خيّالته لمطاردة فلول العدو على الاتجاهات الثلاثة ، وقد فقد الروم على أيدي هؤلاء الخيالة أكثر مما فقدوه في قتال اليومين في سهل اجنادين . واستمرت مطاردة هؤلاء الهاربين حتى غروب الشمس ، حيث عادت الخيّالة الى معسكر المسلمين .

---

(١) . — الطبري — الجزء ٢ . صفحة ٦١٠ ، ٦١١ : «فلما رأى القبقلار ما رأى من قتال المسلمين قال للروم لفوا رأسي بثوب ، قالوا له : لم؟ قال : يوم البئيس لا أحب أن أراه ، ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا» فاجتز المسلمون رأسه ..

لقد تمزق شمل جيش الروم .

كان نصر المسلمين مؤزراً . لقد حارب الروم بأسلوب الكتلة الواحدة طبقاً لأساليب قتالهم النظامية ، فلم يهزموا فقط بل ذبحوا أيضاً بلا هوادة . فالجيش الروماني الذي تجمع في اجنادين لم يبق جيشاً ، على الرغم من تمكن عدد لا بأس به من الفرار ، ولا سيما من هربوا الى القدس ووجدوا الأمان داخل أسوارها . وتغلب اتباع الرسول العربي (ص) على البيزنطيين في أول مجابهة كبيرة بين العرب والبيزنطيين .

كانت معركة أجنادين عنيفة ، واتخذت طابع المعركة الكاملة ، إنما بلا مناورة . ولم يحاول جيش الروم القيام بأية حركة التفاف على أجناب جيش المسلمين . وكذلك جيش المسلمين ، لم يقم بأية حركة التفاف على أجناب الروم بسبب صغر جيشهم نسبياً ، أما المناورة ضد أجناب العدو ومؤخرته فكان بامكان المسلمين تنفيذها ولكن على حساب إضعاف القلب وهي مجازفة غير مأمونة ، لذلك لم يلجؤوا اليها . وعلى هذا الأساس فالمعركة كانت مواجهة جبهية بين كتل ضخمة من الرجال وتمكنت قيادة المسلمين وشجاعة ومهارة جنودهم من التغلب على فرق جيش الروم الضخمة . وكانت مناورة خالد الوحيدة المتاحة له هي توقيت هجماته لكي يستفيد من الموقف الراهن الى أقصى حد . وقد فعل خالد ذلك كما ذكر سابقاً . ولكن عندما كسر جيش الروم ، أظهر خالد ، كعادته ، كفاءة مدهشة بتنظيم المطاردة لقتل أكبر عدد ممكن من الروم قبل ان يصلوا الى مكان أمين .

لقد فتح النصر في معركة أجنادين الطريق الى فتوحات بلاد الشام . وهذه التي لا يمكن قهرها بمعركة واحدة ، لأن قوات كبيرة من الروم بقيت في مدن سورية وفلسطين، وبامكان الامبراطور الروماني ان يجلب الامدادات من جميع ارجاء امبراطوريته ، التي تمتد من أرمينيا الى البلقان . لكن أول صدام كبير مع الروم كان قد انتهى . وباستطاعة المسلمين الآن أن يسيروا في الفتوحات وهم على يقين بأنهم سيحققون الانتصارات في المعارك الكبيرة المماثلة التي ستجري فيما بعد .

بعد ثلاثة أيام خلت على المعركة ، كتب خالد الى أبي بكر يخبره بنتائجها ، وقدر اصابات الروم بخمسين ألف قتيل ، أما خسائر المسلمين فكانت أربعمائة وخمسين قتيلاً فقط [1] . وقتل في المعركة القائد العام لجيش الروم ، ونائبه ، وعدد كبير من القادة الكبار . وأخبر خالد الخليفة أيضاً أنه سيسير نحو دمشق قريباً . واستقبلت أنباء الانتصار في المدينة بالبهجة وصيحات «الله أكبر» ، وتطوع الكثيرون للاشتراك في الحرب المقدسة الجارية في بلاد الشام . وكان بين هؤلاء أبو سفيان وزوجته هند اللذان سافرا الى بلاد الشام للانضمام الى لواء أبنيهما يزيد ، وردّ أبو بكر على رسالة خالد وطلب منه ان يفرض الحصار على دمشق حتى يتم فتحها ، وطلب اليه بعد ذلك ان يهاجم حمص وانطاكية . ولكن ينبغي على خالد ان لا يتقدم أبعد من الحدود الشمالية لبلاد الشام .

كان هرقل في حصن عندما وصلته أنباء هزيمة الروم النكراء في اجنادين . وشعر هرقل بمدى الكارثة . فسافر الى انطاكية ، ونظراً لتوقعه بأن يقوم المسلمون بالتقدم الى دمشق ، فقد أمر بقايا جيش الروم في القدس (وليس حامية المدينة) باعتراض المسلمين في الياقوصة [2] وتأخير تقدمهم ، وفي آن واحد أمر قوات أخرى بالتحرك نحو دمشق لتعزيز هذه المدينة والاستعداد للحصار .

بعد معركة اجنادين بأسبوع ، سار خالد بجيش المسلمين نحو دمشق ، وسلك الطريق الواقع الى الجنوب من القدس لتحاشي المرور في هذه المدينة ، وفي فحل ، التي تضم حامية رومانية قوية ، ترك خالد سريّة خيالة بامرة أبي الاعور السلمي لتثبيت الحامية في الصحن ، وسار الجيش الى أن وصل الى ضفة نهر اليرموك عند الياقوصة ، حيث جوبه مرة أخرى بقوات من الروم على الضفة الشمالية . كان الروم بوضع لا يسمح لهم بابداء مقاومة جدية ، اذ ما زالوا تحت تأثير صدمة هزيمتهم في اجنادين ، وكانت مهمتهم

(١) — الواقدي — صفحة ٤٢ .

(٢) — وتعرف أيضاً بالواقوصة .

الرئيسية هي العمل كحرس مؤخرة فقط لكسب وقت أطول من أجل تحصين دمشق . ومع ذلك ، لم تنشب المعركة في الياقوصة حتى منتصف آب عام ٦٣٤م. (منتصف جمادي الآخرة ، عام ١٣ هجري) ، وهزم الروم مرة أخرى .

وتقهقر الروم وتراجعوا بسرعة ، وزحف خالد نحو دمشق .

٤ — فتح دمشق :

كانت دمشق [1] تسمى فيحاء الشام . وهي حاضرة متألقة تحتوي كل ما يجعلها مدينة كبيرة وشهيرة ، ففيها الثروة ، والثقافة ، والمعابد ، والجنود . وهي أقدم مدينة حية في العالم . وكان يحيط بالجزء الرئيسي من المدينة سور ضخم يبلغ ارتفاعه أحد عشر متراً [2] . ولكن كان يوجد خارج الأسوار بعض الأحياء غير المحمية . وكان طول المدينة المحصّنة كيلومترين وعرضها كيلومتراً واحداً وكان لها ستة أبواب هي : الباب الشرقي ، باب توما ، باب الجابية ، باب الفراديس ، باب كيسان ، الباب الصغير . ويجري نهر بردى على امتداد السور الشمالي . وهو نهر صغير ليس له أهمية عسكرية .

في أثناء حملة الشام ، كان القائد العام لجيش الروم في دمشق يدعى « توماس » ، وهو زوج ابنة الامبراطور هرقل . وكان توماس مسيحياً ورعاً ، وكان أيضاً مشهوراً بشجاعته ومهارته في قيادة القوات بالاضافة الى ذكائه وثقافته . وكان نائبه قائداً عسكرياً يدعى « هربيس » ولا يعلم عنه الا القليل .

كان قائد حامية دمشق يُدعى « أدادير » . وهو جندي متمرس في القتال قضى معظم سني حياته في القتال في الشرق واكتسب شهرة في المعارك التي

---

(١) — دمشق : لفظة دمشق عربية الأصل وتعود في الأساس الى فعل : دمشق وكل معانيه تدل على السرعة ، دمشق الشيء : أسرع في بنائه . راجع : ابن عساكر ج ١ ، ص ١٧ — ١٨ .

(٢) — لقد ارتفع مستوى سطح مدينة دمشق أربعة أمتار منذ ذلك الحين ، وعلى هذا الأساس فان ارتفاع السور الآن يبلغ سبعة أمتار فقط فوق مستوى الأرض المحيطة به .

خاضها ضد الفرس والأتراك. وكان يعد بطلاً كبيراً وكان يفتخر بأنه لم يخسر أية مبارزة. ونظراً لأنه خدم في بلاد الشام مدة طويلة، فقد كان يتكلم اللغة العربية بطلاقة.

كانت حامية «دمشق» تتألف من حوالي اثني عشر ألف جندي. لكن دمشق نفسها لم تكن مهيأة كمدينة لأي حصار. ومع ان أسوارها وأبراجها كانت منسقة تنسيقاً جيداً، الا انه لم تتخذ أي ترتيبات لتخزين الطعام والعلف، وهذه الترتيبات تستغرق الأسابيع والشهور بالنسبة للحامية والسكان الكثيرين. وفي الحقيقة من الصعب أن يلام الروم على هذا الاهمال، اذ منذ هزيمة الفرس النهائية على يد هرقل في عام ٦٢٨م. لم يهدّد بلاد الشام أي خطر، ولم يشعر الروم بالخطر الحقيقي الذي بات يهددهم، الا بعد معركة اجنادين.

شرع هرقل، من مقر قيادته في انطاكية، بوضع الأمور في نصابها واعداد دمشق للحصار. وبعد ان أمر بقايا جيش أجنادين بتأخير المسلمين في الياقوصة، أرسل قوة قوامها خمسة آلاف جندي من انطاكية لتعزيز حامية دمشق. ووضعت هذه القوة تحت قيادة «كولوس». الذي وعد الامبراطور بجلب رأس خالد على سن رمح [1]. وصل كولوس الى دمشق خلال نشوب معركة الياقوصة. وبذلك ارتفع عدد حامية دمشق الى سبعة عشر ألفاً، ولكن كولوس وأدادير ما كانا على تفاهم ووفاق، بل كان كل منهما يتمنى الفشل للآخر. عمل توماس بدون كلل لاعداد المدينة للحصار. فجمعت المؤن من القرى المجاورة لتعزيز صمود الحامية والسكان في حالة قطع خطوط الامداد من قبل المحاصرين. وعلى الرغم من كل هذه الجهود لم يتم جمع المؤن الكافية لحصار طويل. وأرسل الكشافون لمراقبة تحرك المسلمين والابلاغ عن أي نشاط لهم، وأمرت القوة الرئيسية لجيش الروم بترك حراسات قوية واحتياط في دمشق، والاستعداد لخوض معركة خارج أسوار المدينة. وأساس الخطة هزيمة المسلمين ودحرهم قبل أن

(١) — الواقدي — صفحة ٢٠.

يتمكنوا من الاحاطة بالمدينة ، لكن أهالي دمشق كانوا ينتظرون وصول خالد بقلق كبير.

في هذا الوقت نظم خالد هيئة عسكرية ، هي بداية بسيطة لما سمي فيما بعد في التاريخ العسكري بـ« الأركان العامة » . فقد جمع من جميع المناطق التي حارب فيها وهي : الجزيرة العربية ، والعراق ، وسورية ، وفلسطين ، مجموعة صغيرة من الرجال الأذكياء اللامعين وجعلها تعمل كهيئة استشارية ، تماثل في عصرنا « ضباط الأركان » . وكان عملها الرئيسي يتعلق بالاستخبارات . فكانت هذه المجموعة تجمع المعلومات ، وتنظم ارسال العملاء واستجوابهم . وتجعل خالداً على علم دائم بآخر تطورات الموقف العسكري . كانت الاستخبارات من صور الحرب التي وجه خالد اهتمامه اليها . فكان دائماً متيقظاً وجاهزاً لاستغلال أية فرصة سانحة ، وكان يقال عنه : « لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه شيء [٢] » . لكن هذه المجموعة كانت بمثابة هيئة أركان شخصية أكثر منها هيئة أركان لقيادة الجيش ، فحيثما كان يذهب خالد ، رافقته هذه المجموعة.

أجرى خالد أيضاً تغييراً هاماً في تنظيم الجيش. فمن جيشه الذي كان معه في العراق ، والذي أصبح عدده بعد معركة أجنادين ثمانية آلاف رجل نظّم قوة من الخيّالة تعدادها أربعة آلاف فارس لتعمل « حرساً متحركاً » . وهذه القوة ، تساوي عدديا ما تبقى من جيش العراق الذي أصبح يتألف الآن من لواء واحد في قوام جيش المسلمين ، وضعت هذه القوة الجديدة تحت قيادة خالد الشخصية واعتبرت احتياطا متحركاً يستخدم في المعركة حسب متطلبات الموقف . وكان الحرس المتحرك هذا يتألف من خيرة الرجال في الجيش ــ انه « الصفوة المختارة » .

سار خالد من الياقوصة بلوائه ، الذي كان معه في العراق ، في مقدمة الجيش . ثم تبعته الألوية الأخرى ، والنساء والأطفال . وانضمت الى جيش المسلمين في بلاد الشام أسر المحاربين التي أرسلت من العراق الى المدينة

(١) ــ الطبري ــ الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٦.

قبل « المسير الصعب » . وبعد مسيرة ثلاثة أيام على طريق الجابية ، وصلت طلائع الجيش الى مرج الصفّر ، التي تبعد ٢٢ كيلومتراً عن دمشق . واكتشفت وجود جيش كبير من الروم يسد الطريق أمامها . وكانت قوة الروم هذه التي تتألف من اثني عشر ألف جندي يقودها «كولوس» «وأداديـر» قد أُرسلت الى الأمام من قبل توماس لخوض معركة خارج المدينة وطرد المسلمين بعيداً عن دمشق . واذا لم تنجح في ذلك عليها ان تؤخر تقدم المسلمين لكسب وقت أطول في تموين المدينة . ومن أجل قضاء الليل ، عسكر لواء المسلمين الذي كان في الطليعة على بعد٢ كم من مواقع الروم ، بينما كانت باقي الألوية ما تزال على مسافة بعيدة في الخلف .

يمتد مرج الصفّر جنوباً من الكسوة ، وهي قرية صغيرة تبعد اثنين وعشرين كيلومتراً عن دمشق على الطريق الحالي المؤدي الى درعا . وعند الطرف الجنوبي من الكسوة يوجد واد مليء بالشجر ومن هذا الوادي يمتد مرج الصفّر باتجاه الجنوب . وكان يوجد الى الغرب من الكسوة هضبة قليلة الارتفاع ، وأمام هذه الهضبة وجنوب الوادي كان يوجد موقع الروم [(١)] .

في صباح اليوم التالي ، التاسع عشر من آب عام ٦٣٤م (التاسع عشر من جمادي الآخرة ، عام ١٣ هجري) ، حرّك خالد لواءه ، ونشر المسلمون والروم قواتهم لمعركة مرج الصفّر . وكان باقي جيش المسلمين يندفع نحو ميدان المعركة ، ولكنه لم يتمكّن من الوصول قبل ساعتين أو نحو ذلك . أما لواء الطليعة الذي فتح مباشرة للمعركة ، فسيكون بمثابة الطليعة القوية التي تسمح لباقي الجيش عند وصوله ان يفتح للمعركة . وظهر ان الروم ينوون البقاء بوضعية الدفاع لأنهم لم يتقدموا للاشتباك بالمسلمين . وفي غضون ذلك بدأ خالد بتنفيذ مرحلة من المبارزات لاشغال الروم حتى تصل باقي ألوية المسلمين .

كانت هذه المرحلة تشبه المهرجان الذي يعرض فيه الأبطال شجاعتهم

(١) — ان الكسوة والهضبة ، والوادي ، ما تزال موجودة حتى الآن ، كما ان السهل لا يزال موجوداً وهو يبدو كالمرج الأصفر .

ومهارتهم ، باستثناء الدم الذي يراق . واستجاب الروم للعبة المبارزة بروح رياضية ، لأنه كان بينهم عدد من الأبطال ، وكان من بين هؤلاء ، القائدان كولوس وادادير ، وهما يعتبران اشجعهم وأفضلهم . وأخذ جنود الجيشين يهتفون « للمتبارزين » في مباراة رياضية .

بدأ خالد هذا المهرجان الدموي بنداء عدد من الصناديد ، من بينهم ضرار وشرحبيل وعبد الرحمن بن أبي بكر . وخرج هؤلاء الفرسان من الصف الأمامي للمسلمين، ووقفوا في المنطقة الفاصلة بين الجيشين وبدأ كل منهم يتحدى الروم للمبارزة . وخرج لكل منهم قائد من الروم ، وبدأت المبارزة بين كل اثنين من الجانبين . وقد قتل كل رومي خرج للمبارزة . وعندما كان العربي يقتل خصمه يعود عدواً من أمام صفوف الروم وهو يتحدى الاعداء ، واذا سنحت له فرصة مناسبة ، فانه يقوم بجندلة رجل أو اثنين من الصف الأمامي قبل ان يعود الى جيش المسلمين . وكما في المبارزات السابقة ، فقد قام ضرار ، وهو عاري الصدر ، بذبح أكبر عدد من الروم ، مما أثار إعجاب الجميع بجرأته وشجاعته .

وبعد أن مضى على هذه المبارزات زهاء ساعة ، قرر خالد انه قد حان الوقت للمبارزة الكبرى . فاستدعى قادته وطلب منهم ايقاف المبارزات والعودة . وانطلق هو نفسه الى الأمام ، وعندما أصبح في وسط ميدان المعركة أخذ يتحدى الروم للمبارزة. ولما كان قائدا لجيش المسلمين كان ينبغي ان يكون المبارز من مرتبة قادة الروم . وكان كولوس في هذا الوقت قد فقد حماسته للقتال . فقد أفزعه ما آل اليه مصير الروم الذين خرجوا لمبارزة المسلمين هذا الصباح . وبدا كأنه لا يرغب في قبول تحدي خالد ، ولكن تحت الحاح منافسة أدادير خرج من صفوف جيش الروم ، وعندما اقترب من خالد أشار بأنه يرغب في الكلام ، لكن خالدا لم يلتفت الى اشارته وهاجمه برمحه . فاتقى كولوس الضربة ، مظهراً مهارة غير عادية في ذلك . وهجم خالد مرة أخرى ، ولكن كولوس اتقى الضربة مرة ثانية .

فقرر خالد أن لا يستخدم الرمح بعد ذلك . واقترب من خصمه .

وألقى بالرمح على الأرض فتشابكا بالأيدي . وأمسك خالد بياقته ورماه عن فرسه ، فسقط كولوس على الأرض ولم يحاول ان يبذل جهداً للنهوض . عندئذ أشار خالد الى رجلين من المسلمين أن يأتيا اليه . وعندما اقتربا منه أمرهما ان يأخذا كولوس أسيراً ففعلا ذلك .

وبينما كان الروم في حالة من اليأس بعد مشاهدتهم مصير كولوس ، كان أدادير مغتبطاً ومتمنياً ان يعمد المسلمون الى قتله . تقدم ادادير الآن ، وهو يعد نفسه أكفأ من كولوس، ولا يشك في انه سينهي خالداً بأسرع ما يمكن . ولكن عليه أولا ان يسلي نفسه بالسخرية من قائد المسلمين . فتوقف أدادير على بعد بضع خطوات من خالد وقال بالعربية : «يا أخا العرب ، اقترب مني لكي أسألك بعض الأسئلة» . فأجاب خالد : «يا عدو الله ، اقترب مني أنت والا فسوف آتي لأحز رأسك» . فنظر ادادير بدهشة ، لكنه دفع حصانه وتوقف على مسافة تسمح بالمبارزة . وفي لهجة هادئة تابع كلامه : «يا أخا العرب ، ما الذي دعاك الى ان تأتي للمبارزة بنفسك ؟ ألا تخشى ان قتلتك ، ان يبقى اصحابك بدون قائد ؟» فقال خالد : «يا عدو الله ، لقد شاهدت منذ قليل ما فعل قليل من أصحابي . فلو انني اعطيهم الاذن ، لقضوا على جيشك بكامله بعون الله . ان معي رجالاً يعتبرون الموت سعادة. وان هذه الحياة ما هي الا وهم. تعال على كل حال، من أنت؟» فقال أدادير باستغراب : «ألا تعرفني؟ لقد سمّيت على اسم ملاك الموت . اناعزرائيل!» فضحك خالد وقال : «أخشى ان يكون من سمّيت باسمه يبحث عنك ليأخذك الى جهنم» . فتجاهل ادادير هذه الملاحظة واستمر بالكلام دون ان يكترث بما قيل : «ماذا فعلت بأسيرك كولوس؟» فقال خالد : «انه مقيد بالحديد» . فقال ادادير : «ما الذي يمنعك من قتله ؟ انه من أدهى رجال الروم» .

فقال خالد : «ان لا شيء يمنعني سوى رغبتي في قتلكما معاً» .

فقال أدادير : «اسمع ، سوف أعطيك ألف قطعة من الذهب ، وعشرة أثواب من الحرير وخمسة أحصنة اذا قتلته وأعطيتني رأسه» .

فقال خالد : « هذا ثمن كولوس . وماذا ستعطيني لتنقذ نفسك ؟ »

فقال أدادير : « ماذا تريد مني ؟ » .

فقال خالد : « الجزية » .

فغضب أدادير وقال : « كما نرتفع بالمجد ، فانك ستسقط بالعار . دافع عن نفسك ، لأنني سأقتلك الآن » .

ولم يكد يتفوه أدادير بهذه الكلمات حتى انقض عليه خالد . وضرب خالد عدة مرات بسيفه ، لكن أدادير ، أظهر مهارة وتمكن من صدّ جميع الضربات .وصدرت صيحة اعجاب من صفوف المسلمين للمهارة التي يدافع بها الرومي عن نفسه أمام قائدهم ، الذي لا ندّ له في المبارزة وان وجد فبين المسلمين فقط . ثم توقف خالد عن المبارزة وهو في دهشة مما حدث .

وارتسمت الابتسامة على وجه الرومي عندما قال : « والمسيح انني أستطيع ان أقتلك اذا شئت . لكنني مصمم على أخذك حياً ، لكي أطلق سراحك بعدئذ شريطة ان تترك أرضنا » .

وثار غضب خالد لرباطة جأش القائد الروماني ولنجاحه في الدفاع عن نفسه . وقرر أن يأخذ الرومي حياً كي يذلّه . وعندما تقدم خالد ليهاجم مرة أخرى ، انطلق ادادير بسرعة نحو صفوف الروم . واعتقد خالد ان الرومي قد هرب من القتال ، لذلك بدأ خالد على الفور بمطاردته وشاهد « المتفرجون » من كلا الجيشين القائدين وهما يطـارد كل منهما الآخر في الأرض الحرام بين الجيشين . ودار الفارسان حول ميدان المعركة عدة مرات ، وبعد ذلك بدأ خالد بالتخلف عن أدادير بسبب تلكؤ حصانه وكان حصان الرومي أفضل حيث لم تظهر عليه امارات التعب .

وبدا هذا وكأنه خطة مدبرة مسبقاً من قبل أدادير ، لأنه عندما رأى ان حصان خالد قد تعب ، أوقف حصانه وانتظر لكي يمسك بخالد . وكان خالد في حالة لا تعرف الصفح . خاصة وان خصمه قد تفوق عليه في المطاردة ، ولم يتحمل مزاجه ان يسمع الرومي وهو يسخر منه ويقول : « أيها العربي ! لا تظن انني هربت خوفاً منك . وفي الحقيقة كنت لطيفاً معك

انني قابض الأرواح ! انني ملاك الموت » .

أصبح حصان خالد غير قادر على القتال . وسار نحو أدادير ، والسيف بيده وأخذ أدادير يحملق في خصمه وهو يقترب منه مترجلاً بينما هو على حصانه . وفكّر الآن بأن خالدا وصل الى حيث يريد . فعندما أصبح خالد على مسافة قريبة من أدادير ، استل هذا سيفه وهوى به بشدة على خالد لكي يضرب عنقه ، لكن خالداً خفض رأسه لكي يتفادى نصل السيف الذي مر على بضعة سنتمترات من رأسه . وفي اللحظة التالية ضرب خالد القائمتين الأماميتين لحصان ادادير فبترهما عن جسم الحصان بتراً كاملاً وسقط الحصان وراكبه على الأرض . وخانت عندئذ الشجاعة أدادير . فنهض وحاول ان يهرب ، لكن خالداً قفز عليه وأمسك به بكلتا يديه ، ورفعه عن الأرض ثم هوى به ثانية . ثم أمسك بأدادير من ياقته وشدّه الى أعلى وساقه نحو جيش المسلمين حيث لحق بكولوش مكبلا بالحديد (١) .

ولم تكد هذه المبارزة العظيمة تنتهي حتى وصل لواءان آخران من ألوية المسلمين ، وهما لواءا أبي عبيدة وعمرو بن العاص ، الى ميدان المعركة . وفتح خالد هذين اللوائين للمعركة وجعلهما جناحين لجيشه ، وحالما انتهى التشكيل في ترتيب المعركة ، أمر خالد بشن هجوم عام .

ثبت الروم لمدة ساعة تقريباً ، لكنهم لم يستطيعوا صد المسلمين والصمود أكثر من ذلك . وقد أثر في روحهم المعنوية فقدهم عدداً كبيرا من القادة وأدادير وكولوس ، خاصة ، كما ان وجود دمشق قريبة منهم ، وتمكنهم من الاحتماء داخل اسوارها ، جعلهم يفكرون بالانسحاب اليها . لذا فقد انسحبوا بانتظام تاركين وراءهم عددا كبيراً من القتلى . ووصل جيش الروم الى المدينة ، واحتمى بأسوارها ، واغلق أبوابها خلفه .

قضى المسلمون الليل في السهل ، وفي اليوم التالي ساروا الى المدينة . وهنا فرض خالد الحصار على دمشق ، وذلك في العشرين من آب عام ٦٣٤م. (العشرين من جمادي الآخرة عام ١٣ هجري) .

---

(١) ـ الواقدي صفحة ١٩ ــ ٢١ .

وضع خالد في وقت سابق سرية خيّالة في «فحل» لمشاغلة حامية الروم ومنعها من التقدم لمساعدة دمشق أو التدخل في تحرك المراسلين والتعزيزات من المدينة . والآن أرسل خالد سرية أخرى على طريق حمص للتمركز قرب «بيت لهية» وهي تبعد زهاء ١٨كم عن المدينة [١] . وأمر قائدها أن يرسل كشافين لمراقبة وصول قوات نجدة من الروم والابلاغ عنها . واذا لم يتمكن قائد هذه السرية من التعامل مع قوات النجدة الرومانية ، عليه ان يطلب مساعدة خالد . وبعد ان وضع خالد قوة لسد الطريق وعزل دمشق عن شمال سورية ، وهي المنطقة المهيأة أكثر من سواها لتوجيه النجدات الى دمشق ، قام بتطويق المدينة بباقي جيشه. (راجع خريطة دمشق قبل معركة فتحها في الشكل رقم ١٧).

كانت دمشق تضم حامية من الروم يتراوح عددها بين خمسة عشر ألفاً وستة عشر ألفا ، بالاضافة الى عدد كبير من السكان المدنيين الذين يتألفون من السكان الأصليين وعدد كبير من سكان المنطقة المجاورة الذين التجأوا الى المدينة . اما عدد قوات المسلمين فلم يسجلها المؤرخون ، ولكنها تقل بعض الشيء عن قوتهم في الشهر السابق . فعدد قتلى المسلمين في المعارك الثلاث التي خاضوها وهي : أجنادين ، والياقوصة ، ومرج الصفّر ، يزيد على الألف بالاضافة الى بضعة آلاف من الجرحى وهؤلاء غير قادرين على الاشتراك في الحصار. علاوة على ذلك ، أرسلت مفرزة لسدّ الطريق المؤدي الى دمشق من جهة الشمال ، كما تركت مفرزة أخرى في «فحل» . واذا ما أخذنا بالاعتبار كل ما تقدم ، فيمكننا ان نقدر قوة المسلمين في دمشق بنحو عشرين ألفاً ، وفرض خالد الحصار على المدينة بهذه القوات. وضع خالد لواء العراق الذي يضم وحدات من الحرس المتحرك عند باب شرقي . ووضع القوة الرئيسية منه بامرة رافع ، وبقي خالد على مسافة قصيرة من باب شرقي ومعه احتياط مؤلف من أربعمائة خيّال من الحرس المتحرك. وجعل قيادته في

(١) — لم يعد «لبيت لهية» وجود . كما ان موقعها غير معروف . وهي قرية صغيرة من قرى الغوطة (ياقوت — الجزء الأول . صفحة ٧٨٠) .

دير ، وأصبح هذا الدير يعرف فيما بعد باسم «دير خالد» (ويقال ان الرهبان الذين كانوا يعيشون في هذا الدير قد ساعدوا المسلمين بأشكال مختلفة ، منها العناية بجرحى المسلمين) . ووضع قوة تتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف عند باقي الأبواب . وكان توزيع القادة كما يلي :

باب توما : شرحبيل .

باب الجابية : أبو عبيدة .

باب الفراديس : عمرو بن العاص .

باب كيسان : يزيد .

الباب الصغير : يزيد .

وأصدر خالد تعليمات الى قادة الألوية تتضمن ما يلي :

١ ـــ التعسكر خارج مدى السهام التي تطلقها الأقواس من الحصن .

٢ ـــ مراقبة الأبواب باستمرار .

٣ ـــ تقديم النبّالة للاشتباك مع نبّالة الروم الذين يظهرون من فتحات الحصن .

٤ ـــ صدّ أية قوة رومانية تخرج لمهاجمة المسلمين .

٥ ـــ طلب مساعدة خالد في حال التعرّض لضغط شديد .

كما أسند مهمةَ لضرار ، الذي وضعت بامرته قوة من الخيالة تبلغ ألفي فارس من الحرس المتحرك ، وهي القيام بالدوريات في الفرج الكائنة بين الأبواب ليلاً ومساعدة أي لواء يهاجمه الروم .

بعد أن تلقت ألوية المسلمين هذه التعليمات ، فتحت للمعركة وبدأت بفرض الحصار . ونصبت الخيام ، وبدأ ضرار بالقيام بأعمال الدورية القتالية ، كما أغَلقت جميع طرق النجدات الرئيسية وكذلك طرق الهرب ، ولكن هذا ينطبق على التشكيلات والمجموعات . أما الأفراد فكان بامكانهم النزول من السور في عدة أماكن خلال الليل ، وبذلك كان توماس قادراً على الاتصال بالعالم الخارجي ومع هرقل في انطاكية .

وفي اليوم الذي تلا وصول المسلمين ، أحضر خالد كولوس وأدادير قرب

الباب الشرقي وهما يرسفان بالحديد بحيث يستطيع الروم الموجودون على السور رؤيتهما . وهنا عرض على القائدين اعتناق الاسلام ، لكنهما رفضا العرض . عندئذ ضربت اعناقهما على مرأى من حامية الروم ، وكان السياف ضرار بن الأزور .

مرت ثلاثة أسابيع على الحصار ، لم يجر فيها لقاء كبير ، إلا هجمات صغيرة شنها الروم ولم يجد المسلمون أية صعوبة في صدّها . وكان الجانبان يتبادلان رماية السهام أثناء النهار ، لكن خسائر الجانبين كانت طفيفة . وكان المسلمون مصممون على متابعة الحصار حتى النهاية فلا بد من استسلام دمشق .

حالما سمع هرقل بأنباء هزيمة الروم في مرج الصفّر على يد خالد وبأنباء حصار دمشق ، اتخذ الاجراءات اللازمة لتشكيل قوات جديدة . فالضربات التي نزلت بالأمبراطورية منذ وقت قريب كانت خطيرة للغاية ، لكن تقدم المسلمين الناجح أوجد موقفاً أكثر خطورة ، وأصبحت دمشق نفسها معرّضة للخطر . فاذا سقطت دمشق ، سيكون ذلك ضربة قاصمة لهيبة الامبراطورية البيزنطية ومركزها ، ولن تستطيع هذه الامبراطورية استعادة مركزها دون ان تعبىء كل الموارد العسكرية المتوفرة في الامبراطورية ، وهذا الاجراء لن يتم اتخاذه الا في حالة الطوارىء والضرورة القصوى .

ودمشق معرّضة للسقوط ، لا بسبب قلة القوات في المدينة ، ولكن بسبب نقص المؤن ، فالمدينة لم تجهز بالتجهيز الكافي لحصار طويل .

وفي غضون عشرة أيام من بدء الحصار ، شكّل هرقل جيشاً جديداً من اثني عشر ألف رجل سحبوا من الحاميات المتعددة الموجودة في شمال سورية والجزيرة [1] .

أرسل هذا الجيش من انطاكية ومعه قافلة كبيرة من المؤن . وطلب من قائده ان يصل الى دمشق بأي ثمن لانقاذ حاميتها المحاصرة . وسارت هذه

(١) — كانت الجزيرة تشمل المنطقة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة .

القوة على طريق حمص ، ثم اصطدمت بعناصر كشافة المسلمين على الطريق بين حمص ودمشق ، وأصبحت منذ الآن متأهبة لدخول معركة عند أي طلب .

في التاسع من أيلول عام ٦٣٤م. (العاشر من رجب ، عام ١٣ هجري) وصل مراسل الى معسكر خالد وأخبره بأن جيشاً كبيراً من الروم لا يعرف عدده يتقدم بسرعة من اتجاه حمص ، وسيشتبك هذا الجيش في غضون يوم تقريباً مع مفرزة حماية الطريق المنتشرة عند بيت لهية. لم يفاجأ خالد بهذا النبأ ، لأنه توقع ان يقوم هرقل بعمل أي شيء يستطيعه لانقاذ دمشق ، وهو لهذا السبب وضع قوة لسدّ الطريق الرئيسي التي يحتمل ان تتقدم عليه قوة الانقاذ للاقتراب من المدينة .

وفي الحال نظّم خالد قوة من الخيالة يبلغ تعدادها خمسة آلاف رجل ووضعها بأمرة ضرار. وأمره ان يتقدم بأقصى سرعة الى منطقة بيت لاهية ، وان يتسلّم قيادة القوة المنتشرة هناك ، وان يشتبك بقوة النجدة القادمة من حمص ، وحذّره من الاندفاع والتهور وأخبره ان يطلب تعزيزات قبل ان يزج بقواته في المعركة اذا كانت قوات العدو كبيرة جداً . لكن تحذير خالد لضرار لم يكن له أي تأثير على ضرار ، الذي اذا كان ينقصه صفة ما فهي الحذر. وانطلق ضرار مع نائبه رافع من دمشق باتجاه مفرزة حماية الطريق المنتشرة عند بيت لهية ، وعندما وصلها تقدم بجميع قواته الى هضبة منخفضة تقع بالقرب من ثنية العقاب ونشر قواته هناك على شكل كمين .

وفي صباح اليوم التالي ظهر جيش الروم على مرمى النظر . فانتظره المسلمون . وعندما اقترب رأس رتل الروم من موضع الكمين ، أمر ضرار بالانقضاض . فنهض رجاله من مكانهم وهجموا على الروم بامرة قائدهم «العاري الصدر» . ولكن الروم كانوا جاهزين لمثل هذه المفاجأة ففتحوا بسرعة في تشكيل المعركة وأصبح القتال اشتباكاً جبهياً . فالمسلمون كانوا مهاجمين ، والروم كانوا مدافعين بثبات على أرض مرتفعة أمام ممر العقاب . وأدرك المسلمون عندئذ قوة الروم الحقيقية التي تعادل ضعفي قوتهم . لكن

هذا التفوق لا شأن كبير له في نظر ضرار.

وبينما كان ضرار يهاجم بعنف أمام رجاله ، ابتعد عنهم كثيراً حتى غدا بعد فترة قصيرة محاطاً بالروم . وتعرفه اعداؤه فهو البطل «العاري الصدر» . وقرروا أن يأخذوه حياً الى امبراطورهم ويقدموه هدية له . وأصيب ضرار بسهم في ذراعه الأيمن لكنه استمر في القتال بينما كان الروم يقتربون منه أكثر. وأخيراً بعد ان أصيب بعدة جراح ، تغلب عليه الروم ، فأخذ وأرسل بعد ذلك الى المؤخرة .

كان لخسارة ضرار تأثير سيء على المسلمين ، لكن «رافعاً» كان خير خلف لضرار المتهور. فتسلم القيادة ، وشن عدة هجمات للوصول الى ضرار وانقاذه ، لكن محاولاته باءت بالفشل ، وتحول القتال الى حالة من الجمود . وأيقن رافع انه لا يستطيع عمل شيء للتغلب على قوة الروم المنتشرة أمامه . فأرسل بعد الظهر رسالة الى خالد يخبره فيها بالاشتباك ، وعن قوة العدو ، وعن ضرار الذي قد يكون ما زال حياً .

كانت الشمس قد مالت الى المغيب عندما بلغت خالداً أنباء الاشتباك . وأيقن ان قوة الروم في بيت لهية كانت كبيرة بحيث لا يستطيع رافع أن يتعامل معها بقواته فقط . وهذا الموقف جعل خالداً في ورطة كبيرة . اذ لا بد من هزيمة قوة النجدة الرومانية وطردها نحو حمص ، ويمكن ان يتم هذا فقط اذا تسلم القيادة في بيت لهية خالد نفسه مع تعزيزات مناسبة من دمشق . واذا لم يتم ذلك ، فان قوة النجدة الرومانية ستتمكن من شق طريقها عبر مفرزة حماية الطريق ، وبالتالي ستفك الحصار عن دمشق مما سيؤثر تأثيراً سيئاً على المسلمين .

ولكن كانت هنالك أيضاً مشكلة الوقت . فلو ان تحركا سريعاً قد تم لتعزيز رافع ، فان الحامية الرومانية ستلاحظ التحرك ثم ستشن هجوماً خارج السور على قوة الحصار الضعيفة . اذن لا بد من ضرب قوة النجدة الرومانية في بيت لهية ، مع اخفاء التحرك عن حامية دمشق . لذلك قرّر خالد ان يجازف بالتأخير بحيث يستمر بتنفيذ التحرك حتى الجزء الأخير من الليل دون

ان تتمكن حامية المدينة المحاصرة من اكتشافه .
واتخذت الاستعدادات طبقاً لذلك . فسلّمت القيادة في دمشق الى أبي عبيدة لكي يستمر في عملية الحصار أثناء غياب خالد . وبعد منتصف الليل ، اتخذت مفرزة مؤلفة من ألف رجل بقيادة ميسرة بن مسروق مواقعها عند باب شرقي ، كما أجريت بعض التعديلات في توزيع القوات عند أبواب دمشق الأخرى . ثم انطلق خالد بين منتصف الليل والفجر على رأس قوة من الحرس المتحرك تبلغ أربعة آلاف خيّال . وتحرك الحرس بسرعة خلال الوقت المتبقي من الليل ، وفي صباح اليوم التالي وصل خالد الى ساحة المعركة الناشبة بين رافع والروم . واستمر القتال في هذا اليوم الثاني للمعركة دون أن يتم حسم الموقف لصالح أي من الجانبين . وفي الحقيقة أصبح المسلمون الآن في حالة من التعب والانهاك أمام الروم الذين كانوا صامدين كالصخرة في وجه هجمات المسلمين .
عندما اقترب خالد من ميدان المعركة ، رأى فجأة أحد الخيالة المسلمين يمر من خلفه ويتجه نحو الروم بسرعة . وقبل ان يتمكن خالد من ايقافه ، استطاع هذا الخيال الوصول الى صفوف الروم . كان هذا الخيال نحيلاً ، ويرتدي زياً أسود ، ويغطي صدره بدرع . وكان يتسلح بسيف ورمح طويل . وكان يضع على رأسه عمامة خضراء ، ويلف وجهه بقناع لا يرى منه سوى العينين . لقد وصل خالد الى ميدان المعركة في الوقت الملائم ليرى هذا الخيال وهو يقذف بنفسه نحو الروم باندفاع يثير الدهشة ويحمل على الظن ان به مساً من الجنون هو وحصانه . ورأى رافع هذا الخيّال قبل رؤيته خالدا وعلق على ذلك قائلاً : «انه يهجم مثل خالد ، لكنه ليس خالدا[1] » . ثم اجتمع خالد برافع .
استغرق خالد بعض الوقت في تنظيم مجموعة رافع وقوة الخيالة الخاصة به في مجموعة واحدة ، وفي فتحها للمعركة كقوة مشتركة . وفي أثناء ذلك قام الخيال المقنّع بعرض يهز المشاعر أمام المسلمين ، اذ كان يهجم على

(١) — الواقدي — صفحة ٢٨ .

صفوف الروم فيقتل أحدهم ثم يعدو على حصانه الى جزء آخر من جبهة الروم فيضرب شخصاً آخر . وتقدم عدد قليل من الروم للانقضاض عليه لكنهم سقطوا صرعى رمحه المخيف . وقد أعجب المسلمون بهذا الخيال لكنهم لم يستطيعوا ان يروا منه أكثر من ملامحه الشابة وعينيه البراقتين تحت القناع . وكان هذا الخيّال يبدو وكأنه يريد الانتحار فثيابه ورمحه كانت تقطر دماً ، وهو يضرب المرة تلو الأخرى في صفوف الروم .

لقد أثار عمل هذا الخيّال حماسة رجال رافع وشجاعتهم ، فنسوا تعبهم وعادوا الى القتال بروح معنوية عالية عندما أصدر خالد أوامره بالهجوم .

تابع الخيّال المقنّع ، وقد انضم اليه العديد من المسلمين ، هجماته على الروم بينما قامت قوات المسلمين بالهجوم على مواجهة الروم . وبعد ان بدأ الهجوم العام ، اقترب خالد من الخيّال المقنّع وقال له : «أيها الفارس ، أرنا وجهك» . فنظر الفارس بعينيه السوداوين الى خالد ثم انطلق بسرعة نحو صفوف الروم لمتابعة القتال . بعدئذ استطاع نفر قليل من رجال خالد ان يوقفوا الخيّال ، وقالوا له : «أيها المقاتل الكريم ، قائدك يناديك وأنت تهرب منه ! أرنا وجهك وأخبرنا عن اسمك كي يكرمك القائد» . ومرة أخرى تملّص الخيال وكأنه يحاول اخفاء هويته عمدا .

وبعد ان عاد الفارس المقنّع من هجومه ، مرّ بالقرب من خالد الذي طلب منه التوقف . فتوقف الفارس ، فقال خالد : «لقد فعلت ما فيه الكفاية لتملأ نفوسنا بالاعجاب . فمن أنت ؟» .

وعندما سمع خالد الاجابة أوشك ان يسقط عن فرسه ، لأن الصوت كان لفتاة : «أيها القائد ، لقد ابتعدت عنك تواضعاً فقط . فأنت القائد العظيم ، وأنا واحدة من أولئك الذين يبقون خلف الحجاب . لقد قاتلت كما رأيت لأن قلبي يشتعل ناراً . » فقال خالد «من أنت ؟» فقالت الفتاة : «أنا خولة أنا أخت فارس حمير . لقد أسر أخي ، ويجب علي ان أقاتل لاطلاق سراحه» .

أعجب خالد بالرجل العجوز ، الأزور ، والد هذين المقاتلين

الجريئين ، الشاب والفتاة ، ثم قال لها خالد : «اذن تعالي وهاجمي معنا [1] » .

استمر قتال المسلمين بقوة ، وعند منتصف النهار بدأ الروم بالانسحاب من أرض المعركة بانتظام . ولحق بهم المسلمون ، وشدّدوا الضغط عليهم ، ولكن لم يجدوا أي أثر لضرار حياً أو ميتاً . ثم جاء بعض العرب المحليين وأخبروا المسلمين بأنهم رأوا زهاء مائة من الروم يتجهون نحو حمص ومعهم رجل عاري الصدر مربوط الى فرسه . فأدرك خالد على الفور ان ضرارا قد أرسل بعيداً عن ميدان المعركة ، فأمر رافعا ان يأخذ معه مائة من خيرة الفرسان ، وان يتحرك حول مجنبة الروم للوصول الى طريق حمص واعتراض قوة الحراسة المكلفة بمرافقة ضرار الى حمص . وعلى الفور اختار رافع مائة من الصناديد وانطلق ومعه خولة بنت الأزور .

وصل رافع الى طريق حمص وانتظر في نقطة لم تصل اليها قوة الحراسة بعد ونصب فيها كميناً . وعندما وصل المائة رومي الى هذه النقطة ، انقض رافع ورجاله عليهم ، وقتلوا معظمهم وأطلقوا سراح ضرار . واجتمع البطل العاري الصدر مع أخته الشجاعة . وعاد رافع مع فرسانه للانضمام الى خالد بعد أن سار مسافة طويلة حول طريق حمص — دمشق لتجنب جيش الروم ، وقد سرّ خالد من رافع لانقاذه ضرارا .

وتحت ضغط المسلمين المستمر ، زاد الزوم في سرعة تراجعهم . وعندما ضرب المسبلمون بقوة ، تحول التراجع الى هزيمة ، وهرب الروم باتجاه حمص .

لم يستطع خالد ان يطارد العدو لأنه ينبغي عليه ان يعود الى دمشق . فالمسلمون الذين يحاصرون دمشق أضعفوا بسحب تسعة آلاف رجل من قوتهم (خمسة آلاف مع ضرار ثم مع رافع ، وأربعة آلاف مع خالد) . ففي حالة مهاجمة أي لواء من ألوية المسلمين بقوة من قبل الروم ، فان الروم سيخترقون صفوفه وسينتج عن ذلك خطر جسيم . لذلك اكتفى خالد

---

(١) — الواقدي — صفحة ٣٧ .

بارسال كتيبة خيالة فقط بامرة (صمت بن الأسود) لمطاردة الروم الى حمص . ووصل « صمت » الى حمص في حينه ووجد الروم قد انسحبوا الى حصنها . وعلى الرغم من ذلك ، فقد اتصل سكان حمص المحليون « بصمت » واعلموه بأنهم لا يرغبون في قتال المسلمين ، وانهم على استعداد لعقد اتفاقية سلام ؛ كما انهم على استعداد لاطعام أي جنود يقيمون في مدينتهم . وبعد ان تبادل « صمت » الرسائل الودية واياهم ، عاد الى دمشق .

في غضون ذلك كان خالد قد التحق بجيش المسلمين في دمشق . فتسلّم القيادة واعاد توزيع قوات المسلمين حول المدينة كما كانت قبل ظهور قوة النجدة الرومانية القادمة من حمص .

انتشرت أنباء مصير قوة النجدة السيئة بين سكان دمشق ، كانت ضربة قاصمة حقاً . فأهل دمشق كانوا يضعون أملهم في هرقل من أجل ارسال قوات لنجدتهم . وقد فعل هرقل ما بوسعه . لكن آمالهم قد انهارت بعد قتال خالد في بيت لهية . ومما لا شك فيه ان هرقلاً يستطيع جمع قوات أكثر . لكن ذلك يحتاج الى وقت . وفي غضون ذلك كانت المؤن تنقص تدريجياً ولا تبدو في الأفق أية بارقة أمل تطمئن أهالي دمشق وترفع معنوياتهم .

كان يطرح عدد من الأسئلة حيثما اجتمع الناس . فحتى لو ان هرقلاً استطاع ان يجمع قوات جديدة — وهذا غير محتمل خلال وقت قصير — فما هو الضمان أن يستطيع هذا الجيش الجديد تحقيق أكثر مما حقق الجيش السابق ، فاذا استطاع المسلمون ان يفعلوا ما فعلوا لجيش مؤلف من تسعين ألف رجل في اجنادين ، فما هو المصير الذي ينتظر القوة الصغيرة (نسبياً) الموجودة في دمشق؟ وما هي الفرصة المتاحة لها لتجنب الهزيمة العسكرية ، والقتل والأسر الذي سيتبع ذلك بلا شك؟ وما هي المدة التي ستستهلك فيها باقي المواد الغذائية في المدينة؟ أليس من الأفضل عقد صلح مع المسلمين بأية شروط تقدم ، وبهذه الطريقة يتم تجنب الدمار الكامل؟ لقد انخفضت

المعنويات وظهر التذمر في دمشق ، وفي القطاع غير الروماني من المدينة خاصة ؛ وأصبح الموقف ميؤوساً منه ؛ وزادت حدة التوتر في المدينة .

ثم جاء وفد من شخصيات المدينة الى توماس . وأخبروه بمخاوفهم واقترحوا عليه امكان عقد صلح مع خالد ، لكن توماس أكد لهم ان لديه قوات كافية للدفاع عن المدينة ، وهو سينتقل الى الهجوم سريعاً لطرد المسلمين . وأقيمت الصلوات في الكنائس من أجل انقاذ المدينة من الأخطار التي تهددها . وقرر توماس ان يقوم بمحاولة لشن هجوم قوي من الحصن . وكان توماس رجلاً شجاعاً ، وما دام لديه بعض الأمل في النجاح ؛ فلن يستبسلم .

وفي صباح اليوم التالي ، أي في اوائل الأسبوع الثالث من أيلول عام ٦٣٤م. سحب توماس رجالاً من جميع قطاعات المدينة وشكل قوة كبيرة للهجوم من باب توما . وكان يقف قبالة هذا الباب شرحبيل مع لوائه المؤلف من زهاء خمسة آلاف رجل . وبدأ توماس العملية برمايات مركزة من السهام والحجارة ضد نبالة المسلمين لكي يطردهم بعيداً عن باب توما وبالتالي لكي يفسح مجالاً لقواته للخروج من الباب المذكور. ورد المسلمون على رمايات السهام برمايات مماثلة . وفي أثناء تبادل الرمي بين الجانبين ؛ قتل عدد من المسلمين ؛ منهم ابان بن سعيد بن العاص — وهو رجل تزوج حديثاً امرأة شجاعة بشكل غير عادي . وحالما علمت بأنها أصبحت أرملة ، أخذت قوساً وانضمت الى نبالة المسلمين ، طلباً للثأر. ووقف على سور الحصن ، قرب باب توما ، قسيس وهو يحمل صليباً كبيراً على صدره ، يريد شحذ همم الروم واثارة روح الشجاعة فيهم . ولكن لسوء حظ هذا القسيس فقد اختارته الأرملة الشابة هدفاً لها . واخترق السهم الذي رمته صدر القسيس ، وسقط القسيس المنكود من على السور جثة هامدة .

وبرغم ذلك ، تفوق الروم على المسلمين في تبادل رمايات السهام . وبعد فترة من الوقت اضطر المسلمون المحاصرون للتراجع الى خط يقع خارج مدى رمايات السهام .

بعد ذلك فتح باب توما وخرج منه مشاة الروم تغطيهم رمايات النبالة من فوق السور ، واندفعوا خارجه وفتحوا بتشكيل المعركة . وعندها أمر توماس بشن هجوم على لواء شرحبيل ، الذي انتشر للمعركة أيضاً على بعد بضع مئات من الأمتار عن باب توما . وقاد توماس الهجوم بنفسه ، وكان سيفه بيده ، وهو يرغي كالبعير[1] .

وسرعان ما نشب قتال عنيف بين الجانبين . كان الروم يفوقون لواء شرحبيل ، لكن هذااللواء ثبت في مكانه ولم يتزحزح خطوة واحدة ، وبدأت خسائر الروم بالتصاعد . ولاحظ توماس شرحبيل وقدر أنه هو قائد قوات المسلمين ، فهجم عليه . فرآه شرحبيل وهو يتقدم نحوه ، فاستعد لملاقاته وسيفه الذي يقطر دماً بيده . ولكن توماس أصيب بسهم في عينه اليمنى قبل ان يتمكن من الوصول الى شرحبيل ، وسقط على الأرض ، وكانت الأرملة هي التي رمته بالسهم . وفي الحال رفع عن الأرض من قبل رجاله وحمل بعيداً ، وفي اللحظة ذاتها بدأ الروم بالتقهقر نحو الحصن والتراجع تحت ضغط السيوف ونبالة المسلمين التي كانت تفتح على المجنبتين ، وتركوا وراءهم عدداً كبيراً من القتلى ، وسقط العديد من هؤلاء بسهام أرملة أبان بن سعيد بن العاص .

وقام الجراحون بفحص عين توماس بالسهم الذي لم يخرقها بعمق كبير. لكنهم وجدوا انه لا يمكن اقتلاعه . لذلك عمدوا الى قطعه ، وأظهر توماس شجاعة نادرة ، اذ لم يكتئب لفقدان عينه وآلام جراحه . وأقسم أن يقلع ألف عين مقابل عينه ، وانه لن يكتفي بهزيمة هؤلاء المسلمين بل سيطاردهم الى الجزيرة العربية التي ستصبح مأوى للوحوش المفترسة فقط بعد ان ينتهي منها . وأمر بشن هجوم كبير آخر وتنفيذه ليلاً .

وفي غضون ذلك كان شرحبيل يشعر ببعض القلق . لقد خسر عدداً كبيراً من الرجال بين قتيل وجريح . وخشي ان شن الروم هجوماً مدبراً آخر ، أن ينجحوا في اقتحام لوائه . لذلك طلب تعزيزات من خالد ، لكن

(١) — الواقدي — صفحة ٤٦ .

خالدا لم يكن لديه قوات يستغني عنها . فهو لا يستطيع اضعاف الألوية الأخرى ، لأن الروم يستطيعون عندئذ ان يهاجموا عند أي باب من أبواب دمشق ، ثم يختاروا باباً آخر لهجومهم التالي . وأمر شرجبيل ان يصمد بقدر المستطاع ، وأكد له ان ضراراً مع رجاله الألفين سيخف لنجدته في حال الضغط الشديد . وإذا احتاج الأمر فانه سيأتي مع احتياطه لقيادة المعركة عند باب توما . واستعد شرحبيل لهجوم آخر من قبل الروم ، وهو مصمم على الصمود حتى آخر رجل .

واختار توماس من أجل الهجوم الليلي باب توما مرة أخرى هدفاً لتركيز جهده الرئيسي لكي يستغل الخسائر التي نزلت بلواء شرحبيل . لكنه خطط لشن هجمات ثانوية من الأبواب الأخرى . وكانت حامية دمشق تعرف أماكن ألوية المسلمين واسماء قادتهم بالتفصيل . ولكي لا تستطيع ألوية المسلمين الموجودة عند الأبواب الأخرى مساندة شرحبيل ، فقد أمر توماس بشن هجمات من باب الجابية ، والباب الصغير ، والباب الشرقي . وبالنسبة للباب الشرقي فقد خصص له قوات أكثر من باقي الأبواب ، لكي لا يستطيع خالد ان يتحرك لنجدة شرحبيل وتولي القيادة في القطاع الحاسم . وبهجومه من عدة أبواب فانه يعطي العملية شيئاً من المرونة . فاذا تحقق النجاح في أي قطاع غير باب توما ، عندئذ يمكن اعتباره قطاع الجهد الرئيسي ويتم استغلال النجاح طبقاً لذلك .

وأكد توماس في أوامره على الهجمات السريعة ، ان يؤخذ المسلمون على حين غرّة في معسكراتهم ، ومن ثم يتم تدميرهم . كما أمرهم بعدم استخدام الرأفة . وأمرهم بأن يقتلوا أي مسلم يرغب في الاستسلام في مكانه . باستثناء خالد اذ ينبغي ان يؤتى به حياً . وكان القمر في ذلك الحين يبزغ قبل منتصف الليل بساعتين . فبعد بزوغه مباشرة وعند صدور الأمر من توماس ، يقرع ناقوس إشارة لفتح الأبواب ، ثم يبدأ الهجوم من الأبواب المحدّدة في آن واحد .

بدأت هجمات الروم في ضوء القمر . ونشب قتال عنيف عند باب

الجابية ، واشترك أبو عبيدة نفسه بالقتال وهو شاهر سيفه . وكان أبو عبيدة ماهراً في استخدام السيف ، وقد سقط العديد من الروم تحت ضرباته قبل ان يتم صدّ الهجوم وعودة الروم الى المدينة بسرعة .

كانت قوات يزيد عند الباب الصغير أقل مما هي عليه عند الأبواب الأخرى ، واستطاع الروم تحقيق بعض النجاح . ولكن لحسن حظ يزيد كان ضرار قريباً منه فانضم اليه مع مقاتليه الألفين . وبدون أن يضيع ضرار دقيقة واحدة هجم هو ورجاله على العدو ، وقد تصرف الروم بذعر من جراء هجوم ضرار ، كأنما هاجمتهم شياطين ، وانسحبوا بسرعة الى الحصن وضرار في أثرهم .

وعند الباب الشرقي كان الموقف خطيراً ، لكثرة قوات الروم . وقد استطاع خالد ان يدرك من أصوات المعركة ان العدو تقدم أكثر مما يجب، وخوفاً من أن لا يتمكن رافع من صد الهجوم، ذهب خالد بنفسه للمعركة ومعه أربعمائة من صناديد الحرس المتحرك . وعندما وصل الى الروم أخذ يصرخ بصوت عال : «أنا خالد بن الوليد . . » .

وكان صوت خالد هذا يعرفه الروم ، وكان له تأثير كبير على خفض الروح المعنوية لهم . وفي الحقيقة كان مجيء خالد الى الباب الشرقي نقطة تحول في هجوم الروم عند هذا الباب . اذ سرعان ما تراجع الروم وسدّ المسلمون الطريق على الذين تأخروا عن اللحاق برفاقهم . واستطاعت معظم قوة الروم ان تعود الى المدينة وان تغلق الباب الشرقي خلفها . ولكن أعنف قتال حدث عند باب توما ، حيث كان يقاتل لواء شرحبيل بضراوة في أثناء النهار ، والذي كان عليه ان يتحمل وطأة القتال ليلاً . وقد ساعد ضوء القمر الروم في اندفاعهم عبر باب توما وفتحهم للمعركة . وعند خروجهم من الباب وقعوا تحت وابل من رمايات السهام التي قذفها نبّالة شرحبيل ، ولكن على الرغم من بعض الخسائر ، أتمّ الروم فتحهم في تشكيل المعركة وتقدموا للقتال . واستمر القتال مدة ساعتين بدون توقف ، وكان رجال شرحبيل يناضلون من أجل ايقاف هجوم الروم . وقد نجحوا في ذلك .

وبعد منتصف الليل بقليل ، استطاع توماس الذي كان يقاتل في الصف الأول ان يميّز شرحبيل . وكان من السهل تمييز قائد المسلمين لارتفاع صوته وهو يعطي الأوامر الى مقاتليه . وتقدم توماس نحو شرحبيل وبدأت مبارزة بين القائدين بالسيف والترس . واستمرت المبارزة بين القائدين لبعض الوقت دون ان يتغلب أحدهما على الآخر ، بينما كان باقي الجنود يتقاتلون بشراسة وعنف . ثم انقض شرحبيل بكل قوته على توماس وضربه بالسيف على كتفه ، لكن سيفه أصاب واقية الكتف المعدنية للدرع الذي يرتديه توماس وانكسر السيف . وأصبح شرحبيل الآن تحت رحمة توماس . ولحسن حظ شرحبيل، قدم في اللحظة نفسها اثنان من المسلمين واشتبكا مع توماس. فتراجع شرحبيل الى الخلف ، التقط سيف أحد القتلى المسلمين وعاد ثانية للقتال . لكن توماس لم ينتظر وانسحب نحو صفوف الروم .

أدرك الروم الآن ان لا فائدة من استمرار القتال كما انهم لم يلاحظوا أية نقطة ضعف في جبهة المسلمين ، لذلك قرّر توماس ان استمرار القتال معناه سقوط المزيد من القتلى بين رجاله . فأمر بالانسحاب ، وبدأ الروم بالتراجع . ولم يحاول المسلمون اللحاق بهم ، مع ان نبّالتهم أنزلت خسائر لا بأس بها بالعدو. واستخدمت الأرملة الشابة قوسها مرة أخرى وأوقعت بالعدو اصابات قاتلة .

كانت هذه آخر محاولة يقوم بها توماس لفك الحصار عن المدينة . وقد فشلت هذه المحاولة . وخسر الآلاف من رجاله في الهجمات التي شنّها ، ولم يعد باستطاعته القتال خارج أسوار المدينة . وقد شاركه في هذا الرأي جنوده . فهم مستعدون للدفاع عن المدينة ، ولكنهم لا يستطيعون الاشتباك بالمسلمين خارج الحصن . وأعطى توماس الآن صلاحيات أكثر لنائبه ، « هربيس » وأوكل اليه عدة مهام كان يتولاها هو بنفسه .

بعد اخفاق الهجوم الليلي ، بلغ اليأس من أهالي دمشق درجة كبيرة . وبدأ التذمر ينتشر بين الناس الذين لا يريدون شيئاً سوى السلام ، وقد شاركهم في هذه الرغبة توماس الذي قاتل بشجاعة دفاعاً عن المدينة

واستجاب لنداء الشرف . وكان مستعداً لتحقيق السلام وتسليم الحصن بشروط ، ولكن هل كان خالد مستعداً لعقد الصلح؟ فهو معروف بأنه رجل عنيف ويعتبر المعركة نوعاً من الرياضة ، واذ كان يعرف الظروف الداخلية التي تسود دمشق ، فهل يقبل شيئاً أقل من التسليم بلا قيد أو شرط ، وبذلك يصبح الجميع تحت رحمته؟

كان الروم يعرفون قادة المسلمين حقّ المعرفة . وهم يعرفون ان أبا عبيدة يأتي بعد خالد في سلسلة القيادة ، وكانوا يتمنون لو انه كان الرجل الاول في القيادة . كان أبو عبيدة الجراح رجل سلام ، لطيف المعشر ، محبّاً للخير ، يرى الحرب واجباً مقدساً أكثر منها مصدر سرور واثارة . فمع أبي عبيدة يستطيعون تحقيق السلام ، وسيكون بلا شك كريماً في شروطه . لكن أبا عبيدة لم يكن قائد الجيش ، واستمر التفكير في هذه المعضلة مدة يومين أو ثلاثة ، لكن الأمر خرج من أيديهم لبادرة قام بها «يونان العاشق» .

كان يونان بن ماركوس يونانياً يعشق فتاة يونانية حتى العبادة . وكانت هذه الفتاة في الواقع زوجته . وكانا قد تزوجا قبل وصول المسلمين مباشرة ، لكن حفلة الزفاف لم تتم بسبب وصول المسلمين وفرضهم الحصار على دمشق . فطلب يونان من أهل الفتاة عدة مرات ان يزفّوها اليه لكنهم رفضوا قائلين بانهم مشغولون جدا في القتال وان هذه الحرب هي مسألة حياة أو موت ، فكيف يفكر يونان بمثل هذه الأشياء في وقت كهذا ؟ وفي الحقيقة كان يونان لا يفكر الا بفتاته .

بعد حلول الظلام في الثامن عشر من أيلول عام ٦٣٤م. (التاسع عشر من رجب عام ١٣ هجري) ، هبط يونان من فوق السور ، بواسطة حبل ، قرب الباب الشرقي ، واقترب من أحد الحراس المسلمين ، وطلب رؤية خالد . وعندما أرسل الى القائد ، قصّ عليه قصته الحزينة وشرح الغرض من زيارته . وقال لخالد هل يساعده في الحصول على زوجته اذا أدلى بمعلومات تؤدي الى سرعة الاستيلاء على دمشق؟ فأجاب خالد بالايجاب . ثم أخبر خالداً بأن الناس في المدينة يحتفلون بمهرجان في هذه الليلة ونتيجة

لذلك فانهم سيكونون في حالة من السكر والعربدة ولن يكون هنالك من الحرّاس الا القليل عند الأبواب . فاذا استطاع خالد ان يتسلق السور ، فانه لن يجد أية صعوبة في فتح أي باب يشاء والدخول الى المدينة .

شعر خالد بالثقة والاطمئنان لهذا الرجل ، وبدا له أنه صادق فيما قال . فعرض خالد الإسلام على يونان فقبل ، اذ كان قد سمع كثيراً عن الإسلام خلال السنوات القليلة الماضية وكان تواقاً لذلك . واعتنق يونان الاسلام على يدي خالد ، وبعد ذلك أخبره خالد ان يعود الى المدينة وينتظر فأطاعه .

أمر خالد على الفور باعداد سلالم من الحبال . ولم يكن لدى خالدوقت لعمل خطة دقيقة للهجوم ، للجيش بكامله ، لذلك قرر ان يقتحم الحصن من الباب الشرقي بلواء العراق الذي كان متمركزاً عند هذا الباب . فالقمر سيبزغ عند منتصف الليل ، وبعد ذلك مباشرة يشنّ الهجوم .

وطبقاً لخطة خالد ، سيقوم مائة رجل بتسلق السور من مكان قرب الباب الشرقي ، الذي كان معروفاً عنه انه لا يقهر . وسوف لا يجد حراساً بالتأكيد . وسيقوم ثلاثة رجال في بادىء الأمر بالتسلق مع الحبال . ثم تثبّت سلالم الحبال بالسور وتشدّ بواسطة الرجال الثلاثة لكي تستخدم من قبل الرجال المائة لكي يصعدوا الى أعلى السور . ويبقى بعض الرجال هناك كعناصر تغطية بينما يهبط الآخرون الى الحصن ، ويقومون بقتل من يجدونهم من الحراس عندالمدخل ثم يقومون بفتح الباب .

وكان القادة الثلاثة الذين سيتسلقون السورهم : خالد ، والقعقاع ، ومذعوربن عدي . فألقيت الحبال الى الأعلى ، وعلقت بالمتاريس الموجودة على السور ، ثم تسلق القادة الثلاثة يدا بيد . فلم يجدوا حرّاساً في اعلى السور . فمدت سلالم الحبال ، وبدأ باقي الرجال بتسلق هذه السلالم بصمت مطبق . وعندما وصل نصف الرجال الى أعلى السور ، ترك خالد بعض الرجال ليساعدوا باقي المتسلقين ، وانحدر مع الآخرين الى المدينة . وقد تقابل مع عدد قليل من جنود الروم فضرب اعناقهم بالسيف . بعد ذلك تدفق رجاله على الباب وكان بقربه خارسان . فقتل خالد واحداً وقتل

القعقاع الآخر ، ولكن في هذا الوقت أعلن الانذار ، وبدأت بمجموعات الروم تتدفق على الباب الشرقي .

أما باقي جماعة المسلمين فقد تمركزت بسرعة لمنع تقدم الروم ، بينما أخذ خالد والقعقاع على عاتقهما فتح الباب الموصد والمثبّت بالسلاسل . وبعد بضع ضربات تهشّم المغلاق وفتح الباب على مصراعيه ، فاندفع لواء العراق عبر الباب . أما جنود الروم الذين تدفقوا نحو الباب فلم يعد أحد منهم ، وملأت جثثهم الطريق المؤدي الى مركز المدينة .

وكان جميع سكان دمشق في ذلك الحين في حالة يقظة . واندفع جنود الروم الى الاماكن المحددة لهم سابقاً ، واحتلوا اماكنهم حول الحصن . وعندما بدأ خالد هجومه الأخير للوصول الى مركز مدينة دمشق ، كان لدى توماس احتياط صغير فقط . وقد تمكن خالد من قتل جميع الذين اعترضوا طريقه من عناصر الكتائب التي تدافع عن قطاع الباب الشرقي .

كان الوقت قبيل الفجر ، وكان توماس قد قرر ان يلعب ورقته الأخيرة بذكاء . فعرف توماس انّ خالداً قد أمن موطىء قدم ثابت له في المدبنة ، وان المدينة ستكون تحت سيطرته بعد قليل. لم يُبدَ نشاط عند الأبواب الأخرى ، فقدّر توماس ان خالداً وحده كان يهاجم وأن باقي الألوية لم تكن مشتركة في الهجوم على الحصن . كما اعتقد أيضاً بأن قادة الألوية الأخرى ، باستثناء أبي عبيدة ، لا يعلمون شيئاً عن اقتحام خالد للباب الشرقي . لذلك تصرّف توماس بسرعة . فقذف باحتياطه الاخير على خالد ليؤخر تقدمه أكبر وقت ممكن ، وأرسل في آن واحد مبعوثين الى باب الجابية للتحدث مع أبي عبيدة ، وتقديم عرض بتسليم الحصن بلا قتال ودفع الجزية .

استقبل أبو عبيدة هؤلاء المبعوثين بالحفاوة واستمع الى عرض تسليم الحصن واعتقد بأنهم جاؤوا اليه لأنهم كانوا خائفين من مواجهة خالد . واذا سمع أصوات المعركة من مكانه الحالي فلا بد من أنه ظن أنه هجوم شنّه الروم ، لانه لم يكن يتصور ان خالدا سيتسلق السور بالحبال . ولم يشك أبو

عبيدة في ان خالدا أيضا سوف يوافق على السلام لوضع حدّ لاراقة الدماء ولتأمين تحرير سريع لدمشق سيتم سلميًا ، ولن يكون هنالك اراقة دماء ، ولا نهب ، ولا سبي ، ولا تدمير للمعابد ، وسيدفع السكان الجزية ، كما ان للحامية ولأيّ من السكان المحليين الحرّية في مغادرة المدينة كما يستطيعون اصْطحاب جميع أمتعتهم معهم . بعد ذلك ذهب المبعوثون الى قادة الالوية المسلمين وأخبروهم ان الأبواب ستفتح قريباً ، حيث يستطيع المسلمون عندئذ ان يدخلوا المدينة بلا قتال . ولن تكون هنالك مقاومة .

وبعد الفجر مباشرة دخل أبو عبيدة ، ومعه قادته وباقي لوائه ، الى دمشق بلا قتال من باب الجابية ، وسار نحو مركز المدينة . وكان يرافقه من الروم توماس وهربيس وعدد كبير من الاساقفة ورجال الدين . وكان أبو عبيدة يمشي كملاك للسلام ، وكان خالد يتقدم كالاعصار ، وقد وصلا بآن واحد الى مركز مدينة دمشق ، عند كنيسة مريم . واستطاع خالد ان يخترق آخر مقاومة للروم قبل أن يصل الى هذا المكان . كذلك دخل باقي قادة الالوية الى المدينة وكانوا يتقدمون الى مركز المدينة بدون قتال . (راجع خريطة فتح دمشق وحصارها في الشكل رقم ١٨) .

نظر أبو عبيدة وخالد كل منهما الى الآخر بدهشة . ولاحظ أبو عبيدة أن خالدا ورجاله كانوا يحملون سيوفهم بأيديهم وهي تقطر دما ، فأدرك أن شيئا ما قد حصل دون علمه . ولاحظ خالد ظواهر السلام التي تحيط بأبي عبيدة وقادته ، كما لاحظ أن سيوفهم في غمدها ، وان نبلاء الروم وأساقفتهم يرافقونهم .

وخيم الصمت على الجميع . ثم كسر أبو عبيدة الصمت وقال : « يا أبا سليمان ، لقد منحنا الله المدينة بسلام على يديّ ، ووفّر على المسلمين القتال من أجلها » . فقال خالد : « أي سلام هذا الذي تقول ! لقد استوليت على المدينة بالقوة . فسيوفنا تقطر من دمائهم ، وقد استولينا على غنائم وأسرى » .

وقال أبو عبيدة : « أيها القائد ، اعلم انني دخلت المدينة بدون قتال » . وأجاب خالد بصوت يشوبه الاحترام : « انك تتصرف دائما بدون

اكتراث . فكيف امكنهم أن يحصلوا على السلام منك بينما دخلت المدينة بالقوة وقضيت على مقاومتهم ؟» فقال أبو عبيدة : «اتقِ الله ، أيها القائد ! لقد اعطيهم ضمانا للسلام ، وانتهى الأمر» . فقال خالد : «لست مخوّلا بمنحهم السلام بدون أوامري . فأنا قائدكم . ولن أغمد سيفي قبل أن أبيدهم عن بكرة أبيهم» . فقال أبو عبيدة : «أنا لا أصدق أنك تعارضني بعد ان أعطيت ضماناً للسلام لكل فرد منهم . لقد منحتهم السلام باسم الله ، جل شأنه ، وباسم النبي عليه صلوات الله وسلامه . كما ان المسلمين الذين كانوا معي وافقوا على هذا السلام ، ونقض العهود ليس من صفاتنا» ..

في هذه المرحلة كان بعض جنود خالد يستمعون للنقاش الذي يدور بين خالد وأبي عبيدة ، ورأوا بعض الروم وهم يقفون بالقرب منهم ، فاستلوا سيوفهم وأخذوا يلوّحون بها وتقدموا نحو الروم لقتلهم . فرأى أبو عبيدة هذه الحركة فتقدم بسرعة وأمر الرجال ان يتوقفوا عن قتال الروم حتى تنتهي المناقشة بينه وبين خالد . فأطاعه الرجال .

ووصل قادة الألوية الثلاثة الآخرون وبدؤوا بمناقشة الموقف . وبعد بضع دقائق توصلوا الى اتفاق ونقلوا رأيهم الى خالد : فليكن السلام ، لان الروم الموجودين في بلاد الشام اذا سمعوا بأن المسلمين قد أعطوا ضمانا للسلام ثم بعد ذلك ذبحوا هؤلاء الذين منحوا الضمان وأمّنوا على حياتهم ، فلن تستسلم أية مدينة أخرى الى المسلمين ، وهذا سوف يجعل مهمة فتح بلاد الشام أكثر صعوبة . لم تؤثر العاطفة أبداً على منطق خالد ، ورأى هذا المنطق الحكمة العسكرية في النصيحة التي قدمها قادة الألوية . وأخذ ينظر الى توماس وهربيس برهة من الزمن . ثم قال : «حسناً ، انني أوافق على السلام ، فيما عدا هذين اللعينين» .

فقال أبو عبيدة: «هذان الرجلان هما أول من يشملهما السلام . ويجب أن لا تكسر كلمتي . حلّت عليك رحمة الله» .

فقال خالد : «والله لولا كلمتك لقتلتهما . فدعهما يخرجا من المدينة ،

حلّت عليها اللعنة أينما ذهبنا » .

كان توماس وهربيس يراقبان المناقشة بين القائدين المسلمين بينما كان المترجمون ينقلون اليهما ما يدور من حديث . وبذلك فهما كلّ ماقيل وتنفّسا الصعداء عندما علما نتيجة الحوار . ثم تقدّما نحو أبي عبيدة مع مترجم وطلبا الاذن بالخروج من المدينة والذهاب على أي طريق يختارانه . فقال أبو عبيدة : « أنا موافق . ويمكنكما أن تذهبا على أي طريق تختارانه . ولكن اذا فتحنا مكانا وأنتما تقيمان فيه ، فلن تكونا عندئذ تحت حمايتنا » . فقال توماس ، وكان يخشى أن يلحق به خالد : « امنحنا ثلاثة أيام من السلام ، وبعدها تنتهي الهدنة ثم اذا أمسكتم بنا ، فافعلوا بنا ما تشاؤون : اقتلونا أو خذونا أسرى » .

وهنا تدخّل خالد بالحديث وقال : « أنا موافق ، شريطة أن لا تأخذا معكما سوى ما يكفيكما من الطعام لرحلتكما » . فاعترض أبو عبيدة وقال : « ان هذا الشرط يتعارض مع الاتفاق الذي يسمح لهما بأن يأخذا كل امتعتهما » . فقال خالد : « اذن أنا موافق على هذا أيضا ولكن بدون أسلحة » . فاحتج توماس قائلا : « يجب أن نأخذ معنا بعض الاسلحة للدفاع عن أنفسنا ضدّ أعداء آخرين غيركم . والا فسنبقى هنا . وتستطيعون أن تفعلوا بنا ما يحلو لكم » . وكان توماس يعرف مدى تمسك المسلمين بعهودهم ومواثيقهم ، لذلك فقد استغل هذه الصفة .

وافق خالد على أن يصطحب كل رجل سلاحا واحدا فقط : السيف ، أو الرمح ، أو القوس ، وانتهت المشكلة .

بعد ذلك مباشرة ، وكانت الشمس قد أشرقت منذ قليل ، كتب الاتفاق ووقعه خالد وهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها ، أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم

الا بخير اذا أعطوا الجزية [1] . »

وتم الاتفاق على مقدار الجزية وهي دينار عن كل رأس ، وعلى كمية من الطعام تقدم للمسلمين .

تم فتح دمشق وأصبحت بيد المسلمين ، ولكن الذين فتحوا المدينة كانوا ينظرون الى نصرهم هذا بشعور مختلط .

فالمسلمون قاتلوا بعنف للاستيلاء على هذه المدينة . ومع ان خسائرهم كانت أقل بكثير من خسائر الروم ، الا أنهم دفعوا ثمنا باهظا في سبيل ذلك . وناضلوا مدة شهر وبذلوا دمهم وعرقهم من أجل هذا النصر . لقد فتحوا المدينة بالسيف — ولواء العراق خاصة الذي اقتحمها في الليلة الاخيرة وقضى على كل المقاومة . لكن ثمار تعبهم انتزعت بدبلوماسية توماس الذكي ، وببساطة أبي عبيدة وطيبته . لم يكن من حق أبي عبيدة أن يفعل ذلك ، لكنه كان « أمين هذه الأمة » ، ولم توجّه كلمة لوم إليه .

تجمع المسلمون ليشاهدوا قافلة الروم وهي تغادر المدينة . وكانت القافلة تتألف من حامية المدينة وآلاف المدنيين الذين آثروا عدم البقاء تحت حكم المسلمين وخرجوا من دمشق مع زوجاتهم وأطفالهم . وسافرت زوجة توماس ، وهيَ ابنة هرقل ، مع زوجها . وسار مع القافلة مئات العربات والمركبات التي تحمل حوائج المسافرين وبضائع المدينة ، وكان من ضمنها ثلاثمائة ثوب من أجود أنواع الديباج او الخزّ [2] تخصّ هرقلا شخصيا .

وكان خالد ومعه نفر من رجاله ، ينظرون بغيظ الى هذا الاتفاق . فالروم لم يتركوا شيئا ذا قيمة في دمشق . وكان خالد يشعر بألم في أعماقه .

ونظر الى الآخرين فوجد وجوههم يعلوها سيماء الغضب . فجميع هذه الثروات هي من حقهم حسب شريَعة الفتوحات . وكانت مجموعات المسلمين تقف على طول الطريق وهي تراقب بصمت . وكان بامكانهم الانقضاض بسهولة على القافلة وأخذ ما يريدون ، لكن جيش المسلمين كان

---

(١) — البلاذري — صفحة ١٢٨.

(٢) — نسيج حريري مشجّر اشتهرت به دمشق منذ القديم .

منضبطاً يحترم العهود والمواثيق ، ولم يفكر أي فرد من هذا الجيش بالتدخل في مسيرة القافلة .

حاول خالد جاهدا أن يكبح جماح غضبه . ثم رفع يديه الى السماء وقال بصوت عال : «يا الهي امنحنا جميع هذه الثروة عونا للمسلمين» .

سمع خالد صوت رجل يتنحنح خلفه ، فالتفت ورأى يونان العاشق ، وكان هذا لا يزال حزينـاً كما كان في الليلة السابقة عندما قابل خالدا في فسطاطه . فبعد أن قابل يونان عروسه بعد تسليم المدينة ، طلب منها أن تأتي معه ، وكانت في بادىء الأمر مسرورة لذلك . ولكن عندما أخبرها بأنه أصبح الآن صديقا للمسلمين وانه اعتنق دينهم ، ابتعدت عنه وأقسمت أن لا تراه . وقررت ان تغادر دمشق ، وهي تسافر الآن في قافلة توماس . وكان يونان لا يزال العاشق الشارد الذهن والمتيم بحب فتاته ، فجاء الى خالد يلتمس مساعدته .

وسأل ما اذا كان باستطاعة المسلمين آن يأخذوا الفتاة عنوة ويسلموها اليه . فأجيب بأن ذلك غير ممكن . لانها مشمولة بالأمان الذي أعطاه خالد لأهل دمشق . وسأل ما اذا كان باستطاعة المسلمين ان يهاجموا القافلة . فأجيب أن ذلك غير ممكن لأن الأمان الذي أعطاه خالد للقافلة كانت مدته ثلاثة أيام . وقبل انقضاء الايام الثلاثة لا يمكن مهاجمتها .

وبعد ثلاثة أيام لا يمكن اللحاق بالقافلة لان السرعة التي تسير بها تجعل من العسير على المسلمين ان يدركوها .

فقال يونان بل انهم يستطيعون ادراكها ، فهو يعرف دروبا قصيرة يستطيع الخيّال الذي يتحرك عليها بسرعة ان يلحق بالقافلة ، بينما تكون القافلة مجبرة على سلوك الطرق ولا تستطيع تقصير محاورها . فقيل له ان ذلك غير ممكن أيضا . فـالحصون العـديـدة مثـل : حمص ، وبعلبك ، وطرابلس ، كانت قريبة بحيث يمكن الوصول اليها في غضون ثلاثة أيام أو أربعة وتستطيع القافلة ان تصل بأمان الى داخل أسوار احدى هذه الحصون قبل أن يتمكن المسلمون من اللحاق بها .

فقال يونان انه يعرف ان القافلة لن تذهب الى أيّ من هذه الحصون ، وهو يعلم أيضا انها ستتوجه الى انطاكية وتحتاج الى عدة ايام للوصول الى هناك . وهو على استعداد ليكون دليلا للمسلمين . وكل ما يريد مقابل ذلك هي فتاته .

فلمعت عينا خالد . فالامكانات التي تحدث عنها يونان كانت كالماء بالنسبة للعطشان . فأومأ الى نفر من قادته : ضرار ، ورافع ، وعبد الرحمن ابن أبي بكر . وطلب منهم أن يقوموا بالمطاردة بعد ثلاثة أيام . ووضعت الخطط ، وصدرت الأوامر ، واتخذت الاستعدادات . فعندما تنقضي الايام الثلاثة . ينطلق الحرس المتحرك لمطاردة الروم بأقصى سرعة . وتقرر بناء على اقتراح يونان أن يرتدي الجميع لباس العرب المحليين ، لانه في حالة ملاقاتهم لاية وحدة رومانية وهم في الطريق فان هذه الوحدة ستظن انهم من العرب المحليين ولن تعترض طريقهم . وتحرك الامل في قلوب المؤمنين !

وفي صباح اليوم الرابع ، بعد شروق الشمس بقليل ، وبعد انتهاء مهلة الايام الثلاثة ، انطلقت قوة الحرس المتحرك من دمشق وعلى رأسها خالد ويونان . وبقي أبو عبيدة في دمشق قائدا للمسلمين فيها .

وقد ذكر الواقدي ان المسلمين أدركوا القافلة على مسافة قصيرة من انطاكية ، ليس بعيدا عن البحر ، على سهل مرتفع وراء سلسلة التلال المسماة من قبل العرب ب« الأبرش » ومن قبل الروم ب« بردى » . وكان المطر ينهمر بكثرة ، وانتشرت القافلة في السهل اتقاء المطر ، بينما كانت البضائع والامتعة تملأ المكان . ولم يخطر للروم أن صاعقة ستنزل بهم . لذا كانت رزم الحرير مبعثرة على الأرض وقد سمي السهل بعد ذلك « بمرج الديباج » ، ولهذا السبب أيضا سمي الاشتباك الذي حدث هنا « بمعركة مرج الديباج » .

تحسّن الطقس قليلاً . واستطاع يونان وبعض الكشافة الآخرين ان يحددوا مكان القافلة دون ان يكتشفهم أحد ، وجلبوا معلومات كافية لكي يستطيع خالد ان يخطط لهجومه. واختاج خالد لبضع ساعات لاعطاء

أوامره وتوزيع الحرس المتحرك لتنفيذ مهمته . وأظهر خالد ، سيد الحركة والمفاجأة ، هنا أيضاً كفاءة عالية في تطبيق مبادىء الحرب .

عرف الروم بوجود المسلمين لأول مرة عندما قامت كتيبة خيّالة بمهاجمتهم من الجنوب ، على امتداد الطريق القادم من دمشق ، بقيادة ضرار «العاري الصدر» . وقد دهش الروم لتمكن ضرار من اللحاق بهم . لكنهم رأوا ان القوة التي معه صغيرة ، لذلك قرروا ان يمزقوه ارباً ثم يستريحوا بعد ذلك مرة أخرى . وتشكلوا في ترتيب المعركة لمواجهة هجوم المسلمين ، وبدأوا بالقتال بالشجاعة المعروفة عنهم .

وبعد نصف ساعة ظهرت مجموعة أخرى من خيّالة المسلمين ، وهي مؤلفة من ألف خيّال بامرة رافع ، من جهة الشرق ، وأدرك الروم خطأهم لاعتقادهم بأن كتيبة واحدة فقط هي التي تمكنت من اللحاق بهم . فالمسلمون لديهم بلا شك كتيبتان . فالكتيبة الأولى كانت الغاية منها جذب انتباه الروم ، بينما كانت الكتيبة الثانية مكلفة بتوجيه الضربة الرئيسية من الجنب . ومع ذلك فان هاتين الكتيبتين لن تقدرا عليهما ، وسوف يمزقون كتيبتين بدلاً من واحدة . وتشكل الروم مرة ثانية وتلقوا هجوم رافع أيضاً .

وبعد ذلك بنصف ساعة ، ظهرت كتيبة خيالة أخرى من جهة الشمال ، أي من اتجاه انطاكية ، وكانت هذه الكتيبة بامرة عبد الرحمن ، وهنا شعر الروم بخطورة الموقف لانهم عزلوا عن انطاكية ، وعليهم الآن ان يشتبكوا بسرعة مع هذه الكتائب الثلاث لكي يفتحوا الطريق شمالاً أو ينسحبوا الى الغرب ، وهذا الاتجاه هو الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحاً أمامهم . وتشكل الروم مرة أخرى ، وبدأت معنوياتهم بالانخفاض . وهجمت كتائب المسلمين على تجمعات الروم بالسيف والرمح . لكن الروم استطاعوا ان يثبتوا في مواقعهم ، واستمر القتال العتيف ساعة أخرى .

ثم ظهرت من الغرب كتيبة رابعة من خيالة المسلمين وانقضّت على الروم . ومن صرخة المعركة التي أطلقها القائد ، عرف الروم من هو قائد هذه المجموعة الأخيرة :

«انه خالد بن الوليد..» .

لقد قتل الكثير من الروم بأسلوب خالد ذاته . وقتل خالد بنفسه توماس وهربيس في مبارزات فردية ، وتوغل خالد في عمق جيش الروم وانعزل عن أصحابه وأصبح محاطاً بالأعداء . ولم يكن ليخرج حياً لولا عبد الرحمن ، الذي اندفع بمجموعة من الفرسان وانقذه .

وبعد مزيد من القتال ، خفّت مقاومة الروم . واذ كان عدد المسلمين قليلاً وغير كاف لتطويق جيش الروم بشكل تام ، فقد استطاع الآلاف من الروم ان يهربوا وينجوا بأنفسهم . واستولى المسلمون على جميع الغنائم وعلى عدد كبير من الأسرى من كلا الجنسين . ووجد يونان حبيبته وتقدم نحوها ليأخذها عنوة ، لكنها عندما رأته يتقدم منها أخرجت خنجراً من ثنايا ملابسها وغرزته في صدرها . وعندما وقعت على الأرض جثة هامدة ، جلس يونان بجانبها والدموع تنهمر من عينيه . وأقسم ان يظل مخلصاً لذكرى عروسه التي لم يكن مقدّراً له ان يمتلكها ، وأقسم ان لا ينظر لفتاة غيرها .

وعندما علم خالد بمصاب يونان ، أرسل في طلبه وقدّم له امرأة شابة أخرى كانت تقف قريبة منها ، وكان يبدو عليها الجمال والغنى من الملابس الفاخرة والمجوهرات التي تتزين بها . وبعد أن ألقى يونان النظرة الأولى على هذه المرأة الشابة لم يعد يستطيع الكلام . وعندما استطاع الكلام مرة أخرى ، أخبر خالداً ان هذه المرأة هي ابنة هرقل وأرملة توماس . وهو لا يستطيع أن يأخذها ، لأن هرقل إما ان يرسل جيشاً لاستعادتها أو يرسل مبعوثين لدفع الفدية .

وعاد المسلمون مع غنائمهم وأسراهم التي تجلب السرور لأي جيش فاتح . ولما أصبحوا على بعد مسيرة يوم من دمشق ، شاهدوا سحابة صغيرة من الغبار تقترب على الطريق القادم من انطاكية . وعندما أضبحت هذه السحابة قريبة منهم ، كشفت عن مجموعة صغيرة من الفرسان لا يبدو عليها أنها تنوي القتال لقلة عددهم ، وخرج من هذه المجموعة نبيل روماني وتقدم نحو خالد وقال له : «أنا سفير هرقل ، وهو يقول لك : لقد علمت بما

فعلت بجيشي . لقد قتلت زوج ابنتي وسبيت ابنتي . لقد انتصرت وخرجت سالماً . وأنا أطلب منك الآن ابنتي . فإما ان تعيدها الي لقاء دفع فدية أو تعطيها لي كهدية ، لأن الشرف صفة قوية في خلقك ، هذا ما يقوله هرقل » .

كان الشرف حقا صفة قوية من صفات خالد . وكذلك كان خالد يتصف بالمروءة والشهامة . وكان خالد معطاء كريماً ، وقد سبب له هذا الكرم مشكلة كبيرة فيما بعد . والآن قرر ان يكون كريماً مع امبراطور الروم . فقال لسفير هرقل : «خذها كهدية ، ولا حاجة لدفع الفدية»[1] . وأخذ السفير ابنة هرقل وعاد بها الى انطاكية .

بقي يونان حزيناً . ولم يستطع أحد أن يجلب السرور الى قلبه . وقدّم خالد له جائزة كبيرة من حصته من الغنائم ، يستطيع بها الحصول على زوجة أخرى ، وعند الضرورة عن طريق الشراء ، لكن يونان أبى أن يأخذ شيئاً . وصمم ان يظل وفياً لذكرى فتاته . كذلك بقي مخلصاً لدينه الجديد ، وقاتل تحت راية الاسلام لمدة سنتين حتى معركة اليرموك، حيث استشهد فيها .

استقبل المسلمون في دمشق عودة الحرس المتحرك وهو محمّل بالغنائم بالهتاف والترحيب . وقد غابت هذه القوة عن دمشق مدة عشرة أيام . وكان المسلمون خلالها في حالة من القلق ، أما الآن فكل شيء أصبح على ما يرام . وأرسل خالد على الفور رسالة الى المدينة أخبر فيها أبا بكر عن فتح دمشق وكيف خدع الروم أبا عبيدة ، وعن مطاردته لقافلة الروم ، وقتله لتوماس وهربيس ، والاستيلاء على الغنائم والأسرى ، وعن ابنة هرقل واطلاق سراحها . وكتبت هذه الرسالة في الأول من تشرين الأول عام ٦٣٤م. (الثاني من شعبان عام ١٣ هجري) .

وبعد ذهاب المراسل الذي يحمل هذه الرسالة بعدة ساعات انتحى أبو عبيدة بخالد جانباً وأخبره ان أبا بكر قد مات وان عمر أصبح خليفة الآن .

---

(١) — الواقدي — صفيحة ٥٨ .

وأخرج رسالة أرسلها اليه الخليفة الجديد . فأخذ خالد الرسالة وبدأ بقراءتها . وعندما وصل الى السطر الذي يقول : «أنني اعينك قائداً لجيش خالد بن الوليد..» رفع خالد رأسه عن الرسالة .

٥ — عزل خالد عن قيادة الجيش :

في الثاني والعشرين من آب عام ٦٣٤م. (الثاني والعشرين من جمادي الآخرة عام ١٣ هجري) ، توفي أبو بكر وأصبح عمر خليفة المسلمين . وفي اليوم ذاته أصدر الخليفة الجديد أول أمر له : وهو عزل خالد عن قيادة جيش المسلمين في بلاد الشام . وكتب الى أبي عبيدة الكتاب التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات الى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحقّ عليك ، لا تقدّم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده وتعلم كيف مأتاه . ولا تبعث سرية الا في كُثف من الناس ، واياك والقاء المسلمين في الهلكة وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك ، فغمّض بصرك عن الدنيا واله قلبها عنك ، واياك ان تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم [1] » .

وأعطى الكتاب الى رسول ، وطلب منه أن يسلمه الى أبي عبيدة شخصياً .

وصل الرسول الذي يحمل الكتاب الهام الى دمشق بينما كان الحصار مضروباً حولها ولم تكن المعركة ضد قوة النجدة الرومانية قد نشبت بعد . وكان الرسول الذي يحمل الكتاب يعرف محتوياته ، وإذ كان رجلاً ذكيا ، أدرك مدى ما سيحدثه من أثر سيء على المسلمين الذين هم في حالة قتال

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٢ .

مع العدو الروماني . لذلك كان يخبر أي رجل يقابله بأن الأمور غلى خير ما يرام وان التعزيزات في طريقها الى المسلمين. ثم ذهب الى فسطاط أبي عبيدة ، ولم يكن أحد معه ، وسلّمه الكتاب .

وعندما قرأ أبو عبيدة الكتاب أصيب بالدهشة ، وكان لا يتمنى أن يحدث هذا الأمر . فهو يعرف ان خالداً كان رمزاً للجيش ، وان وجوده على رأس هذا الجيش كان عاملاً في غاية الأهمية لجعل المسلمين يثقون بالنصر على اعدائهم . كما ان تغيير القيادة سيكون له تأثير عكسي ولا سيما أن المسلمين مشغولون بحصار عنيف لم يكن قد ظهر أي دليل على انه لصالحهم . وكان من الصعب اقناعهم بأن عزل خالد من العدل أو من الحكمة في هذا الوقت . علاوة على ذلك ، فان أبا عبيدة لم يكن راغباً في تولي القيادة في منتصف العملية التي نظمها خالد تنظيماً جيداً . لذلك قرّر أن لا يذكر شيئاً عن وفاة أبي بكر أو عن تغيير القيادة حتى ينتهي الحصار بنجاح . وسأل الرسول عمّا اذا علم أحد بفحوى الكتاب ، فأكد له الرسول بأن أحداً لم يطلع على الكتاب ، فحذّره أبو عبيدة من افشاء مضمونه .

وبقي المسلمون على حصار دمشق لا يعلمون شيئاً عن تغيير القيادة حتى يوم الفتح ، إذ لم يشر أبو عبيدة الى ذلك في أثناء النقاش بينه وبين خالد . فلو فعل أبو عبيدة ذلك لوجه طعنة نجلاء إلى خالد تقلل من شأنه أمام الصديق والعدو. وهكذا وقّع خالد الاتفاق مع أهالي دمشق وليس أبو عبيدة . وبعد عودة خالد من الاغارة على « مرج الديباج » ببضع ساعات ، انتحى به أبو عبيدة جانباً وأخبره بوفاة أبي بكر وتعيين الخليفة الجديد ، وأعطاه كتاب عمر ليقرأه .

قرأ خالد الكتاب ببطء . وأدرك ما فيه .

عرف خالد من تأريخ الكتاب بأنه مرسل منذ أكثر من شهر وأن أبا عبيدة قد تسلمه منذ ثلاثة أسابيع على الأقل . فنظر الى أبي عبيدة وسأله : «لماذا أخفيت هذا عني؟ رحمك الله ! » فأجابه أبو عبيدة : « لم أرغب في

اضعاف سلطتك وأنت مشتبك مع العدو[1] » .

وفي صباح اليوم التالي ، الثاني من تشرين الأول عام ٦٣٤م. (الثالث من شعبان ، عام ١٣ هجري) ، جمع الجيش وأبلغ بتولي عمر الخلافة ، وتولى أبي عبيدة القيادة وفي هذا اليوم أقسم المسلمون في دمشق يمين الولاء لأمير المؤمنين الجديد .

لم يبدر من خالد ما ينم عن استيائه أو غضبه . وكان يقول لأصدقائه : «إذا مات أبو بكر وتولى عمر الخلافة فعلينا السمع والطاعة[2] » . وكان خالد يعلم ان أية بادرة تدل على استيائه ستسبب ضرراً خطيراً لجيش المسلمين ولقضية الاسلام في بلاد الشام ، وأن أي عمل ضد عمر سيؤدي الى انقسام الجيش ، وهذا آخر ما يجول بخاطر الجندي الحقيقي والمسلم الصادق .

ولا بد لنا في هذا المجال من أن نشير باقتضاب الى الأسباب الهامة التي حدت بعمر بن الخطاب الى تغيير قائد الحملة العسكرية في بلاد الشام ..

١ — لقد حاول بعض المؤرخين ان يرجع هذا الموضوع الى حقد شخصي من أيام الجاهلية عندما تصارع الرجلان وتمكن خالد من أن يرمي عمر على الأرض فكسرت ساق عمر . ولعل هذا السبب من التفاهة بحيث لا يؤثر في شخصية عادية متزنة . فكيف يؤثر في سلوك شخصية فذة مثل شخصية عمر .

٢ — وهناك من يزعم ، أن سبب عزل خالد ، هو قتله مالك بن نويرة . وتزوجه امرأته[3] . لأن عمر كان مقتنعاً كل الاقتناع بتقصير خالد في هذه القضية . لذلك ألحّ على أبي بكر بعد علمه بهذا الحادث أن يعزل خالدا ولكن أبا بكر لم يقتنع بتقصير خالد ولا بصحة رأي عمر في حينه فلما توفي أبو بكر قال عمر : «ما صدقت الله ان كنت أشرت على أبي بكر بأمر

---

(١) — البلاذري — صفحة ١٢٢ .

(٢) — الواقدي — صفحة ٦٢

(٣) — الطبري — ج : ٢ ، ص : ٥٠٢ .

فلم أنفذه[1] » .

وقد يكون هذا السبب وجيهاً ولكنه لم يكن السبب الحاسم الذي قرر مصير خالد .

٣ — لقد كان من طبيعة عمل أبي بكر أن يعطي حرية كاملة لعماله في الأقاليم وقادة جيوشه في الميدان في اتخاذ القرارات الصعبة والمصيرية ثم يعلمونه . أما عمر بن الخطاب فكان على العكس يتدخل في كل صغيرة وكبيرة ولا يسمح لمرؤوسيه بالاجتهاد وتفسير القرارات التي يصدرها . وقبل نشوب أية موقعة هامّة كان يحدد من المدينة المنورة عاصمة الدولة العربية الاسلامية من هو القائد العام للعملية ومن هو قائد الميمنة ومن هو قائد القلب ومن هو قائد الميسرة .. الخ ، هذه التفاصيل . ولذلك من الصعب جداً ان يخدم خالد بن الوليد في مثل هذه الظروف وهو الذي نشأ نشأة خاصة كونت لديه الاستقلالية في الرأي وتحمل المسؤوليات الجسام مهما كانت النتائج .

٤ — ان الانتصارات العظيمة التي حققها خالد في بلاد الشام والمثنى بن حارثة الشيباني في بلاد العراق خلبت أبصار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فأراد الخليفة عمر بن الخطاب أن يبرهن للناس بصورة غير مباشرة أن سبب الانتصار هو الرسالة الجديدة التي آمن بها الناس كافة وأن دور الانسان مهما عظم يبقى هامشياً لأن الأصل هو المبادىء العظيمة التي جاءت بها الثورة الاسلامية وقد عبر عمر بن الخطاب عن ذلك مرة فقال : « اني لم أعزلهما عن ريبة ، ولكن الناس عظموهما ، فخشيت ان يوكلوا اليهما[2] » .

---

(١) الإصابة — ج ٢ ، ص : ١٠٠

(٢) — ابن الأثير — ج : ٢ ، ص ٢٠٧—٢٠٨ .

٦ ـــ عملية أبي القدس :

عندما يعزل القائد العام من منصبه فهو لا يخدم عادة ـــ اذا كان لا بد من خدمته ـــ في المسرح ذاته الذي كان يتولى فيه القيادة. ولـكن قدر خالد كان القتال والفتوحات، وقد منحته الطبيعة جميع الصفات العسكرية التي تستجيب لهذا القدر. وهكذا نرى هنا الظاهرة الجديرة بالاهتمام المتجلية في أعظم قائد (في الحقيقة كان خالد أعظم قائد عرفه الالف الأول من الميلاد). وهي استعداده للخدمة في مرتبة أدنى، حتى جنديا عاديا، وباندفاعه وحماسته ذاتهما، عندما كان قائدا للجيش. وكانت هذه الرغبة في الخدمة تعكس أيضا روح المسلمين في ذلك العصر. وأصبح كل ذلك واضحا بعد اسبوعين في أزمة «أبي القدس».

بعد أنقضاء اسبوع على تولي أبي عبيدة قيادة الجيش، جاء أحد العرب النصارى الذي كان يلتمس ودّ المسلمين الى القائد الجديد وأخبره ان سوقا كبيرة سيقام في «أبي القدس» في خلال بضعة أيام. وسوف يأتي الزوار والتجار الى هذا السوق من جميع البلاد في المنطقة الآسيوية من الامبراطورية البيزنطية، ومعهم السلع الثمينة للبيع والشراء. فإذا كان المسلمون يرغبون في الحصول على غنائم أكثر، فما عليهم الا أن يرسلوا قوة اغارة للاستيلاء على جميع الثروات التي يريدونها. (تعرف أبو القدس الآن باسم «أبلح»، وهي تقع عند السفح الشرقي لسلسلة جبال لبنان الغربية، قرب زحلة، على بعد ٧٥ كم تقريبًا عن دمشق، على الطريق المؤدية الى بعلبك).

ولم يستطيع المخبر أن يؤكد ما اذا كان هنالك جنود من الروم لحراسة السوق ، لكنه ذكر ان هناك حامية قوية في طرابلس ، على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

تكلم أبو عبيدة مع المقاتلين الذين جلسوا حوله ، وسألهم ما اذا كان أحد منهم يتطوع لقيادة قوة الاغارة على «أبي القدس» . وكان يأمل أن يتطوع خالد لهذه المهمة ، لكن خالدا ظلّ صامتا . ثم تقدم شاب شجاع ، وأبدى رغبته في التطوع بحماسة شديدة . وكان هذا الشاب يدعى عبد الله ، وهو ابن لجعفر ، ابن عم النبي (ص) الذي استشهد في مؤته . وكان هذا الشاب قد وصل من المدينة لتوّه وكان تواقا للحصول على المجد في ساحة المعركة . وقبل أبو عبيدة تطوع الشاب وعينه قائدا على خمسمائة من الخيّالة .

وفي الرابع عشر من تشرين الأول عام ٦٣٤ م الخامس عشر من شعبان عام ١٣ هجرى) ، سارت مفرزة الخيّالة على ضوء القمر الساطع . وكان مع عبدالله جندي بارّ ومتعبد يدعى أبو ذر الغفاري . وفي صباح اليوم التالي شنّ الشاب المندفع هجوما على قوة من الروم يبلغ عددها خمسة آلاف رجل كانت تحرس السوق . واذ كان عبدالله يبتغي المجد وأبو ذرّ يطلب الشهادة ، فلم تكن هناك قوة تستطيع كبح جماح المسلمين ، فكانت الكارثة . فبعد قتال بطولي ، طوّق الروم المسلمين ، وبدا أن لا سبيل الى كسر الطوق . ولكن عندما يحاصر العربي يصبح مقاتلا مستميتا . وعرف صناديد العرب كيف يدافعون عن انفسهم فأسرعوا بتشكيل حلقة متماسكة لابقاء الروم خارجها ، واستمروا في القتال وهم مطوقون ، واتخذ الروم جانب الحذر بسبب شجاعة العرب وقتالهم الشديد وان كانت ابادتهم أصبحت مسألة وقت فقط .

استطاع أحد رجال عبدالله أن يفلت من طوق الروم ، وأن يذهب الى دمشق طلبا للنجدة بعد أن أدرك مدى خطورة الموقف . وكان أبو عبيدة

جالسا الى قادته عندما وصل هذا الرجل وأبلغ عن الكارثة طالبا العجلة في النجدة التي لن يعود عربي واحد بدونها من «أبي القدس» . فأصيب أبو عبيدة بالذهول . وتذكر على الفور كلمات عمر : «لاتقدّم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة» . علاوة على ذلك ، كانت هذه الاغارة أول قرار عسكري يتخذه وهو قائد عام ، فإذا لم ينجح عبدالله ورجاله ، سيكون أثر ذلك على الجيش مدمّرا . ومن لمهمة ، كهذه مثل خالد !

فالتفت أبو عبيدة الى خالد وقال : «يا أبا سليمان ، اناشدك الله أن تذهب وتنقذ عبدالله بن جعفر . فأنت الشخص الوحيد الذي تقدر على ذلك» . فأجاب خالد : «سأفعل ذلك باذن الله ، وأنا رهن اشارتك» . فأردف أبو عبيدة : «كنت أشعر بالتردد وأنا أطلب منك ذلك» . وكان يشير بذلك الى الارتباك الذي شعر به عند تغيير القيادة .

فأجاب خالد : «والله لو جعلت طفلا عليّ لأطعته . وكيف لا أطيعك وأنت أعلى مني شأنا في الاسلام وسميت بالرجل الأمين من قبل النبي (ص) ؟ انني لن أبلغ مركزك قطّ وأنا أعلن هنا انني كرّست حياتي في سبيل الله جلّ شأنه» .

فقال أبو عبيدة بصوت منفعل : «رحمك الله يا أبا سليمان . اذهب لانقاذ اخوتك [1]» .

لاشك في أن هذا الموقف النبيل الذي صدر عن خالد بن الوليد قلّ مثيله في التاريخ العسكري وهو دلالة أكيدة على مدى تأثير رسالة الاسلام في نفوس الرجال .

بعد نصف ساعة كان الحرس المتحرك ينطلق باتجاه «أبي القدس» وعلى رأسه خالد وضرار . وتمكن من انقاذ المسلمين المطوقين ، على الرغم من قتل الكثيرين منهم على يد الروم . ولم يقتصر الامر على ذلك بل اغار خالد أيضا على سوق «أبي القدس» واستولى على كثير من الغنائم ، وعاد مصابًا بعدة جروح .

---

(١) — الواقدي — صفحة ٦٦ .

لم تترك نتيجة الاشتباك في «أبي القدس» أي شك ، في إخلاص خالد بعد عزله عن القيادة . وكتب أبو عبيدة الى عمر يخبره بما حدث ، وأطنب في مديح خالد وبما قام به في هذا الاشتباك .

قرر عمر ان يستمر قادة آلوية المسلمين بتنفيذ المهام التي أوكلها اليهم أبو بكر : أن يكون عمرو بن العاص قائدا في فلسطين ، ويزيد في دمشق ، وشرحبيل في الاردن ، وأبو عبيدة في حمص — بعد الاستيلاء عليها . ولم تقتصر مهامهم على القيادة العسكرية فقط بل شملت أيضا القيادة السياسية على هذه المناطق . فكان شرحبيل ، مثلا ، قائد لواء المسلمين في الاردن ، وحاكما اداريا عليها . ومع أن أبا عبيدة كان قائدا عاما لجيش المسلمين ، الا أنه لم يكن يتولى هذه القيادة فعلا الا اذا عملت جميع الالوية معا ضد الروم . ولم يكن لخالد أي دور . وبناء على أمر عمر كان على خالد أن يعمل تحت امرة أبي عبيدة ، فسلّمه أبو عبيدة قيادة لواء العراق الذي كان يضم الحرس المتحرك . كان خالد متساويا وقادة الألوية في المنزلة العسكرية ، انما لم تكن له سلطة سياسية .

ظهر بعض تباطؤ في سير العمليات العسكرية . وكان أبو عبيدة رجلا عظيما واستراتيجيا بعيد النظر . وخلال السنوات القليلة التالية أصبح قائدا جيدا نتيجة لتمرسه بفن الحرب . وكان يعتمد كثيرا على مشورة خالد الذي كان يسعى لان يكون قريبا منه . وكان يعقد المجالس الحربية أو يكتب إلى المدينة طالبا توجيه الخليفة فيما يتعلق بالاهداف التالية . لكن خالدا كان يندفع كالاعصار من معركة لاخرى ، وكان يلجأ إلى المفاجأة ويعتمد الجرأة والعنف لكسب معاركة ، بينما كان أبو عبيدة يتحرك ببطء وبثبات . ومع ذلك كان أبو عبيدة يحرز النصر في معاركه .

واستمر فتح بلاد الشام بهذا الترتيب الجديد ، وبالاحترام المتبادل والمحبة بين أبي عبيدة وخالد ، وبوضع عبقرية خالد تحت تصرف القائد العام .

٦ — معركة فحل :

كان العمل الأساسي الذي قام به هرقل بعد اشتباك «أبي القدس» هو وضع جيش آخر في الميدان، يضم جنودا جددا من شمال بلاد الشام، والجزيرة، وأوروبا. وكان هذا الجيش يشتمل على النّاجين من معركة «مرج الديباج». وقد اجتمع جزء من الجيش في انطاكية، بينما نزل الجزء الآخر بحرا إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط في سورية وفلسطين.

بدأ حشد هذا الجيش في بيسان، غرب نهر الاردن، في أواخر كانون الأول ٦٢٤ م (أوائل ذي القعدة، عام ١٣ هجرى). وقرر أن يضرب من هناك باتجاه الشرق مستهدفا قطع طرق مواصلات المسلمين بالجزيرة العربية. وطبقا لهذه الخطة، كان هرقل ينوي تجنب لقاء المسلمين في دمشق، وأن يجعلهم في وضع استراتيجي غير ملائم، ويجبرهم على اخلاء دمشق. وكانت «فحل» التي تقع الى الشرق من نهر الاردن، قد احتلتها حامية من الروم متوسطة الحجم، اشتبكت بسرية من خيّالة المسلمين بامرة أبي الأعور.

تلقى المسلمون معلومات عن تحرك قوات الروم من السكان المحليين، وذلك قبل أن يتم حشد الروم في بيسان، وعلموا ان قوة هذا الجيش الجديد تبلغ زهاء ثمانين ألف رجل، وان قائده هو «سقلار بن مخراق». وكان واضحا ان هذه القوة سوف تتحرك شرقا وستتحشد على جانبي خطوط مواصلات المسلمين. فعقد أبو عبيدة مجلسا عسكريا، وتقرر ان يتحرك المسلمون ويسحقوا هذا الجيش الرومي الجديد، وان يتركوا خلفهم حامية

قوية للدفاع عن دمشق ضد أي تهديد من الشمال والغرب . وفي هذا الوقت كان المسلمون قد نالوا قسطا من الراحة بعد أعمالهم البطولية المجيدة . وبعد اشتباك أبي القدس مباشرة ، وصلت تعزيزات من الجزيرة العربية ، وقد انضم عدد كبير من جرحى المسلمين الذين أصيبوا في المعارك الاولى الى صفوف المسلمين . وبذلك ارتفع عدد جيش المسلمين الى نحو ثلاثين ألف رجل ، نظّموا في خمسة ألوية متفاوتة القوى .

ان التدابير القيادية التي اتخذها ابو بكر ووافق عليها عمر ، قد نفذت ، انما سرى مفعولها بطريقة غير عادية . كان يزيد قائد منطقة دمشق وحاكمها الاداري ، ولذلك بقي في دمشق مع لوائه . وكان شرحبيل قائد منطقة الاردن التي تقع ضمنها بيسان وفحل . وبناء على تعليمات الخليفة كانت القيادة العامة لمن يقع القتال في منطقته ولهذا تولى شرحبيل القيادة في فحل . وفي الاسبوع الثاني من كانون الثاني عام ٦٣٥ م ، انطلق جيش المسلمين ، بعد ان ترك لواء يزيد في الخلف ، من دمشق بقيادة شرحبيل ، وكان خالد مع لواء العراق يشكل حرس المقدمة . وفي منتصف كانون الثاني وصل المسلمون الى فحل فوجدوا ان أبا الأعور قد احتل المدينة[1] بعد أن أخلتها حامية الروم. ما كادت حامية الروم في فحل تعلم بتقدم جيش المسلمين من دمشق ، حتى تركت المدينة بسرعة ، وانسحبت عبر النهر ، والتحقت بقوة جيش الروم الأساسية في بيسان. ولما كان الروم يرغبون في اتمام استعداداتهم في بيسان دون أن يزعجهم أحد، فقد قاموا بسدّ النهر على بعد بضعة أميال جنوب خط بيسان — فحل ، فأدى هذا الى اغراق الشريط على جانبي النهر . وكان يوجد بعض الطرق عبر هذه المنطقة المغمورة بالمياه ، لا يعرفها الا الروم . كان المسلمون يعرفون الصحراء جيدا ، وبدؤوا يعرفون المناطق الجبلية ، لكن هذا الشريط من الماء والطين الذي يمتد أمامهم كان تجربة جديدة لهم اوقعتهم في حيرة . وعلى الرغم من ذلك ، قرروا ان

---

(١) تقع فحل تحت مستوى سطح البحر ، وتنحدر الأرض المحيطة بها الى سرير وادي الاردن . وفي هذه المنطقة يبلغ ارتفاع نهر الاردن حوالي ٣٠٠ م تحت سطح البحر .

يحاولوا اجتيازه .

فتح شرحبيل جيشه للمعركة عند سفح المنحدر تحت فحل ، وكان يواجه الشمال الغربي ، وأبو عبيدة وعمرو بن العاص يقودان الجناحين . وعيّن ضرار قائدا لخيّالة المسلمين ، بينما وضع خالد مع لوائه في المقدمة ليقود الهجوم الى بيسان . وتقدم المسلمون بهذا التشكيل . ولكن قبل أن يتحركوا مسافة بعيدة وقع حرس المقدمة في الوحل ووجد صعوبة كبيرة في التخلص . فعاد الى فحل ، وانتظروا فيها زهاء اسبوع .

ورأى سقلار ، القائد الروماني ان الوقت قد حان لتوجيه الضربة . كانت استعداداته كاملة ، وكان يأمل ان يأخذ المسلمين على حين غرة بعد أن يكون المستنقع قد أعطاهم نوعا من الطمأنينة . فأدلاؤه سوف يقودون الجيش عبر المستنقع الذي اعتبره المسلمون غير قابل للاجتياز . وبعد غروب شمس الثالث والعشرين من عام ٦٣٥م (السابع والعشرين من ذي القعدة عام ١٣ هجري) ، تشكل جيش الروم غرب النهر وبدأ تقدمه نحو فحل آملا أن يفاجىء المسلمين في معسكرهم ليلاً .

لكن المسلمين لم يخلدوا الى الراحة . وكان شرحبيل قائدا حذرا ، وكان يتوقع مجيء الروم ولهذا كان لا يبيت ولا يصبح الا على تعبئة . وكان يحتفظ بجزء من كل لواء في مواقعه القتالية خلال الليل . كذلك وضع ستارة من الكشافين على امتداد المستنقع لرصد تحرك الروم نحو فحل . وهكذا عندما اقترب الروم من فحل لم يجدوا جيشا يرتاح في معسكره ، بل وجدوا جيشا مشكلا في ترتيب المعركة . وفي الحال بدأت المعركة بين الجانبين . وقاتل الجيشان طيلة الليل ونهار اليوم التالي وهو الرابع والعشرون من كانون الثاني عام ٦٣٥م . وبقي جيش المسلمين في حالة الدفاع ، وصدّ جميع محاولات الروم لاختراق صفوفه ، وقتل في أثناء هذه المحاولات سقلار . وعندما حلّ الظلام مرة أخرى ، قرر الروم أن يوقفوا القتال ، وقد أصيبوا بخسائر جسيمة على أيدي المسلمين ، الذين وقفوا جداراً من الفولاذ أمام تقدمهم ، ولم ينجح الروم في خرق هذا الجدار في أي مكان منه . وبدأ الروم تحت جنح

الظلام بالانسحاب عبر المستنقع باتجاه بيسان .

هكذا حانت اللحظة التي ينتظرها شرحبيل . فقد قاتل الروم حتى أنهكهم ، وبعد أن يئسوا من النجاح وصدت جميع هجماتهم بدؤوا بالانسحاب . وآن الوقت لشن الضربة المعاكسة . فأمر شرحبيل بالتقدم ، وانقض ساكنو الصحراء ليلاً على مؤخرات الروم .

وفي هذه المرة فشلت خطة سيطرة الروم على التحرك ، وضاع الآلاف منهم في المستنقع . وعندما طاردتهم جموع المسلمين ، انهاروا وفقدوا اعصابهم . وتابع المسلمون مطاردتهم عازمين ان يقضوا عليهم ، وقواهم المعنوية في أوجها قتل في معركة فحل عشرة آلاف من الروم ، وتعرف هذه المعركة في التاريخ الاسلامي ايضا باسم «معركة الوحل» . ووصل بعض الروم الى بيسان بينما فرّ آخرون وتبعثروا في جميع الاتجاهات حرصا على أرواحهم .

وبهزيمة جيش الروم في فحل توزع جيش المسلمين أيضا ، فأبو عبيدة وخالد بقيا في فحل لينطلقا منها بعد ذلك الى دمشق وشمال سورية .

اجتاز شرحبيل وعمرو بن العاص المستنقع والنهر عبر الطرق التي كان يستخدمها الروم والتي عرفت الآن ، وفرضا حصارا على بيسان . وبعد بضعة أيام شنّ الروم هجوما من حصن بيسان ، لكن شرحبيل تغلب عليهم . وسرعان ما استسلمت بيسان بعد هذا الهجوم ووافقت على دفع الجزية وبعض الضرائب الاخرى . بعد ذلك توجه شرحبيل الى طبرية التي استسلمت أيضا بشروط مماثلة . وقد تم ذلك قبل نهاية شباط عام ٦٣٥م (ذي الحجة عام ١٣ هجري) . وانتهت المقاومة في منطقة الاردن .

في بداية العام الرابع عشر للهجرة ، وجّه عمرو بن العاص وشرحبيل اهتمامها الى فلسطين . وهنا حدث تغيير آخر في القيادة . ففلسطين كانت منطقة عمرو ، لذلك تولى قيادة الجيش فيها وشرحبيل بامرته قائد لواء . وقد تم ذلك قبل دخول هذا الجيش الصغير المؤلف من لوائين بفترة قصيرة من الزمن .

وعندما كان عمرو في الاردن ، كتب الى الخليفة وأبلغه آخر المعلومات عن توضع الروم وعن قوتهم في فلسطين . وأن أكبر قوة لهم في اجنادين . وأصدر عمر تعليمات مفصلة الى عمرو محدداً الاهداف التي ينبغي له أن يستولي عليها ، وكتب ايضا الى يزيد للاستيلاء على ساحل البحر الابيض المتوسط . ووفقا لهذه التعليمات عمل جيش المسلمين ، باستثناء لوائي أبي عبيدة وخالد ، ضد الروم في فلسطين وشمالا حتى بيروت . وساز لواء عمرو وشرحبيل الى اجنادين ، وحاربا وهزما جيشا روميا في معركة اجنادين الثانية . وكان قائد جيش المسلمين عمرو بن العاص . وبعد ذلك افترق اللواءان . فذهب عمرو للاستيلاء على نابلس ، وعمواس ، وغزة ، وبينه ، وبذلك احتل جميع فلسطين ، بينما اندفع شرحبيل نحو المدن الساحلية وهي : عكا ، وصور ، التي استسلمت له بشروط معينة . اما يزيد فقد تقدم مع أخيه معاوية ، الذي قام بدورٍ هام تحت قيادته من دمشق واستولى على صيدا ، وجبيل ، وبيروت .

وقد استغرق الاستيلاء على قيسارية أطول وقت . وكان عمر قد أسند مهمة الاستيلاء عليها الى يزيد ، وفرض يزيد وأخوه معاوية الحصار عليها ، لكن قيسارية المحصنة والتي كانت تعززها امدادات الروم ، بحرا ، لم يتم الاستيلاء عليها على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلاها . ورفع الحصار عنها عند اعادة تجميع قوات المسلمين من أجل معركة اليرموك ، ولكن الحصار فرض مرة ثانية بعد تلك المعركة واستمر حتى سقط الميناء في عام ٦٤٠م (عام ١٩ هجري) .

وفي نهاية عام ١٤ هجري (تقريبا عام ٦٣٥م) ، كانت فلسطين ، والاردن ، وجنوب سورية ، باستثناء القدس وقيسارية ، بيد المسلمين .

٧ — فتح حمص :

في أوائل شهر آذار عام ٦٣٥م (أوائل محرّم عام ١٤ هجري)، انطلق أبو عبيدة وخالد من فحل لمتابعة القتال شمالاً. وقد انتظرا في فحل بينما كان شرحبيل يقاتل في بيسان وطبرية، وذلك لكي يشتركا في القتال اذا اتسع نطاق المعارك هناك. غير أن الاستيلاء على طبرية، حال دون حدوث معركة كبيرة، فأصبحا يستطيعان الانطلاق.

كان يمتد على بضعة أميال الى غرب دمشق وجنوب غربها سهل أخضر يعرف في التاريخ الاسلامي باسم «مرج الروم»[١]. وكان يزيد ما يزال في دمشق وظل هناك بضعة أشهر أخرى قبل أن يتلقى الامر بالتوجيه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط. وفي مرج الروم، اشتبك أبو عبيدة بقوات كبيرة من الروم.

عندما سمع هرقل بعمليات المسلمين في بيسان وطبرية، أدرك ان المسلمين قد اختاروا الاردن وفلسطين أهدافاً استراتيجية تالية وانهم غير مهتمين بشمال سورية. وسمع أيضا ان لواء واحدا ضعيفا من جيش المسلمين بقي في دمشق، وكان هذا اللواء لا يظهر أية نية هجومية. لذلك قرّر استعادة دمشق. فأرسل قوة من الروم بقيادة «توذر» لقتال الحامية الاسلامية في دمشق ودحرها واستعادة المدينة. وانطلقت هذه القوة من انطاكية، وتحركت عن طريق بيروت، واقتربت من دمشق من جهة

(١) — مرج الروم: هو سهل البقاع حاليا ويقع بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية والى الغرب من دمشق بحوالي ٥٥ كم.

الغرب . ولم يكد يبدأ هذا التحرك حتى علم هرقل ان أبا عبيدة وخالدا غادرا فحل وهما يتقدمان شمالا مرة أخرى . وسيصلان دمشق عند وصول «توذر» اليها تقريبا ، عندئذ لن يتمكن الروم من استعادة المدينة . فأمر هرقل ، من أجل تعزيز القوة الرومانية ، بارسال مفرزة من الحامية الكبيرة في حمص لتعزيز «توذر» . وسارت هذه المفرزة بامرة «شنس» من حمص على الطريق الرئيسي الى دمشق .

عندما وصل المسلمون الى مرج الروم وجدوا «توذر» بانتظارهم ، وفي اليوم ذاته أيضا وصل «شنس» من حمص وفتح الجيشان في تشكيل المعركة وتقابلا وجها لوجه . وكان أبو عبيدة يواجه «شنس» بينما كان خالد يواجه «توذر» .

لم يذكر المؤرخون شيئا عن قوة الروم ، انما يُرجح أنها كانت تتألف من لوائين قويين تقريبا ، لأن الروم لا يسعهم ان يجازفوا بمواجهة لواءين من المسلمين بأقل من ذلك . وبقي الجيشان طيلة النهار في مواقع المعركة ، وكل منهما ينتظر الآخر ليبدأ الخطوة الاولى في القتال .

وعند حلول الظلام ، قرر توذر أن ينفذ مناورة استراتيجية بارعة . فترك شنس في مواجهة المسلمين ، وسحب فيلقه تحت جنح الظلام ، وتحرك به حول مجنبة خالد وعند فجر اليوم التالي وصل الى دمشق . وكان يهدف الى ابقاء جيش المسلمين الرئيسي مشغولا في مرج الروم بلواء شنس ، بينما يقوم هو بلوائه بتدمير حامية المسلمين في دمشق بسرعة . وكانت خطة ذكية جدا ، ونفذ التحرك بتنظيم جيد ولم يعلم المسلمون بذهاب نصف جيش الروم الذي أمامهم الا في الهزيع الأخير من الليل .

وفي دمشق ، أعلمت كشافة يزيد عند الفجر عن مجيء الروم . وعندما تلقى يزيد هذه الانباء ، نشر لواءه الصغير على الفور خارج الحصن وكان يقابل الجنوب الغربي . وكان المسلمون خارج أسوار المدينة كأنهم في وطنهم ، فهم يفضلون القتال في السهل أكثر من القتال داخل المدينة . وبدأت المعركة بين توذر ويزيد بعد شروق الشمس مباشرة ، ووجد المسلمون

انفسهم تحت ضغط الروم الشديد ، لان تفوق الروم كان واضحا ، لكنهم تمكنوا من الصمود حتى الضحى . وعندما بلغ الموقف بيزيد حتى اليأس ، أصيب الروم بضربة قوية في مؤخرتهم قامت بها خيالة المسلمين . وكانت هذه القوة لواء العراق ، وعلى رأسه الحرس المتحرك . وفي وقت قصير تمكن خالد وصناديده الابطال ، الذين هاجموا الروم من الخلف ، من تمزيق فيالق الروم شرّ ممزّق . ولم ينجُ من الروم سوى القليل ، وقتل توذر على يد خالد في مبارزة . واستولى المسلمون على كميات كبيرة من الغنائم ، كان معظمها من الاسلحة والدروع .

عندما اكتشف خالد في الليلة الماضية أن نصف جيش الروم قد ترك مرج الروم ، أدرك على الفور بأنه ذهب الى دمشق لقتال يزيد . وخشي خالد ان لا يستطيع يزيد الصمود ، فقرر الزحف نحو دمشق ، بينما يقوم أبو عبيدة بقتال من تبقى من الروم بقيادة «شنس» . فوافق أبو عبيدة ، وغادر خالد مرج الروم في الصباح الباكر لانقاذ دمشق ، كما ذكر آنفا . وبينما كان خالد يقوم بتصفية فيلق توذر ، هاجم ابو عبيدة الروم في «مرج الروم» . وتمكن أبو عبيدة من قتل «شنس» في مبارزة جرت بينهما ، وامتلأ السهل بقتلى الروم ، لكن الجزء الأساسي من فيلق الروم تمكن من التملص والانسحاب بسرعة الى حمص .

حدث هذا الاشتباك في آذار عام ٦٣٥م (محرّم ، عام ١٤ هجري) ، وهو يعرف باسم «معركة مرج الروم» .

انقضى بعض الوقت في مرج الروم ودمشق في توزيع الغنائم واتخاذ التدابير اللازمة بشأن جرحى المسلمين وأسرى الروم . وبعد الانتهاء من هذه الامور ، أرسل أبو عبيدة خالدا على رأس لوائه على الطريق المباشر المؤدي الى حمص ، بينما تقدم هو الى بعلبك . فاستسلمت حامية بعلبك بلا قتال ، وتابع أبو عبيدة تقدمه للانضمام الى خالد الذي فرض الحصار على حصن مدينة حمص .

وبعد بضعة أيام من بدء الحصار تم الاتفاق على عقد هدنة بين الجانبين ، تقضي بأن تدفع عشرة آلاف دينار وان تقدّم مائة ثوب من «البروكار» . على ان يتعهد المسلمون بالامتناع عن مهاجمة حمص لمدة عام . وفي حال وصول تعزيزات الى المدينة من قبل الروم ، تصبح المعاهدة لاغية . وما كادت توقع المعاهدة حتى فتحت أبواب حمص ، وبدأ المسلمون بالدخول الى سوق حمص والخروج منه بحرية ، وقد تملكت أهالي حمص الدهشة عندما وجدوا ان المسلمين يدفعون ثمن كل شيء يأخذونه من السوق .

وبعد أن سمع أهالي قنّسرين بالطريقة التي تجنب بها سكان حمص محاربة المسلمين ، قرروا الاقتداء بهم . فالمعاهدة خير من الاستسلام المشين ، وهو أسلوب ملائم لتأجيل اتخاذ القرار الصعب . لذلك أرسل مبعوث من قبل حاكم قنّسرين الى حمص ، واتفق هذا المبعوث مع أبي عبيدة على عقد معاهدة مماثلة لمدة عام . لكّن حاكمي حمص وقنسرين اتفقا على عقد المعاهدة بسبب ضغط الظروف وكسبا للوقت . فكان كلاهما يأمل بوصول تعزيزات الى مدينتيهما من قبل هرقل في غضون مدة ليست طويلة ، وحالما تصل هذه التعزيزات فانهما سيباشران الاعمال العدائية ضد المسلمين . وعلى أية حال ، فان الرجل العادي في المنطقة كان معجبا للغاية باللطف والمعاملة الحسنة التي كان يتحلى بها المسلمون وببعدهم عن غطرسة الحكام الروم وطغيانهم في بلاد الشام.

بعد أن حلّ أبو عبيدة مشكلتي حمص وقنّسرين حلا مؤقتاً . أرسل قوة الجيش الرئيسية في مجموعات للاغارة على شمالي سورية . ووصلت قوات المسلمين شمالا حتى حلب ، فتركت منطقة قنّسرين وأغارت على الاماكن التي مرت بها في طريقها وعادت الى معسكر المسلمين قرب حمص ومعها الغنائم والاسرى . وقد التمس الآلاف من هؤلاء الاسرى الحصول على حريتهم ، وقد أطلق سراح جميع الذين قبلوا دفع الجزية وتعهدوا بالولاء للمسلمين مع أسرهم وأموالهم وامتعتهم ، وسمح لهم بالعودة الى منازلهم

وأعطوا ضمانات بالامان التام .

استمر هذا العمل بضعة أشهر ، وانقضى معظم الصيف على هذا المنوال . وفي أثناء ذلك ساور القلق عمر في المدينة . فالمسلمون كانوا يبلون في فلسطين بلاء حسناً . أما في شمالي سورية ، أي في قطاع أبي عبيدة فان الأمور لم تكن تسير بالسرعة نفسها لذلك فقد أرسل عمر الى أبي عبيدة كتابا يطلب منه فيه ان يتابع فتح سورية . وفور تسلم هذا الكتاب عقد أبو عبيدة مجلسا عسكرياً تقرر فيه ان يتقدم جيش المسلمين شمالاً لفتح المزيد من الأراضي .

أما حمص وقنسرين فلا سبيل للعمل فيهما بسبب الهدنة القائمة ، وأما الأماكن الاخرى فمن الممكن مهاجمتها والاستيلاء عليها .

وفي أوائل شهر تشرين الثاني عام ٦٣٥م (منتصف رمضان عام ١٤ هجري) ، سار جيش المسلمين من حمص الى حماه ، وهنا خرج أهالي حماه للترحيب بالمسلمين . وفتحت المدينة أبوابها طواعية ، وتابع الجيش تقدمه . وبدأت مدن شيرز ، وأفامية (تعرف اليوم باسم قلعة المضيق) ، ومعرّة النعمان بالاستسلام الى المسلمين بدون قتال ووافقت على دفع الجزية .

واستقبل المسلمون في بعض الاماكن بعازفين على آلات موسيقية كدليل على الترحيب . ولأول مرة في سورية ، اعتنقت فئات من السكان الاسلام بأعداد كبيرة وكان لشخصية أبي عبيدة دور هام في ذلك .

عندما كان المسلمون في شيزر سمعوا أنباء تشير الى تحرك تعزيزات الى قنسرين وحمص . وبذلك تم خرق الهدنة من قبل الروم . فوصول هذه التعزيزات الجديدة أنعش الامل في قلوب الروم الموجودين في حمص وقنسرين ، كما ان حلول الشتاء أعطاهم تأكيدا بالنجاح . فوجودهم في حصونهم يقيهم البرد أكثر من العرب الذين كانوا غير معتادين على البرد الشديد ، بالاضافة الى وجودهم في الخيام التي لا تقي كثيرا من برد الشتاء . وفي الحقيقة كتب هرقل الى هربيس ، الحاكم العسكري لحمص : «ان

طعام هؤلاء هو لحم الابل وشرابهم لبن النوق . وهم لا يستطيعون مقاومة البرد ، فحاربهم في كل يوم بارد بحيث لا يبقى أحد منهم بحلول الربيع » [1] .

قرر أبو عبيدة ان يستولي على حمص أولا ، وبذلك يحمي مؤخرته قبل أن يقوم بعمليات هامة في شمالي سورية . لذلك سار المسلمون إلى حمص وكان خالد ومعه لواء العراق في الطليعة . وعند الوصول الى المدينة وجد خالد قوة بيزنطية هامة منتشرة في طريق تقدمه ، ولكنه تمكن من طردها الى الحصن بعد أن شنّ عليها هجوما خاطفا بلوائه . واتبع الروم تعليمات هرقل التي تقضي « بمحاربتهم في كل يوم بارد » ؛ ولكن بعد تجربتهم في هذا الصدام الأول مع خالد ، قرروا ان يتركوا هذه المهمة للشتاء نفسه . وعندما انسحب الروم الى الحصن واغلقوا أبوابه ، وصل أبو عبيدة مع من معه الجيش وفتح قواته للمعركة بأربعة مجموعات ووضع كل مجموعة أمام باب من أبواب حمص الاربعة [2] .

كانت حمص عبارة عن مدينة محصنة بشكل دائري ، وكان قطرها لا يتجاوز ٢كم ، يحيط بها خندق مائي . وقلعتها على قمة تل صغير داخل الحصن . وكان يمتد خارج المدينة سهل خصب ، يقطعه من الغرب نهر العاصي .

وكان أبو عبيدة وخالد الحرس المتحرك يعسكرون عند الطرف الشمالي ، على مسافة قصيرة من باب الرّستن . كانت قوة المسلمين في حمص تعد نحو خمسة عشر ألفا مقابل حامية المدينة الرومانية المؤلفة من ثمانية آلاف جندي . ترك أبو عبيدة ادارة الحصار لخالد ، الذي برهن أنه قائد كفؤ في هذه العملية . وقد حانت أواخر شهر تشرين الثاني أو أوائل كانون الاول (نحو منتصف شوّال) ، وهبط الشتاء كالغطاء الثقيل فوق حمص .

استمر الحصار أكثر من شهرين على وتيرة واحدة . وكان كل يوم يتم

---

(١) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) — باب السباع من الجنوب وباب تدمر من الشرق وباب الرستن من الشمال وباب هود من الغرب .

تبادل رمايات النبّال بين الجانبين ، ولكن لم يحدث أي اشتباك يمكن ان يقرر مصير الحصار بأي شكل من الاشكال . وكان الروم عندما ينظرون الى المسلمين المعرّضين للبرد خارج المدينة ، يشعرون بالثقة بأن البرد وحده كفيل بصدّهم وردهم الى صحرائهم .

تأثر المسلمون بشدة البرد ، ولكن ليس كما تخيل الروم . ولم تفتر همتهم ، ولم تضعف عزيمتهم على الاستيلاء على حمص .

وعند منتصف شهر شباط عام ٦٣٦م (أوائل محرّم ، عام ١٥ هجري) ، جاء أمر من عمر يقضي بارسال لواء العراق الى العراق . وفي الحقيقة ليس لخالد علاقة بهذا الأمر . فمعركة القادسية كانت على وشك النشوب في العراق بين سعد بن أبي وقاص ورستم الفارسي ، وأراد عمر ان يعزز المسلمين لأن قوات الفرس كانت تفوقهم كثيرا ، ولم يذكر عمر في أمره أي شيء بخصوص خالد ، فاعتبر أبو عبيدة ان الخليفة لا يرغب في أن يذهب خالد مع لواء العراق ، وهذه هي المشكلة في الحقيقة .

تغيرت بنية لواء العراق تغيرا جوهريا منذ أيام المسير الخطر . ففي ذلك الوقت كان يتألف من محاربي الجزيرة العربية الذين هم من المهاجرين ، والانصار ، والاعراب . وبعد معركة اجنادين ، شكل خالد الحرس المتحرك من عناصر هذا اللواء ، وضمّ الى اللواء بدلا من هؤلاء عناصر جديدة من اليمن والحجاز ومن أهل العراق الذين اعتنقوا الاسلام ، وكان معظم هؤلاء من قبيلة ربيعة [١] . وهكذا ، كان لدى خالد أثناء حصار حمص الحرس المتحرك المؤلف من أربعة آلاف رجل بالاضافة الى لواء العراق المؤلف من ستة آلاف رجل .

وبناء على أوامر عمر ، أرسل لواء العراق جنوبا ليسلك طريق الجندل المؤدي الى العراق . وسار هذا اللواء بامرة هشام بن عتبة بن أبي وقّاص ، وكان على رأس المقدمة القعقاع بن عمرو . وكانت مغادرة هذا اللواء لحظة حزينة بالنسبة لخالد ، وودع رفاق السلاح الذين خاض معهم العديد من

---

(١) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ٥٢ .

المعارك المجيدة بقلب ملؤه الحسرة . وأصبح خالد بدون لواء الآن ليقوده ، لكنه كان لا يزال يحتفظ بالحرس المتحرك .

وعندما رأى الروم مغادرة لواء العراق ، اعتقدوا بأن المسلمين قد قاسوا من البرد بما فيه الكفاية وانهم بدؤوا بالانسحاب جنوبا . وبذلك ارتفعت معنويات الحامية المحاصرة . ولكن عندما مرّت بضعة أسابيع دون أن يتابع المسلمون انسحابهم ، أيقن الروم بأن خصومهم لا ينوون رفع الحصار . وكان ذلك عند منتصف آذار عام ٦٣٦م (أوائل صفر ، عام ١٥ هجري) ، حيث خفّت حدّة البرد . وتلاشى بذلك أمل الروم بأن البرد كفيل بطرد المسلمين ، وبدأت مؤن المسلمين بالتناقص ، لكن مجيء الربيع والطقس الحسن سيمكنهم من جلب المؤن والتعزيزات وعندئذ سيكونون في مركز قوي . وكان لا بد من عمل شيء ما بسرعة . فالسكان المحليون يرغبون في السلام ، لكن هربيس كان ابنا بارّا للامبراطورية ويبحث عن المجد عن طريق المعارك . فقرر هربيس ان يقوم بهجوم مفاجيء على المسلمين ويهزمهم في معركة خارج أسوار المدينة ، وبقرار هربيس هذا ، اقتربت النهاية ، لكن ليست النهاية التي كان يحلم بها .

وفي صباح أحد الأيام فتح باب الرستن واندفع خمسة آلاف رومي بقيادة هربيس في هجوم سريع على المسلمين الذين كانوا يواجهون ذلك الباب . فوجيء المسلمون بسرعة الهجوم وعنفه مع انهم كانوا عند هذا الباب أكبر المجموعات الاربع ، الا أنهم تراجعوا عن موقعهم الذي فتحوا عنده المعركة . واستطاع المسلمون التوقف على مسافة قصيرة الى الخلف والصمود أمام هجوم الروم ، لكن ضغط الروم كان شديدا وأصبح خطر اختراق صفوف المسلمين واضحا .

طلب أبو عبيدة من خالد ان ينقذ الموقف . وتحرك خالد الى الامام مع الحرس المتحرك ، وتسلّم قيادة مجموعة المسلمين المعرّضة لضغط الروم الشديد واعاد ترتيب جيش المسلمين للمعركة . كان لمفاجأة الصباح تأثير سيء على المسلمين ، الذين كانوا في حالة سيئة بسبب البرد ، واحتاجوا لفترة

من الوقت لكي يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم ، ولكن عندما اصبح خالد في وسطهم ، استعادوا قواهم المعنوية العالية بسرعة وأصبحوا مستعدين للعطاء . استمر هذا الموقف حتى منتصف النهار . وبعد ذلك انتقل خالد الى الهجوم وبدأ بطرد الروم الى الخلف ، ولكنهم لم يطردوا نهائيا الى داخل أسوار المدينة حتى قبيل غروب الشمس . كان هجوم المسلمين ناجحا ، لكن القتال الذي جرى بينهم وبين الروم جعلهم يشعرون بشيء من الاحترام لهربيس وللمقاتلين الروم في حمص .

وفي صباح اليوم التالي عقد أبو عبيدة مجلسا عسكريا وكان قادة المسلمين في حالة من الفتور لم تبد عليهم حماستهم المعهودة . وعبّر ابو عبيدة عن عدم رضائه للطريقة التي تصرف بها المسلمون عندما تراجعوا أمام هجوم الروم ، وهنا نوّه خالد بأن هؤلاء الروم كانوا أشجع من قابلهم في حياته . عندئذ سأله أبو عبيدة : « بماذا تشير علينا يا ابا سليمان؟ » . فأجاب خالد : «أيها القائد ، دعنا نترك هذا الحصن غدا صباحاً[1] ... » .

وفي صباح اليوم التالي ، شاهد الروم نشاطا غير عادي في معسكرات المسلمين حول حمص . فالخيام نزعت وحمّلت على الابل . وشاهدوا بأم أعينهم قوة جيشهم الرئيسية تتحرك جنوبا ، بعد أن تركت مجموعات صغيرة لتسهر على ترحيل النساء والاطفال ، والمتاع ، والماشية . وهنا جاء الخلاص فالمسلمون قد رفعوا الحصار وانسحبوا الى الجنوب . وأخيرا استطاع الشتاء أن يقهرهم ! وابتهج جنود الروم لهذا المنظر ، لكن هربيس لم يكن الرجل الذي يرضى بمعركة انسحاب . ورأى بعينه الخبيرة ان الفرصة سانحة الآن . فجمع على الفور خمسة آلاف مقاتل من الروم وانطلق بهم خارج الاسوار ليطارد المسلمين . وعندما اقترب الروم من معسكر المسلمين الرئيسي ، نظر المسلمون القلائل الذين كانوا في المعسكر الى الروم بفزع وأطلقوا صيحات الرعب وهربوا نحو الجنوب ، تاركين وراءهم النساء والاطفال والمتاع والماشية ! .

---

(١) — الواقدي — صفحة ١٠٣ .

فقرر هربيس أن يترك المعسكر مؤقتا . فبامكان المعسكر ان ينتظر . وانطلق بقواته الراكبة بمطاردة سريعة للحاق بالعدو المتراجع وضربه ، وأدرك المسلمين على بعد بضعة كيلومترات من حمص . وبينما كانت عناصر مقدمة الروم على وشك الانقضاض على « العدو المتراجع » ، توقف المسلمون فجأة وبدؤوا بضرب الروم بعنف ، فارتبك هؤلاء وتوقفوا للدفاع عن أنفسهم ، وعندما اتجه المسلمون نحو الروم أشار خالد الى مجموعتين راكبتين فانفصلتا عن جيش المسلمين ، والتفّتا بسرعة حول أجناب الروم وتقابلتا خلفهم . ان الخطة التي اقترحها خالد في اليوم السابق في المجلس العسكري والتي ووفق بالاجماع عليها ، سارت على خير ما يرام ، فالروم أصبحوا داخل حلقة من الفولاذ ! وفكر هربيس بكلمات أحد الكهنة الذي حاول أن يحذره عندما كان يغادر حمص لمطاردة المسلمين . فقد قال له الكاهن : « اقسم بالمسيح إن هذه خدعة من العرب . فهم لا يتركون قط نساءهم وأطفالهم وابلهم خلفهم . [1] . » ولكن فات الأوان .

وبثبات ونظام ، أحكم المسلمون الطوق من جميع الجهات وبدؤوا يضربون بالحراب والسيوف ، وبدأت جثث الروم تملأ الارض المدماة . وفي البداية قاتل الروم بشجاعة نادرة ولكن بعد ان سقط العديد منهم ، اصيبوا باليأس وخيبة الأمل . واستطاع خالد ، وهو يضرب بسيفه يمينا ويسارا ، ان يصل مع مجموعة صغيرة الى قلب جيش الروم ، وهنا وجد هربيس ما يزال يقاتل ، وهجم خالد على هربيس ، لكن قائدا رومانيا آخر اعترض سبيله ، ولم يكن الروم يعرفون إذا نجوا مكاناً يذهبون اليه .

عندما بدأ المسلمون هجومهم على الروم المطوقين ، جاءت قوة من الخيالة ، يبلغ عددها خمسة آلاف فارس بامرة معاذ بن جبل ، الى حمص لتمنع الروم الهاربين من الدخول الى المدينة . وعندما اقترب هؤلاء الفرسان من حمص ، سارع السكان المذعورون وبقية حامية الروم ، الذين لم يشتركوا في مطاردة المسلمين ، بالدخول إلى داخل أسوار المدينة وأغلقوا

(١) — الواقدي — صفحة ١٠٤.

الأبواب . فنشر معاذ رجاله أمام أبواب المدينة ليمنع الروم الموجودين في حمص من الخروج ، والروم الموجودين خارج حمص من الدخول اليها . أصبح معسكر المسلمين الآن في أمان .

تهيأ خالد والقائد الروماني للمبارزة . وقد وصف أحد شهود العيان هذا القائد بأنه كان يزأر كالأسد [١] . وبدأ خالد المبارزة وهوى بسيفه بقوة على رأس القائد الذي كان يرتدي خوذة من الحديد . وبدلا من أن يخترق الخوذة ، كسر السيف وبقيت قبضته بيد خالد . وقبل أن يتمكن الرومي من الضرب هجم عليه خالد وأحاط به بكلتا يديه . وأمسك العملاقان بقوة ، كل منهما بالآخر ، وبدأ خالد يضغط بشدة على صدر الرومي بذراعيه . واحتقن وجه الرومي وأصبح غير قادر على التنفس عندما اشتد ضغط خالد على صدره . وحاول الرومي ان يتخلص من قبضة خالد الفولاذية لكنه لم يتمكن من ذلك وازداد الضغط اكثر فأكثر . ولم يتركه خالد حتى لفظ أنفاسه ووقع على الارض جثة هامدة . لقد استطاع خالد ان يسحق خصمه حتى الموت بقوة ذراعيه [٢] . واستولى خالد على سيف القائد الرومي .

عندما عرض خالد خطته الخاصة بالانسحاب التظاهري ، وعد أبا عبيدة بأن المسلمين «سيمزقون الروم ويقصمون ظهورهم» . وفقد المسلمون مائتين وخمسة وثلاثين قتيلاً فقط في جميع العمليات التي تمت ضد حمص منذ بدء الحصار وحتى انتهاء هذا الاشتباك الاخير .

وبعد أن انتهى هذا الاشتباك عاد المسلمون الى حمص واستأنفوا الحصار ، لكن أهل حمص لم يكونوا راغبين في القتال . فعرضوا التسليم بشروط ، وقبل أبو عبيدة هذا العرض . في منتصف آذار عام ٦٣٦م (أول صفر ، عام ١٥ هجري) . ودفع سكان حمص الجزية بمعدل دينار عن كل رجل ، وعاد السلام الى حمص . ولم تخرّب المدينة ، ولم تنهب .

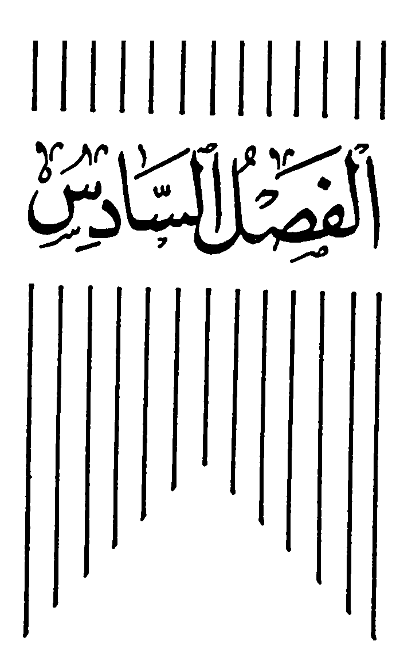
---

(١) — الواقدي — صفحة ١٠٢.

(٢) — الواقدي — صفحة ١٠٢.

بعد استسلام حمص ، انطلق المسلمون نحو الشمال مرة أخرى للاستيلاء على شمال سورية بكامله بما في ذلك حلب وانطاكية . فاجتازوا حماه ووصلوا الى شيرز. وهنا استولى خالد على قافلة رومية كانت تحمل المؤن الى قنّسرين ، وكان يحرس هذه القافلة مفرزة صغيرة من جنود الروم . وبعد ان تم استجواب الأسرى ، حصل المسلمون على معلومات جعلتهم يتوقفون حيث هم .





معركة اليرموك

« ان أمة يتسابق أبناؤها للشهادة
أمة لا تعرف الهزيمة»
(خالد بن الوليد)



١ — موقف الطرفين العسكري قبل اليرموك :

كان مسرح العمليات في بلاد الشام يشبه حلبة صراع يدخلها المتصارعون من اتجاهين متقابلين. وكان يمتد خلف كل مدخل بحر ، هو بمثابة أرض الوطن للمتصارع الذي دخل من ذلك الاتجاه. ففي غرب سورية وفلسطين يقع البحر الأبيض المتوسط الذي كان «بحيرة رومانية». وفي الشرق والجنوب تمتد الصحراء التي يعتبر العرب سادة لها. وكان الروم يستطيعون التحرك بحرية في البحر الأبيض المتوسط بأساطيل من السفن بدون تدخل المسلمين ، كما كان المسلمون يستطيعون التحرك في الصحراء بواسطة قوافل الجمال بالحرية ذاتها وبدون تدخل الروم. ولم يكن المسلمون يغامرون في الذهاب الى بحر المياه ، كذلك الروم لم يكونوا يغامرون بالذهاب الى بحر الرمال. وفي حلبة الصراع هذه ، كان الطرفان قادرين على المناورة بسهولة.

وهكذا من أجل الصراع في هذا الميدان ، كان الموقع المثالي لكل خصم الضفة التي في جانبه ، إذ يستطيع منها أن يفتح قواته للمعركة وظهره الى البحر الخاص به كما يستطيع الانسحاب بأمان في حالة التراجع. بينما يكون في امكانه في آن واحد اذا كان منتصراً ، ان يطارد خصمه ويدمره قبل ان يتمكن من الفرار الى قواعده. لكن هذه الميزة كانت في صالح العرب أكثر مما هي في صالح الروم ، لأن العرب كانوا يستطيعون التخلي عن مسرح العمليات والانسحاب الى حافة الصحراء دون فقدان الكرامة أو الثروة أو الأرض. بينما كان الروم لا يستطيعون التخلي عن مسرح العمليات لأنه جزء

من امبراطوريتهم وعليهم الدفاع عنها . وكانت هذه الميزة الاستراتيجية التي كان يتمتع بها العرب ــ وهي قدرتهم على القتال من الصحراء التي هي لهم بمثابة أرض الوطن ــ موجودة في ذهن هرقل عندما خطط للعملية التالية ، وهي أكبر عملية في هذه الحملة .

اعتلى هرقل الى العرش في عام ٦١٠م عندما كانت شؤون الامبراطورية الرومانية الشرقية في غاية الانحطاط ، وكانت الامبراطورية تتألف في ذلك الحين من المنطقة الواقعة حول القسطنطينية وأجزاء من اليونان وافريقية . وفي البداية كان عليه أن يتجرع الكثير من كؤوس المرارة ، ولكن بعدئذ ابتسم له الحظ ، وفي فترة زمنية تقارب عقدين من الزمن أعاد الامبراطورية الى سابق عظمتها . فقد هزم برابرة الشمال ، وأتراك القوقاز ، والفرس المتقدمين حضارياً في امبراطورية كسرى ، ولم يحقق ذلك بواسطة القتال الضاري فحسب ، وانما أيضاً ــ وهذا أكثر أهمية ــ بالاستراتيجية البارعة والتنظيم الجيد . وكان هرقل استراتيجيا فذاً ، اذ استطاع ، بسبب قدرته غير العادية على التنظيم ، ان يخلق جيشاً امبراطورياً منظماً جنده من أكثر من اثني عشر شعباً بدءاً من الفرنجة في غرب أوربا الى الأرمن في جنوب القوقاز .

ولكن هرقل أرغم مرة أخرى على تجرع كؤوس المرارة ، وكان ذلك على يد العرب ، الشعب الذي يزدريه الرومان ويعدونه متخلفاً جداً وغير جدير بالاهتمام ولا يشكل أي نوع من التهديد العسكري للامبراطورية . وقد باءت جميع المناورات التي تمت ضد العرب بالفشل ، مع أنها كانت محكمة استراتيجيا . فالحشد الأول لجيش الروم في اجنادين ، الذي كان مكلفاً بضرب مؤخرة المسلمين ، قد دمّره خالد في معركة اجنادين الأولى .. كما ان محاولات هرقل للحد من نجاح العرب ، باقامة دفاع قوي حول دمشق ، قد أخفقت على الرغم من بذله أقسى الجهود لتعزيز الحامية المحاصرة . كذلك مناورته الهجومية التالية ، وهي حشد جيش روماني جديد في بيسان ، والتي كان القصد منها أيضاً ضرب مؤخرة المسلمين ، قد أخفقت وهزم جيشه على يدي شرحبيل . وبعد ذلك لم يقتصر الأمر على اخفاق محاولاته لاستعادة

دمشق على يدي أبي عبيدة وخالد ، وانما انهارت خطوط دفاعه الأخرى عندما انتقل العرب من نصر الى آخر واستولوا تقريباً على كل فلسطين وسورية حتى حمص شمالاً .

قرر هرقل أن ينظم عملية انتقام كبيرة وان يشكل جيشاً لم ير له مثيل في بلاد الشام وان يجرّ العرب الى معركة يخوضها بهذا الجيش بحيث لا يفلت من قبضته أحد . وبذلك تتحول الهزيمة الى نصر مؤزر .

في أواخر عام ٦٣٥م. عندما كانت حمص محاصرة ، بدأ هرقل استعداداته لهذه المناورة الكبرى . فحشدت جميع قواته من جميع أرجاء الامبراطورية ، وانضم اليها الامراء والنبلاء ورجال الدين . وفي أيار عام ٦٣٦م. كان قد شكل جيشاً قوامه مائة وخمسون ألفا تحت السلاح حشد في منطقة انطاكية وفي أماكن من شمال سورية . وكانت هذه الحملة العسكرية الضخمة تتألف من مجموعات عسكرية من الروس ، والسلاف ، والفرنجة ، والروم ، واليونان والجيورجيين ، والأرمن والعرب النصارى [(١)] . وأرسل جميع النصارى الذين يعيشون في كنف الامبراطورية البيزنطية مقاتلين الى الجيش الجديد ليحاربوا الفاتحين أبناء عمومتهم ونظمت هذه الحملة في خمسة جيوش . وكان كل منها يتألف من زهاء ثلاثين ألفاً . وكان قادة هذه الجيوش : ماهان ملك أرمينيا ، وقناطير وهو أمير روسي ، وغريغوري ، وديرجان ، وجبلة بن الأيهم ملك العرب الغساسنة . وكان ماهان [(٢)] يقود جيشاً أرمنيا صرفا ، وكان جبلة يقود قوة من العرب النصارى ، وكان قناطير يقود الروس والسلاف . أما بقية المجموعات (وهي من الأوربيين) فوضعت تحت أمرة غريغوري وديرجان [(٣)] ، وعين ماهان قائداً عاماً للجيش الامبراطوري بكامله .

كان العرب آنذاك موزعين في أربع مجموعات : عمرو بن العاص في

---

(١) — الواقدي — صفحة ١٠٠ .

(٢) — كان هذا الملك يسمى أيضا «باهان»

(٣) — الواقدي — صفحة ١٠٦ .

فلسطين ، وشرحبيل في الأردن ، ويزيد في قيسارية ، وأبو عبيدة وخالد في حمص والى الشمال . في مثل هذا الشكل من الانتشار ، كان المسلمون معرضين للمباغتة بحيث يسهل مهاجمة كل لواء من ألويتهم على حدة دون أن تتهيأ لهم أدنى فرصة للقتال مجتمعين في معركة ناجحة . وقد استغل هرقل هذا الوضع استغلالا تاماً في الخطة التي وضعها موضع التنفيذ .

عززت قيسارية من البحر ووصل عدد القوات فيها الى أربعين ألف رجل . وكانت مهمة هذه القوات تثبيت يزيد ولوائه الذي يقوم بالحصار بحيث لا يستطيع أن يتحرك للانضمام الى رفاقه . أما باقي الجيش الامبراطوري فكان عليه أن يعمل وفقاً للخطة التالية :

١ — يتحرك قناطير على طول الطريق الساحلي حتى بيروت ، ثم يتجه نحو دمشق من جهة الغرب لقطع الطريق على أبي عبيدة وعزله .

٢ — يسير جبلة من حلب على الطريق الرئيسي الى حمص مارا بحماه ، ويقوم بتثبيت المسلمين بالمواجهة في منطقة حمص . وبذلك يكون العرب النصارى أول من يشتبك بالعرب المسلمين ، وهذا الأمر قد يكون أنسب شيء للروم . وكما قال هرقل لجبلة : «كل شيء يدمر بشيء من نوعه . فلا يفل الحديد الا الحديد[1] » . وانني لا أشك لحظة واحدة في أن هرقل كان يذكر في داخله المثل السائر : «فخار يكسر بعضو» .

٣ — يتحرك ديرجان بين الساحل وطريق حلب ثم يتجه نحو حمص من جهة الغرب . وبذلك يتم ضرب العرب المسلمين من مجنبتهم حيث يكون قد تم تثبيتهم بالمواجهة بواسطة جبلة .

٤ — يتقدم غريغوري الى حمص من الجهة الشمالية الشرقية ويهاجم العرب المسلمين من مجنبتهم اليمنى بينما يوجه ديرجان ضرباته اليهم في آن واحد .

٥ — يتقدم جيش ماهان خلف العرب النصارى ليكون احتياطا لهم .

بهذه الطريقة يتم اكتساح جيش المسلمين في حمص بقوات تفوقه عشرة

---

(١) — الواقدي — صفحة ١٠٦

أضعاف ، وتهاجمه من جميع الاتجاهات ، وتسد عليه طرق الهرب . وهذا الأمر أكبر من أن يعالجه خالد . وبعد إبادة المسلمين في حمص ، يتقدم الجيش الامبراطوري جنوباً بينما تتقدم حامية قيسارية من الساحل ، وتقوم الجيوش الرومانية بمهاجمة ألوية العرب المسلمين وتدميرها في عدة معارك وكلا على حدة ، مركزة جميع قواها على اللواء الواحد .

وقد أقيمت صلوات خاصة في جميع أنحاء الامبراطورية من أجل نصرة الجيش الامبراطوري . وقام القادة والأساقفة بحثّ الرجال على القتال دفاعاً عن عقيدتهم وانقاذا لوطنهم وشعبهم من الفاتحين . وبناء على هذه الخطة المحكمة انطلق الجيش الامبراطوري من انطاكية وشمال سورية عند منتصف حزيران عام ٦٣٦ م . وعندما وصلت طلائع جيش جبلة الى حمص لم يجد أحداً من العرب المسلمين . أما جيش قناطير فقد هاجم دمشق من جهة الغرب وهو يحلم بتدمير العرب المسلمين فيها لكنه لم يجد جندياً واحداً من جنود العرب المسلمين في المدينة . راجع الشكل ١٩ : الهجوم الروماني قبل معركة اليرموك .

اعترف أسرى الروم في «شيزر» ، للعرب المسلمين لأول مرة بالاستعدادات التي قام بها هرقل . وقد أنشأ العرب المسلمون نظام استخبارات ممتازاً في المنطقة ، بحيث كان لا يخفى عليهم أي تحرك رئيسي أو حشد للقوات المعادية . وفي الحقيقة كان لديهم عيون داخل الجيش الامبراطوري . وعندما كانت الأيام تمتد الى أسابيع ، كانت الاجزاء المتفرقة من المعلومات التي يجلبها العيون تجمع بعضها الى بعض وتحل على طريقة تقاطع المعلومات ، وكان من الصعب على الجيوش الامبراطورية ان تتحرك دون أن يعلم بها العرب المسلمون وباتجاهاتهم . وحتى التعزيزات التي وصلت الى قيسارية ومقدار قوتها عرفها العرب المسلمون .

أذهلت المسلمين التقارير التي كان كل منها أسوأ من سابقه . وراح الظلام يخيم على الأفق أكثر فأكثر . ولكن سيف الله ، بعقله الاستراتيجي الذي لا يخطىء ، أدرك في الحال خطة هرقل ومدى تعرض جيش

المسلمين الموجود في حمص وشيزر للخطر. وكان التصرف السليم هو الانسحاب من شمال سورية ووسطها، وكذلك من فلسطين، وحشد جميع القوات بحيث تكون هناك قوة كبيرة وموحدة في وجه قوة الروم الجبارة، ويفضل ان لا تكون هذه القوة بعيدة عن الصحراء الأم. ونصح خالد ابا عبيدة بذلك فوافق القائد العام لجيش الثورة الاسلامية على الاقتراح. فأمر بانسحاب الجيش الى الجابية، التي كانت ملتقى الطرق القادمة من سورية، والأردن، وفلسطين. علاوة على ذلك، فقد مارس سلطته قائدا عاما في سورية وأمر شرحبيل، ويزيد، وعمرو بن العاص بالتخلي عن المنطقة التي كانوا يحتلونها والانضمام اليه في الجابية. وهكذا، قبل أن يصل الروم الى دمشق، كان أبو عبيدة وخالد مع عناصر من لواء يزيد في الجابية، بينما كانت الألوية الأخرى تتحرك في طريقها للانضمام اليهم. لقد نجوا بأنفسهم من براثن الموت.

ان المعاملة الكريمة التي عامل بها أبو عبيدة أهالي حمص، عندما غادر المسلمون المدينة، تلقي أضواء على مفهوم العدالة والصدق اللذين يتحلّى بهما هذا القائد الشجاع والنبيل. في أثناء فتح حمص، جمع المسلمون الجزية من السكان المحليين. وهذه الضريبة، كانت تؤخذ من غير المسلمين مقابل اعفائهم من الخدمة العسكرية وحمايتهم من الأعداء. ولكن المسلمين سيغادرون المدينة، والموقف لا يسمح لهم بحماية سكانها، لذلك جمع أبو عبيدة السكان وأعاد اليهم الجزية التي أخذها منهم. وقال لهم: «نحن لسنا بقادرين على مساعدتكم والدفاع عنكم. وأنتم الآن أحراراً بأنفسكم». فأجاب أهل حمص: «ان حكمك لنا وعدالتك أعزّ لدينا من الظلم والقسوة التي كنا نعيشها من قبل» [1] علاوة على ما يضاف الى ذلك أن أبا عبيدة لم يكن قانعاً بالعدل الذي حققه في منطقته فيما يتعلق بالجزية، فكتب الى أمراء الألوية الأخرى في سورية لكي يعيدوا الى النأس الجزية التي جمعوها منهم، وقد نفذ ذلك الأمراء قبل تحركهم للانضمام الى أبي عبيدة في

(١) — البلاذري — صفحة ١٤٣.

الجابية [1] . ان هذا الاجراء الذي قام به المسلمون باعادة الجزية الى أصحابها لم يحدث مثله قطّ في التاريخ ولن يحدث مرة أخرى على الاطلاق .

في منتصف تموز عام ٦٣٦م، اصطدمت العناصر الأمامية للجيش الامبراطوري ، وكانت تتألف من العرب النصارى ، بقوات حرس المقدمة للمسلمين بين دمشق والجابية . وأصبح أبو عبيدة قلقاً للغاية . فالمعركة أصبحت مؤكدة ، وهي ستقرر مصير الثورة الاسلامية في بلاد الشام . وكانت قوة الأعداء المعروفة تقدر بزهاء مائتيْ ألف رجل ، وقد بدت كابوساً مخيفاً . ومن البدهي أن أبا عبيدة كان قلقاً على جيش العرب المسلمين وعلى رسالة الإسلام. فدعا مجلس الحرب للانعقاد ليوجز لأمراء الجيش موقف العدو وليتشاوروا في الأمر .

جلس أمراء الجيش صامتين أمـــام هـذا الموقف العصيب الـذي يواجههم . وتحدث أحدهم مقترحاً الانسحاب الى الجزيرة العربية حيث يستطيع الجيش الانتظار حتى تمر العاصفة الرومانية ثمّ يعود الى بلاد الشام ثانية ، ولكن هذا الاقتراح قوبل بالرفض لأنه يعني التخلي عن الفتوحات الاسلامية في بلاد الشام . وتكلم آخرون واقترحوا القتال وقالوا : «نحن نؤيد القتال هنا وليكن الآن» . وأيدهم في ذلك معظم أمراء الجيش . ومع ذلك لم تكن الحالة النفسية مشجعة ، ولكن التصميم على القتال ، اذا كان لا بد منه ، كان واضحاً على وجوه الحاضرين .

بقي خالد صامتاً عندما كان النقاش دائراً . ثم التفت اليه أبو عبيدة وقال : «يا أبا سليمان ! إنك رجل الجرأة والاقدام والرأي . فما رأيك فيما سمعت؟» فأجاب خالد : «ما قالوه فهو حسن . أما أنا فلدي وجهات نظر مختلفة لكنني لا أعارض المسلمين» . فقال أبو عبيدة : «اذا كان عندك وجهات نظر أخرى ، تكلم ، وسوف نفعل ما تقول» . عندئذ شرح خالد خطته بقوله : «أيها الأمير ، اعلم انك ان انتظرت في هذا المكان ، فانك

(١) — أبو يوسف — صفحة ١٣٩

بذلك تساعد العدو عليكم . في قيسارية ، التي ليست بعيدة عن الجابية ، يوجد أربعون ألف روماني بقيادة قسطنطين بن هرقل . وأنا أشير عليك ان تنتقل من هنا وتجعل أزرع خلفك ولتكن على اليرموك . وبذلك سيسهل على الخليفة ارسال التعزيزات ، وسيكون أمامك سهل كبير ملائم لهجوم الخيالة [1] » .

وتمت الموافقة على خطة خالد بالاجماع ووضع التحرك العملياتي موضع التنفيذ . وترك خالد مع الحرس المتحرك المؤلف من أربعة آلاف فارس حرسا مؤخرة، وبدلا من الإنتظار في الجابية ، تحرك الى الأمام واشتبك بمفارز جيش الروم الأمامية ، وهاجم خالد مقدمة الرتل الروماني ورده الى الخلف نحو دمشق . وفرض هذا الاشتباك على الروم أن يتخذوا جانب الحذر ، ولم يحاولوا بعد ذلك التدخل في حركة انسحاب المسلمين . وبعد بضعة أيام انضم خالد الى كتلة جيش المسلمين الكبرى .

بعد ان تحرك المسلمون ببضعة أيام باتجاه جنوب شرق ، انشأوا صفاً من المعسكرات الميدانية في الجزء الشرقي من سهل اليرموك جنوب خط نوى — شيخ مسكين الحالي . وكانت هذه المعسكرات تواجه الشمال الغربي ، لكي يستطيع المسلمون الفتح للمعركة ومواجهة الهجوم الروماني القادم من الشمال (محور الجابية) ومن الشمال الغربي (اتجاه القنيطرة) . وهنا انضمت الى أبي عبيدة ألوية شرحبيل ، وعمرو بن العاص ، ويزيد بن أبي سفيان . وعلى مسافة ما الى الشرق من المسلمين ، تمتد التلال البركانية من شمال أزرع الى شرقها ، ويمتد جبل العرب شمال بصرى وشرقها .

وبعد أيام قليلة تقدم الجيش الروماني ، الذي كان يتقدمه العرب النصارى بقيادة جبلة بن الأبهم ، واصطدم بمخافر المسلمين الأمامية في سهل اليرموك . وكان الطريق الذي سلكته قوة الجيش الروماني الأساسية يمتد من الجهة الشمالية الغربية وحتى ميدان المعركة ، لأن الروم أقاموا معسكراتهم في شمالي وادي الرقاد .

---

(١) — الواقدي — صفحة ١٠٦ .

كان معسكر الروم يمتد ثمانية عشر ميلاً ، وبين معسكر الروم ومعسكر المسلمين الجزء الأوسط والجزء الأوسط الغربي من سهل اليرموك[1] . وبوصول الروم واقامة معسكرهم أصبح اتجاه هجومهم واضحاً ، وعدّل أبو عبيدة مواقع معسكرات المسلمين لتلائم جبهة المعركة الممتدة من اليرموك وحتى طريق الجابية وهذا ما اقترحه خالد : «ان تكون مؤخرة المسلمين باتجاه ازرع ، ومجنبتهم مستندة على اليرموك» .

واستقر الجيشان في معسكراتهما وبدأ كل منهما يستعد للمعركة : الاستطلاع ، والخطط ، والأوامر ، وتفقد الاعتدة .. الخ . وكان الروم يبدون للمسلمين «أسراباً من الجراد»[2] .

لم يكد يستقر الروم في معسكرهم حتى وصل رسول من قبل هرقل يحمل تعليمات الى ماهان ، القائد العام ، يطلب منه أن لا يبدأ الاعمال التعرضية حتى يتم التباحث مع المسلمين في جميع السبل المؤدية الى السلام . وطلب من ماهان أيضاً ان يعرض على المسلمين شروطاً سخية اذا وافقوا على العودة الى الجزيرة العربية وعدم الرجوع الى بلاد الشام ثانية . لذلك أرسل ماهان أحد قادته ، وهو غريغوري ، لاجراء مباحثات مع المسلمين . وخرج غريغوري الى معسكر المسلمين ، وأجرى محادثات مع أبي عبيدة ، وعرض الروم ان يذهب المسلمون بسلام ، وأن يأخذوا معهم كل شيء حصلوا عليه في بلاد الشام ، على ان يتخلوا نهائياً عن فتح الشام مرة ثانية . وكان جواب أبي عبيدة بالرفض ، وعاد القائد الروماني بخفي حنين .

بعد ذلك اختار ماهان جبلة بن الأيهم ، لأنه عربي وقد تتكلل مساعيه بالنجاح في اقناع أبناء عمومته العرب المسلمين بترك بلاد الشام بسلام . وبذل جبلة جهده لاقناعهم . ولكنه عاد خائباً مثل غريغوري .

تأكد ماهان عند ذلك من ان المواجهة الحربية لا مفر منها ولا سبيل الى

---

(١) — حسب رواية الواقدي : صفحة ١٠٩ — كان معسكر الروم يقع قرب الجولان (وهي المنطقة الواقعة بين وادي الرقاد وبحيرة طبرية والمنطقة شمالها) ، وكانت المسافة التي تفصل بين المعسكرين المتخاصمين حوالي ١٨كم .

(٢) — الواقدي — صفحة ١١٨ .

تجنبها . لذلك أرسل جبلة الى الأمام مع معظم جيشه من العرب النصارى للقيام بهجوم على المسلمين . وفي الحقيقة لم يكن هذا الهجوم سوى استطلاع بالقوة لاختبار قوة جبهة المسلمين . فمثل هذه المهمة تلائم العرب النصارى الراكبين أكثر مما تلائم الجيش الامبراطوري الروماني المجهز بالمعدات الثقيلة . وقد تمت هذه العملية في أواخر تموز عام ٦٣٦ م (منتصف جمادى الآخرة ، عام ١٥ هجري) .

تحرك جبلة بجيشه من العرب النصارى فوجد المسلمين منتشرين في ترتيب المعركة . وتقدم جبلة بحذر وببطء الى الأمام ، وكان يرغب في الاقتراب ما أمكن من المسلمين قبل أن يأمر بالهجوم العام ، لكنه قبل ان يتمكن من اصدار مثل ذلك الأمر ، وجد نفسه محاطاً بمفارز قوية من خيالة المسلمين التي كانت بامرة (سيف الله) . وبعد مقاومة ضعيفة انسحب العرب النصارى ، مؤكدين مخاوف ماهان بأن المعركة مع هؤلاء المسلمين لن تكون أمراً سهلاً .

مضى نحو من شهر ، ولم تحدث اشتباكات هامة في سهل اليرموك . ولم يعرف سبب لعدم النشاط هذا . لكننا نستطيع التخمين فقط بأن المسلمين لم يكونوا قد بلغوا من القوة ما يكفي لأخذ زمام المبادرة وللقيام بالهجوم . ولم يشعر الروم كذلك بشجاعة كافية للقيام بالهجوم . وعلى أية حال ، فان فترة الهدوء أثبتت أنها مفيدة للمسلمين ، اذ وصلت وحدات جديدة خلال هذه الفترة تقدر بستة آلاف مسلم معظمهم من اليمن للانضمام اليهم . وأصبح لدى المسلمين أربعون ألف مقاتل ، بينهم ألف من صحابة رسول الله ﷺ ، ومائة ممن اشتركوا في غزوة بدر ، أول معركة في الاسلام . وكان جيش المسلمين يضم عددا من كبار المسلمين مثل الزبير (ابن خالة الرسول ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة) ، وأبي سفيان ، وزوجته هند .

بعد مرور شهر على صد هجوم جبلة ، شعر ماهان بأن قواته تكفي لأخذ زمام المبادرة ، لكنه قرر أن يقوم بمحاولة أخرى من أجل السلام ، على ان يقوم بالمحادثات بنفسه . فطلب من المسلمين أن يبعثوا اليه برسول الى مقر

قيادته . فوجه أبو عبيدة خالدا مع نفر من الرجال . وتقابل خالد وماهان في معسكر الروم ، ولكن لم ينجم عن تلك المحادثات أي شيء بسبب تصلب الطرفين وعدم استعدادهما للقيام ببعض التنازلات . فهدد ماهان خالداً بجيشه العظيم وعرض مبلغاً كبيرا من المال لجميع المسلمين ، بما فيهم الخليفة في المدينة ، لكن هذا العرض لم يؤثر في خالد ، وعرض خالد بالمقابل واحدة من ثلاث : الاسلام ، أو الجزية ، أو السيف ، فاختار ماهان الحل الأخير وقد ظهر من نتيجة هذا اللقاء ان كلا من القائدين قد تأثر بشخصية الآخر ، وبدأ المسلمون يعدون ماهان رجلاً ممتازاً الا انه ، كما قال أبو عبيدة : «لقد أغواه الشيطان» [1] .

وعندما افترق القائدان ، أدركا انه لن تكون هنالك مفاوضات بعد الآن . فقد وصلا الى طريق مسدود ، وان المعركة ستبدأ في اليوم التالي .

انقضت بقية اليوم في نشاط كبير . واستعد كلا الجانبين للمعركة . وقد أنجزت الخطط ، ووزعت الأوامر ، ووضعت الفيالق والألوية في مراكزها لكي يعرف كل فرد مكانه في المعركة القادمة ، وتفقد كل مقاتل درعه وسلاحه .

وأقام كلا الطرفين الصلوات بحماسة شديدة من أجل النصر ، وابتهلوا الى الله ان يساعدهم ، وتضرع كل منهما الى الاله الواحد ولكن على طريقته .

يتألف ميدان المعركة ، الذي يمتد بين المعسكرين ، من سهل اليرموك المحاط من جانبيه الغربي والجنوبي بمنحدرات عميقة وشديدة . فمن الغرب ينفتح وادي الرقاد الذي يتصل بنهر اليرموك قرب الياقوصة . ويمتد هذا النهر من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي مسافة ٢٠كم خلال واد عميق حافتاه شديدتا الانحدار ، ويخف هذا الانحدار عند طرفه العلوي . ويمكن عبور هذا الوادي العميق في بعض الأماكن أهمها معبر رئيسي عند احدى المخاضات حيث تقع قرية «كفرالما» حالياً . ويقع وادي نهر اليرموك جنوب ميدان المعركة ، وهو يبتدىء من «جلين» ويسير بتعرج وانعطاف مسافة

(١) ــ الواقدي ــ صفحة ١٢٨ .

٢٨ كم، حتى يلتقي بوادي الرقاد، ثم يستمر بالجريان حتى يتصل بنهر الأردن جنوب بحيرة طبرية (بحر الجليل) . وفي جلين يجري جدول يسمى «الحرير» من جهة الشمال الشرقي ويصب في وادي اليرموك ليصبح نهر اليرموك . وفي الشمال يستمر امتداد السهل وراء ميدان المعركة ، بينما يمتد شرقاً زهاء ٥٥كم من وادي الرقاد الى سفوح تلال ازرع . وكان الجزء الغربي والأوسط من السهل يشكل ميدان المعركة..

ان أهم المعالم الموجودة في أرض المعركة هي وادي الرقاد ونهر اليرموك ، وارتفاع ضفافهما ٣٠٠ مترا تقريباً ، ومع ان شدة انحدار هذه الضفاف تعد سبباً كافياً لجعلها عائقين خطيرين دون أي تحرك ، الا انهما يزدادان خطورة بسبب الجروف المحيطة بضفافها في معظم الأمكنة . وكانت هذه الجروف موجودة أحياناً في أسفل الوادي ، وأحيانا في أعلاه ، وأحياناً أخرى في منتصفه مشكلة انحداراً شديداً وهوات عميقة يتراوح ارتفاعها بين ثلاثين وخمسين متراً . وعند التقاء وادي الرقاد ونهر اليرموك ، تصبح الضفاف أشد انحداراً والجروف أكثر علواً – وهي تشكل خطورة عند اجتيازها .

ان الهيئة التكتيكية الوحيدة المسيطرة على سهل اليرموك هي الهيئة الموجودة على الخرائط باسم «تل الجموع» ، وهو يبعد زهاء ٥كم جنوب غرب قرية «نوى» الحالية . كذلك تل الجابية ، وهو يقع شمال غرب «نوى» ، لكنه كان خارج ميدان المعركة ولا دور له فيها . وتل الجموع الذي يرتفع نحو مائة متر يسيطر على المنطقة المحيطة به ، ويتيح مراقبة جيدة للسهل كله ، مما يحتم على القائد الذي يريد ان يفتح قواته للمعركة أولا ان لا يهمل احتلاله . ونتيجة لهذه المعركة سمي هذا التل باسم : «تل الجموع» — وكان اسمه سابقاً (تل السمن) — لأن جزءاً من جيش المسلمين احتشد عليه ، وليس هناك أي أرض حاكمة ومسيطرة على سهل اليرموك سواه ..

أما السهل نفسه فقد كان منبسطاً بشكل عام ، وهو ينحدر تدريجياً من الشمال الى الجنوب مع بعض التعرجات . ويوجد واد وحيد يشكل هيئة طبيعية تكتيكية هامة ، وهو «وادي العلان» ، ويجري باتجاه الجنوب عبر

السهل حتى يتصل باليرموك ، وهذا الوادي أيضاً قد كون منحدراً بطرفين شديدي الانحدار في التسعة كيلومترات الأخيرة من رحلته ، وهو لا يعد عائقاً خطيراً مثل تلك العوائق الكبيرة الموجودة في المنطقة . وكان ميدان المعركة نموذجياً بالنسبة لمناورة المشاة والخيالة ، وباستثناء الجزء الجنوبي من وادي العلان ، فهو لا يشكل عائقاً أمام أي تحرك .

فتح ماهان الجيش الامبراطوري للمعركة أمام وادي العلان . وقد استخدم جيوشه الأربعة النظامية لتشكيل الجبهة التي كان طولها زهاء ٢١كم ، وهي تمتد من اليرموك الى جنوب تل الجابية [١] : ووضع ماهان جيش غريغوري في الميمنة ، وجيش قناطير في الميسرة ، ووضع في القلب جيش ديرجان وجيش ماهان ، وكان كلا الجيشين بأمرة ديرجان . ووزعت خيالة الروم بالتساوي بين الجيوش الأربعة . وتشكل كل جيش بترتيب المعركة ووضعت المشاة في الأمام واحتفظ بالخيالة في الخلف . وفتح ماهان أمام خط المواجهة ، جيش جبلة المؤلف من العرب النصارى الذين كانوا يمتطون الخيل والابل على مبدأ « فخار يكسر بعضو » .

وقام هذا الجيش بمهمة التغطية والمناوشة ، ولم يكلف بالاشتباك الحاسم في القتال (ما عدا المجموعات التي ألحقت بالجيوش التي تعمل في المواجهة) .

وكان جيش غريغوري ، الذي يشكل الجناح الأيمن للروم ، يستخدم السلاسل لربط جنوده المترجلين البالغ عددهم ثلاثين ألفاً . وكان طول السلسلة يكفي لربط عشرة جنود ، وكان استخدام هذه السلاسل دليل شجاعة بالنسبة للأفراد الذين أبدوا رغبتهم في الصمود حتى الموت . وكانت السلاسل تستخدم أيضاً لمنع خيالة العدو من اختراق صفوفهم ، كما ذكر في سرد « معركة السلاسل » .

---

(١) — بالاصطلاحات الجغرافية الحالية ، ابتدأ الخط الروماني من غرب « نوى » بحوالي ميلين واتجه جنوباً غرب قرية تسيل ، ومن ثم مر بسحم الجولان الى ضفة اليرموك . وبالطبع لم تكن هذه القرى موجودة اذ لم يرد ذكرها في سرد المعركة .

وعلى الرغم من أن الجيش الامبراطوري شكل مواجهة تعادل طول مواجهة جيش المسلمين تقريباً ، الا انه يمتاز بتفوقه العددي البالغ أربعة أضعاف عدد المسلمين . وقد استغل ماهان ذلك التفوق العددي بوضع جيش جبلة بكامله ستارة أمامية وبذلك حقق عمقاً أكبر للتشكيلات المنظمة تنظيماً قوياً . وكان عدد صفوف الجيش ثلاثين صفا . هكذا كان ترتيب جيش القيصر العظيم لخوض موقعة اليرموك .

عندما عاد خالد من محادثاته مع ماهان ، أخبر أبا عبيدة وأمراء الجيش ان لا مفاوضات بعد اليوم ، وان الأمر سيقرره حد السيف ، وان المعركة ستبدأ في اليوم التالي . ولقد تقبل أبو عبيده أنباء خالد برضى المؤمن بارادة الله . وكقائد عام كان عليه أن ينظم جيشه للمعركة ويدير العملية طبقاً لتقديراته التكتيكية . ولكن مهارته العسكرية لم تكن في مستوى خالد بن الوليد . وكان أبو عبيدة يخوض غمار المعارك بطريقة تدل على قوة ادراكه ، وكان يتصرف طبقاً للمواقف التكتيكية المتغيرة كأي قائد جيد . ولكن مع عدو يفوقه أربعة أضعاف ، فالحصانة وقوة الادراك لا تكفيان . وكان المطلوب وجود قيادة أكفأ ، ولهذا قرر خالد تقديم خدماته للعمل قائداً فعلياً في المعركة . فقال لأبي عبيدة : « أيها الأمير ، أرسل في طلب جميع قادة الألوية والكتائب وأخبرهم بأن يستمعوا لما سأقول » [١] .

فهم ابو عبيدة المقصود من كلام خالد ، ولم يكن شخصياً يرغب في أفضل من ذلك ، وفي الحال أرسل أبو عبيدة لرجاله يأمرهم بالاجتماع في مقر قيادته لكي يستمعوا لما سيقوله خالد . ففهم القادة معنى الرسالة . وتجمعوا في القيادة لتلقي أوامر خالد . وبهذا الأسلوب اللبق تم تسلم خالد قيادة الجيش ، وكان الارتياح لهذا الاجراء شاملاً .

بقي أبو عبيدة القائد الاسمي . وأخذ على عاتقه معالجة المسائل الادارية . ولكن من أجل خوض المعركة ، أصبح خالد قائد جيش المسلمين في بلاد الشام ، وظل كذلك حتى نهاية هذه المعركة .

(١) ــ الواقدي ــ صفحة ١٢٩ .

بدأ خالد على الفور باعادة تنظيم الجيش ووزعه على أساس كتائب (كراديس) مشاة وخيالة ضمن كل لواء. وكان عدد الجيش أربعين ألفاً منهم عشرة آلاف خيال. وقسم خالد هذه القوة الى ستة وثلاثين كتيبة (كردوس) مشاة وكل كتيبة (كردوس) كانت تتألف من ثمانمائة الى تسعمائة رجل، وثلاث كتائب خيالة تضم كل منها ألفي فارس، وحرس متحرك تعداده أربعة آلاف فارس. وكان قادة كتائب الخيالة هم: قيس بن هبيرة، وميسرة بن مسروق، وعامر بن الطفيل. وكان كل لواء من الألوية يتألف من تسع كتائب مشاة، شكل كل منها على أساس القبيلة والعشيرة، لكي يقاتل كل رجل مع أفراد عشيرته.

وفتح الجيش على مواجهة طولها ٢١كم، بحيث تنطبق تقريباً على مواجهة جيش الروم. وارتكز الجناح الأيسر للمسلمين على نهر اليرموك على مسافة ٢كم الى الأمام عند أول الوادي، بينما ارتكز الجناح الأيمن على طريق الجابية[(١)]. وكان لواء يزيد على اليسار، ولواء عمرو بن العاص على اليمين، وبكل لواء من لواءي الأجنحة كتيبة خيالة، أما القلب فكان يتألف من لواءي أبي عبيدة (يسار) وشرحبيل (يمين). ومن قادة الكتائب في لواء أبي عبيدة، كان عكرمة بن أبي جهل، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وخلف القلب، كان الحرس المتحرك وكتيبة خيالة احتياطا للقلب لاستخدامها حسب تعليمات خالد. وعندما يشغل خالد في أي وقت بادارة المعركة، يتولى ضرار بن الأزور قيادة الحرس المتحرك. ودفع كل لواء بعض الكشافين الى الأمام لابقاء الروم تحت المراقبة. (راجع الشكل رقم ٢٠. خريطة ترتيب القتال في اليرموك.

وبالمقارنة مع الروم، كان جيش المسلمين يشكل جبهة رقيقة عمقها ثلاثة صفوف فقط. ولكن لا توجد ثغرات بين هذه الصفوف التي كانت تمتد امتداداً متصلاً من اليمين الى اليسار. وأعطيت الرماح المتوافرة في جيش

---

(١) — حسب الاصطلاحات الجغرافية الحالية، كان خط المسلمين يبتدىء من غرب «نوى» بحوالي ٢كم، ويتجه جنوباً وجنوب غرب مارا بتل الجموع. ثم يسير بين تسيل وعدوان، ثم بين سحم الجولان وجلين، الى قرب اليرموك.

المسلمين للصف الأمامي ، وفي المعركة كان الرجال يصطفون ورماحهم جاهزة للاستخدام ، كي يصعب على المهاجم اختراق الصفوف دون ان يتعرض لطعنة رمح . أما رماة النبال الذين كان معظمهم من اليمن فكانوا يقفون في الصف الأمامي . فحالما يقترب العدو ، يقوم الرماة باستخدام النبال للاطاحة بأكبر عدد ممكن من الروم . وعندما يلتحم المهاجمون بصفوف المسلمين ، كانت تنوشهم الرماح ، ثم يستخدم الرجال سيوفهم .

وكان على لواءي الجناحين ان يستخدما كتائب الخيالة احتياطاً لها ، لاعادة الوضع الى ما كان عليه في حالة نجاح الروم في زحزحتهم عن مواقعهم . أما خالد فيقوم بحرسه المتحرك وكتيبة خيالة بواجب الاحتياط المحلي لكلا لواءي القلب ، ويكون جاهزاً للعمل احتياطاً للجيش وللتدخل في المعركة مع كلا لواءي الجناحين ، حسبما يتطلب الموقف .

كان موقف الجيشين بالنسبة للأجنحة متشابهاً . فالجناح الجنوبي لكليهما كان يرتكز على اليرموك ولا يمكن الالتفاف عليه . أما الجناح الشمالي لكلا الجيشين فقد كان مكشوفاً ، ويمكن القيام بحركات التفاف عليه . أما الاختلاف في موقف الجيشين فيكمن في مؤخرتيهما . فخلف موقع المسلمين يمتد سهل اليرموك الشرقي حيث تلال أزرع وجبل العرب ، وفي هذه المنطقة يستطيع المسلمون الانسحاب بأمان غير معرضين للخطر في حالة التراجع . وخلف جزء من موقع الروم ، يقع المنحدر الشديد لوادي الرقاد العميق ذي الجروف الحادة . وكان هذا الموقع ملائماً لأنه لا يشجع على التراجع ، وقد يدفع الروم الى القتال بضراوة ، ولكن في حالة الضغط عليهم أثناء المعركة ، يمكن عزلهم بالالتفاف على مجنبتهم اليسارية وبذلك يصبح المنحدر مقبرة لهم . الا ان هذه الفكرة لم تدر في خلدهم لأن الروم لم يكن لديهم الا الشعور باحتمال خسارة هذه الموقعة .

كان للوضع الطبوغرافي المقام الأول في ذهن خالد عندما وضع خطته للمعركة . ففي البداية يقف المسلمون مدافعين يتلقون ويصدون هجوم الروم حتى يفقد زخمه ويصبح العدو في حالة انهاك . بعد ذلك يأخذ المسلمون

زمام المبادرة لهجوم يستهدف دفع الروم الى وادي الرقاد . وسيصبح المنحدر الشديد سنداناً تقع عليه مطرقة المسلمين لسحق الجيش الروماني والقضاء عليه . هذه خطة خالد منذ البداية .

وضعت النساء والأطفال في معسكرات ممتدة خلف مؤخرة الجيش . وخلف رجال كل كتيبة كانت تقف نساؤهم وأطفالهم . وتجول أبو عبيدة في المعسكرات وخاطب النساء قائلاً : «احملن أعمدة الخيام بأيديكن واجمعن أكواماً من الحجارة . فاذا كسبنا المعركة فكل شيء يسير على ما يرام . ولكن اذا رأيتن مسلماً يهرب من المعركة ، فاضربنه على وجهه بعمود الخيمة ، وارجمنه بالحجارة ، وأمسكن بأطفاله أمامه وأخبرنه ليقاتل من أجل زوجته وأطفاله ومن أجل الاسلام»[1] . واستعدت النساء كما طلب منهم أبو عبيدة .

وعندما تشكل الجيش بترتيب المعركة ، قام خالد وأبو عبيدة وبعض القادة الآخرين بتفقد الكتائب وتكلموا مع القادة والجنود . وألقى خالد كلمة أمام كل كتيبة : «يا رجال الاسلام ! لقد حان الوقت لكي تثبتوا . فالضعف والجبن يقودان الى العار ، وكل من يثبت يعده الله بعون من عنده . وكل من يصمد بشجاعة أمام حد السيف سيكرم ، وسوف يلقى الثواب عندما ينتقل الى جوار ربه . والله يحب الصابرين»[2] .

وبينما كان خالد يتفقد احدى الكتائب ، سمع شاباً يقول : «ما أكثر الروم وأقل المسلمين» ! فالتفت اليه خالد وقال : «بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال»[3] .

وقام بعض القادة الآخرين بحث الرجال على القتال ، وكانوا يتلون آيات من القرآن الكريم : «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين»[4] . وتحدثوا عن نار جهنم ونعيم الجنة ، وعن الايمان بالله

---

(١) — الواقدي — صفحة ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) — الواقدي — صفحة ١٣٧ .

(٣) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٤ .

(٤) — قرآن كريم : سورة البقرة ، آية رقم ٢٤٩ .

والقتال لنصرة الدين الحنيف الذي من أجله قاتل النبي وانتصر في معاركه .

وكانت الليلة التالية حارة ورطبة . الأسبوع الثالث من آب عام ٦٣٦م (الأسبوع الثاني من رجب ، عام ١٥ هجري) . وقضى المسلمون الليل في الصلاة وتلاوة القرآن، وأخذوا يذكرون بعضهم بعضاً باحدى اثنتين: اما النصر والحياة أو الشهادة والجنة . وقد أوجد الرسول الكريم ﷺ تقليداً للمسلمين بعد غزوة بدر وهو قراءة سورة الأنفال قبل المعركة ، وكانت تسمع خلال الليل تلاوة هذه السورة من قبل المسلمين .

وارتفعت ألسنة النيران في كلا المعسكرين بوهج شديد طيلة الليل ، وكانت ترى على مسافة كيلومترات مثل النجوم المتلألئة التي تسقط على الأرض . لكن الفرح كان بعيداً عن قلوب الجالسين حول تلك النيران ، كما ان فكرة المحنة التي تنتظرهم قد طردت السرور من نفوسهم . لقد كان هؤلاء الجنود الذين ينتظرون الغد رجالا شجعانا ، انهم من العرب والروم، ومن الأوربيين والآسيويين .. لقد كانوا أسودا وعقبانا وذئابا . ولكنهم كانوا أيضا بشرا يفكرون بزوجاتهم وأطفالهم الذين سيودعونهم بعد ساعات قليلة — وربما الوداع الأخير.

هذا ما كان عشية موقعة اليرموك .. أعظم موقعة في ذلك العصر.. واحدى المعارك الحاسمة في التاريخ ..

٢ — سير الأعمال القتالية :

اصطفت ألوية المسلمين لصلاة الفجر . وكان يؤم الصلاة أمراء الألوية والكتائب . وحالما انتهت الصلاة ، أسرع كل رجل الى مكانه المعين . وبطلوع الشمس كان الجيشان متقابلين تقريباً ، بترتيب المعركة ، في وسط سهل اليرموك ، تفصل بينهما مسافة ١,٥كم تقريباً .

لم تصدر أية حركة سوى ضجة بسيطة عندما تقابلت الجبهتان . لقد عرف الجنود ان القتال في هذا اليوم سيكون حتى النهاية ، وسيمزق أحد الجيشين على أرض المعركة قبل نهاية القتال . جال المسلمون بأنظارهم وقد أدهشتهم تلك الجدة في تشكيلات الفرق الرومانية المزينة بالأعلام الخفاقة والصلبان المرفوعة فوق رؤوس الجنود . كما نظر الجنود الرومانيون بخوف أقل الى جيش المسلمين المنتشر أمامهم . واطمأنوا الى ثقتهم بكثرة عددهم ، ولكن خلال العامين الماضيين أدخل تصرف المسلمين في بلاد الشام الاحترام في قلوب الرومان ، فبدت نظرة الحذر منهم . وهكذا مضت ساعة من الزمن لم يتحرك في أثنائها أي شخص . وانتظر الجنود بدء المعركة التي كما قال أحد المؤرخين «تبدأ بشرارة نار وتنتهي باجج مدمرة تكون أشد ضراوة يوماً بعد يوم» [١] .

ظهر قائد روماني اسمه جورج (جرجه) من قلب جيش الروم وتقدم على فرسه باتجاه المسلمين ، وعندما اقترب من قلب جيش المسلمين ، رفع صوته وطلب خالداً . ومن جانب المسلمين ، خرج خالد على فرسه سعيداً بأن تبدأ

---

(١) — الواقدي — صفحة ١٣٣ .

المعركة به شخصياً بالمبارزة .

وعندما اقترب خالد ، لم يتحرك الروماني لسحب سيفه ، ولكنه استمر ينظر الى خالد بامعان ، وتقدم خالد حتى تلاصقت رقبتا الفرسين ، ولم يستل الروماني سيفه ، عندئذ تكلم الروماني بالعربية : «يا خالد أصدقني القول ، ولا تكذبني فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعني فان الكريم لا يخادع المسترسل ، بالله هل أنزل على نبيكم سيف من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم الا هزمتهم؟» .

فأجاب خالد : «لا» .

فقال جرجة : «ففيم سميت سيف الله»

فقال خالد : «ان الله عز وجل بعث فينا نبيه محمدا ﷺ فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ، ثم ان بعضنا باعده وكذبه . فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم ان الله أخذ بقلوبنا وتواصينا فهدانا به فتابعناه . فقال : أنت سيف من سيوف الله سلّه على المشركين ، ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله وأنا من أشد المسلمين على المشركين» .

فقال جرجة : «يا خالد اخبرني الى ما تدعوني؟»

فقال خالد : «الى شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والاقرار بما جاء به من عند الله» ..

فقال جرجة : «ومن لم يجبكم؟» .

فقال خالد : «فالجزية ونمنعهم» .

فقال جرجة : «فان لم يعطها؟» .

فقال خالد : «نؤذنه بحرب ثم نقاتله» .

فقال جرجة : «فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم الى هذا الأمر اليوم؟» .

فقال خالد : «منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا» .

فقال جرجة : «هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من

الأجر والذخر؟» (١) .

فقال خالد : نعم وأفضل .

ولدهشة الجيشين ، اللذين لم يعرفا ما دار بين القائدين ، عطف خالد جواده ، وسار مع الروماني ببطء . واتجها الى الجيش الاسلامي . وبمجرد وصول جورج الى الجيش الاسلامي كرر بعد خالد كلمات : «لا اله الا الله محمد رسول الله» . (وبعد مضي بضع ساعات قاتل جورج الذي اعتنق دينه الجديد بشجاعة واستشهد في المعركة) . بهذا المشهد الفريد ، ابتدأت معركة اليرموك .

بدأت مرحلة المبارزة بين الأبطال ، ولاءم هذا الطرفين ، لأن فيه تطويراً للمعركة . فتقدم عشرات القادة من الجيش الاسلامي ، منهم من تقدم حسب تعليمات خالد ، ومنهم من تقدم حسب رغبته ، طلباً للمبارزة ، واشتبكوا بمن خرج لمبارزتهم من جانب الروم . وقد قضوا تقريباً على هؤلاء الرومان في المبارزات ، ويعود الفضل في ذلك لعبد الرحمن بن أبي بكر الذي قتل لوحده خمسة قادة من الرومان الواحد تلو الآخر .

واستمرت المبارزة حتى منتصف النهار ثم قرر ماهان ، القائد العام ، ايقاف القتال إذ ان في استمراره خسارة للروم كبيرة ناهيك عن أثر ذلك على قواهم المعنوية ، وهو يأمل ان تتاح للروم فرصة أفضل للنجاح في معركة عامة تكون فيها كثرة العدد لصالحهم . ولكن قائد الروم كان حذرا لأن أي خطوة خاطئة ، في بداية المعركة ، لها تأثير كبير في سيرها . ومن الأفضل له أن يحاول القيام بهجوم محدود على جبهة عريضة لاختبار قوة جيش المسلمين ، وليرى إمكان احراز اختراق في أي نقطة ضعيفة في جبهة المسلمين .

وفي منتصف النهار تقدمت عشرة صفوف أمامية من الجيش الروماني ، أي ثلث المشاة من كل جيش من الجيوش الأربعة ، الى المعركة . وتحركت هذه الموجة البشرية الى الأمام ببطء . وحالما أصبحت في مدى رمي سهام

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٥ .

المسلمين ، انطلقت سهام المسلمين عليها وألحقت بها بعض الخسائر . واستمرت الموجة في التقدم . وفي وقت قصير اصطدمت بالصف الأمامي للمسلمين . وفي الحال ، ألقى المسلمون بحرابهم الدامية واستلوا سيوفهم ، والتحم الطرفان في القتال .

ولكن الهجوم الروماني لم يكن قوياً ، وكان معظم الجنود غير معتادين على المعركة . فلم يضغطوا ويندفعوا بهجومهم ، بينما ضراوة القتال التي أبداها المحاربون المسلمون المتمرسون بعثت الحذر في صفوف الرومان ؛ وكان القتال في بعض الجبهات أشد عنفاً ، ولكن في الأعم ، كان القتال متوسط الشدة وعلى وتيرة واحدة . وقد ثبت المسلمون في صفوفهم . ولم يحاول الروم تعزيز مشاتهم الأمامية .

توقف القتال عند غروب الشمس وعاد الجيشان الى معسكراتهما . كانت الخسائر طفيفة في هذا اليوم ، انما أكثر في الجانب الروماني من الجانب العربي .

ومضى الليل في هدوء . وقامت النساء العربيات بالترحيب برجالهن بكل فخر ومسحن العرق والدماء عن وجوههم وأذرعهم وضمدوا جراحهم بغطاء رؤوسهن وخاطبت الزوجات أزواجهن قائلات : « تمتعوا في أعلى درجات الجنة يا أحباء الله » (١) وقد شعر العرب المسلمون بثقة أكبر بعد أن أوقعوا بالعدو خسائر أفدح من خسائرهم ، واستمرت الصلاة وتلاوة القرآن معظم تلك الليلة . وخلال الليل ، تقدمت بعض المجموعات الرومانية الى المنطقة الحرام لسحب قتلاهم وقد أدى ذلك الى وقوع بعض الاشتباكات بين الدوريات وسوى ذلك لم يحدث أي اشتباك كبير يعكر هدوء الليل .

لم يحقق ماهان شيئاً . فعقد مجلس حرب نوقشت فيه خطط اليوم التالي . وكان عليه أن يفعل شيئاً مغايراً عن الأمس إذا أراد احراز النجاح ، ولهذا قرر القيام بهجومه التالي عند أول ضوء بعد ان شكل قواته للقتال في ساعات الظلام مؤملاً ان يفاجيء المسلمين قبل استعدادهم للمعركة . ثم انه

---

(١) — الواقدي — صفحة ١٣٣ .

يهاجم بقوة أكبر. وطلب من جيشي القلب ان يثبتا قلب جيش المسلمين ، بينما يقوم جيشا الأجنحة بالضربة الرئيسية واخراج ألوية أجنحة المسلمين من المعركة أو دفعها نحو القلب . وأقام ماهان منصة عالية على احدى الروابي خلف الجناح الأيمن الروماني حيث يستطيع الاشراف على المعركة . وهنا وضع ماهان نفسه وحاشيته وحرسه المكون من ألفي أرمني ، بينما استعد سائر الجيش لهجوم الصباح المباغت .

وعند انبلاج الفجر ، بينما كان المسلمون يؤدون الصلاة ، سمعوا قرع الطبول . فأسرع المراسلون على خيولهم عائدين من نقاط القتال الأمامية وأخبروا قادتهم بهجوم الروم . لقد بوغت المسلمون بلا شك ، ولكن خالدا كان قد أمر بوضع خط قوي من نقاط القتال الأمامية في الأمام أثناء الليل ، وهذه النقاط تستطيع تأخير الروم ما يكفي من الوقت ليستطيع المسلمون خلاله ارتداء دروعهم وحمل اسلحتهم والوصول الى موقع المعركة قبل أن يعصف بها طوفان الروم . علاوة على ذلك ، كانت السرعة التي وصل بها المسلمون الى مواقعهم أكبر مما توقعه الروم . ولم ترتفع شمس ذلك اليوم الثاني للمعركة الا وبدأ الجيشان بالتصادم .

واستمرت معركة لواءي الأجنحة معظم النهار بلا حدوث تصدع في جبهة المسلمين . وهنا لم يضغط الروم هجومهم كثيراً لأنهم أرادوه محدداً لتثبيت لواءي المسلمين في مواقعهم . وهكذا بقي القلب ثابتاً . ولكن لواءي الأجنحة تحملا الضربات الشديدة من الجيش الروماني ، وتلقيا أيضاً عنف صدمة القتال .

كان جيش قناطير أمام ميمنة المسلمين وتتكون غالبيته من السلاف وقد هجم هذا الجيش على لواء عمرو بن العاص . وثبت المسلمون بشجاعة وصدوا الهجوم . قام قناطير بهجوم ثان وبقطعات جديدة ، ومرة أخرى صد المسلمون هذا الهجوم . ولكن عندما هاجم قناطير للمرة الثالثة ، استخدم مرة أخرى وحدات جديدة ، مما أدى الى ضعضعة مقاومة المسلمين المرهقين فتراجع اللواء وانكفأ الى المعسكر ، بينما انضم قسم منه للقلب ، أي نحو لواء

شرحبيل .

وكان تراجع هذا اللواء على شكل فوضوي ، وأمر عمرو كتيبة الخيالة المؤلفة من ألفي خيال بالهجوم المعاكس وطرد الرومان . واندفعت الخيالة الى المعركة بعنف وجرأة استطاعت كبح تقدم الرومان لبعض الوقت ، لكنها لم تستطع ان تصده لمدة أطول . وصد الروم هذا الهجوم المضاد وأبعدوه عن المعركة ، وعادت الخيالة الى معسكر المسلمين أيضاً . وما أن وصل الخيالة الى المعسكر هم والجنود المترجلون في آن واحد ، حتى وجدوا صفاً من النساء في انتظارهم حاملين أعمدة الخيام والحجارة في أيديهن وهن يصرخن : «لعن الله الذين يفرون أمام العدو» ، وصرخن على أزواجهن قائلات : «أنتم لستم بأزواجنا اذا لم تستطيعوا انقاذنا من هؤلاء المشركين» [1] .

لم يتلق هؤلاء المسلمون من نسائهم اللوم والتقريع فقط ، بل تعرضوا لهجوم فعلي . في البداية قذفنهم بوابل من الحجارة ، وبعدئذ أسرعت النسوة الى الرجال مستخدمات أعمدة الخيام لضرب الخيال وفرسه . وكان هذا أكثر من أن يتحمله من تهمه كرامته ، وعندما شعروا بما حدث منهم من تخاذل ، عادوا من المعسكر وتقدموا بهياج شديد باتجاه جيش قناطير ، وقام عمرو بهجوم مضاد ثان بمعظم قوات لوائه .

كان الموقف على ميسرة المسلمين لا يقل خطورة . فالمسلمون هنا أيضاً صدوا الهجوم الروماني الأول ، ولكن في أثناء الهجوم الثاني الروماني تم اختراق لواء يزيد . وكان الجيش الروماني المواجه للواء يزيد هو جيش غريغوري ، ذو السلاسل ، وهو أبطأ من الآخرين ، إنما أكثر صلابة . واستخدم يزيد أيضاً كتيبة الخيالة لشن هجوم مضاد . ولكن تم صده ، وبعد فترة مقاومة عنيدة ، تراجع مقاتلو يزيد الى معسكرهم حيث كانت النسوة في انتظارهم . تتقدمهن هند وخولة . وكان أول فارس يصل من

(١) — الواقدي — صفحة (١٤٠) .

الميسرة الى المعسكر هو أبو سفيان ، وكانت أول امرأة تقابله هي هند ، لا سواها فضربت رأس فرسه بعمود الخيمة وصرخت فيه : «الى أين يا ابن حرب؟ عد الى المعركة واظهر شجاعتك عسى ان تغفر خطاياك التي ارتكبتها تجاه رسول الله» [1] .

ولأبي سفيان تجربة سابقة في مزاج زوجته الحاد ، فعاد سريعا الى المعركة ، أما المقاتلون الآخرون فقد تلقوا المعاملة ذاتها من النساء كما حدث لمقاتلي عمرو ، وفي الحال عاد لواء يزيد للمعركة . وهرول عدد قليل من النسوة وسرن بجانب الفرسان المهاجمين واستطاعت احداهن جندلة أحد الرومان بسيفها .

وعندما عاد مقاتلو يزيد للاشتباك بجيش غريغوري ، ابتدأت هند بإنشاد أغنيتها التي غنتها يوم أحد .

«نحن بنات طارق نمشي على النمارق
ان تقبلوا نعانق ونبسط النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق» [2]

حان الظهر . وبينما كان لواءا جناحي جيش المسلمين يخوضان معركتهما ، كان خالد بن الوليد يراقب المعركة من موقعه في القلب وحتى الآن لم يكن قد فعل شيئاً لمساعدتهما ، ورفض ان يجر الى المعركة مع احتياطه قبل أن يتأكد من أن ذلك لا بد منه . ولكن عندما عاد اللواء الى المعركة من المعسكر الذي انسحب اليه ، قرر خالد ان يزج باحتياطه من الفرسان لمساعدتهم والاسراع في اعادة الوضع الى ما كان عليه .

التفت خالد أولاً الى الجناح الأيمن فقام مع حرسه المتحرك وكتيبة الخيالة بضرب جناح جيش قناطير ، وفي آن واحد قام عمرو بن العاص بهجوم مضاد آخر من الامام . هكذا هوجم الرومان من الجانبين وأرغموا

---

(١) ـ الواقدي ـ صفحة ١٤١ .

(٢) ـ الواقدي ـ صفحة ١٤٠ .

على التراجع الى مواقعهم الأصلية . واسترد عمرو جميع الأرض التي فقدها وقام باعادة تنظيم لوائه واعداده للجولة القادمة .

عندما تأكد خالد من أن الوضع قد عاد الى ما كان عليه ، انتقل الى الجناح الأيسر وبدأ «يزيد» الآن يضغط بهجوم مضاد كبير من الامام ليدفع الرومان الى الخلف . ووضع كتيبة بامرة ضرار وأمره ان يقوم بالهجوم على مقدمة جيش ديرجان لكي يحدث تحويلاً ويهدد بانسحاب الجناح الأيمن للروم من موقعه المتقدم ، وهاجم خالد جناح غريغوري بما بقي من الاحتياط . وهنا انسحب الروم مرة أخرى أمام الهجمات المعاكسة من الامام والجنب ، ولكن الانسحاب كان بطيئاً بسبب ربط الجنود بالسلاسل وعدم استطاعتهم التحرك بسرعة . (راجع الشكل رقم ٢١ : خريطة معركة اليرموك في اليوم الثاني .

عندما تقهقر جناح الرومان الأيمن ، اندفع ضرار الى داخل جيش ديرجان ووصل الى قائده الذي كان يقف في وسط حرسه الخاص فقتله . ولكن الضغط اشتد عليه فتراجع الى صفوف المسلمين .

قبل غروب الشمس ، تم دحر جيشي الجناحين وطردهما الى الخلف . وعند الغروب ، قطع جيشا القلب التماس بالمسلمين وانسحبا الى مواقعهما الأصلية ، وأعيد الوضع الى ما كان عليه عند الصباح . وواجه المسلمون موقفاً حرجاً الا انهم عادوا واستردوا الأرض التي فقدوها . وقد أرهق جناح المسلمين الأيمن أكثر من الألوية الأخرى ، لأن القتال الضاري جرى في قطاع عمرو. وعلى العموم انتهى القتال اليومي في هذه الفترة على تلك الصورة وكانت كفة المسلمين هي الراجحة .

ساد الهدوء في الليلة التالية . وكانت النساء المسلمات مشغولات بتضميد الجرحى ، واعداد الطعام ، وجلب الماء .. الخ . وعلى العموم ، كانت روح المسلمين المعنوية عالية ، فقد هاجمتهم قوة جيش الروم الكبرى ، واستطاعوا أن يصدوا الهجوم ويردوا المهاجمين على أعقابهم . وبقي المسلمون

في حالة الدفاع ، ولم تكن الهجمات المعاكسة سوى جزء من وضعية الدفاع العامة . وعموماً ، كانت الحالة في معسكر الروم سيئة . فقد قتل الآلاف منهم في هذا اليوم ، فالمسلمون لم يصدوا الجيوش التي اخترقت مواقعهم من الاجنحة فقط ، بل قاموا بهجوم على قلب جيش الروم (هجوم ضرار) واكتسحوه وقتلوا قائد الجيش . وهي أكبر خسارة للروم لأن ديرجان قائد كبير ومشهور . وعين ماهان قائدا آخر اسمه «قرين» ليقود جيش ديرجان ، وانتقلت قيادة الأرمن الى قناطير ، قائد ميسرة الروم . وكان هذا ضرورياً ، لأن هجوم الروم الهام سيكون في اليوم التالي ضد ميمنة المسلمين ويمين القلب .

نشبت المعركة من خلال «شرارة من النار» . لكنها لم تصل بعد الى «درجة التأجج» . ولكن النار مع ذلك اشتعلت اشتعالا مخيفا عندما دخلت المعركة في يومها الثالث . وهذا ما كان ينتظره المسلمون .

لم يستطع «جيش السلاسل» ان يتحرك هذا اليوم لأنه قاسى في اليوم السابق أكثر مما لقيه جيش قناطير بكثير. كما ان جيش «قرين» قام بهجوم محدود على قطاع أبي عبيدة هادفاً الى تثبيت احتياط المسلمين . لكن الأرمن ، والجناح الأيسر لجيش الروم ، وكلاهما بقيادة قناطير . ضربا بشدة ميمنة المسلمين ولواء شرحبيل ، حيث اختاروا حد الفصل بين شرحبيل وعمرو بن العاص هدفاً رئيسياً للهجوم .

صد الهجوم الأولي عمرو وشرحبيل ، ولكن تفوق الروم العددي بدأت تظهر نتائجه . وقبيل الظهيرة ، اقتحم قناطير الجبهة العربية في عدة أماكن وتراجع لواء عمرو الى المعسكر ، كما ان الجزء الأيمن من قطاع شرحبيل تراجع للخلف ، بينما ظل الجزء الأيسر محتفظاً بمواقعه . وظهرت عدة ثغرات في جبهة العرب المسلمين .

أقبلت النساء مرة أخرى الى ميدان المعركة يحملن أعمدة الخيام والحجارة ، ومرة أخرى هرب الرجال من أمامهن وعادوا الى قتال الروم .

وقد اسرّ احد هؤلاء الرجال الى صاحبه : «ان مواجهة الروم أسهل من مواجهة نسائنا» [١] .

أنشأت القوة الرئيسية من اللواءين خطا ثانياً وصدّت محاولات الروم الرامية لاختراقه . وتحول عمرو للهجوم وقام بضرب الروم بواسطة الخيالة والمشاة ، بقصد طردهم من المواقع الأمامية ، وقد أحرز بعض النجاح في ذلك .

في هذه المرحلة ، توجهت امرأة مسلمة الى خالد وهي تحمل فكّرة عسكرية طرأت في مخيلتها وقالت : «يا ابن الوليد ، لديك خيرة العرب . فاعلم ان الرجال يصمدون مع قادتهم ، فاذا صمد القادة صمد الرجال ، واذا هزم القادة هزم الرجال معهم» [٢] .

فشكرها خالد على نصيحتها وأكد لها بأن القادة في هذا الجيش لا ينهزمون .

شن خالد بواسطة احتياط الخيالة هجوماً معاكساً ضد جناح قناطير . وفي آن واحد ناورت كتيبة خيالة عمرو من اليمين وهجمت على الجناح الأيسر لقناطير . بينما قامت مشاة عمرو وشرحبيل بهجوم مضاد في المواجهة . (راجع بلشكل رقم ٢٢ : خريطة معركة اليرموك في اليوم الثالث) . كانت مقاومة الروم عنيدة أمام هجوم المسلمين المضاد ، وسقط مئات المسلمين في هذه المعركة . ولكن عند الغسق ، تقهقر الروم وعاد الوضع الى ما كان عليه عند بدء المعركة .

وكان هذا اليوم أصعب من أليوم السابق . ولكن خسائر الروم كانت أكبر من خسائر المسلمين ، وكانت الروح المعنوية في نهاية هذا اليوم عالية في صفوف المسلمين ، بينما كانت روح الروم المعنوية منخفضة ، وقد دب فيهم اليأس . فجميع الهجمات التي شنوها قد باءت بالخذلان على الرغم من

---

(١) — الواقدي — صفحة ١٤١ .

(٢) — الواقدي — صفحة ١٤٢ .

الخسائر الجسيمة التي لحقت بهم في الأرواح . ولم يكونوا بوضع أفضل مما كانوا عليه عند بدء المعركة . وقد أنب ماهان القادة الذين أقسموا على أن يكون عملهم أفضل في اليوم التالي الذي كان في الحقيقة أصعب يوم من أيام المعركة .

قضى خالد وأبو عبيدة ليلتهما يتجولان في معسكر المسلمين ، ويشجعان الرجال المنهكين ، ويتحدثان الى الجرحى . وكانت الاصابة بالجروح لا تعني الاخلاء الى الخلف في هذه المعركة . وفي الواقع كان الذين جراحهم خطيرة من المسلمين يستريحون قليلاً ثم يعودون الى ميدان القتال .

أطل فجر اليوم الرابع للمعركة في جو يسوده التوتر والمفاجآت . فالروم كانوا يعلمون ان هذا اليوم سيكون حاسماً . لهذا عزموا على بذل قصارى جهدهم لتمزيق جيش العرب المسلمين الذي صد جميع محاولاتهم للاختراق فاذا فشل هجومهم هذا اليوم ، فانهم لن يتمكنوا من شن هجمات أخرى بعده ، وكانوا مصممين على حسم الموقف اليوم والا لن يتم ذلك أبداً

وكان خالد يعلم أيضاً ان المعركة قد وصلت مرحلة حاسمة ، وان عمليات اليوم سوف تعطي المدلولات النهائية للنجاح أو الفشل . لقد قتل الآلاف من الروم حتى الآن ، فاذا أمكن صد الروم في هذا اليوم مع تكبيدهم خسائر فادحة فانهم لن يحصلوا على المبادأة مرة أخرى . وعندئذ يمكن القيام بهجوم مضاد . وقد استنفدت قوى جيش المسلمين بعض الشيء ، وتكبد رماة السهام الموجودون في الأمام خسائر كبيرة . وبقي ألفان منهم فقط في حالة جيدة تسمح لهم بالقتال . ووزع هؤلاء بمعدل خمسمائة لكل لواء . وقد أنهك المسلمون أكثر من الروم لقلة عددهم . الا ان شجاعتهم لم تضعف قط . كان جل اهتمام خالد بالجناح الأيمن ولكن وجود عمرو بن العاص في قيادة هذا الجناح ، كان يبعث الاطمئنان في نفسه وكان عمرو يعد الرجل الثاني بعد خالد . وتحمل عمرو عبء القتال الشديد في هذه المعركة ، وكان مقدراً له أن يستمر في تحمل هذا العبء . والحقيقة التي لا غبار عليها أن عمراً كان معروفاً بصلابته وشجاعته بين العرب ، ولم يكن له

ندّ بين قادة الروم .

قرر ماهان ان يبدأ عملياته لهذا اليوم بالهجوم على النصف الأيمن من جبهة جيش المسلمين كما فعل في اليوم السابق . فحالما يهزم هذا الجزء ويتورط احتياط المسلمين في القتال في هذا القطاع ، سيضرب بباقي جيشه النصف الأيسر من جبهة المسلمين . وطبقا لهذه الخطة تحرك جيشا قناطير وهجم السلاف والأرمن على لواءي عمرو وشرحبيل . وأجبر عمرو على التراجع مرة أخرى ، ولكنه لم يتراجع للخلف مثلما حدث في اليوم المنصرم ، في هذا الوقت لن يواجه المسلمون غضب نسائهم ! واستطاع لواء عمرو ايقاف السلاف على مسافة قصيرة خلف موقعه الأصلي ، وهنا انهارت مناورة الروم أمام عنف هجوم المسلمين ، ووقعت فيهم خسائر جسيمة .

أما في قطاع شرحبيل فقد تمكن الأرمن من اختراق صفوف المسلمين ودفعهم نحو معسكرهم . وقد تم دعم الأرمن بالعرب النصارى التابعين لجبلة ، وكان أخطر اختراق يجري في صفوف المسلمين . ولقد كان بمقدور شرحبيل ان يعيق تقدم الأرمن لكنه لم يفلح في صدهم . واتضح سريعاً ان اللواء لن يستطيع الصمود طويلاً . لقد أصبح الآن من الضروري ان يدخل خالد باحتياطه في هذا القطاع .

كان أكثر ما يخشاه خالد هجوم قوي على جبهة عريضة ، فاذا تمكن العدو من الاختراق في عدة أماكن ، عندئذ لا يمكن طرده لأن احتياط الجيش لا يمكن أن يكون في كل مكان في آن واحد . وفي اليوم الثاني للمعركة استطاع خالد ان يعيد الوضع الى ما كان عليه الجناحان وذلك بالعمل عند كل جناح على حدة ، ولكن اذا استطاع الروم التوصل الى خرق قوي في اماكن عدة، فستتعذر اعادة الوضع الى ماكان عليه. ولذلك، عندما رأى بداية نجاح الروم ضد عمرو وشرحبيل ، أمر أبا عبيدة ويزيد أن يهاجما في قطاعاتهما ليحبطا هجوم الروم على ميسرة المسلمين في حالة قيامهم به . وعند الضحى كان لواء أبي عبيدة ويزيد يشتبكان بجيش قرين وغريغورى ، في آن واحد ، عندما أصبح موقف شرحبيل دقيقاً ، كان

هذان اللواءان يضغطان بشدة على النصف الأيمن من جبهة الروم .

وبعد أن أطمأن خالد على ميسرته ، قرر ان يهاجم الأرمن ، فقسم احتياط الجيش الى مجموعتين متساويتين وكلف قيس بن هبيرة بقيادة مجموعة وتولى هو بنفسه قيادة المجموعة الثانية . وتحرك خالد بمجموعته والتف على لواء شرحبيل وظهر أمام الجناح الشمالي لجيش الأرمن . وبدأ بشن هجوم معاكس ذي ثلاثة اتجاهات ضد الأرمن والعرب النصارى .

خالد من اليمين ، وقيس من اليسار ، وشرحبيل من المواجهة . (راجع الشكل ٢٣ : خريطة معركة اليرموك في اليوم الرابع) واحتدم القتال في هذا الجزء من ميدان المعركة حيث قاوم العدو ببسالة ، ودار قتال عنيف عدة ساعات بين المسلمين والنصارى ، ولكن اخيرا دحرت ضربات خيالة المسلمين ومشاتهم الأرمن فتقهقروا الى مواقعهم الأصلية بعد ان تكبدوا خسائر جسيمة . وفي هذا الاشتباك ، الذي دام بعد الظهر برمته ، كانت الخسائر الكبيرة في صفوف العرب النصارى .

وعندما أجبر الأرمن على التراجع ، جدد عمرو بن العاص محاولاته لطرد السلاف من المواقع التي احتلوها ، وتراجع السلاف أيضاً بعد ان رفضوا مساعدة الأرمن لجناحهم . وبذلك تمت استعادة مواقع شرحبيل وعمرو. لكن هذا الاشتباك على ميمنة المسلمين لم ينته الا في المساء . وبينما كان هذا الاشتباك جارياً كانت تدور رحى معركة عنيفة وقاسية على الجانب الأيسر من جبهة المسلمين . ومما جعل هذا الاشتباك خطيراً هو انشغال احتياط الجيش على الجانب الأيمن ولا يستطيع القيام بشيء لمساعدة أبي عبيدة ويزيد اللذين كان عليهما ان لا يعتمدا الا على قواتهما الذاتية .

وبناء على أوامر خالد ، تقدم لواءا الجناح الأيسر لمهاجمة الروم في مواقعهم ، وعندما حرك خالد الحرس المتحرك لمهاجمة الأرمن ، كان هذان اللواءان قد اشتبكا بالروم . في البداية حقق اللواءان بعض النجاح ، وتم دحر الروم الى الخلف . ولكن لم يمض وقت طويل على بداية هذا الاشتباك حتى وجد المسلمون أنفسهم عرضة لرمايات شديدة من النبال . لقد قذف

الآلاف من نبالة الروم سهامهم على المسلمين ، وكانت السهام تقذف بشدة وبكثافة حتى ان بعض الروايات ذكرت « انِ السهام كانت تسقط كالبرد وقد حجبت نور الشمس » [1] . وجرح العديد من المسلمين من جراء هذه السهام ، وفقد سبعمائة مسلم عينا واحدة من عيونهم .

ونتيجة لهذه الكارثة سمي اليوم الرابع من المعركة « يـوم فقد العيون » [2] .

تراجع المسلمون الذين يقاتلون في الجناح الأيسر. فأقواسهم لم تكن فعالة في نبالة الروم لقصر مداها وقلة عددها . وكانت الطريقة الوحيدة لتجنب خسائر أخرى هو الابتعاد عن مدى نبالة الروم . وقد فعل ذلك أبو عبيدة ويزيد على الفور. وعندئذ قطع التّماس بين الجانبين وظلت الجبهتان هادئتين وامتنع المسلمون بحكمة عن التقدم مرة أخرى .

ولكن ماهان وقادة جيشه ، غريغوري وقرين ، عندما شاهدوا الاصابات التي لحقت بالمسلمين قرروا أن يستثمروا هذه الفرصة فتقدم الجيشان لمهاجمة المسلمين قبل أن يتمكنوا من اعادة تنظيم صفوفهم ، وبدأ الصدام بين الجانبين مرة أخرى ، وتقهقر المسلمون الى مواقعهم الأصلية . وكان الروم يعلمون ان هذا اليوم هو اليوم الفاصل ، لذلك هاجموا بعنف وضراوة ، فتزحزح لواءا أبي عبيدة ويزيد من مواقعها مرة أخرى لمسافة قصيرة ، باستثناء كتيبة عكرمة التي كانت تقف عند الطرف اليساري من قطاع أبي عبيدة .

رفض عكرمة المقدام التراجع . وطلب من رجاله ان يقسموا على القتال حتى الموت وعدم ترك موقعهم . وعلى الفور أقسم أربعمائة من رجاله على ذلك ، وانقضوا على الروم كالذئاب الجائعة . ولم يقتصر هجوم عكرمة على الروم المواجهين له ، بل انقض أيضاً على كتائب الروم التي كانت تمر على مجنبته . ولم يسقط هذا الموقع من يد المسلمين ابداً . ان رجال عكرمة الأربعمائة الأبطال الذين أقسموا على القتال حتى الموت قد أصيبوا جميعهم

(١) — الواقدي — صفحة ١٤٦ ، ١٤٨ .

(٢) — الواقدي — صفحة ١٤٨ .

اما باصابات مميتة أو بجروح خطيرة ، لكنهم قتلوا من الروم اعداداً تفوق أضعاف ما قتل منهم . وقد أصيب عكرمة وابنه عمر بجروح مميتة .

لم يذهب لواءا أبي عبيدة ويزيد هذه المرة الى المعسكر . انهما لم يجرؤا على ذلك أيضاً ، لأن النساء كن يحملن السيوف وقد اندفعن الى الأمام وانضممن الى رجالهن . حتى النساء فهمن ان مصير المعركة يتعلق بهذه المرحلة ، فأتين يحملن السيوف وأعمدة الخيام لضرب الروم ، وجلبن الماء للجرحى والعطشى من المسلمين . وكانت بينهن خولة ، وزوجة الزبير ، وأم حكيم ، التي صرخت في النساء قائلة : اضربن الروم على أذرعهم [1] . واندفعت النساء بين الوية المسلمين حتى وصلن الى الصف الأمامي ، وصممن على القتال أمام رجالهن هذه المرة ، وكان عملهن نقطة تحول في هذا القطاع .

كان منظر النساء وهن يقاتلن مع الرجال ، مثيراً لحماس المسلمين فهجموا على الروم بشجاعة نادرة . واستخدموا في هجومهم السيوف والحراب ، واستطاع صناديد أبي عبيدة ويزيد دحر الروم عن مواقعهم . وتراجع الروم أمامهم بسرعة تحت تأثير ضرباتهم الشديدة .

بلغت المعركة في هذا اليوم ذروتها على طول المواجهة في ساعات بعد الظهر . وفي هذا الوقت كان جميع القادة يقاتلون مثل رجالهم ، وأثبت كل قائد لواء انه قائد كفء لرجاله الشجعان . ووقع العديد من الروم على الأرض تحت عنف ضربات النساء المسلمات . واندفعت خولة بنت الأزور شقيقة ضرار نحو أحد الروم ، لكن خصمها كان أمهر منها باستخدام السيف ، فضربها على رأسها بسيفه ، فخرت على الأرض وقد اصطبغ شعرها بالدم . وعندما دحر الروم للخلف ، رأت باقي النساء جسد خولة بلا حراك فبدأن بالبكاء والنحيب وأخذن يبحثن عن ضرار ليبلغنه بموت شقيقته الغالية . لكنهن لم يجدن ضرار حتى المساء ، وعندما وصل الى المكان الذي ارتمت فيه خولة ، رآها تنهض وهي تبتسم .

(١) — الواقدي صفحة ١٤٩ . أما البلاذري فيذكر ان هذه الكلمات قالتها هند (صفحة ١٤١) .

انتهت الأعمال القتالية هذا اليوم عند الغسق . وعاد كل جيش مرة أخرى الى مواقعه الأصلية . لقد كان يوماً عنيفاً ، لا يمكن أن ينساه صناديد اليرموك ، اذ كان الروم قريبين جداً من النصر . لكن عددا كبيرا من الروم دفع حياته ثمنا لنصر لم يقدر لهم ان يحرزوه . وكانت معظم الخسائر في صفوف الروم المربوطين بالسلاسل ، والأرمن ، والعرب النصارى ، وخسر المسلمون أكثر مما خسروه في اليوم السابق ، وكان عدد الجرحى أكبر من عدد الذين لم يجرحوا ، ومع ذلك فقد كان الفخر والاعتزاز بالنفس يغمران نفوسهم جميعاً وخالد خاصة ، الذي أيقن أن بشائر النصر أخذت تلوح في الأفق القريب .

هنالك حادثة واحدة ينبغي ذكرها قبل أن نأتي على نهاية سرد يوم « فقد العيون » . ففي أثناء توقف القتال في قطاع شرحبيل ، ظهر القلق فجأة على وجه خالد ، وهذا ما أدهش رجاله الذين لم يروه هكذا قط ، ولكنهم عرفوا السبب عندما أمرهم أن يبحثوا عن قلنسوته الحمراء التي سقطت منه في أرض المعركة . فجرى البحث على الفور وتم العثور عليها . كان بعض الرجال لا يعرفون شيئاً عن هذه القلنسوة فسألوا خالدا عن أمرها عند ذلك سرد خالد قصتها قائلاً :

عندما حلق الرسول الكريم شعره في حجة الوداع ، التقطت بعض شعرات من رأسه . فسألني : ماذا ستفعل بها يا خالد ؟ فأجبت : سأستمد منها القوة وأنا أحارب اعداءنا يا رسول الله . فقال : ستبقى منتصراً طالما هذه الشعرات معك . فحبكت الشعرات في قلنسوتي ، ولم أقابل عدوا قط الا وهزمته ببركة رسول الله عليه الصلاة والسلام [1] .

هده هي قصة قلنسوة خالد ذات العصابة الحمراء ، وهي القلنسوة التي لا يفارقها أبداً . وقد استوحت معظم القيادات العسكرية العليا في معظم بلدان العالم شارات القيادة من قلنسوة خالد ولذلك نجد أن الشريط الأحمر يحيط بعمرات الضباط من مرتبة الأمراء في معظم جيوش العالم .

---

(١) — الواقدي صفحة ١٥١ .

هبط الظلام عندما كان خالد جالساً على الأرض المضرجة بالدماء عند الطرف الأيسر من قطاع أبي عبيدة . وكان رأس عكرمة يستند على احدى ركبتيه . وعلى الركبة الثانية كان يستند رأس عمر بن عكرمة . لقد كان الأب والابن يحتضران . وكان خالد يمسح عن وجهيهما ويقطر في حلوقهما الماء . وهكذا مات عكرمة وابنه بين ذراعي سيف الله . فالرجل الذي ناهض الاسلام عدة سنوات نال شرف الشهادة أخيراً . ان المجد العظيم الذي أحرزه المسلمون في يوم «فقد العيون»، وهو يوم لن يرى المسلمون مثله قط في بلاد الشام ، يعود الفضل فيه الى عكرمة بن أبي جهل .

مرت الليلة في هدوء كي ينال المنهكون والجرحى قسطاً من الراحة والعناية . وكان من عادة أبي عبيدة ان يعين قائداً مناوباً في الليل ، كانت مهمته المرور على الحرس وعلى النقاط الأمامية للتأكد من يقظة الرجال لكن القادة أنفسهم كانوا منهكين هذه الليلة حتى أن أبا عبيدة الطيب القلب لم يطلب من أحد منهم ان يقوم بهذه المهمة الشاقة . ومع ان سيفه كان يقطر دماً من جراء مباراته مع الروم وهو بحاجة الى الراحة مثل الآخرين ، قرر ان يقوم بهذه المهمة بنفسه . وبدأ على الفور جولته مع بعض أصحاب رسول الله . لكنه لم يكن بحاجة الى القلق ، فحيثما ذهب وجد القادة يقظين وهم يتجولون ويتحدثون الى الحرس والجرحى . وكان الزبير يقوم بجولته مصطحباً زوجته وكل منهما على فرسه .

وفي صبيحة اليوم الخامس للمعركة فتح الجيشان على الخطوط ذاتها التي اتخذوها قبل بداية المعركة . ولكن في هذا اليوم لم يكن الجنود على استعداد للقتال اذ كان التعب بادياً عليهم . وبجانب كل رجل صحيح آخر جريح . وكان بعضهم يقف بصعوبة ولكنهم وقفوا . وأخذ خالد ينظر بامعان الى جبهة الروم ليلحظ اذا كان هنالك أي تحركات تدل على أنهم سيقومون بالهجوم مرة أخرى . ولكنه لم يلحظ أية حركة تدل على ان هنالك نية للهجوم قبل ساعة أو ساعتين على الأقل . ثم ظهر رجل من قلب جيش الروم . وكان هذا مبعوثاً من قبل ماهان وهو يحمل اقتراحاً لعقد هدنة بين

الطرفين تدوم بضعة أيام من أجل اجراء مفاوضات بين الجانبين . وكان أبو عبيدة على وشك ان يقبل الاقتراح لكنه أمام الحاح خالد اعاد المبعوث رافضا العرض بعد ان قال له : «نحن في عجلة من أمرنا لانهاء هذا الأمر» [1] .

وعرف خالد الآن ان ظنه كان في محله ، فالروم كانوا لا يرغبون في القتال .

ومضى النهار ، وكان خالد مشغولاً باصدار الأوامر للهجوم المعاكس واتخاذ بعض الاجراءات الخاصة باعادة تنظيم الجيش . فجمع كتائب الخيالة كافة في قوة واحدة ومعها الحرس المتحرك . وكان تعداد هذه القوة زهاء ثمانية آلاف فارس .

ان سيف الانتقام سوف يلمع غدا فوق سهل اليرموك .

بزغ فجر اليوم السادس صافياً وواضحاً . وكان ذلك في الأسبوع الرابع من آب عام ٦٣٦م. (الأسبوع الثالث من رجب ، عام ١٥ هجري) . وكان هدوء الصباح لا ينذر بوقوع المجزرة البشرية التي حدثت فيما بعد . وكان المسلمون يشعرون بالنشاط ، وكانوا على علم بنوايا قائدهم الهجومية وببعض تفصيلات الخطة لذلك كانوا متشوقين للمعركة .

كما أن الآمال التي تجيش في صدور المسلمين هذا اليوم قد طمست ذكريات «يوم فقد العيون» الأليمة ، وكانت تمتد أمامهم جبهة جيش الروم الذي كان أمله أضعف لكنه كان مستعداً للقتال .

وعندما أشرقت الشمس ، خرج غريغوري قائد جيش السلاسل ، على فرسه من قلب الجيش الإمبراطوري ، وكانت مهمته قتل قائد جيش المسلمين بغية التأثير على معنويات المسلمين . وعندما اقترب من قلب المسلمين صاح بأعلى صوته طالباً قائد المسلمين لمبارزته .

وتهيأ أبو عبيدة على الفور للخروج اليه . لكن خالداً والآخرين حاولوا منعه. لأن غريغوري كان يتمتع بشهرة كبيرة كمبارز بارع، وكان كذلك

(١) — الواقدي — صفحة ١٥٣ .

فعلاً . وشعر الجميع بأن من المفضل ان يخرج خالد لمبارزته ، لكن ابا عبيدة أصر على ملاقاته . وسلم راية الجيش الى خالد وقال له : «اذا لم اعد ، عليك ان تتولى قيادة الجيش ، الى ان يتدبر الخليفة الأمر» (١) ، وخرج لملاقاة خصمه .

تقابل القائدان على ظهور الخيل ، واستلا سيفيهما وبدأت المبارزة بينهما ، وكان كل منهما مبارزاً ماهراً وعنده المعرفة التامة بفن استخدام السيف ، واشتد الصراع بينهما وحبس الروم والمسلمون أنفاسهم وهم يراقبون المبارزة العنيفة . وبعد بضع دقائق من المبارزة ، انسحب غريغوري من المبارزة وأدار حصانه وبدأ يتراجع للخلف . وتعالت الهتافات من بين صفوف المسلمين لهزيمة القائد الروماني ، لكن أبا عبيدة لم يظهر أي رد فعل على الفور ، بل لبث قليلا ثم ثبّت عيناه على الروماني المتراجع ، وأسرع للحاق به .

لم يكد غريغوري يبتعد بضع مئات من الخطوات حتى لحق به أبو عبيدة . وهنا عمد غريغوري الى الابطاء في سيره حتى يلحق به أبو عبيدة ، وعندما أصبح أبو عبيدة بجانبه رفع سيفه وهوى به على أبي عبيدة . لقد كان هرب غريغوري حيلة ليأخذ خصمه على حين غرة ، لكن أبا عبيدة لم يكن جندياً غرا ، فهو يعرف فن استخدام السيف أكثر من غريغوري . فعندما رفع غريغوري السيف كان ذراعه يمتد الى أعلى مدى ، وفي هذه اللحظة فاجأ أبو عبيدة خصمه بضربة على قاعدة عنقه ، وسقط السيف من يده وهوى على الأرض ، وظل أبو عبيدة على ظهر فرسه بضع دقائق وهو ينظر الى ضخامة جسم القائد الروماني . ثم عاد الى صفوف المسلمين تاركاً وراءه درع الروماني الموشى بالأحجار الكريمة والذهب وأسلحته ، دون أن يهتم بمثل هذه الأشياء الثانوية .

بعد عودة أبي عبيدة ، مضى خالد للالتحاق بالخيالة الذين تمركزوا خلف عمرو بن العاص . وعند وصوله أعطى الاشارة للهجوم العام وزحف

(١) — الواقدي — صفحة ١٥٣ .

جيش المسلمين للامام . وهاجم قلب جيش المسلمين وميسرته جيوش الروم في مواقعهم دون ان يشددا الهجوم . والتفت الخيالة حول جنب الروم الأيسر . ومن هنا أرسل خالد كتيبة للاشتباك مع خيالة ميسرة الروم ، وقام مع باقي الخيالة بضرب مجنبة الجناح الأيسر للروم (السلاف) بينما قام عمرو من الامام بهجوم عنيف ، كان السلافيون محاربين أشداء ، فدافعوا عن أنفسهم بشجاعة فترة وجيزة ، ولما لم تدعمهم خيالتهم ، وقد هوجموا من الأمام والجنب ، فقد دحروا في النهاية وتراجعوا تحت تأثير ضربات خالد وعمرو الموجهة الى قلب جيش الروم أي نحو الأرمن .

وعندما تداعى جناح الروم الأيسر ، حرك عمرو لواءه الى الأمام ، ثم الى اليسار حيث واجه ميسرة الروم وبذلك أصبحت مجنبة الأرمن مكشوفة ، وكانت الفوضى تسود صفوف هذه المجنبة بسبب وصول السلاف المنهزمين . وفي غضون ذلك أسرع خالد بدفع خيالته واشتبك بخيالة ميسرة الروم ، التي أوقفتها الكتيبة التي أرسلها خالد منذ وقت قصير . وبدأت المرحلة الثانية من هجوم المسلمين بأن قام شرحبيل بمهاجمة جبهة الأرمن بينما قام عمرو بمهاجمة مجنبتهم . ثم هجم خالد على خيالة ميسرة الروم وطردها من مواقعها الى الخلف . وكانت هذه المجموعة من الخيالة قد تلقت ضربات قوية من خالد ، فهربت شمالاً حيث الأمان . انها قاست ما كفاها في هذه المعركة . (راجع الشكل رقم ٢٤ : خريطة معركة اليرموك في اليوم السادس . المرحلتان الاولى والثانية .

لن أحاول ان أشرح خطة خالد لأنها ستتوضح للقارىء من خلال سير المعركة . ولكن هنالك خطة واحدة ينبغي ذكرها وهي تتعلق بنوايا خالد نحو خيالة العدو . لقد صمم خالد على طرد خيالة العدو من ميدان المعركة لكي تبقى المشاة القوة الرئيسية لجيش الروم ، بدون دعم من الخيالة وهكذا تصبح المشاة عاجزة عندما تهاجم من الجنب والمؤخرة . في العمليات السريعة التحرك تعتبر الخيالة «الشريك المسيطر» ومن دونها تصبح المشاة غير قادرة على التحرك بسرعة وانقاذ نفسها عندما يتغير الموقف لغير صالحها .

عندما طرد خالد خيالة ميسرة الروم ، كان ماهان قد حشد باقي خيالته في جيش واحد قوي خلف قلب الروم للقيام بهجوم مضاد واستعادة المواقع المفقودة . ولكن قبل ان تتمكن قوة الخيالة هذه من القيام بأية مناورة ، هاجمها خيالة المسلمين من الأمام والجنب ، وقاتل الروم فترة من الوقت ببسالة نتيجة تشجيع ماهان المقدام لهم ، لكن في مثل هذا الموقف المائع ، لا تقارن الخيالة الثقيلة بخيالة خالد الخفيفة والسريعة التي تستطيع الضرب ، والطعن ، والمناورة ، والضرب مرة أخرى .. وأخيراً عندما رأت خيالة الروم ان لا فائدة ترجى من القتال ، قطعت التماس بالمسلمين وهربت الى الشمال ومعها القائد ماهان . وبذلك تركت خيالة الروم المشاة تحت رحمة الأقدار . وكان عدد الذين هربوا مع ماهان أربعين ألفا من خيالة الروم النظامية وخيالة العرب النصارى ، التي كانت بامرة جبلة بن الأيهم .

لم يشاهد ضرار في اشتباكات الخيالة هذا الصباح . وافتقد المسلمون المنظر المألوف للمحارب « العاري الصدر » الذي كان يصول ويجول في مثل هذا النوع من الاشتباكات ، ولم يكونوا يعرفون أين هو ، كما ان خالدا لم يخبرهم .

في أثناء ذلك كان الأرمن يقاومون ببسالة محاولات عمرو وشرحبيل لسحقهم ، واستطاع لواء المسلمين احراز بعض التقدم ، ويمكن ادراك ذلك لأن الأرمن كانوا محاربين أشداء [1] . وكان أبو عبيدة ويزيد يهاجمان الروم في مواجهتهما (مع ان مهمتهما كانت ثانوية وهي تثبيت الروم) ، ولكن جيش قرين وجيش السلاسل صداهما . وفي هذه المرحلة التفت خالد الى الأرمن ، بعد ان طرد خيالة الروم من ميدان المعركة ، فهاجمهم من المؤخرة . راجع الشكل رقم ٢٥ ، خريطة معركة اليرموك في اليوم السادس .

المرحلتان : الثالثة والرابعة . وأمام الهجوم ذي الشعب الثلاثة أنفرط عقد الأرمن . وبعد أن تركوا مواقعهم ، هربوا باتجاه جنوب غرب — وهو الاتجاه الوحيد المفتوح لهم ، وقد دهشوا كثيراً لأن خيالة المسلمين لم تحاول اللحاق

(١) — يصف جيبون في كتابه « انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية » الأرمن بأنهم كانوا أكثر رعايا الروم حبا للحرب .

بهم وكان بمقدورهم ان يفعلوا ذلك . لقد ساروا في الاتجاه الذي وجدوا فيه الأمان . ولكنهم لم يعلموا أن هذا الاتجاه هو الاتجاه الذي يريدهم خالد أن يسيروا فيها .

وعندما انهار جيش الأرمن واختلط بشكل فوضوي بفلول جيش قناطير السلافي ، هرب باتجاه وادي الرقاد ، وأيقنت جيوش الروم المتبقية عدم الفائدة من بقائها في مواقعها لأن مجنباتها ومؤخراتها أصبحت مكشوفة تماما . لذلك بدأت هذه الجيوش أيضا بالانسحاب بانتظام واتخذت طريقها نحو الغرب . وهنا أيضاً لم يعمد خالد الى اعتراض حركة الروم .

لم تكد الشمس تصل الى كبد السماء حتى كانت مشاة الروم في تقهقر تام ، وقد هرب جزء منها بذعر ، وانسحب الجزء الآخر بانتظام واتجهت نحو وادي الرقاد . وسارت ألوية المسلمين خلف الروم المنسحبين . وكانت هذه الألوية قد أعيد تنظيمها في صفوف منتظمة ومواجهات أقصر . وتحركت خيالة المسلمين الى شمال جيش الروم لكي لا يتمكن أحد من الهرب في ذلك الاتجاه ، مع ان آلاف السلاف والأرمن قد سارعوا الى الهرب قبل اغلاق طريق الهرب . وبهذه الطريقة سد المسلمون طرق الفرار على جيش قيصر المنهزم [1] .

عندما هرب الروم من ميدان المعركة ، كان همهم الوحيد هو جعل المسافة كبيرة بينهم وبين المسلمين. وكانوا يعلمون أن طريق الهرب الشمالي قد أغلقه خيالة المسلمين . ولكن كان هناك محور آخر للهرب بعد اجتياز وادي الرقاد عبر مخاضة ، وهو طريق جيد . وكان القادة يسيرون أمام جنودهم باتجاه المخاضة . وعندما وصلت كتيبة المقدمة الى المخاضة ، اندفعت الى

---

(١) — ان رواية بعض الكتاب الغربيين ، التي تعزو هزيمة جيش الروم الى استغلال خالد لعاصفة رملية شديدة هبت في وجوه الروم ، غير صحيحة على الاطلاق . ولم يذكر أي مؤرخ اسلامي شيئاً عن هذه العاصفة . ويذكر جيبون (الجزء ٥ ، صفحة ٣٢٧) انه طبقاً لرواية «ثيوفانس» كان يوجد (سحابة من تراب وريح شديد) ، ولكن الطفل فقط يستطيع ان يتخيل ان جيش المسلمين المؤلف من ثلاثين ألفا من الجنود الاشداء ، والمنتشر على مواجهة ٢١كم يمكن ان يخوض المعركة بهذه السرعة ، وبهذه المناورة الرائعة لمجرد انه استغل عاصفة هوجاء . وفي وقت كانت المواصلات مقتصرة فيه على راكبي الخيل . وما هذه الرواية الا محاولة من المؤرخين الغربيين المتعجرفين لايجاد مبرر لهزيمة الروم .

المنحدر الشرقي للوادي وبدأت باجتياز جدول الماء . ولم يكن المنحدر الشرقي سيئاً عند هذه النقطة كما هو الحال في أجزاء أخرى من الوادي ، لكن المنحدر الغربي كان أكثر صعوبة بسبب انحداره الشديد ، وقرب القمة كانت هوة سحيقة على جانبي الطريق ، وهكذا تشكل عنق زجاجة حيث يستطيع حفنة من الرجال البواسل ايقاف جيش بكامله .

وبدأ الروم الذين في المقدمة صعود الطريق الموجود على ضفة الوادي الغربية ، فرحين بهربهم من سهل اليرموك . وعندما وصلوا الى القمة شاهدوا مجموعة من المسلمين تقف فوقهم وأفرادها شاهرون سيوفهم . وكان على رأس المجموعة محارب شاب ، نحيل الجسم ، عاري الصدر !

كان خالد قد أرسل خلال الليل ضرار ومعه خمسمائة خيال من الحرس المتحرك للالتفاف على ميسرة الروم ، والوصول الى خلف وادي الرقاد ، واحتلال موقع لسد الطريق عند الضفة البعيدة للوادي . وكان مع ضرار دليل يدعى «أبو جبير» [1] من العرب النصارى . وقد نفّذ ضرار التحرك بكفاءة تدعو للاعجاب . وقد استطاع ضرار السيطرة على الضفة الغربية لوادي الرقاد ، دون ان يعلم الروم بذلك ، وأخفى رجاله قرب المخاضة . وكان الروم يرون ان اجتياز وادي الرقاد من الجهة البعيدة ذا أهمية تكتيكية . فوقف ضرار مع رجاله على قمة الضفة الغربية ، وهم ينظرون الى الروم المنهكين يصعدون المنحدر . (الشكل رقم ٢٦ : خريطة معركة اليرموك في اليوم السادس المرحلة الخامسة .

وفي الحال انهمرت رشقة من الحجارة على الروم . وحاول عدد قليل منعهم من الوصول الى القمة ، ولكنهم قتلوا على الفور. وتراجعت العناصر التي كانت في الأمام ، ووقعت على الرجال الذين كانوا في الخلف ، وهؤلاء وقعوا على الذين خلفهم وهكذا ، بسبب تعرضهم لسيل من الحجارة . وعندما هجم ضرار على الروم ، هبطوا وهم يصرخون ويتدحرجون رأساً على عقب حتى استقروا في أسفل الوادي .

---

(١) — الواقدي — صفحة ١٥٢ .

وعندما رأى الروم الموجودون على الضفة الشرقية ما حل بكتيبة المقدمة توقفوا في مكانهم . وبدا واضحاً ان طريق الهرب هذا كان مغلقاً أيضاً . ولم يكن باستطاعتهم زحزحة ضرار بسبب ضيق الممر الذي لا يسمح بالمناورة ، لذا تحول الجيش الروماني للدفاع عن نفسه ضد الهجوم الوشيك من الشرق . ونشر قادة الجيش ، الذين ما زالوا مع الجيش ، كتائبهم بصورة عاجلة للدفاع جاعلين ظهورهم باتجاه وادي الرقّاد ومركزين مجنبتهم اليمنى على نهر اليرموك . وقد وقعوا بين نارين — المسلمين والوادي — ولم يستطيعوا أن يقرروا أيهما كان أسوأ .

وبعد ظهر اليوم السادس من المعركة ، بدأت المرحلة الأخيرة من هجوم المسلمين. (الشكل رقم ٢٧—خريطة معركة اليرموك في اليوم السادس : المرحلة السادسة والأخيرة) . ولم يبق الا ثلث جيش الروم في هذه الزاوية المزدحمة من سهل اليرموك ، وكان يقف أمام هذه الزاوية المسلمون على شكل نصف دائرة منتظمة ، وكانت المشاة تقف ناحية الشرق والخيالة في الشمال . وكانت قوة المسلمين هنا أقل من ثلاثين ألفاً. قد انتهى الآن وقت المناورة والقيادة . فمهارة القائد قد وضعت القوات في موقف قتالي نموذجي ، والأمر متروك للجنود لكي يقاتلوا وينتصروا . واستل القادة سيوفهم وأصبحوا مقاتلين مثل الآخرين ، كأسود الصحراء تحركوا للضربة الأخيرة القاتله .

واستخدم المهاجمون السيوف والرماح في قتل الكتل البشرية المضطربة والواقفة أمامهم . وكان الروم في بعض الأماكن محتشدين بكثافة لم تمكنهم من استخدام أسلحتهم ، ولكن صفوفهم الأمامية قاتلت بشجاعة بطولية وحاولت ايقاف موجة الهجوم لكن بلا جدوى . وسرعان ما انهارت مقاومتهم ، وبدأت الصفوف تنهار الواحد تلو الآخر بينما كان المسلمون يتقدمون عبر هذه الصفوف وهم يضربون الروم بعنف وضراوة . وتدافع الروم وهم يهربون في هزيمتهم واختلط الحابل بالنابل وقتل الكثيرون ممن لم يكن لديهم القوة الجسدية الكافية تحت أقدام الأقوى ، ثم انضمت مفرزة ضرار الى خيالة المسلمين وازداد الضغط على الروم ودفعهم الى الزاوية حيث حرموا

من حرية العمل . وأخذ فرسان خالد يطؤون الروم بقوائم خيلهم وحوافرها . واختطلت صرخات الروم بصيحات النصر التي كان يطلقها المسلمون « الله أكبر» عندما كانت تنهار آخر مقاومة ، وتحولت المعركة الى مجزرة وكابوس من الرعب . وتم دحر الروم وقهرهم ، وهربوا بلا نظام . وقد تم اجتياح الذين كانت لديهم رغبة في القتال من قبل زملائهم الهاربين والمذعورين ، وفي جيش السلاسل خاصة حيث كان أفراد المجموعات المؤلفة من عشرة يسقطون على الأرض معاً .

ووصل الروم الذين كانوا يتراكضون كقطيع الأرانب المذعورة ، الى حافة الوادي . وكان المنظر مخيفاً في أسفل الوادي ، ولكن هذا كان آخر هجوم عنيف للمسلمين . وقد ضغط الذين جاؤوا من الخلف على هؤلاء الموجودين عند حافة الوادي ، وبدأت صفوف جيش الروم تسقط في الهاوية الواحد تلو الآخر . وكانت صرخات المتدحرجين تستمر حتى تصل أسفل الوادي ، بينما خفتت صرخات آخرين بعد اصطدام أجسادهم بالصخور البارزة ، وكانت جثثهم تستمر في الهبوط الى أسفل الوادي ككتل لحمية مضرجة بالدم بعد أن فقدت معالمها الآدمية .

وعندما توقف آخر روماني عن الحركة كان الليل قد أرخى سدوله . وبذلك انتهى هذا اليوم الرهيب ، وانتهت معه أعظم معركة خاضها خالد .

وفي صباح اليوم التالي ، بينما كان باقي الجيش يجمع غنائم الحرب ويدفن الشهداء ، انطلق خالد مع خيالة المسلمين على الطريق المؤدي الى دمشق للحاق بماهان . وكان القائد العام الروماني ، الذي كان كسير القلب بسبب ابادة جيشه والذي كان لا يشك لحظة في أن المسلمين سيقومون بالمطآردة، يتحرك بسرعة. وعند الظهر تمكن خالد من اللحاق بالروم قبل وصولهم الى دمشق ببضعة كيلومترات ، وقام على الفور بمهاجمة حرس المؤخرة . وهرع ماهان الى حرس المؤخرة ليشرف على الاشتباك ، فقتل ماهان، ملك أرمينيا والقائد العام للجيش الامبراطوري على يد فارسي مسلم . وبعد موته مباشرة ، انقسمت خيالة الروم الى مجموعات ، هاربة

أمام فرسان خالد واتجهت نحو الشمال والغرب .

خرج أهالي دمشق لتحية خالد وذكروه بالمعاهدة التي عقدها معهم عند استسلام المدينة قبل سنتين ، فأكد لهم خالد بأنهم ما زالوا في حمايتها .

وفي اليوم التالي عاد خالد الى جيش المسلمين في سهل اليرموك .

كانت معركة اليرموك أكبر كارثة حلت بالامبراطورية الرومانية الشرقية ، فقد أنهت الحكم الروماني في بلاد الشام . وفي الشهر التالي غادر هرقل انطاكية الى القسطنطينية من طريق البر . وعندما وصل الى الحدود بين بلاد الشام وبلاد الروم نظر باتجاه الشام وقال بصوت حزين : «تحية لك يا بلاد الشام ! ووداعا . فلن يعود اليك الروم أبدا الا في خشية . ما أجملها من بلاد أتركها للعدو» [1] .

كانت موقعة اليرموك ، من حيث هي عملية عسكرية ، تضم أشكالاً تكتيكية كثيرة مثل : الهجوم الجبهي ، والاختراق الجبهي والهجوم المعاكس وصده ، والهجوم من الجنب ، والهجوم من المؤخرة . والمناورة حول الأجنحة . وكانت خطة خالد ، في البقاء في وضعية الدفاع حتى يتم انهاك الروم ، قد نجحت نجاحاً يدعو الى الاعجاب . وخلال مرحلة الدفاع التي دامت أربعة أيام كانت كل ضربة هجومية من قبل خالد تعد مناورة تكتيكية محدودة لاستعادة توازن الدفاع . ولم يشن خالد هجومه المعاكس الا بعد ان تأكد من ان الروم قد أصيبوا بخسائر كبيرة ، وانهم غير قادرين على القتال الهجومي . وذلك في آخر يوم من أيام المعركة . وفي هذا اليوم تمكن من زعزعة موقع الروم من الجنب ، ولكن فقط بعد ان فصل الخيالة عن المشاة وجعل هؤلاء عاجزين عن القتال وحدهم . ثم طرد مشاة الروم الى الزاوية الكائنة بين وادي الرقاد ونهر اليرموك حيث كان ضرار بانتظارهم مع مفرزته عند معبر الوادي كيلا يستطيع أحد الهرب ، وشن هجومه الكاسح الأخير . وقد هشمت مطرقة المسلمين جيش الروم على سندان وادي الرقاد وجعلته هباء منثوراً .

---

(١) — الطبري الجزء ٣ — صفحة ١٠٠ ، والبلاذري — صفحة ١٤٢ .

من المعروف ان المسلمين قد فقدوا في هذه المعركة أربعة آلاف شهيد ، وكان عدد الذين لم يصابوا بجراح قليل جداً ، لكن أرقام خسائر الروم متباينة . فالواقدي يذكر عددا كبيرا مبالغاً فيه . ويذكر الطبري ان عدد قتلى الروم مائة وعشرون ألفاً [١] . ثم يعود فيذكر أن عددهم ، حسب رواية ابن اسحاق ، سبعون ألفا [٢] ، ويقدرهم البلاذري أيضاً بسبعين ألفا [٣] ويبدو ان هذا الرقم الأخير هو المعقول اذ ان هذا العدد يشكل ٤٥٪ من جيش الروم . وقد قتل نصف هذا العدد في سهل اليرموك ، وسقط النصف الآخر في الوادي السحيق . واستطاع زهاء ثمانين ألفا من الهرب ، وكان معظمهم يمتطون الخيل والابل ، بما فيهم أولئك الذين هربوا قبل ان يحكم المسلمون الطوق . ومن الممكن أيضاً ان يكون عدد كبير قد استطاع اجتياز وادي الرقاد من أماكن غير منحدرة ويسهل عبورها .

كانت معركة اليرموك نصرا مؤزرا للإسلام ، وكان سهل اليرموك ووادي الرقاد أكبر دليل على ذلك . ففي السهل وأسفل الوادي كانت عشرات آلاف من جثث الروم مبعثرة هنا وهناك . وكانت تشاهد أسوأ دلائل المذبحة عند زاوية السهل وفي الوادي السحيق نفسه الذي كان ممتلئاً بالأجساد البشرية . وكانت الاجساد المشوهة والممزقة ترى في كل مكان وهي بأوضاع غريبة ، فالأجساد الملطخة بالدم تقبع على الأرض المخضبة بالدماء وهي بدون أطراف ، وعيون القتلى تحدق في خلود الموت دون ان ترى شيئاً . وكان الآلاف من الروم ممددين على الأرض والسيوف المهشمة بأيديهم ، وقد صدقوا في قسمهم الذي قطعوه على أنفسهم في اليوم السابق للمعركة .

لقد تم خوض معركة بطولية كبيرة ، وتم احراز نصر عظيم .

---

(١) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٥٩٦ .

(٢) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ٧٥ .

(٣) — البلاذري — صفحة ١٤١ .

٣ — فتح القدس وانطاكية :

بعد معركة اليرموك انسحب ما تبقى من جيش الروم بسرعة الى شمال سورية والى الجزء الشمالي من ساحل البحر الأبيض المتوسط . وكان جنود الروم المهزومون ، الباقون على قيد الحياة بعد معركة اليرموك ، في حالة لا تسمح لهم بخوض المعارك ، وكذلك حال جنود المسلمين المنتصرين . وجه أبو عبيدة مفرزة لاحتلال دمشق ، وظل مع جيشه في منطقة الجابية مدة شهر كامل . واستراح الرجال خلال هذه المدة ، وتم جمع الغنائم واحصاؤها وتوزيعها . وأعطي للجرحى وقت للشفاء . وكان هنالك الكثير من الأمور الادارية الواجب معالجتها ، وهذا ما جعل القادة مشغولين .

في أوائل عام ٦٣٦م. (أواخر شعبان ، عام ١٥ هجري) عقد أبو عبيدة مجلساً عسكرياً لبحث خطط المستقبل . وكانت الآراء مختلفة حول الاهداف الواقعة بين القدس وقيسارية . وكانت هاتان المدينتان هامتين في نظر أبي عبيدة ، فهما قد قاومتا جميع محاولات المسلمين للاستيلاء عليهما . وعندما لم يستطع أبو عبيدة ان يتخذ قرارا حول ذلك ، كتب الى عمر طالبا تعليماته . فأمره الخليفة بفتح القدس . لذا سار أبو عبيدة نحو القدس بجيشه منطلقاً من الجابية ، وكان خالد مع حرسه المتحرك في مقدمة الجيش ، ووصل المسلمون الى القدس في أوائل تشرين الثاني تقريباً ، فانسحبت حامية الروم الى المدينة المحصنة .

استمر حصار القدس أربعة أشهر بلا انقطاع . ثم عرض بطريرك القدس ، وكان يدعى «سوفرونيوس» تسليم المدينة ودفع الجزية ، ولكن

بشرط واحد وهو ان يأتي الخليفة بنفسه ويوقع المعاهدة وتسلم المدينة اليه . وعندما علم المسلمون بشروط البطريرك ، كتب ابو عبيدة الى عمر يطلب منه القدوم إلى القدس تلبية لرغبة سكانها . وبناء على ذلك انطلق عمر مع نفر من أصحابه باتجاه القدس وكانت هذه أول رحلة من رحلاته الأربع الى بلاد الشام .

جاء عمر أولاً الى الجابية ، حيث قابل أبا عبيدة وخالدا ، ويزيد الذي قدم مع مفرزة من رجاله لاستقبال الخليفة . وكان عمرو بن العاص قائدا للجيش الذي يحاصر القدس . وكان خالد ويزيد يرتديان الملابس الحريرية «والبروكار» الدمشقي ويمتطيان بزهو فرسين مطهمين مما أثار سخط عمر . فترجل عمر عن فرسه ، والتقط من الأرض حفنة من الحصى ورماها على القائدين . ثم صرخ قائلاً : العار لكما ، لاستقبالكما لي بهذا الزي ! انكما لم تأكلا حتى الشبع الا في العامين الماضيين فقط ، والعار لما تأكلان من طعام أوصلكما الى هذه الحال . فوالله لو فعلتم ذلك بعد مائتي عام من الفلاح ، لظللت مصرا على عزلكما وتعيين آخرين مكانكما [1] .

وكان عمر يرتدي ملابس بسيطة كعادته في زمن النبي الكريم (ص) والتي استمر عليها وهو خليفة ، فلم يغير لباسه أو نمط حياته ومحاربته للبذخ والترف وحضه على التقشف .

فسارع خالد ويزيد الى فتح اثوابهما الحريرية حيث ظهر تحتهما الدروع والأسلحة التي كانا يرتديانها وقالا : ياأمير المؤمنين ! هذه مجرد أثواب . وما زلنا نحمل أسلحتنا [2] . فهدأ غضب عمر لهذا الجواب . ثم تقدم أبو عبيدة ، وهو يرتدي ملابس بسيطة كما هي عادته دائماً ، نحو عمر وتصافحا ثم تعانقا .

وتقدم عمر من الجابية الى القدس وبصحبته قادته ومفرزة الحراسة . وكان وصوله الى القدس لحظة عظيمة بالنسبة لجنود المسلمين الذين فرحوا

(١) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ١٠٣ .
(٢) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ١٠٣ .

كثيراً لرؤية خليفتهم .

وفي ظهيرة اليوم التالي ، كان عمر جالساً الى مجموعة كبيرة من الرجال يتحدثون بشتى الأمور. وحان وقت صلاة العصر. وكان بلال الحبشي موجودا أيضاً . فعندما تبنى المسلمون سنة الأذان في العام الثاني للهجرة ، عين النبي (ص) بلالاً مؤذناً ، وبعد ذلك ، كان يسمع صوت بلال خمس مرات كل يوم وهو يؤذن بصوت قوي رخيم في المدينة ، داعياً المؤمنين الى الصلاة . وبمرور السنين ، أصبح بلال مسلما باراً ، ومن أقوى المقربين الى رسول الله ولكن عندما توفي النبي (ص) صمت بلال ولم يعد الى الأذان .

وقد ارتأى بعض الصحابة ان فتح مدينة القدس أولى القبلتين وثاني الحرمين الشريفين قد يكون مناسبة هامة وكافية لحمل بلال على الخروج من صمته . وطلبوا من عمر أن يؤذن بلال هذه المرة فقط . فالتفت عمر الى بلال وقال : يا بلال ! ان أصحاب رسول الله يتوسلون اليك ان تؤذن لكي تذكرهم بأيام نبيهم ، عليه الصلاة والسلام[1] . وظل بلال بضع دقائق غارقا في تفكير عميق . ثم نظر الى وجوه أصحاب رسول الله والى آلاف جنود المسلمين الذين تجمعوا لأداء الصلاة فتهلل وجهه بالبشر وانتصب يؤذن مرة أخرى .

ودوى صوت بلال في الجموع الغفيرة . وعندما قال : « الله أكبر ، الله أكبر» ، تذكر المؤمنون نبيهم الكريم وبدأت الدموع تنهمر من عيونهم . وعندما وصل الى :

« وأشهد ان محمدا رسول الله » ، أجهشوا بالبكاء .

وفي اليوم التالي كتبت المعاهدة . وقد وقعها الخليفة عمر نيابة عن المسلمين وشهد عليها خالد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية . واستسلمت القدس الى الخليفة ، وعاد السلام الى المدينة المقدسة ، وقد حدث هذا في نيسان عام ٦٣٧م. (ربيع الأول عام ١٦

(١) — الواقدي — صفحة ١٦٥ .

هجري) . وبعد ان مكث عمر في القدس عشرة أيام ، قفل عائداً الى المدينة .

وبناء على تعليمات الخليفة عمر ، سار يزيد الى قيسارية ، وفرض الحصار مرة أخرى على هذه المدينة الساحلية . وعاد عمرو وشرحبيل لاعادة فتح فلسطين والأردن . وانتهت هذه المهمة في نهاية ذلك العام . ولم يتم الاستيلاء على قيسارية حتى عام ٦٤٠م. (عام ١٩ هجري) ، حيث استسلمت حاميتها أخيرا أمام معاوية . وانطلق أبو عبيدة وخالد مع جيش مؤلف من سبعة عشر ألفاً من القدس لفتح شمال سورية كله .

سار أبو عبيدة الى دمشق ، وكانت بأيدي المسلمين ، ثم الى حمص التي رحبت بعودته . وكانت قنسرين هدفه التالي ، فتقدم الجيش نحوها وكان خالد والحرس المتحرك في المقدمة . وبعد بضعة أيام وصل الحرس المتحرك الى حضير التي تبعد عن قنسرين ٥كم شرقا ، وهنا هوجم الحرس بقوة من قبل الروم [١] .

وكان القائد الروماني في قنسرين يدعى « ميناس » ، وكان قائدا مشهورا يحبه جنوده . وكان ميناس يعلم انه اذا بقي في قنسرين سيحاصر من قبل المسلمين وسيكره على الاستسلام ، لانـه لا يتوقع أية مساعـدة من الامبراطور. لذلك قرر ان يتحول الى الهجوم ويهاجم عناصر مقدمة المسلمين خارج المدينة ومن ثم يهزمها قبل أن تنضم اليها القوة الرئيسية . وطبقاً لهذه الخطة ، هاجم ميناس الحرس المتحرك في حضير بقوة لم يذكر المؤرخون تعدادها ، وكأنه لا يعلم ان خالدا كان مع عناصر المقدمة أو لم يصدق كل ما سمع عن خالد .

وخالد لا يقتضيه زج خيالته في القتال سوى بضع دقائق ، وسرعان ما نشب القتال الضاري في حضير. وقتل ميناس والمعركة لا تزال في مراحلها الأولى ، وعندما انتشر نبأ موته بين رجاله ، إندفع الرومان وهاجموا بعنف وشراسة انتقاما لقائدهم المحبوب. لكنهم كانوا في مواجهة أكفأ المقاتلين في

(١) ــ لا تزال حضير موجودة حتى الآن ، وهي قرية زراعية كبيرة .

ذلك العصر ، وكانت رغبتهم في الانتقام وبالاً عليهم ، اذ لم ينج أحد منهم [١] .

وحالما انتهت المعركة ، خرج أهالي حضير من مدينتهم لتحية خالد . وأخبروه بأنهم عرب لا يريدون قتاله . فقبل خالد استسلام مدينتهم ، وتقدم الى قنسرين .

عندما تلقى عمر التقارير عن معركة حضير ، لم يحاول ان يخفي اعجابه بعبقرية خالد العسكرية وقال : « خالد قائد بطبيعته . ورحم الله أبا بكر لقد كان حكمه على الرجال خيرا من حكمي [٢] » .

وفي قنسرين التجأ القسم ، الذي لم يذهب مع ميناس ، من الحامية الرومانية داخل السور واغلقوا أبواب الحصن . وحالما وصل خالد ، أرسل كتابا الى الحامية قال فيه : « لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الينا » [٣] . وبدون أدنى تأخير استسلمت قنسرين الى خالد . وقد حدثت معركة الحضير واستسلام قنسرين في شهر حزيران عام ٦٣٧م. (جمادي الأولى ، عام ١٦ هجري) .

انضم أبو عبيدة الى خالد في قنسرين ، وسار الجيش الى حلب ، وكان يدافع عن الحصن حامية قوية بامرة قائد روماني يدعى « يواكيم » خرج من الحصن لملاقاة المسلمين مثلما فعل قائد قنسرين ، واصطدم بالحرس المتحرك على بعد ١٠ كم جنوب المدينة (عند خان العسل حاليا) . وحدث اشتباك عنيف هزم فيه الروم ، وانسحب على أثره « يواكيم » بسرعة الى داخل أسوار المدينة .

كانت تحيط بحلب أسوار كبيرة وفي مشارفها قلعة حصينة يحيط بها خندق مائي . وتقدم المسلمون وفرضوا حصارا على القلعة . وكان « يواكيم » قائدا جريئاً شن عدة هجمات لكسر الحصار ، لكنه تكبد خسائر جسيمة في

---

(١) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ٩٨ .

(٢) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ٩٨ .

(٣) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ٩٨ .

كل مرة . وبعد عدة أيام من اشتباكات لم تجدِ الروم نفعاً ، قرروا البقاء داخل القلعة بانتظار وصول تعزيزات من هرقل . لكن هرقل لم يستطع ارسال شيء ، وبعد أربعة أشهر ، أي قريباً من تشرين أول عام ٦٣٧م. ، استسلم الروم بشروط ، اذ سمح لجنود الحامية بمغادرة المدينة بأمان ، لكن يواكيم لم يذهب. لقد أصبح مسلماً واختار ان يخدم تحت راية الثورة الاسلامية . وفي الحقيقة ، أثبت يواكيم في الأسابيع القليلة التالية انه قائد قدير ومخلص قاتل بامرة عدة قادة من المسلمين قتال الشجعان .

بعد الاستيلاء على خلب ، أرسل أبو عبيدة قوة بامرة «مالك الأشتر» للاستيلاء على اعزاز الواقعة على الطريق المؤدي الى حدود بلاد الروم . وكان المسلمون يقصدون بذلك المنطقة الكائنة حاليا جنوب تركيا وشرق جبال طوروس . واستطاع مالك ، بمساعدة يواكيم ، ان يستولي على اعزاز ثم وقع معاهدة مع أهلها وعاد الى حلب .

وكان للاستيلاء على اعزاز وتأمينها شأن كبير لأنه يحول دون وجود قوات كبيرة من الروم شمال حلب ، تستطيع ضرب مجنبة ومؤخرة المسلمين عند خوض المعركة الكبيرة التالية . وعندما انضم مالك الى الجيش ثانية ، سار أبو عبيدة غرباً للاستيلاء على انطاكية .(الشكل رقم ٢٨ خريطة شمالي سورية التي اندفعت فيها قوات المسلمين بعد معركة اليرموك) .

سار الجيش عبر حارم واقترب من انطاكية من جهة الشرق . وعلى مسافة اثني عشر ميلا تقريباً من مكان يدعى «محرية» ، حيث يقوم جسر حديدي على نهر العاصي ، تقابل المسلمون مع جيش روماني كبير كان مكلفاً بمهمة الدفاع عن انطاكية . ونشبت معركة كبيرة لم تذكر تفاصيلها ، وتم فيها دحر الروم . وقد قام خالد بدور بارز مع حرسه المتحرك . وباستثناء خسائر الروم في أجنادين واليرموك ، كانت خسائرهم في هذه المعركة أفدح خسائر حملة بلاد الشام ، وفر باقي جيش الروم الى المدينة بدون انتظام . وتقدم المسلمون وفرضوا حصارا على انطاكية ، التي أصبحت أكبر مدينة في بلاد الشام ، وعاصمة المنطقة الآسيوية من الامبراطورية الرومانية الشرقية ،

فسقطت في أيدي المسلمين . ودخل أبو عبيدة المدينة في الثلاثين من تشرين الأول عام ٦٣٧ . . (الخامس من شوال عام ١٦ هجري) وسمح لجنود الروم المنهزمين بمغادرة المدينة بأمان .

وبعد استسلام انطاكية ، تقدمت قوات المسلمين جنوباً على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط واستولت على اللاذقية ، وجبلة ، وطرطوس ، وبذلك تم تطهير معظم شمال غرب سورية من العدو. وعاد أبو عبيدة بعد ذلك الى حلب ، وخلال هذه العودة أخضعت قواته ما تبقى من شمالي سورية . وذهب خالد مع حرسه المتحرك للاغارة شرقاً حتى نهر الفرات بجوار منبج ، ولم يواجه الا مقاومة ضعيفة . وفي أوائل كانون الأول عام ٦٣٨م. ، انضم الى أبي عبيدة مرة أخرى في حلب .

وأصبحت جميع بلاد الشام الآن بأيدي المسلمين ، وترك أبو عبيدة خالدا قائدا وحاكما لقنسرين ، وعاد مع باقي جيشه الى حمص ، حيث قام بأعباء منصبه كحاكم لمنطقة حمص ، التي تعد قنسرين جزءاً منها . وكانت مهمة خالد في قنسرين مراقبة تحركات الروم في الشمال .

وفي نهاية عام ١٦ هجري (حوالي عام ٦٣٧م) كانت جميع أنحاء بلاد الشام وفلسطين بيد المسلمين ، باستثناء قيسارية التي ما زالت بيد الروم . وتولى مختلف قادة المسلمين ادارة المناطق التي فتحوها : فعمرو بن العاص كان أميراً على فلسطين ، وشرحبيل على الأردن ، ويزيد على دمشق (ثم اشتبك بالروم في قيسارية) . وأبو عبيدة على حمص . واستمرت حالة السلام هذه بضعة أشهر أي حتى منتصف صيف عام ٦٣٨م. ، عندما تجمعت السحب السوداء مرة أخرى فوق شمال سورية . فقد اختار هذه المرة ، العرب النصارى القاطنون في الجزيرة طريق الحرب .

لم يكن باستطاعة هرقل ان يحاول العودة الى بلاد الشام ، لذلك ازداد قلقه على باقي امبراطوريته ، التي أصبحت معرضة لخطر هجوم المسلمين بعد تدمير جيشه في اليرموك وانطاكية . ولم يبق لديه سوى قوات قليلة للدفاع عن ممتلكاته في وجه جيش المسلمين الذي كان يسير من نصر الى آخر .

ولكي يكسب الوقت من أجل اعداد دفاعه كان لا بد من اشغال المسلمين في سورية فلجأ الى اثارة عرب الجزيرة لكي يقوموا بهجوم ضدهم . ونظرا لارتباطهم برباط الدين ، فقد اذعنوا لتحريضه . وبعد ان احتشدوا بعشرات الآلاف ، بدأوا بالتحضير لعبور الفرات وغزو شمال سورية من جهة الشرق .

وجاءت العيون بالأخبار الى أبي عبيدة عن الاستعدادات الجارية في الجزيرة . وعندما بدأ العرب النصارى تحركهم ، جمع أبو عبيدة مجلس حرب لبحث الموقف ، وكان رأي خالد ان يخرج المسلمون من المدن جيشاً واحداً ويقاتلوا العرب النصارى في الأرض المكشوفة . لكن القادة الآخرين حبذوا الدفاع عن حمص . فقرر أبو عبيدة الأخذ برأي الغالبية فأحضر الحزس المتحرك من قنسرين والمفارز الأخرى من الأماكن التي احتلوها في شمالي سورية ، وحشد جيشه في حمص وأخبر عمر بالموقف .

كان عمر لا يشك في قدرة أبي عبيدة وخالد على معالجة الموقف ومقارعة القوات المعادية غير النظامية ، بما لديهما من قوى ومع ذلك قرر ان يعززهما تعزيزا غير عادي اذ أرسل تعليمات الى سعد بن أبي وقاص ، قائد المسلمين العام في العراق ، بتوجيه ثلاث مجموعات من جيشه الى الجزيرة :

— المجموعة الأولى بامرة «سهيل بن عدي» وهدفها الرقة .

— المجموعة الثانية بامرة «عبد الله بن عتبان» وهدفها نصيبين .

— المجموعة الثالثة بأمرة «عياض بن غنم» ومهمتها العمل بين المجموعتين الأولى والثانية . (الشكل رقم ٢٩ : خريطة الجزيرة التي اندفعت فيها قوات المسلمين بعد معركة اليرموك) .

وفي آن واحد أمر عمر بارسال أربعة آلاف رجل بامرة «القعقاع بن عمرو» من العراق الى حمص ، على امتداد طريق الفرات ، لتعزيز أبي عبيدة .

وعندما وصل العرب النصارى الى حمص وجدوا المسلمين محصنين داخلها تحصيناً جيداً ، ولما كانوا لا يعلمون ماذا سيفعلون ، فرضوا حصارا

على المدينة ، ولم يكد يبدأ الحصار حتى وصلتهم الأنباء من الجزيرة بأن ثلاث مجموعات من قوات المسلمين تتقدم من العراق نحو الجزيرة. وأيقن العرب النصارى الآن بصعوبة موقفهم . فبينما هم يقاتلون المسلمين في سورية «ويلتقطون الكستناء لهرقل من النار» ، كانت أراضيهم على وشك السقوط بأيدي المسلمين القادمين من اتجاه آخر. فرفعوا الحصار وعادوا مسرعين الى الجزيرة ، وهذا هو الأمر المنطقي الذي كان عليهم ان يفعلوه . ووصل القعقاع ابن عمرو الى حمص بعد مغادرة العرب النصارى لها بثلاثة أيام .

وحالما سمعت مجموعات المسلمين الثلاث بعودة العرب النصارى ، توقفت في المكان الذي وصلت اليه بانتظار تعليمات أخرى من سعد . فمهمتها قد انتهت . وبهذه المناورة البارعة ، استطاع عمر ان يصد جيش العرب النصارى القادم من الجزيرة دون أن يطلق سهماً واحدا ، وهذا أروع تطبيق لاستراتيجية الهجوم غير المباشر .

ان المحاولة الفاشلة التي قام بها العرب النصارى من الجزيرة لقتال المسلمين لم تسبب أي ضرر للمسلمين في سورية . لكنها أثارت غضب المسلمين وجعلتهم حذرين ، فهم لا يستطيعون اعتبار سورية في حوزتهم نهائيا الا بعد تطهير الأراضي المجاورة من العناصر المعادية . وكانت هذه العناصر تعيش في الجزيرة وفي المنطقة الواقعة شرق جبال طوروس ، ولا بد من اخضاعها أو تدميرها لخلق منطقة أمان وراء حدود سورية .

قرر عمر ان ينتهي من الجزيرة أولا . وأمر سعدا ان يتخذ الاجراءات للاستيلاء عليها ، وعين عياض بن غنم قائداً لمسرح العمليات . وأمر سعد عياضا بالاستمرار في فتح الجزيرة بالقوات الموضوعة بامرته ، واستأنف المسلمون القادمون من العراق تقدمهم في أواخر صيف عام ٦٤٨م. . واستخدم عياض المجموعات الثلاث ، وفي غضون بضعة أسابيع اكتسح المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات حتى نصيبين والرها (تنسمى الآن أورفة) . وتمت العملية بدون اراقة دماء .

بعد ان تم الاستيلاء على هذا الجزء من الجزيرة ، كتب أبو عبيدة الى

عمر طالباً منه ان يضع عياض بقيادته ، لكي يستخدمه في شن اغارات عبر الحدود الشمالية . ووافق عمر على هذا الطلب ، وتحرك عياض الى حمص مع جزء من قوة المسلمين التي أرسلت من العراق الى الجزيرة .

وفي خريف عام ٦٣٨م. ، أرسل أبو عبيدة عدة مفارز ، منها اثنتان بقيادة خالد وعياض للاغارة على الأراضي الرومانية شمال سورية وغرباً حتى طرطوس . وكان هدف خالد هو « مرعش » . وعندما وصل اليها فرض عليها الحصار ، وفي داخلها حامية رومانية . وكان وجود خالد كافياً لالقاء الرعب في قلوب الروم ، وبعد بضعة أيام استسلمت مرعش شريطة أن يخلى سبيل الحامية والسكان . واستولى المسلمون على غنائم كثيرة . ثم عاد خالد الى قنسرين محملاً بالغنائم الوافرة التي كانت كافية لاغناء المقاتلين مدى الحياة .

ولولا صفة التبذير التي لازمت خالدا منذ أيام شبابه ، لكان من أغنى رجال عصره . وجرت العادة في تلك الأيام ان يستولي المحارب على جميع ممتلكات خصمه الذي ينهزم أمامه في المبارزة ، بالاضافة الى حصته من الغنائم التي توزع على جميع المقاتلين . وقد اشترك خالد في عدد لا يحصى من المبارزات وفاز فيها جميعاً ، وخصومه من القادة الذين هم أغنى من سائر المقاتلين ، ولا سيما القادة الفرس والروم الذين كانوا يتزينون بالجواهر والذهب . وبذلك وصلت الى أيدي خالد ثروة لم تصل الى أيدي آخرين ، لكن هذه الثروة أنزلقت بين أصابعه كذرات الرمل . فكان يعيش بسعة ويعطي بسخاء . وكانت الثروة التي يحصل عليها في احدى المعارك تدوم حتى المعركة التالية فقط . وكان لدى خالد حاشية كبيرة من الرقيق . وتزوج عدة مرات وأنجب عشرات الأطفال ونفقات منزله تستهلك قدرا كبيرا من المال ، كما كان هنالك الجنود الذين يبلون بلاء حسنا في المعارك اذ كان خالد يبحث عنهم ويعطيهم الهدايا من أمواله . وكان الخليفة يعرف هذا التصرف وهو الصارم المقتصد ، فرآه اسرافاً وتبذيراً لا سخاء وكرماً .

عند عودة خالد من « مرعش » أعطى جنوده بسخاء كعادته . وبرز آنذاك عدد من الشعراء في جيش المسلمين ، وأخذوا يتغنون بأمجادهم

ويستلمون الهدايا . وكان من قصّاد خالد الأشعث بن قيس ، وهو زعيم قبيلة كندة . جاء الى خالد في قنسرين زائراً ومستميحاً فأجازه خالد بعشرة آلاف درهم . وفي غضون اسبوعين كانت أنباء هذه الحادثة في أذن الخليفة فأثارت غضبه . وعزم على ان يضع حداً لتصرفات خالد الذي تجاوز الحدود !

٤ — نهاية البطل :

بعد استيلاء خالد على مرعش بوقت قصير ، في خريف عام ٦٣٨م. (عام ١٧ هجري ،) ، علم عمر بقصيدة الاشعث وبالجائزة ، فكتب الى أبي عبيدة ان يستدعي خالدا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين اجازة الاشعث ؟ أمن ماله ؟ أم من اصابة أصابها ؟ فان زعم أنها من اصابة أصابها فقد أقر بخيانته ، وان زعم انها من ماله فقد أسرف ، « واعزله على كل حال ، واضمم اليك عمله » . وقد حمل بلال الحبشي هذا الكتاب الى أبي عبيدة في حمص .

فكتب أبو عبيدة الى خالد فقدم عليه من قنسرين وسأله عما اذا كان يعترف بذنبه . فدهش خالد وقال له : « انتظرني استشير اختي[1] في أمري » . ففعل أبو عبيدة واستشار خالد اخته . فقالت له : « والله لا يحبك عمر أبدا وما يريد الا ان تكذب نفسك ثم ينزعك » . فقال لها : « صدقت » .

وعاد خالد الى أبي عبيدة واخبره بأنه لن يعترف بذنبه . فسار القائدان بصمت الى مكان يحتشد فيه عدد كبير من المسلمين . وساد الصمت بضع دقائق . اذ لم يكن المسلمون المحتشدون يعرفون سبب الاجتماع ، وكذلك خالد . فهو لم يستطع أن يربط بين تهمة عمر وبين هذا الجمع من الناس ، لأنه لم يدر بخلده قط بأنه سيواجه محاكمة علنية . ونظر بلال الى أبي عبيدة لكنه أدار وجهه . فأدرك بلال ان أبا عبيدة لا يرغب في استجواب خالد .

(١) — فاطمة بنت الوليد .

عندئذ وقف بلال وقال بصوت مسموع من قبل جميع المحتشدين : «يا خالد أمن مالك أجزت بعشرة آلاف؟ أم من اصابة؟» فلم يجبه . وأبو عبيدة ساكت . ثم قام بلال اليه فقال : «ان أمير المؤمنين قد أمر فيك بكذا وكذا» . ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال : «ما تقول أمن مالك أم من اصابة؟» فقال خالد : لا بل من مالي . فأطلقه وأعاد قلنسوته . ثم ضمه بيده وقال : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا» [1] .

وساد الصمت جميع الحاضرين بضع دقائق. وكان أبو عبيدة وبلال ينظران الى الأرض . ثم وقف خالد منفعلا لا يدري ما تكون نتيجة المحاكمة وهل هو معزول أم لا يزال قائداً للوائه . كما انه لم يرغب في ازعاج أبي عبيدة بطرح أسئلة عليه . لذا ترك الاجتماع وامتطى صهوة حصانه وعاد الى قنسرين .

عاد بلال الى المدينة وقدم تقريراً للخليفة عما حدث مع خالد . وكان عمر ينتظر الآن كتاباً من أبي عبيدة لكي يخبره بعزل خالد عن قيادته في قنسرين ، ولكن عندما مر أسبوع آخر ولم تصل مثل هذه الرسالة ، أدرك الخليفة أن أبا عبيدة غير قادر على ابلاغ خالد بعزله ، وكتب الى خالد طالبا قدومه الى المدينة .

وعندما تلقى خالد كتاب عمر ، جاء الى حمص وسأل أبا عبيدة عن وضعه . فأخبره القائد العام بأنه معزول من وظيفته بأمر الخليفة . فقال له خالد : «رحمك الله ما أردت الى ما صنعت . كتمتني أمرا كنت أحب ان أعلمه قبل اليوم» .

وكان الأسى واضحا في عيني أبي عبيدة ، وقال له بمحبة وحنوّ : أعلم والله أن ذلك سوف يسبب لك الهم . وأنا لا أرغب في ايذاء مشاعرك .

وعاد خالد الى قنّسرين ، وجمع المحاربين الذين خاض معهم معارك النصر والمجد وأخبرهم بأنه عزل من قيادته ، وأنه سيذهب الى المدينة بناء على تعليمات الخليفة . ثم ودّع الحرس المتحرك الذين لم يعرفوا معنى الهزيمة

---

(١) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ١٦٧ .

بقيادة خالد .

ومن قنّسرين عاد ثانية الى حمص ، وبعد وداعه لأصدقائه هناك ذهب الى المدينة ، ثم مضى ليدخل المدينة لا دخول البطل العائد الى وطنه بعد انتصاراته ، بل دخول القائد المعزول .

وصل خالد الى المدينة وتوجه على الفور الى دار الخليفة . لكنه تقابل مع عمر في الطريق . وعندما تقابل الرجلان وجها لوجه ، أكبر حاكم ، وأكبر قائد في عصرهما — لم يظهر الارتباك على أي منهما . وكان عمر أول من تكلم وقال أبياتا من الشعر في مدح ما صنع خالد ولكنه أنهى شعره قائلا بأن الله هو الصانع . فقال خالد تعقيبا على ذلك : «لقد شكوتك الى المسلمين ، وبالله انك في أمري غير مجمل يا عمر» . فقال عمر : «فمن أين لك كل هذه الثروة ؟» فقال خالد : «انها حصتي من الغنائم . وكل ما يزيد عن ستين ألف درهم فهو لك» [1] .

فدقق عمر أموال خالد المؤلفة من العدة والرقيق فحسب ، فوجد أنها تساوي ثمانين ألف درهم . فصادر العشرين ألفا الزائدة .

بعد ذلك قال عمر لخالد : «يا خالد ، والله انك علي لكريم ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء» .

وبعد بضعة أيام ، ترك خالد المدينة متوجها الى قنّسرين ، ولم يعد الى الجزيرة العربية أبدا . ولم يكد يمضي في طريقه من المدينة ، حتى ذهب أهل المدينة الى عمر وطلبوا منه ان يعيد مال خالد اليه . فقال عمر : «انما انا تاجر للمسلمين ، والله لا أرده عليه أبداً» [2] .

وسرعان ما أدرك عمر حزن المسلمين للمعاملة التي عومل بها خالد . وكان يقال صراحة بأن ما لاقاه خالد كان بسبب غيرة عمر منه . ووجد عمر ان من الضروري ان يكتب لجميع أمرائه وولاته . فكتب اليهم : «اني لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن

(١) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ١٦٧ .

(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦٢٥ .

يوكلوا اليه ، ويفتنوا به ، فأحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع ، والا يكونوا بعرض فتنة » [1] .

كان هذا الكتاب أكبر ثناء يمكن ان يحلم به قائد : فهو يؤكد بان رجال خالد يعتبرونه في مصاف الآلهة ! وهو الذي عاد الى قنّسرين بحالة نفسية سيئة . فالرجل الذي قضى على المرتدين ، والذي فتح العراق والشام ، عاد معزولا . وعندما حيته زوجته على الباب ، قال : أمرني عمر على الشام حتى صارت قمحا وعسلا ، ثم عزلني [2] .

لقد بقي القليل ليروى ، لقد عاش خالد بعد عزله أقل من أربع سنوات ، ولم تكن هذه السنين سارة . كما ان حالته المادية لم تكن حسنة وفي عام ١٥ هجري ، بدأ عمر بتخصيص رواتب للمسلمين جميعاً ، حسب مراكزهم في الاسلام وما قدموه من خدمات في الحرب . فقد كان جميع الذين اعتنقوا الاسلام بعد « صلح الحديبية » وقبل الردة يتقاضون رواتب سنوية مقدارها ثلاثة آلاف درهم [3] ، وكانت هذه الفئة تضم خالدا . وكان المبلغ كافيا للرجل وأسرته ان يعيشوا بتواضع . لكن هذا المبلغ لم يكن كافيا لخالد الذي ولد في بيت غني واعتاد ان يصرف آلاف الدراهم . فأخذ أسرته الى حمص، واشترى منزلا واستقر فيه بقية حياته.

كان عزله ضربة قاصمة له . لكن المصيبة الكبيرة التي حلت به في هذه المدة هي تعقّب الموت أولاده واحدا وراء الآخر ، اذ دهمهم الطاعون فأمات منهم نحو أربعين في سنة الطاعون . وقد بدأ وباء الطاعون في عمواس ، احدى مدن فلسطين ، في شهر محرم أو صفر عام ١٨ هجري (كانون الثاني أو شباط عام ٦٣٩ م) ، ثم انتشر بسرعة عبر سورية وفلسطين واجتاح السكان في طريقه . وقد حزن الخليفة كثيراً لمعاناة المسلمين في بلاد الشام ، وقد اهتم بأبي عبيدة خاصة ، وفكر في انقاذ « أمين هذه الأمة »

---

(١) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ١٦٧ .

(٢) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ٩٩ .

(٣) — الطبري — الجزء ٣ ، صفحة ١٠٩ .

باستدعائه لزيارة المدينة . فاستنتج أبو عبيدة من كتاب عمر وعرف انه سيؤخره في المدينة الى ان تنتهي الجائحة. لكن الرجل الذي لم يتخل عن جنوده في أعنف المعارك لن يتخلى عنهم الآن بسبب الطاعون . فرفض ان يزور المدينة ، ودفع حياته ثمنا لاخلاصه لرجاله .

مات الآلاف من المسلمين في طاعون عمواس ، وأبو عبيدة منهم وشرحبيل ، ويزيد وضرار (أعز أصدقاء خالد) . وهكذا قضت الجائحة على معظم أصدقائه وأحبائه . ونحن نعرف ثلاثة فقط من أولاد خالد الذين عاشوا بعده وهم : سليمان ، الذي سقط في المعركة في الجزء الأخير من حملة مصر ، ومهاجر ، الذي قاتل واستشهد في صفّين تحت قيادة علي ، وعبد الرحمن الذي عاش حتى سن النضوج والذي كان موهوباً بصفات والده العسكرية . لكنه مات أيضاً مسموماً في عام ٤٧ هجري ، في أثناء خلافة معاوية . وقد ذكر ان اغتياله تم بتدبير من معاوية ، الذي كان غيوراً وخائفاً من المكانة الكبيرة التي يحتلها ابن سيف الله [1] ، وقد قتل الرجل الذي دس السم لعبد الرحمن على يد ابن عم عبد الرحمن فيما بعد . ونحن لا نعلم عدد بنات خالد ، لكن شجرة الذكور تنتهي بحفيده خالد بن عبد الرحمن بن خالد .

بعد موت ثلاثة كبار من أمراء ألوية المسلمين ، تولّى عمرو بن العاص قيادة الجيش ونشره على الفور في ربوع الأقطار الشامية . وبذلك استطاع انقاذ معظم الجيش ، ولكن بعد ان سقط خمسة وعشرون ألفاً صرعى الطاعون . وبعد انتهاء الجائحة عين عمر عياض بن غنم حاكماً عسكرياً على سورية الشمالية ، وعين معاوية على دمشق والأردن ، بينما بقي عمرو قائدا في فلسطين .

عندما كان أبو بكر يضع خطط حملة الردة ، بحث مع عمرو بن العاص مسألة تعيين عدد من أمراء الألوية . وقال له الخليفة : «يا عمرو ، انك رجل ثاقب الفكر ، فما هو رأيك بخالد؟» فأجاب عمرو : «انه سيد

---

(١) — الطبري — الجزء ٤ ، صفحة ١٧١ .

الحرب ، وصديق الموت ، وله جرأة الأسد وصبر القط » [1] .

لكن صبر القط لم يكن كافياً لرجل في مثل مزاج خالد في هذه المرحلة من حياته . فالدافع الذي يجعل القط صابراً هو أمله في الحصول على فريسة لطعامه . أما اذا لم يكن له أمل في الحصول على هذه الفريسة فان القط لا يمكن ان يحتمل الصبر ، وخالد الآن بلا آمال ، ولا شيء يحتمل الصبر من أجله ، وهو يندب فقدان أصحابه وأبنائه وحيدا .

استمرت فتوحات الاسلام . فبعد الطاعون ، في عام ١٨ هجري ، توجه عياض مرة أخرى الى الجزيرة لاخضاعها . وفي نهاية العام التالي أتم اخضاعها بعد معارك ، ووصل شمالا حتى « سمسط » . و« آمد » (تسمى الآن ديار بكر) ، و« يتلس » . وأغار بنجاح أيضا حتى « ملطية » . وكانت أخبار الجبهة الشرقية سارة ، اذ في وقت قريب من عزل خالد ، كان سعد ابن أبي وقّاص قد فتح معظم مايسمى الآن بالعراق وأجزاء من جنوب غرب بلاد فارس وهي : الاهواز ، وطمطر ، وسوس . وقد تم على هذه الجبهة نجاحات أخرى . لكن المعارك الكبرى الأخيرة ضد قوات الفرس التي ما زالت قوية ، لم تنشب الا بعد موت خالد . وفي عام ٦٤٠م (عام ١٩ هجري) استسلمت قيسارية أخيرا للمسلمين ، وفي عام ٢٠ هجري ، فتح عمرو بن العاص مصر واستولى على الجزء الشمالي الشرقي منها .

وفرح خالد ، مثل جميع المسلمين بهذه الفتوحات الاسلامية ، لكن كل نصر كان يذكره بأنه لم يشترك في المعارك . فالأخبار التي وصلته في حمص كانت بالنسبة اليه حلوة ومرة . فهو كالعاشق الولهان الذي يرى محبوبته أمامه لكنه لا يستطيع الذهاب نحوها . وهكذا عاش خالد ما تبقى من عمره القصير، وهو الرجل الذي وصفه جيبون، في كتابه: «انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها»، بأنه اعنف مقاتلي الجزيرة العربية وأنجحهم .

وحسن الحظ بدأت العلاقات بين خالد وعمر تتحسن . فعمر لم يعد

(١) — اليعقوبي — تاريخ اليعقوبي — الجزء ٢ ، صفحة ١٢٩ .

ذلك الرجل القاسي الحاد الطبع . فأعباء الخلافة التي كانت على عاتقه قد خففت من حدة طبعه وأصبح يتحلى بالصبر . وكان ما يزال صلبا ، لكنه كان لا يحمّل الآخرين ما لا يستطيع حمله هو نفسه . وكان صارما مع الأقوياء رحيما مع الضعفاء ، وكريما مع الأرامل واليتامى . وكان يجلس مع الفقراء والمساكين ويقضي الليل نائما على عتبة المسجد . وكان يتجول ليلا في شوارع المدينة حاملا بيده سوطا ، وكان لهذا السوط رهبة أكثر من سيف أي رجل آخر . وكان يعيش على خبز الشعير والتمر ، وزيت الزيتون ، ولم يخصص «مرتباتٍ» اضافية لاسرته . وكانت ملابسه البسيطة لا تخلو أبدا من الرقع . وكان عادلا حتى ان ابنه عبدالله قد ضُرب بالسوط لشربه الخمر .

وقد استطاع خالد ، بعد أن أتيح له وقت أكثر للتفكير والتأمل ان يرى الفضائل العظيمة والصفات الحميدة التي يتحلى بها خليفة رسول الله فسامحه . وفي أحد الأيام قال خالد لأحد زائريه : «الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت . وكان أحب الي من عمر . والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض اليّ من أبي بكر ثم الزمني حبه» [(١)] . وكان هذا التحول في العلاقة بين خالد وعمر عظيما حتى ان خالدا جعل عمر وريثه بعد موته . لقد التأمت الجروح بمرور الزمن .

وفي عام ٦٤١م. ، مات عياض . وفي هذا العام أيضا ، توفي بلال مؤذن رسول الله (ص) ، كما توفي هرقل امبراطور روما . وفي العام التالي جاء دور خالد ليفارق الحياة .

ففي وقت ما من عام ٦٤٢م (عام ٢١ هجري) ، مرض خالد وكان يبلغ الثامنة والخمسين . ونحن لا نعرف طبيعة مرضه ، لكنه استمر طويلاً وساءت صحته كثيرا على أثر هذا المرض ، وظل طريح الفراش .

وقبل موته ببضعة أيام ، جاءه صديق قديم لزيارته وجلس بجانبه . فرفع خالد الغطاء عن جسده وقال لهذا الرجل : «لقد شهدت مائة زحف

---

(١) — ابن قتيبة — صفحة ٢٦٧ .

وما في بدني موضع شبر الا وفيه ضربة سيف أو رمية سهم أو طعنة رمح ، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي . فلا نامت أعين الجبناء» [١] .

فقال له الصديق : «يا خالد ، يجب ان تفهم ان رسول الله ، ﷺ ، عندما سمّاك سيف الله ، فانه أصبح مقدّراً لك أن لا تموت في معركة. فلو أنك قتلت على يد كافر فمعنى ذلك ان سيف الله قد كسر من قبل عدو الله ، وهذا لا يمكن ان يحدث» .

ظل خالد صامتاً ، وبعد دقائق غادر الصديق . لقد اقتنع بما قاله الرجل ، لكن قلبه كان لا يزال يتمنى لو انه مات في ميدان القتال . فلماذا لا يموت شهيدا في سبيل الله .

وفي يوم وفاته، لم يجدوافي بيته غير فرسه وسلاحه وغلامه- ويدعى حمام . وكان في آخر يوم من أيام حياته ، مستلقيا في فراشه وبجانبه حمام الوفيّ .

وهكذا انتهت حياة خالد بن الوليد ، سيف الله . (رحمه الله وأدخله فسيح جناته !)

ووصل نبأ وفاته الى المدينة كالعاصفة . وخرجت النساء الى الشوارع ، وعلى رأسهن نساء بني مخزوم يبكين ، وسمع عمر بالنبأ الحزين كما سمع أصوات البكاء والنحيب . فغضب لذلك . وكان عمر عندما تولى الخلافة قد منع النحيب على من يموت من المسلمين . ورأيه هذا منطقي إذ لماذا نبكي على هؤلاء الذين يذهبون الى جنات النعيم التي وعد الله بها المؤمنين ، وقد شدد عمر على تنفيذ الأمر ، مستخدما سوطه في بعض الأحيان [٢] .

سمع عمر صوت البكاء والعويل . فحمل السوط وهمّ بمغادرة منزله . فهو لا يسمح بعصيان أوامره ، ويجب ان يوقف البكاء . واتجه نحو الباب ، لكنه توقف عنده . ومكث بضع دقائق وهو صامت يفكر ، ان هذا الموت ، على أية حال ، ليس أمرا عادياً ، انه موت خالد بن الوليد . ثم

---

(١) — ابن قتيبة — صفحة ٢٦٧ .

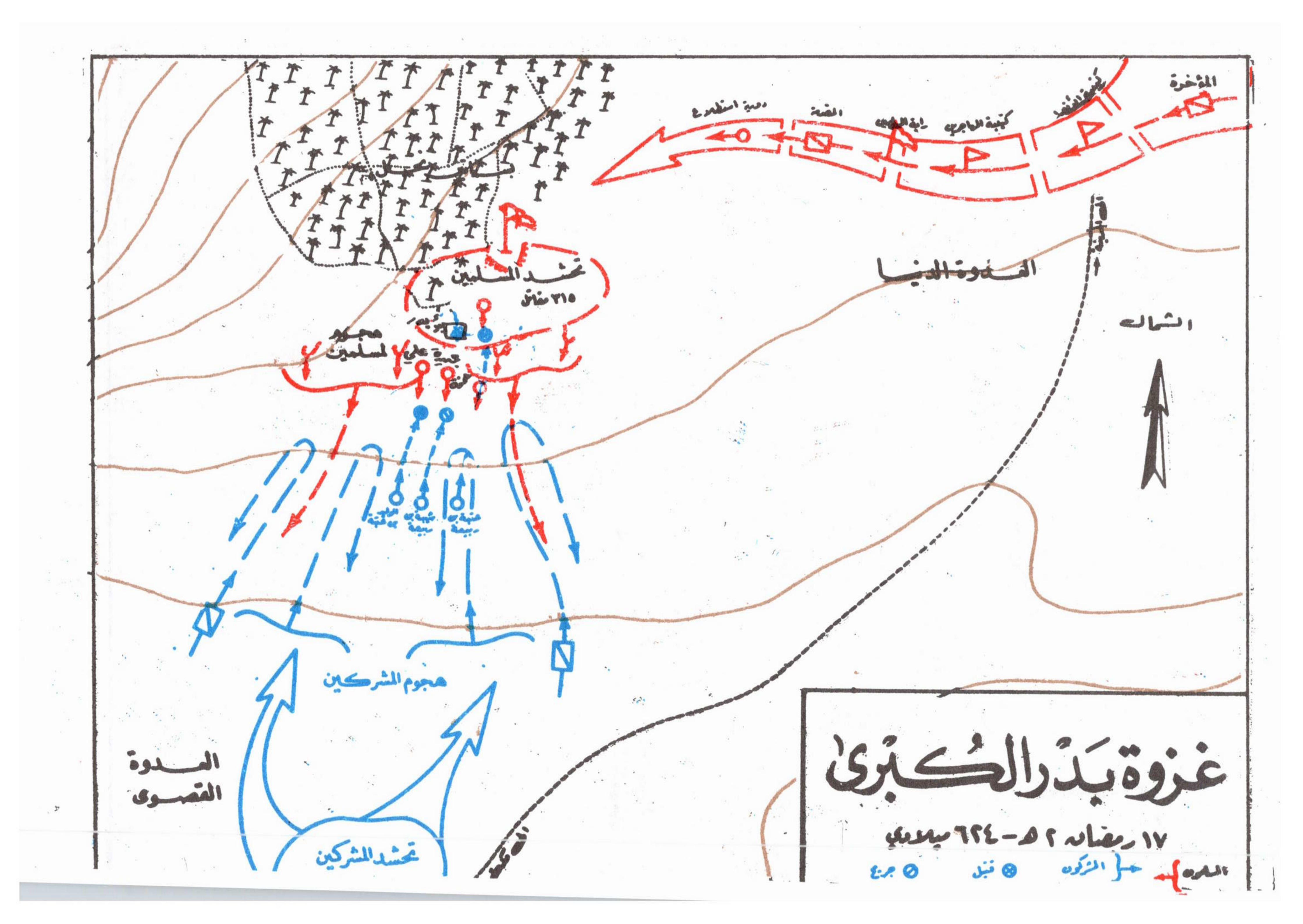
(٢) — الطبري — الجزء ٢ ، صفحة ٦١٤ .

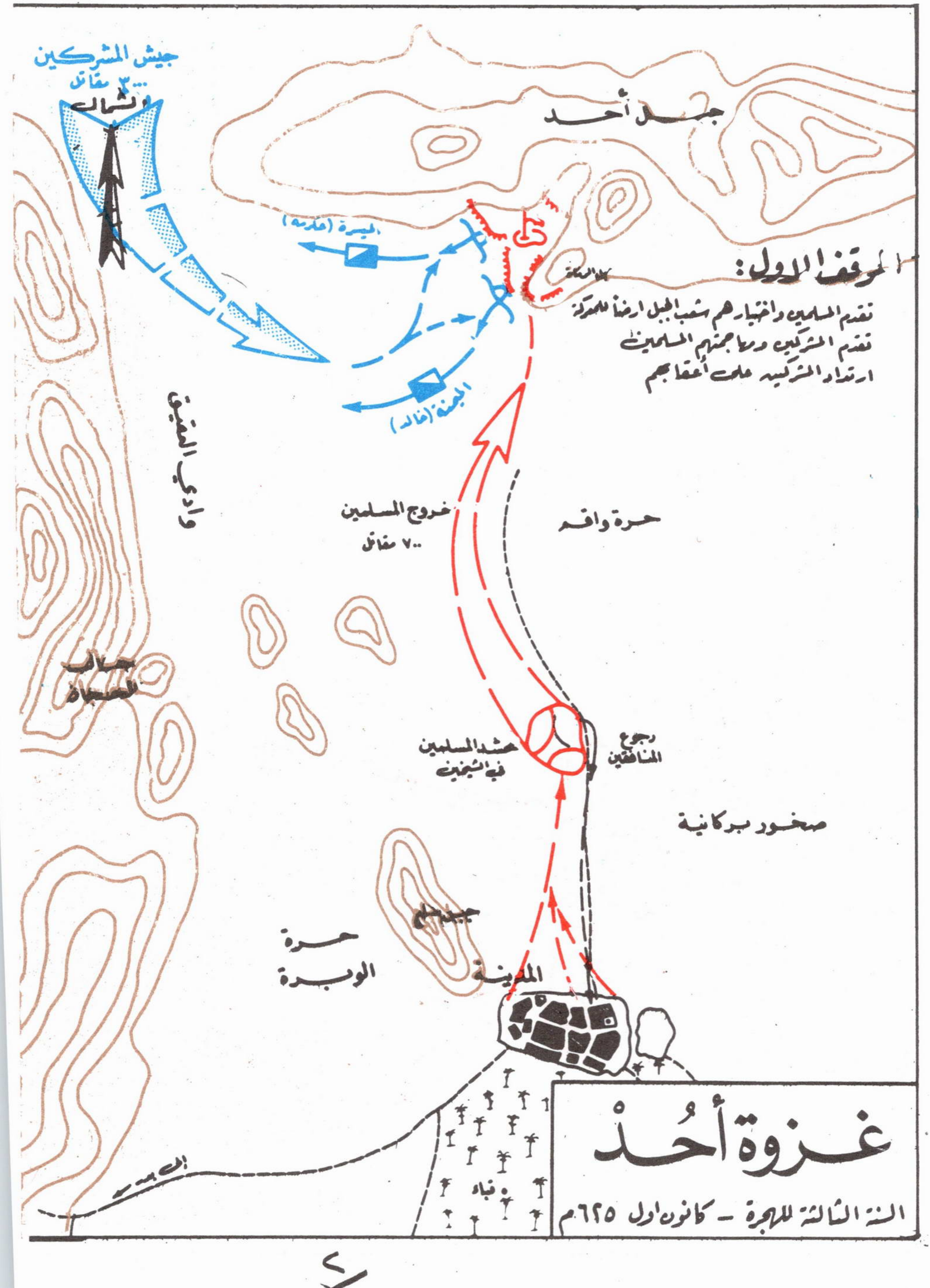
سمع صوت بكاء ابنته حفصة، زوجة النبي ، على خالد .

فعاد عمر الى داخل منزله ، وعلّق سوطه وجلس ثانية . في هذه المرة خرق القاعدة ثم قال : «دع نساء بني مخزوم يبكين أبا سليمان ، فانهن لا يكذبن ، فعلى مثل أبي سليمان تبكي البواكي» [1] .

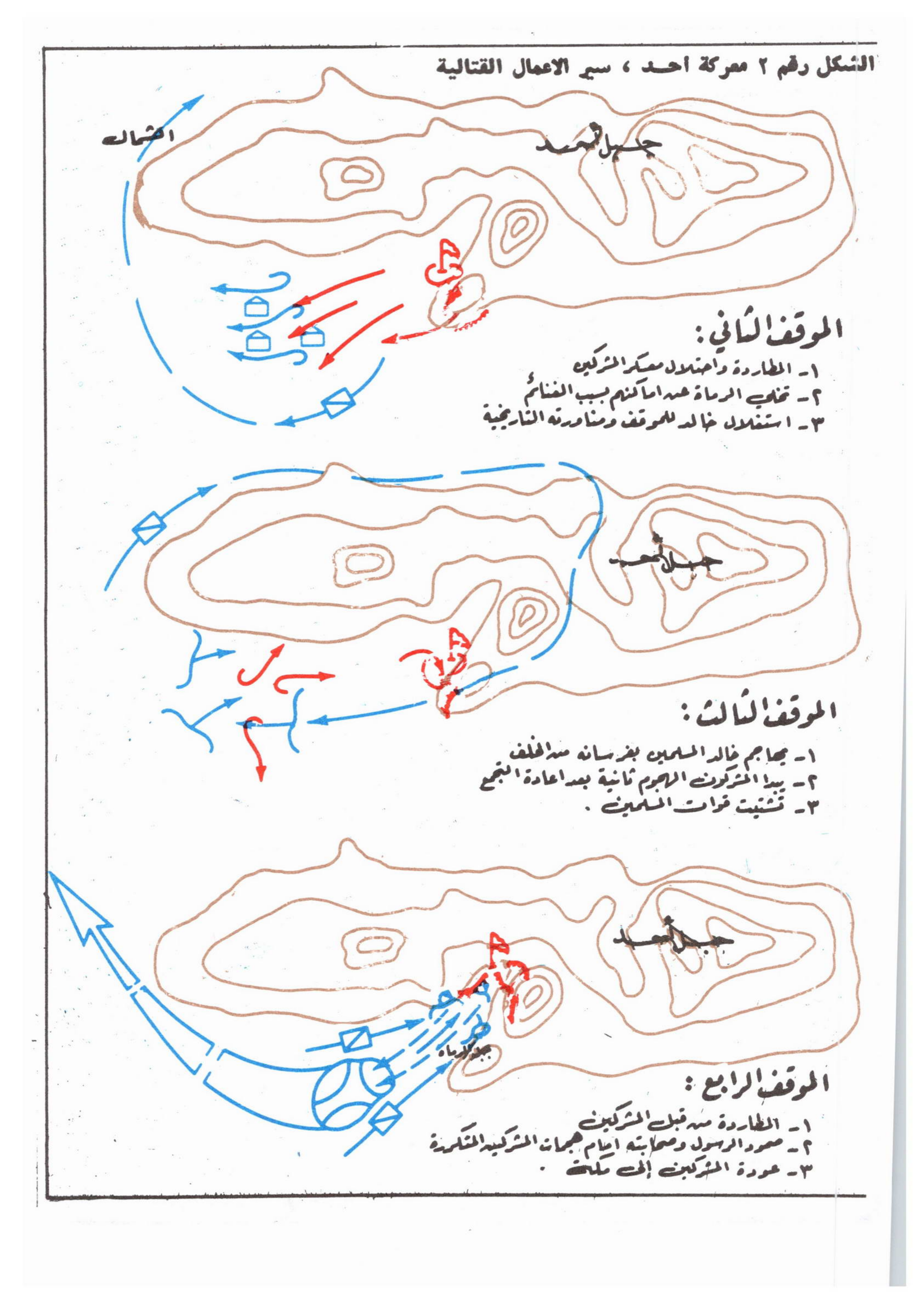
(1) — الأصفهاني — الجزء ١٩ ، صفحة ٨٩ .

الفهـــرس

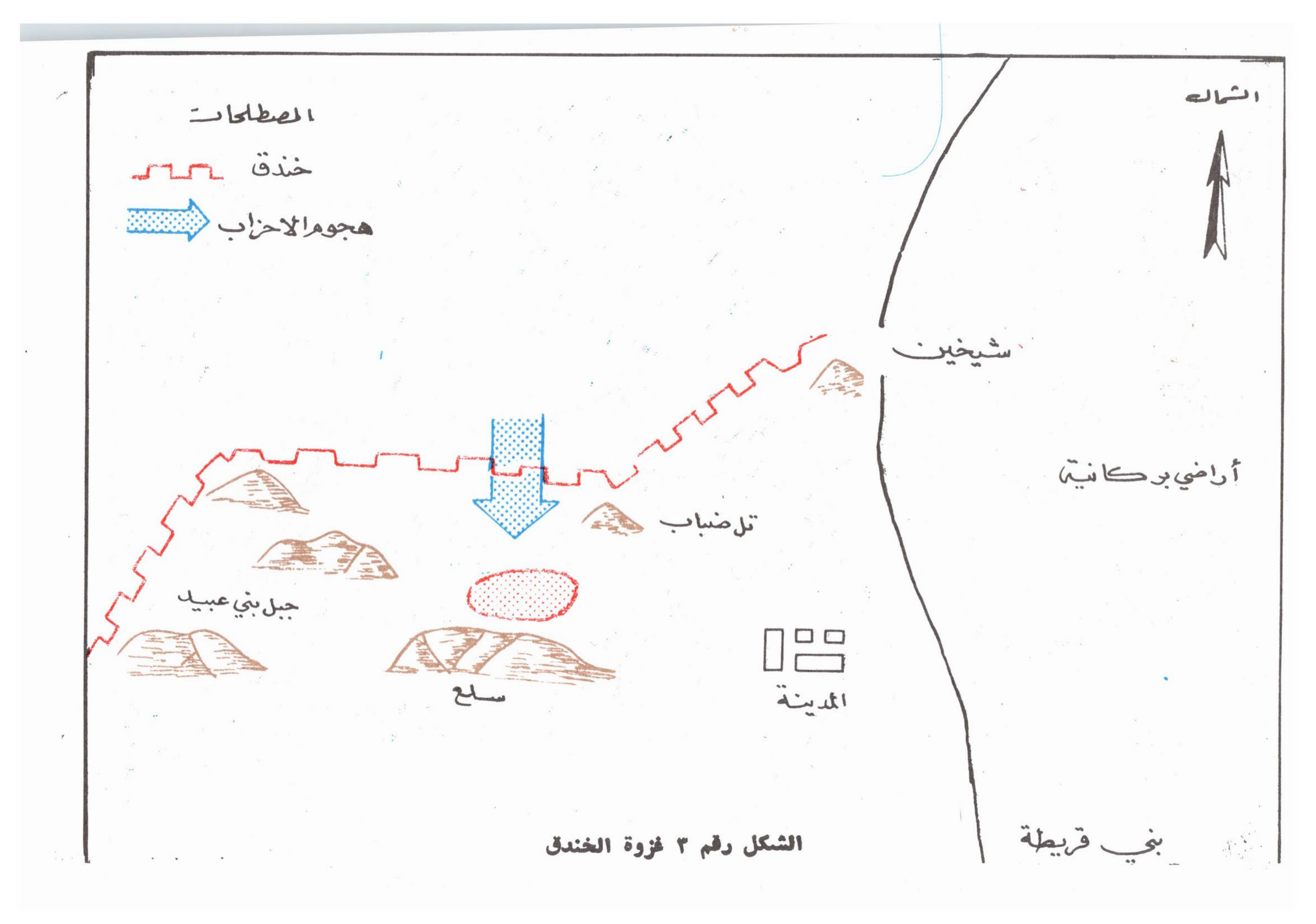

غزوة بدر الكبرى
١٧ رمضان ٢ هـ - ٦٢٤ ميلادي
المسلمون
المشركون
قتيل
جريح
الشمال
العدوة الدنيا
العدوة القصوى
تحشد المسلمين
٣١٥ مقاتل
هجوم المسلمين
تحشد المشركين
هجوم المشركين
المؤخرة
الميمنة
الميسرة
المقدمة



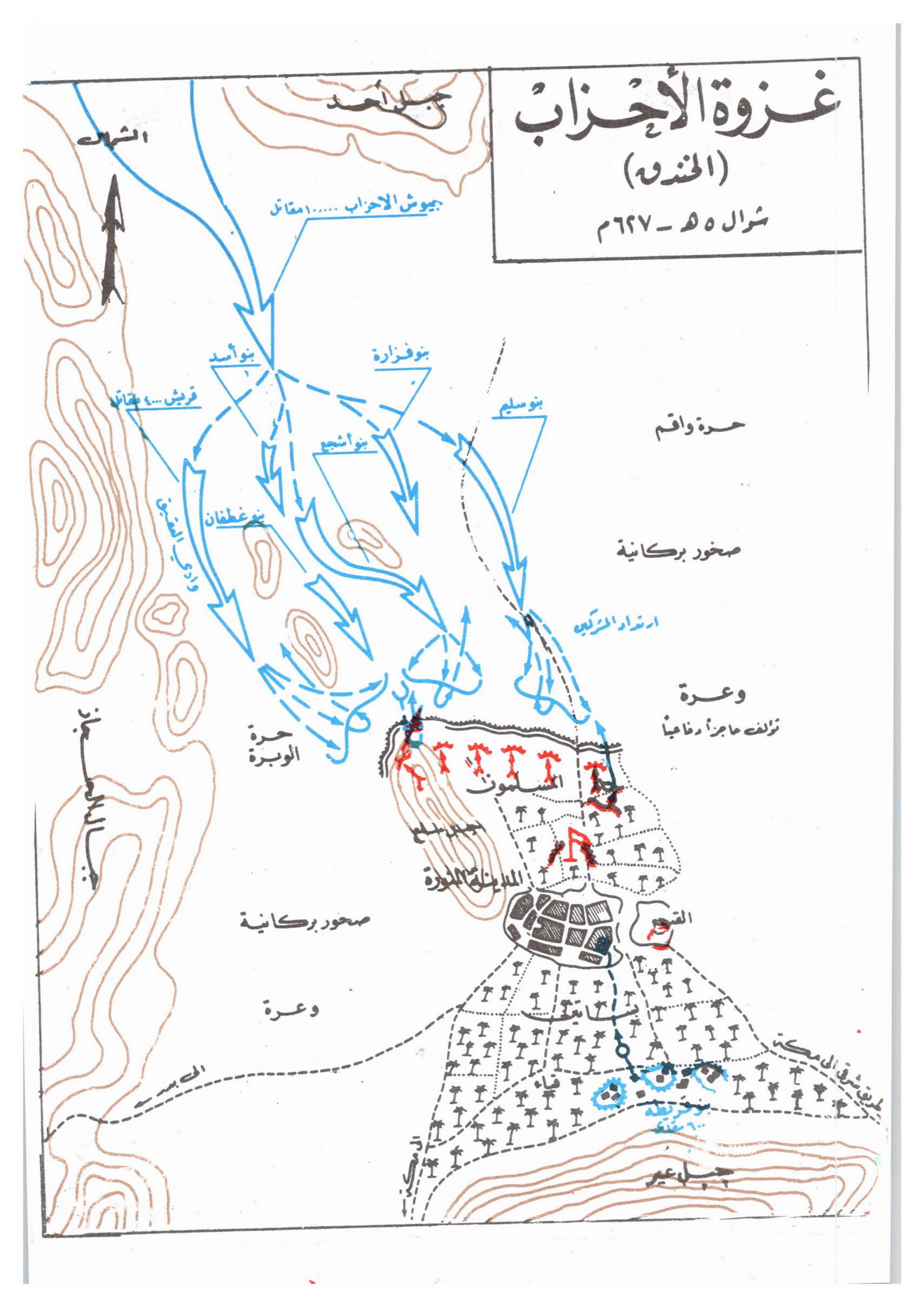
جيش المشركين
٣٠٠٠ مقاتل
الشمال
جبل أحد
الميسرة (عكرمة)
الميمنة (خالد)
الموقف الاول:
تقدم المسلمين واختيارهم شعب الجبل ارضاً للمعركة
تقدم المشركين ودحرهم للمسلمين
ارتداد المشركين على أعقابهم
وادي العقيق
خروج المسلمين
٧٠٠ مقاتل
حرة واقم
حشد المسلمين في الشيخين
رجوع المنافقين
صخور بركانية
جبل سلع
حرة الوبرة
المدينة
قباء
غزوة أُحُدْ
السنة الثالثة للهجرة – كانون اول ٦٢٥م



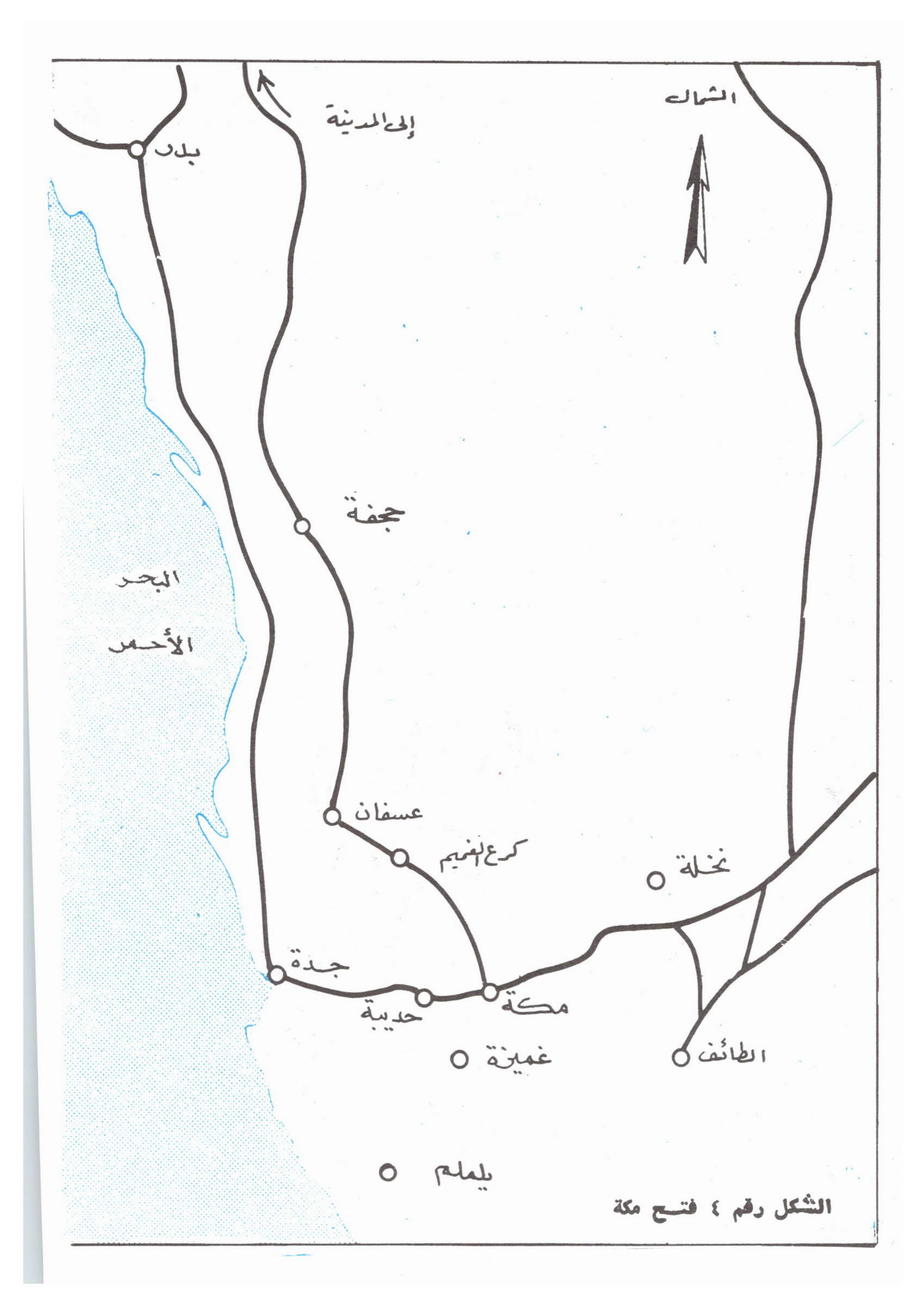
الشكل رقم ٢ معركة أحـد ، سير الاعمال القتالية
الشمال
جبل أحد
الموقف الثاني :
١- المطاردة واحتلال معسكر المشركين
٢- تخلي الرماة عن اماكنهم بسبب الغنائم
٣- استغلال خالد للموقف ومناورته التاريخية
جبل أحد
الموقف الثالث :
١- يهاجم خالد المسلمين بفرسانه من الخلف
٢- يبدأ المشركون الهجوم ثانية بعد اعادة التجمع
٣- تشتيت قوات المسلمين .
جبل أحد
جبل الرماة
الموقف الرابع :
١- المطاردة من قبل المشركين
٢- صمود الرسول وصحابته امام هجمات المشركين المتكررة
٣- عودة المشركين إلى مكة .



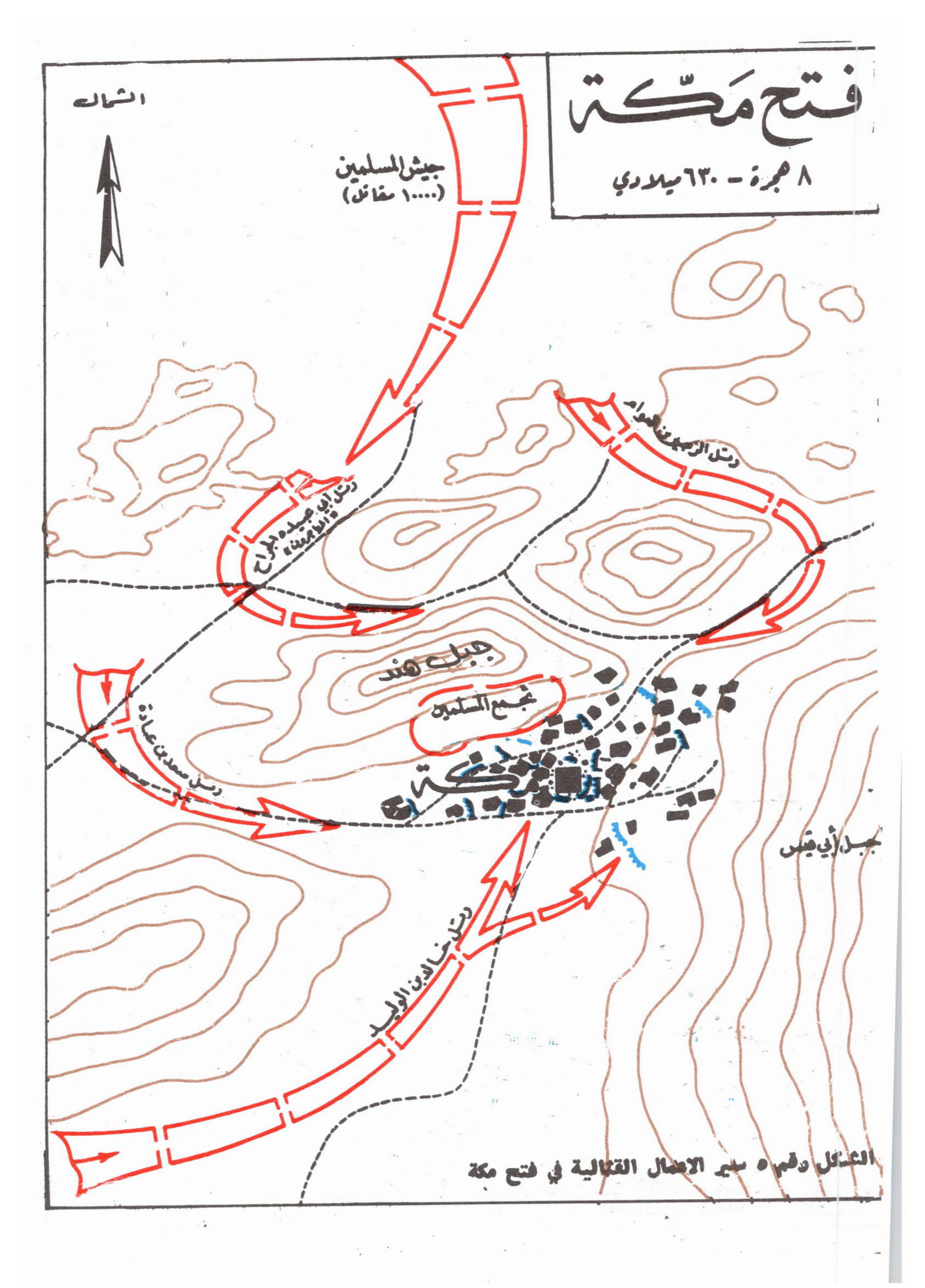
الشكل رقم ٣ غزوة الخندق



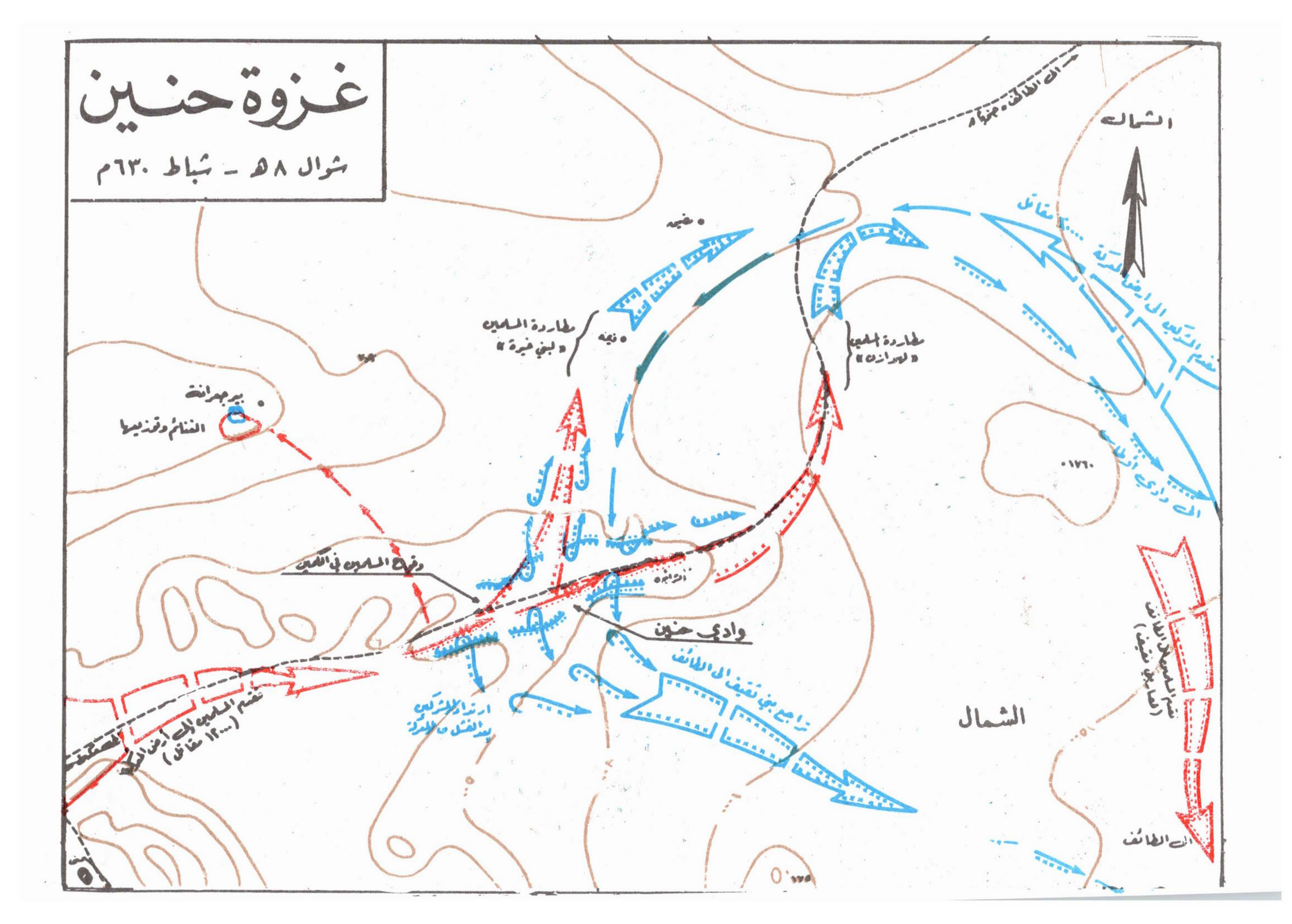
غزوة الأحزاب
(الخندق)
شوال ٥ هـ - ٦٢٧م
جبل أحد
الشمال
جيوش الاحزاب ١٠٠٠٠ مقاتل
بنو أسد
بنو فزارة
قريش ٤٠٠٠ مقاتل
بنو سليم
حرة واقم
بنو أشجع
بنو غطفان
وادي العقيق
صخور بركانية
ارتداد المشركين
وعرة
تؤلف حاجزا دفاعيا
حرة الوبرة
المسلمون
جبل سلع
المدينة المنورة
صخور بركانية
وعرة
بساتين
قباء
بنو قريظة
طريق شرق الى مكة
الى بدر
جبل عير



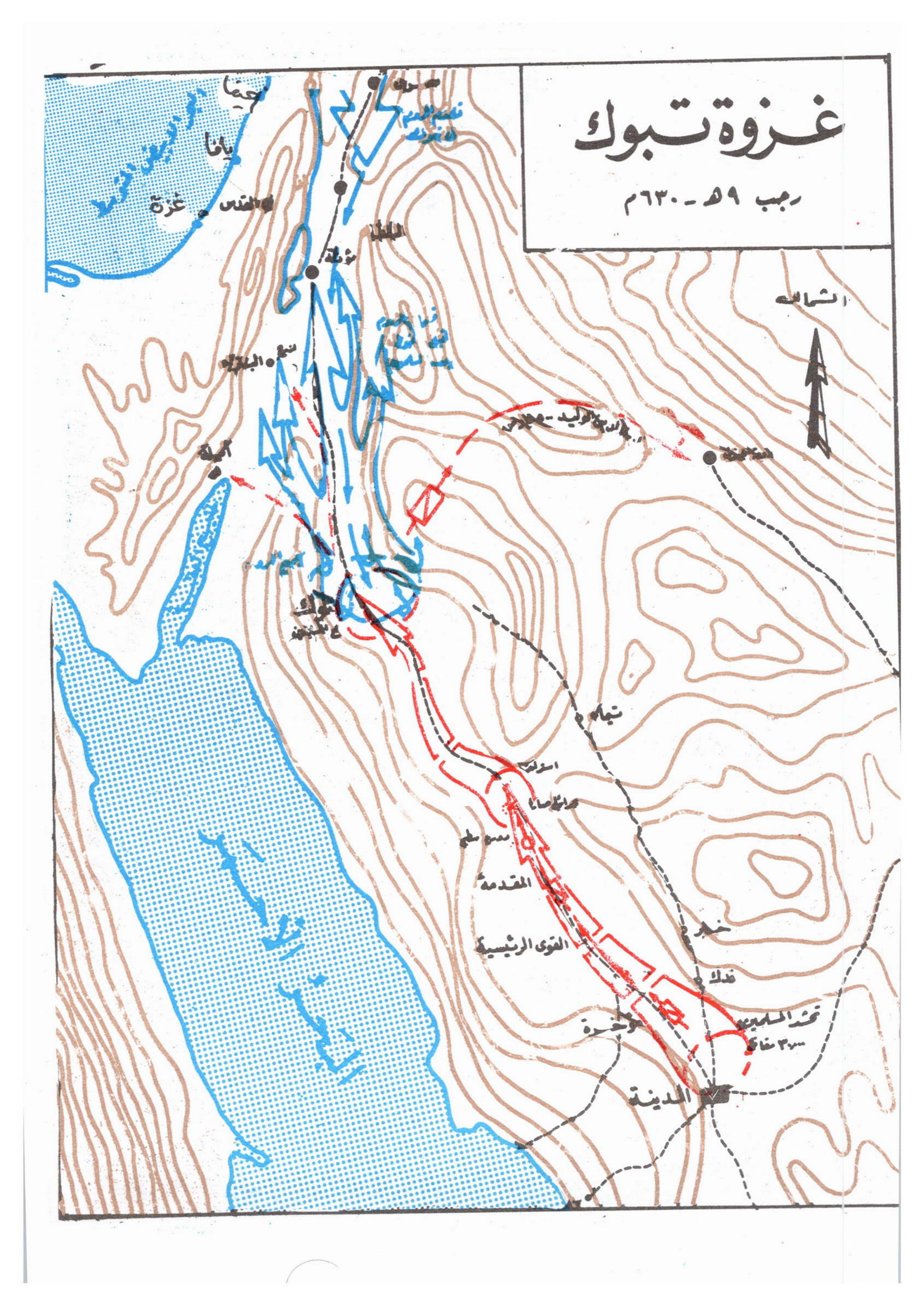
الشكل رقم ٤ فتح مكة



الشكل رقم ٥ سير الأعمال القتالية في فتح مكة



غزوة حنين
شوال ٨ هـ - شباط ٦٣٠م
الشمال
الشمال
وادي حنين
الغنائم وتوزيعها
بير جهرانة
مطاردة المسلمين «لبني غيرة»
مطاردة المسلمين «لهوازن»
تراجع بني ثقيف الى الطائف
الى الطائف
٠١٧٦٠



غزوة تبوك
رجب ٩هـ - ٦٣٠م
الشمال
حيفا
يافا
غزة
القدس
مؤتة
أيلة
تبوك
تيماء
المقدمة
القوى الرئيسية
خيبر
فدك
المدينة

البحر الأبيض المتوسط
تدمر
دمشق
الشمال
الفرات
سورية
كسفوت
الحيرة
تبوك
دومة الجندل
العراق
الأبلة
بزاخة
خيبر
النباج
البطاح
المدينة
الخليج العربي
اليمامة
مكة
البحرين
الطائف
هجر
دبا
البحر الأحمر
عمان
نجران
صنعاء
مهرة
اليمن
حضرموت
عدن

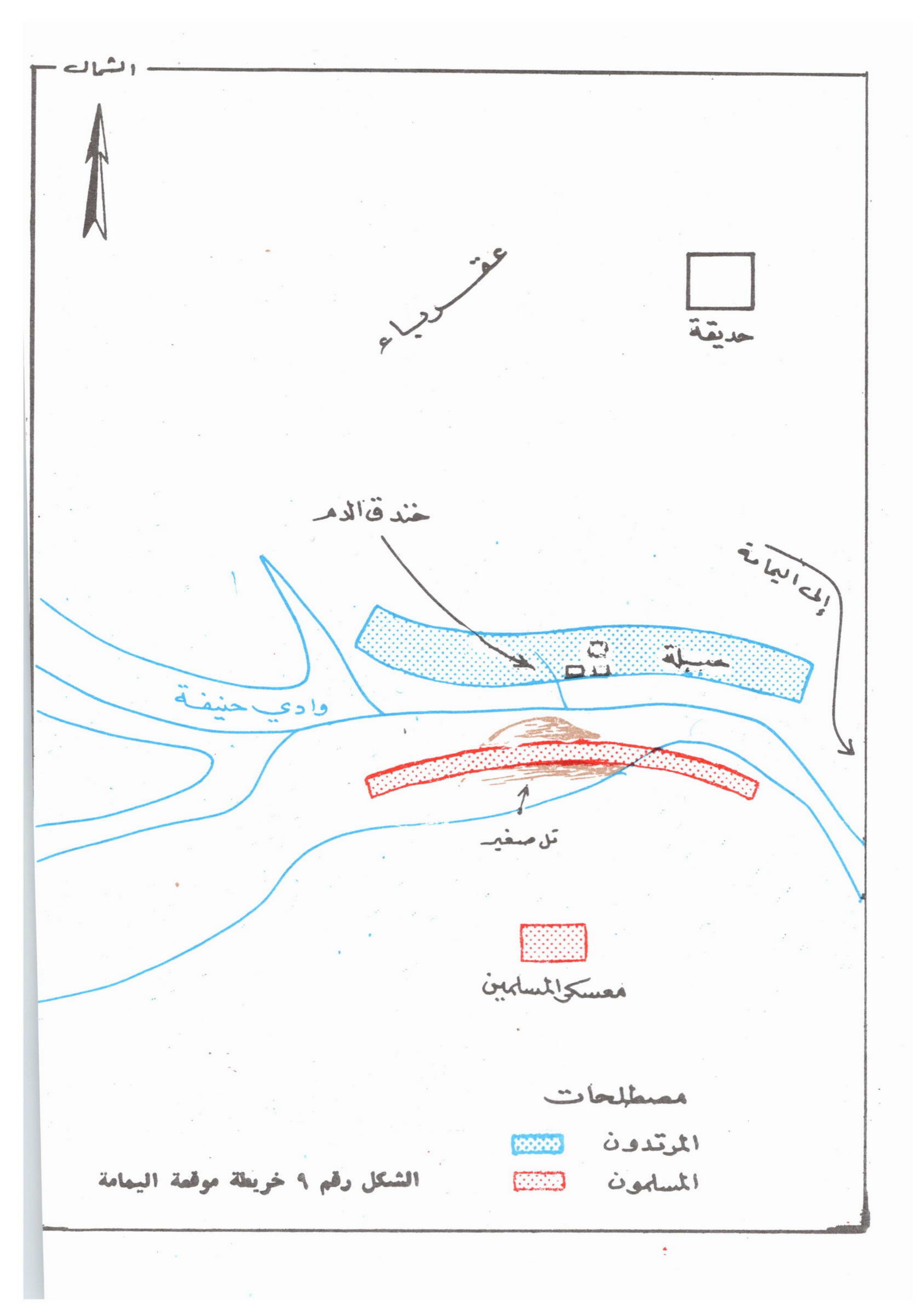
الشكل رقم ٧ خريطة المرتدين في الجزيرة العربية

الشمال

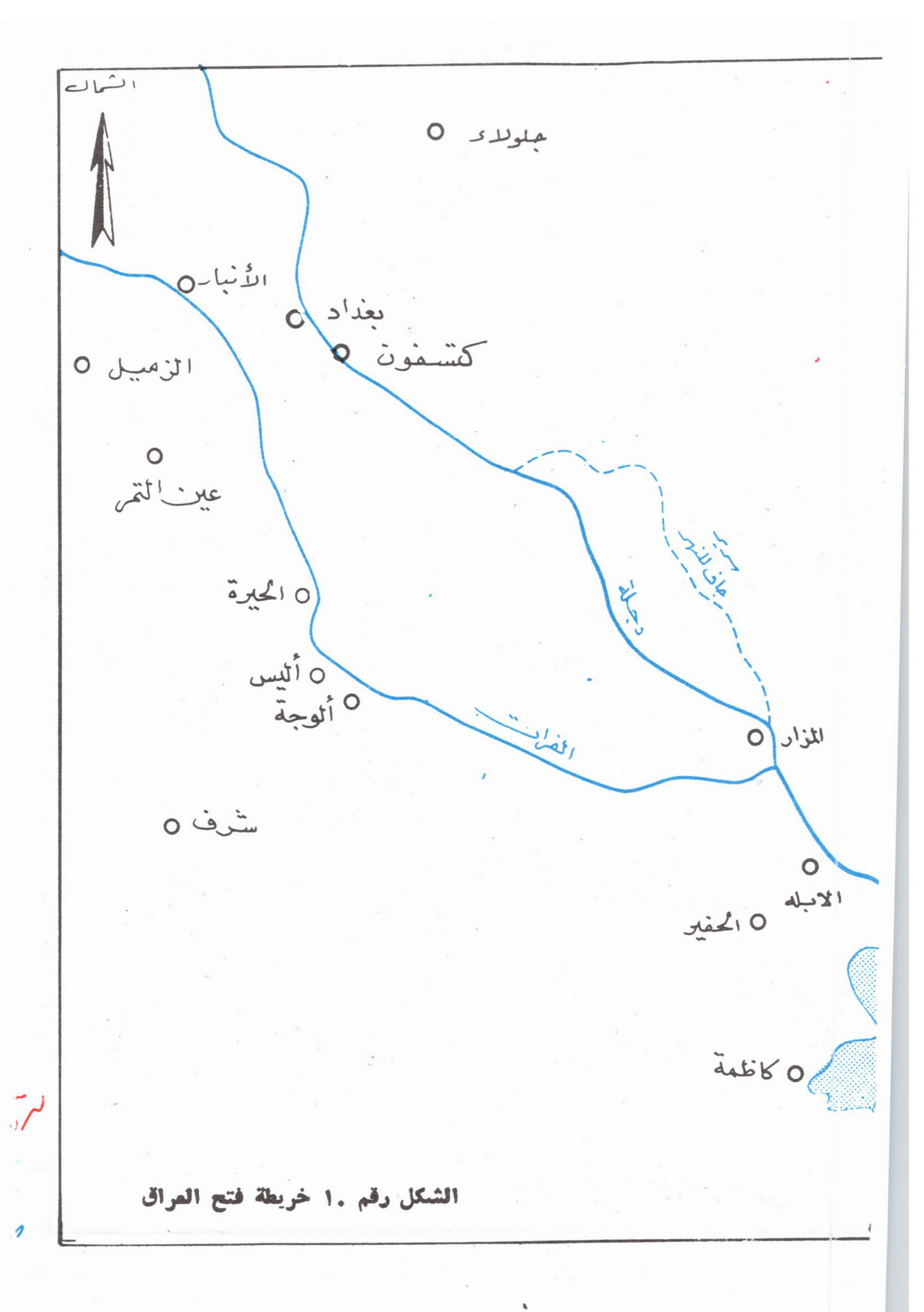
أجأ
(حول)*
البزاخة
رفاد
سلمى
غمرة
سميراء
نباج
(بويد)
الحزن
خيبر
البطاح
نقرة
إلى اليمامة (٨٠٠ ميل)
الأبرق
المدينة
ذو القصة

الشكل رقم ٨ خريطة حروب الردة بقيادة خالد

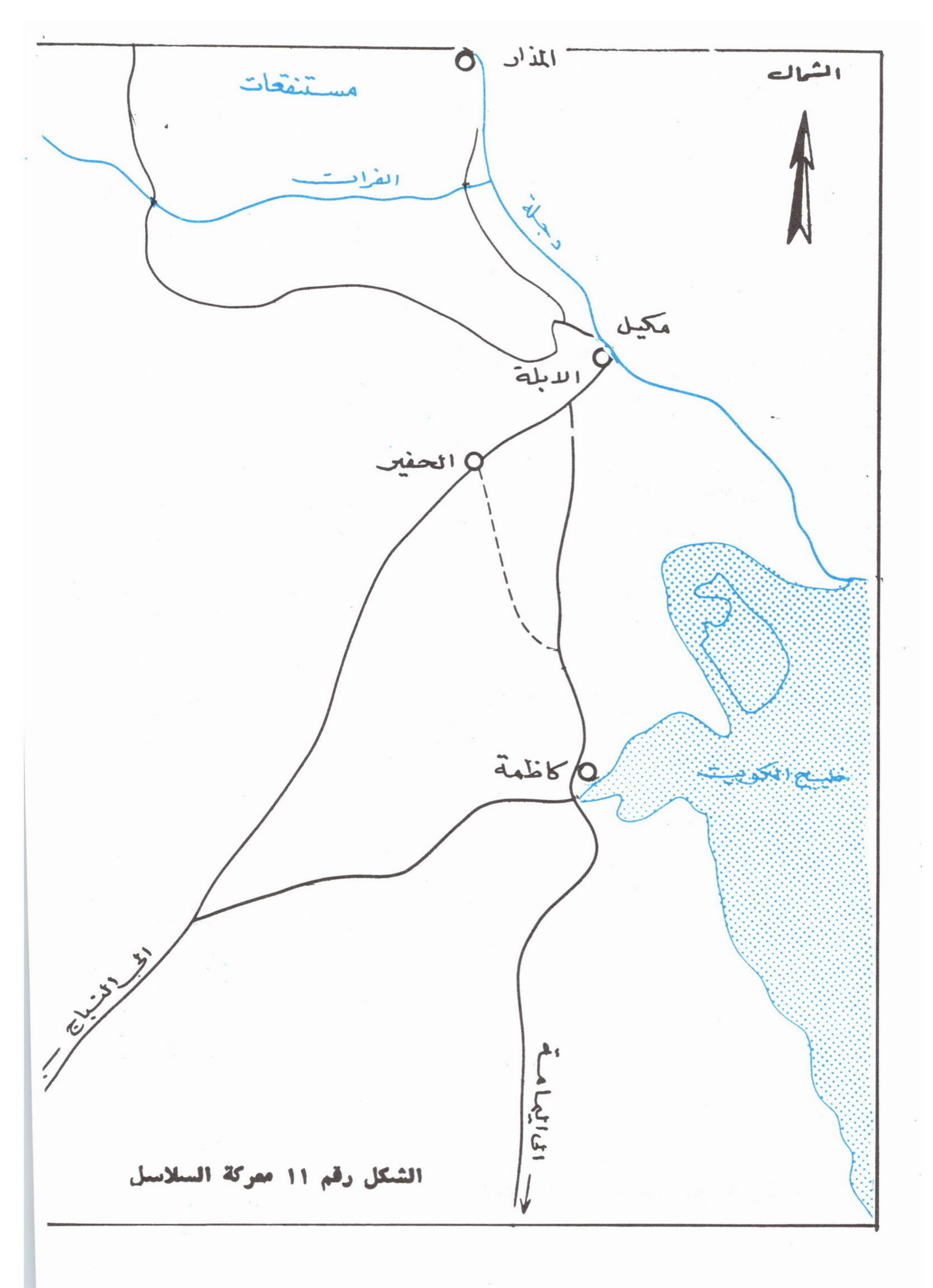
* لم تكن موجودة آنذاك



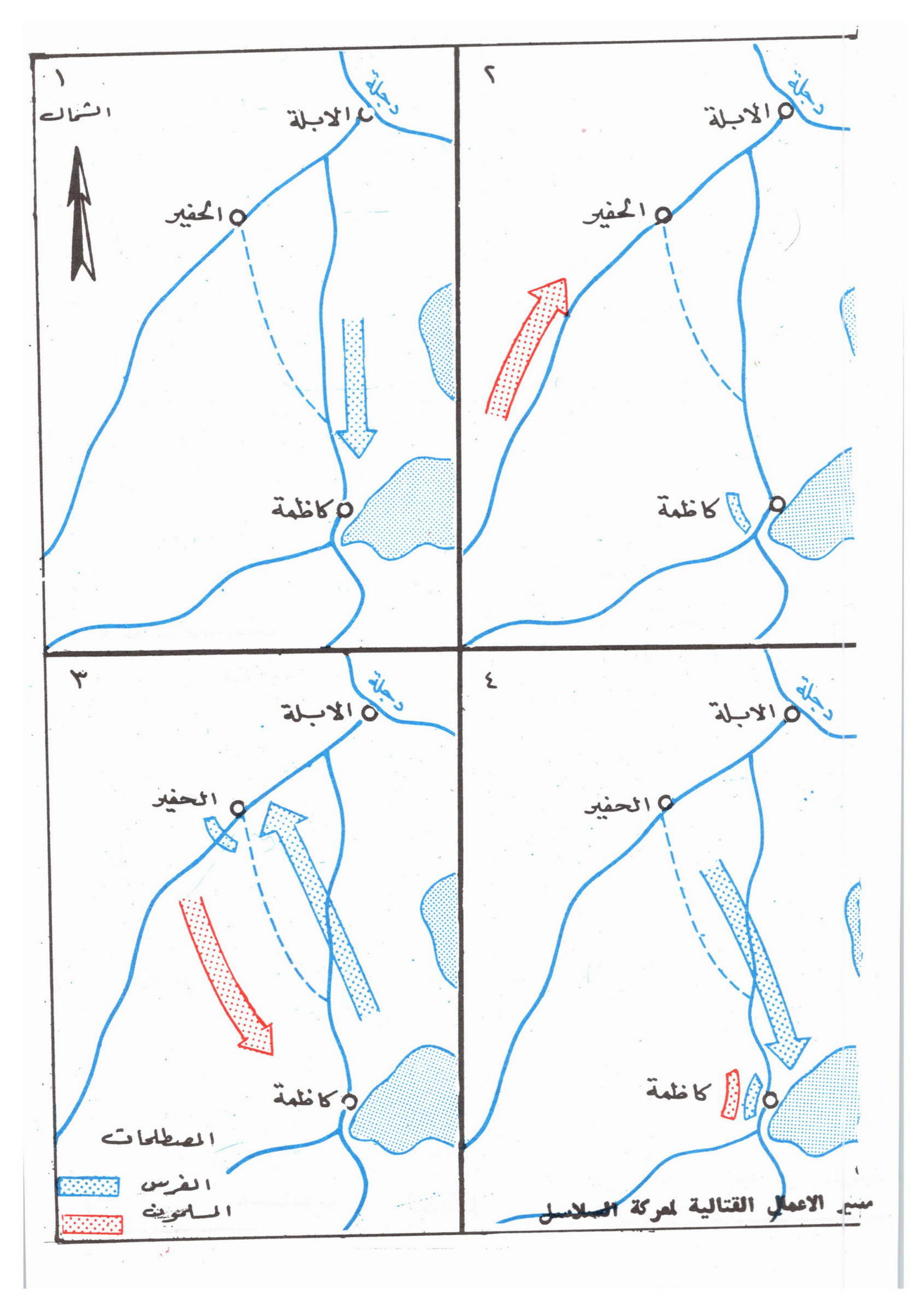
الشكل رقم ٩ خريطة موقعة اليمامة



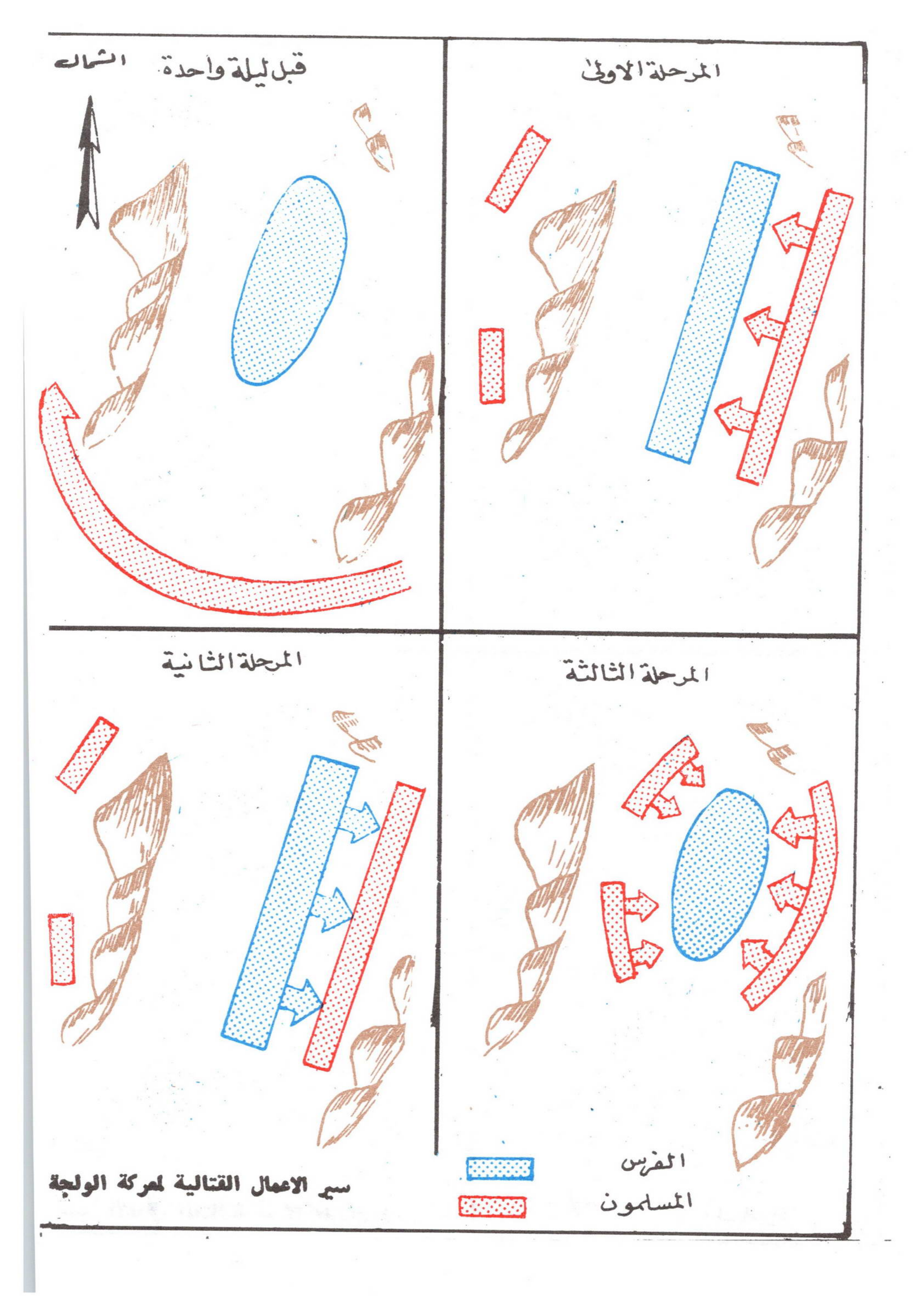
الشكل رقم ١٠ خريطة فتح العراق



الشكل رقم ١١ معركة السلاسل



مسير الاعمال القتالية لمعركة السلاسل



قبل ليلة واحدة
الشمال
المرحلة الاولى
المرحلة الثانية
المرحلة الثالثة
الفرس
المسلمون
سير الاعمال القتالية لمعركة الولجة

الشمال

المصيخ

الفرات

الثني

صندودة

الزميل

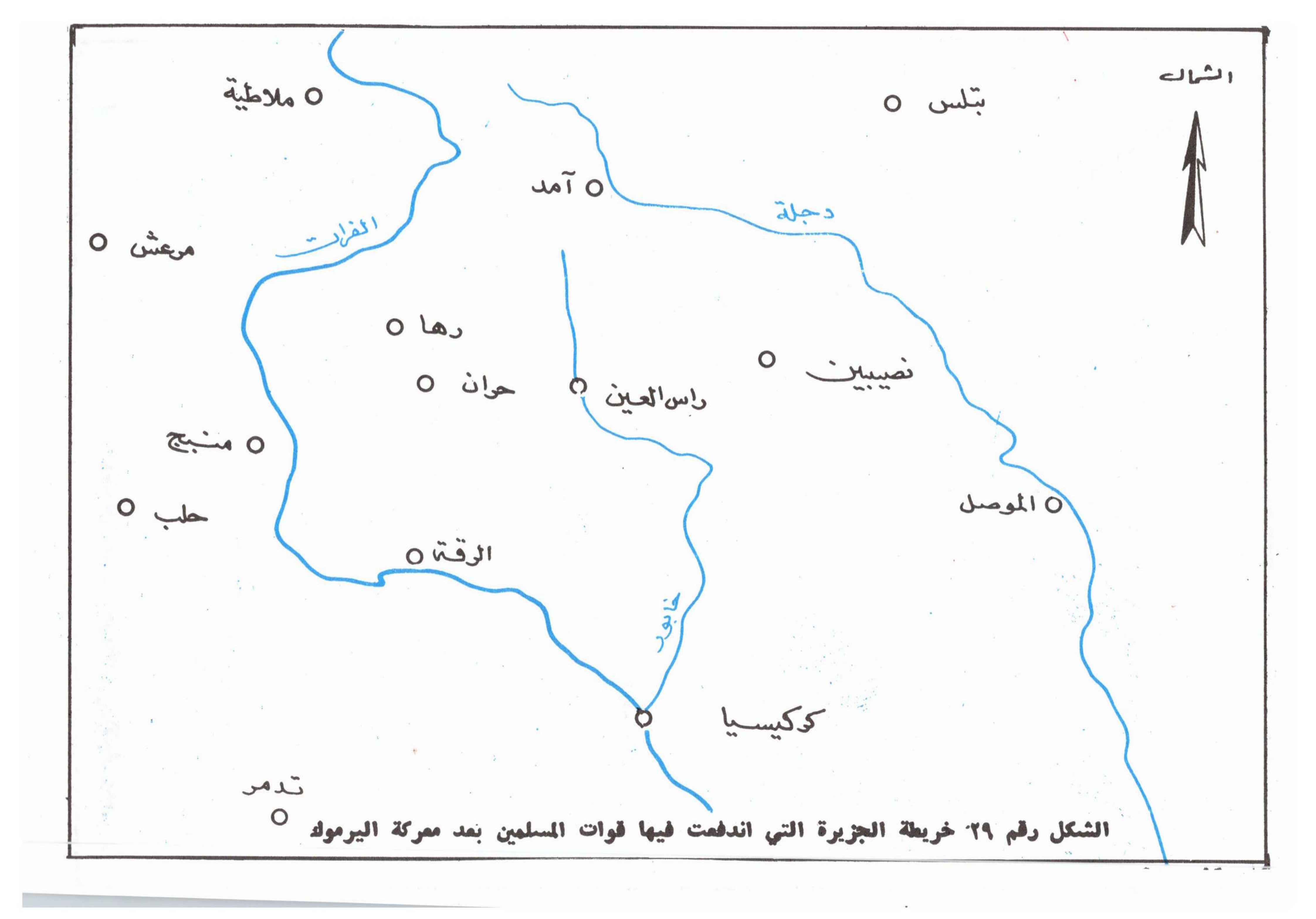
الخنافس

الأنبار

الحصيد

عين التمر

الشكل رقم ١٤ خريطة فتح الانبار وعين تمر



الشكل رقم ٢٩ خريطة الجزيرة التي اندفعت فيها قوات المسلمين بعد معركة اليرموك

الشمال

كدمة

السخنة

ارك

سري

تدمر

نبع ماء

القريتين

الفرات

الفراض

قصر الأمج

مصيخ

صندودة

قراقر

وادي حوران

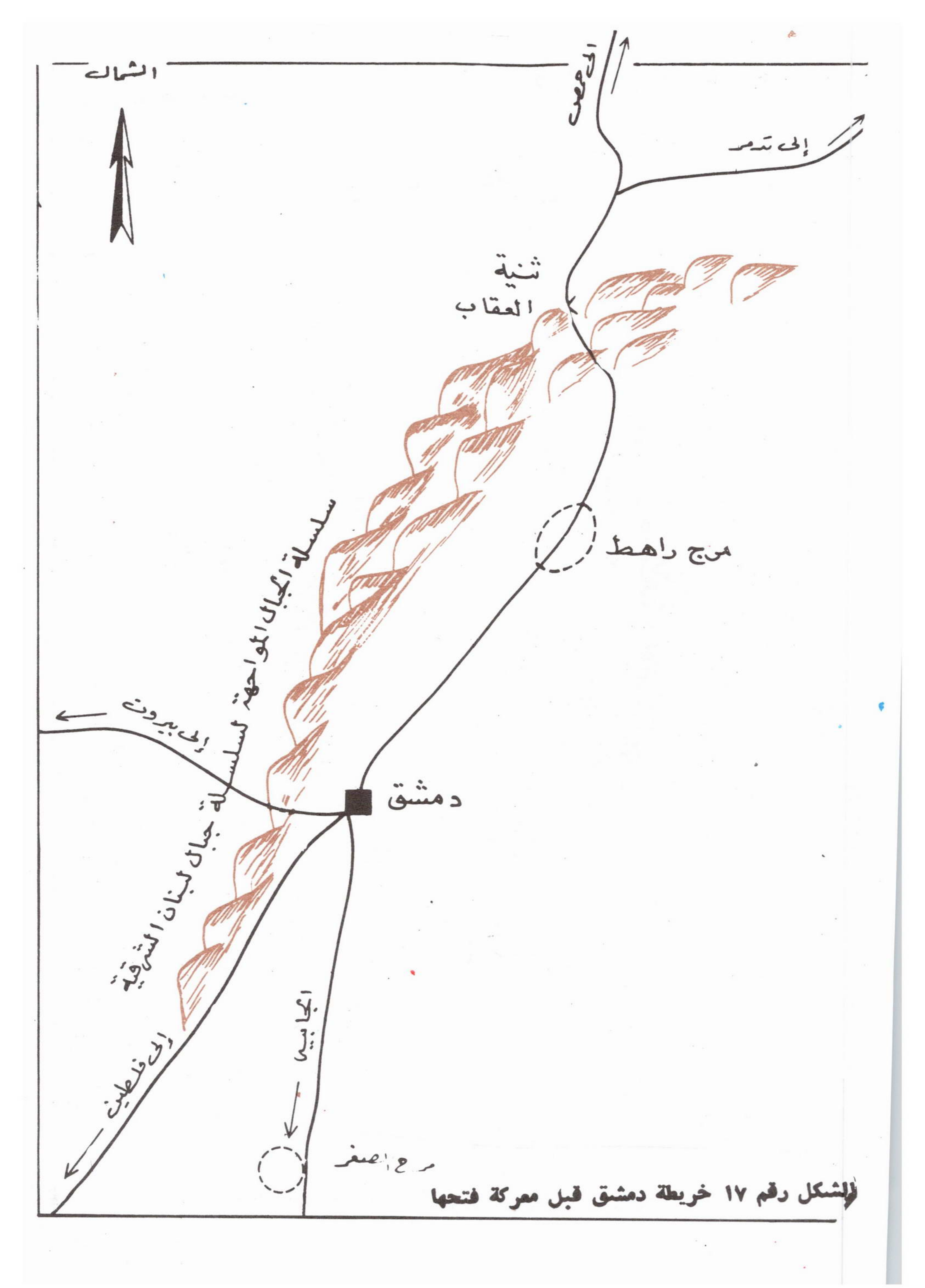
بلاد الشام

عين التمر

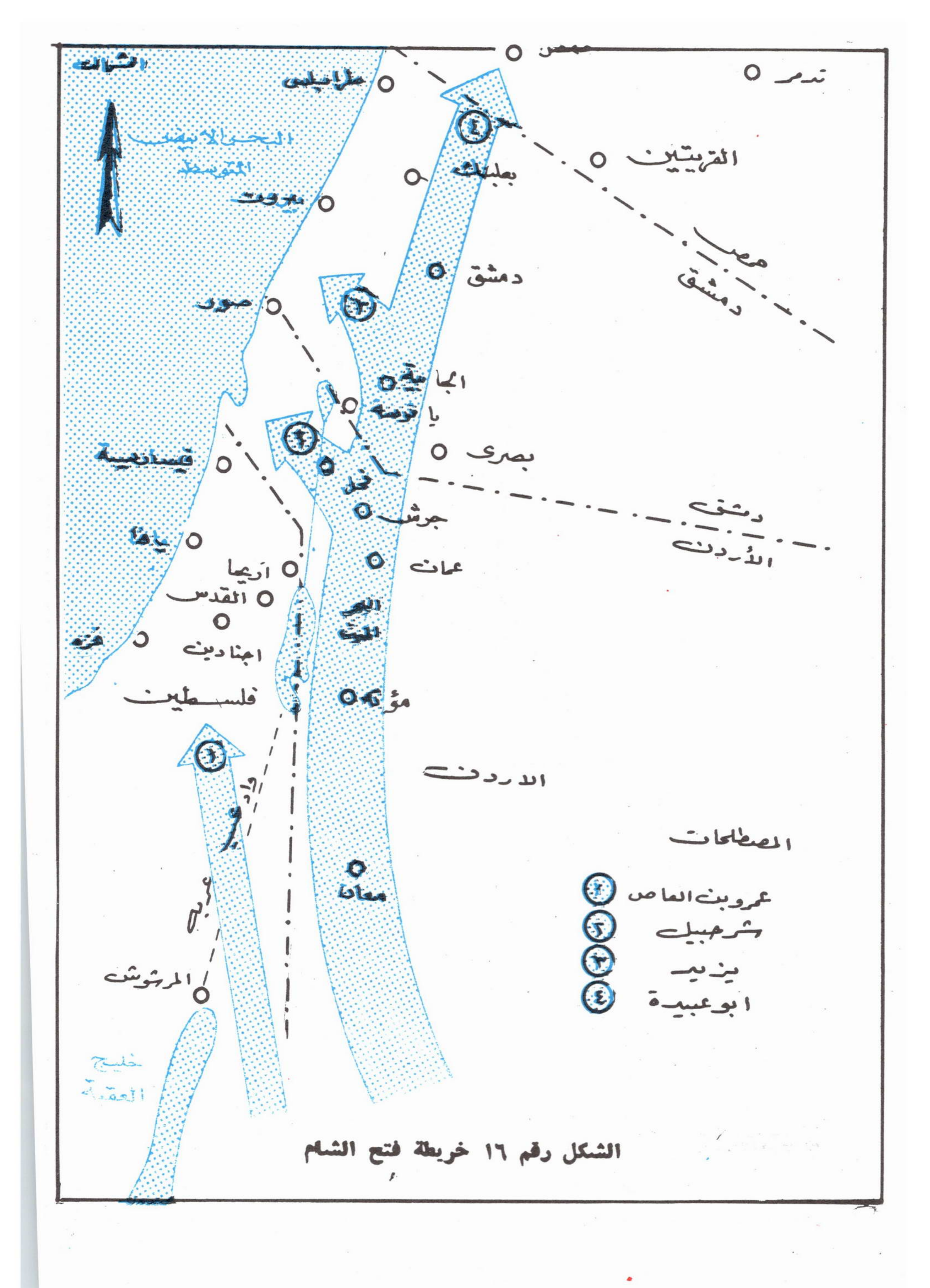
العراق

الحيرة

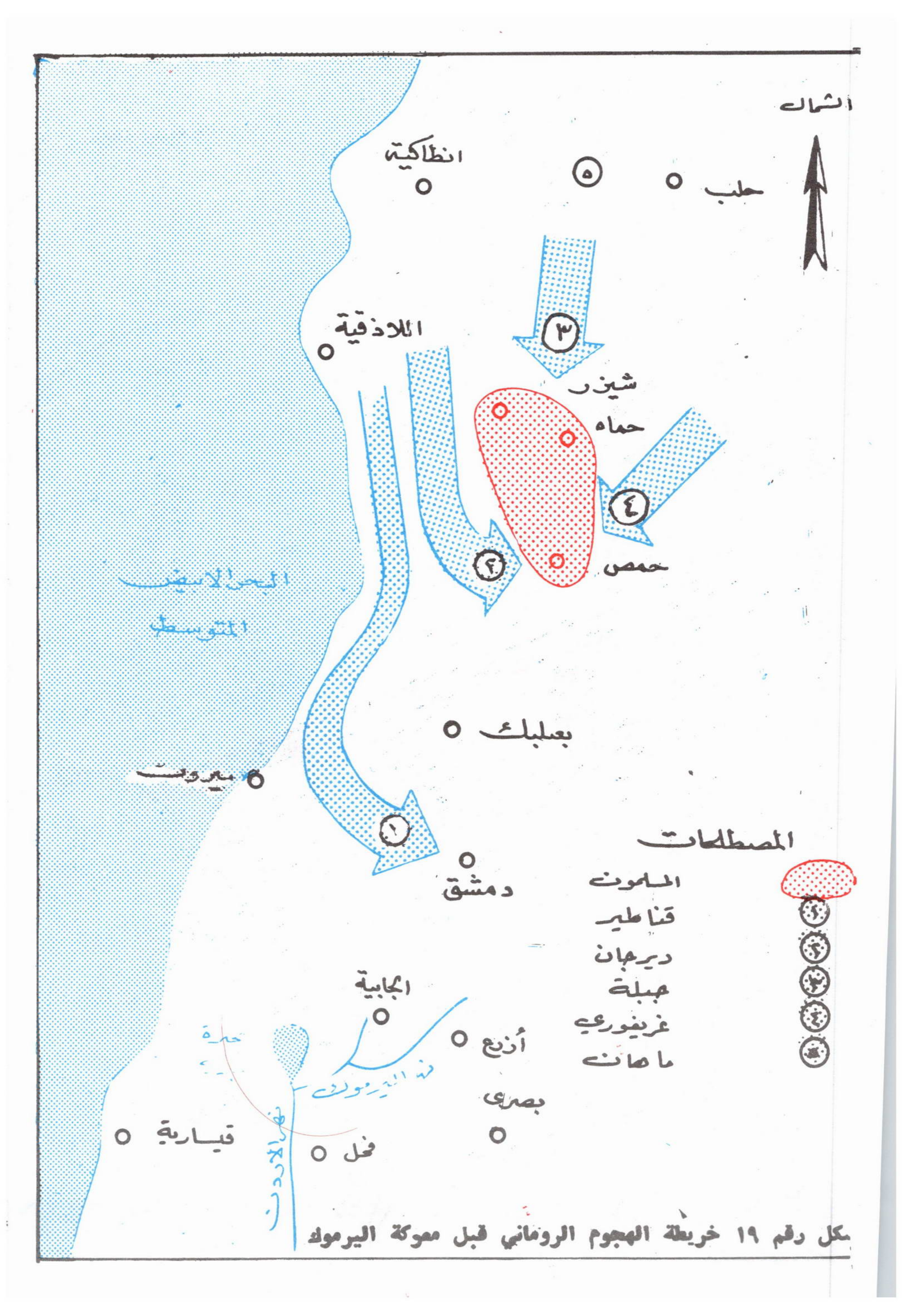
الشكل رقم ١٥ خريطة السير الصعب



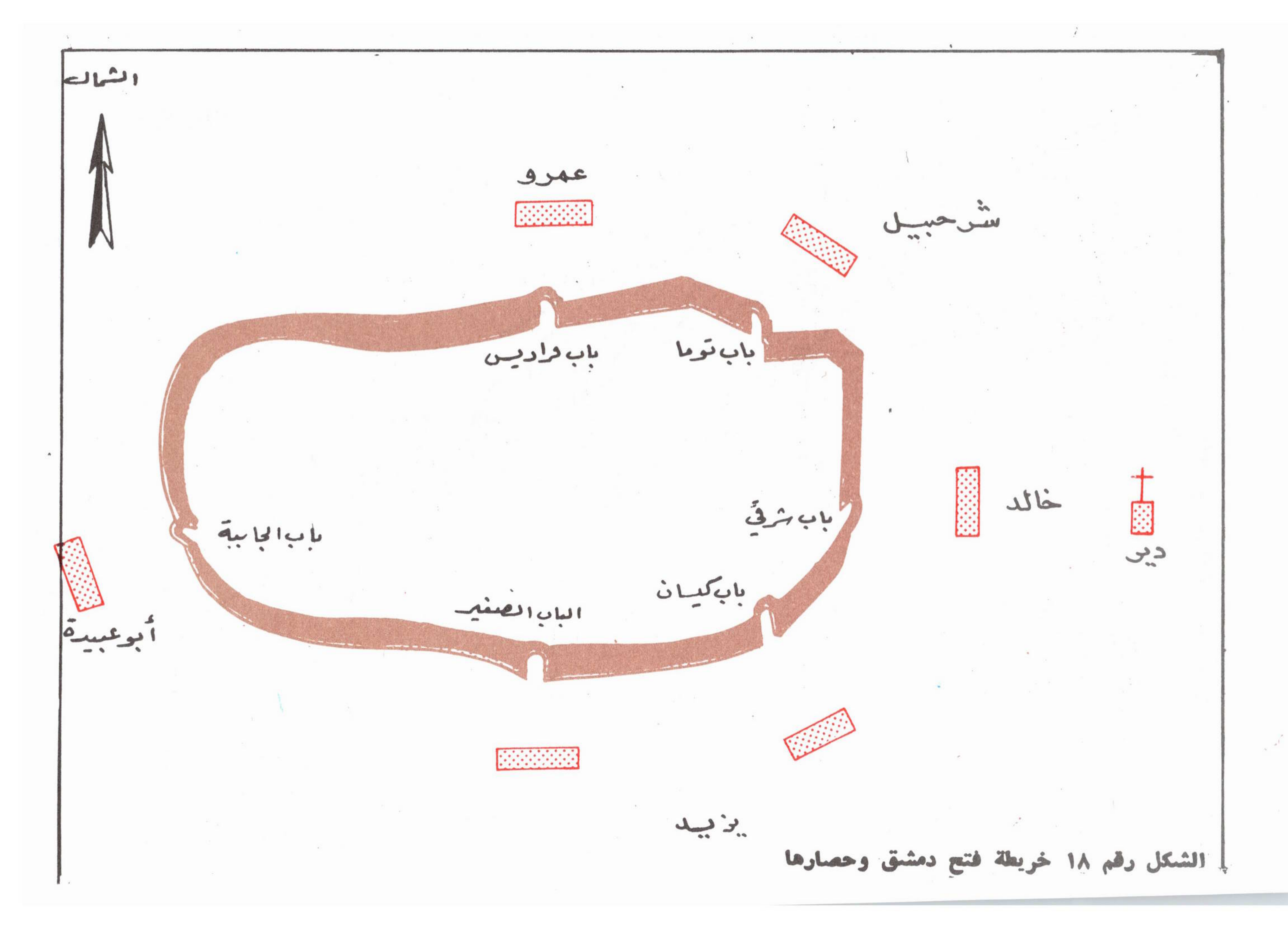
الشكل رقم ١٧ خريطة دمشق قبل معركة فتحها



الشكل رقم ١٦ خريطة فتح الشام



شكل رقم ١٩ خريطة الهجوم الروماني قبل معركة اليرموك



الشكل رقم ١٨ خريطة فتح دمشق وحصارها

هجوم المسلمين المضاد

المرحلة الاولى

المرحلة الثانية

علان

نهر اليرموك

هجوم الروم

الشمال

قناطر

عمرو

احتياط
خيالة

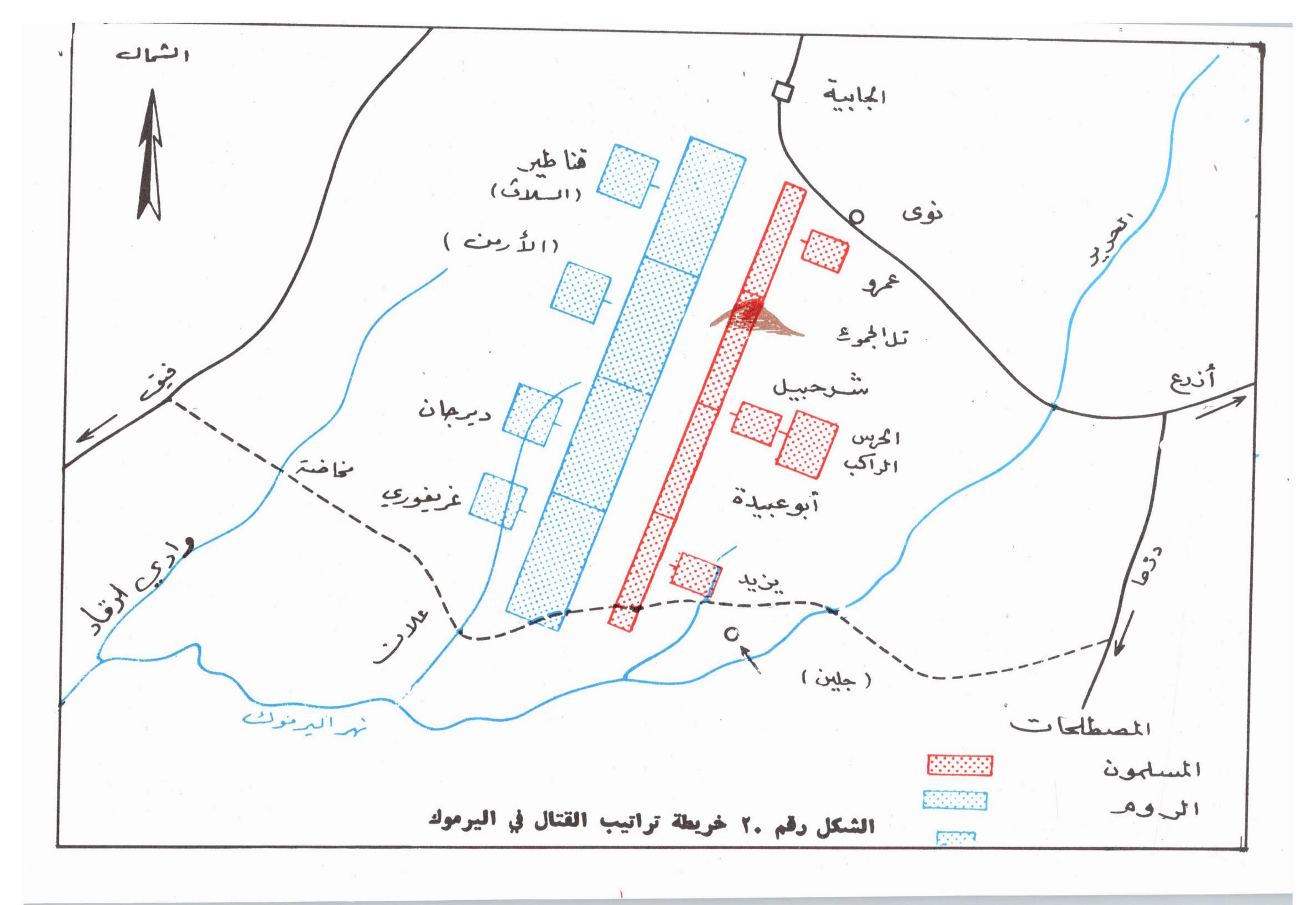
جريجوري

يزيد

علان

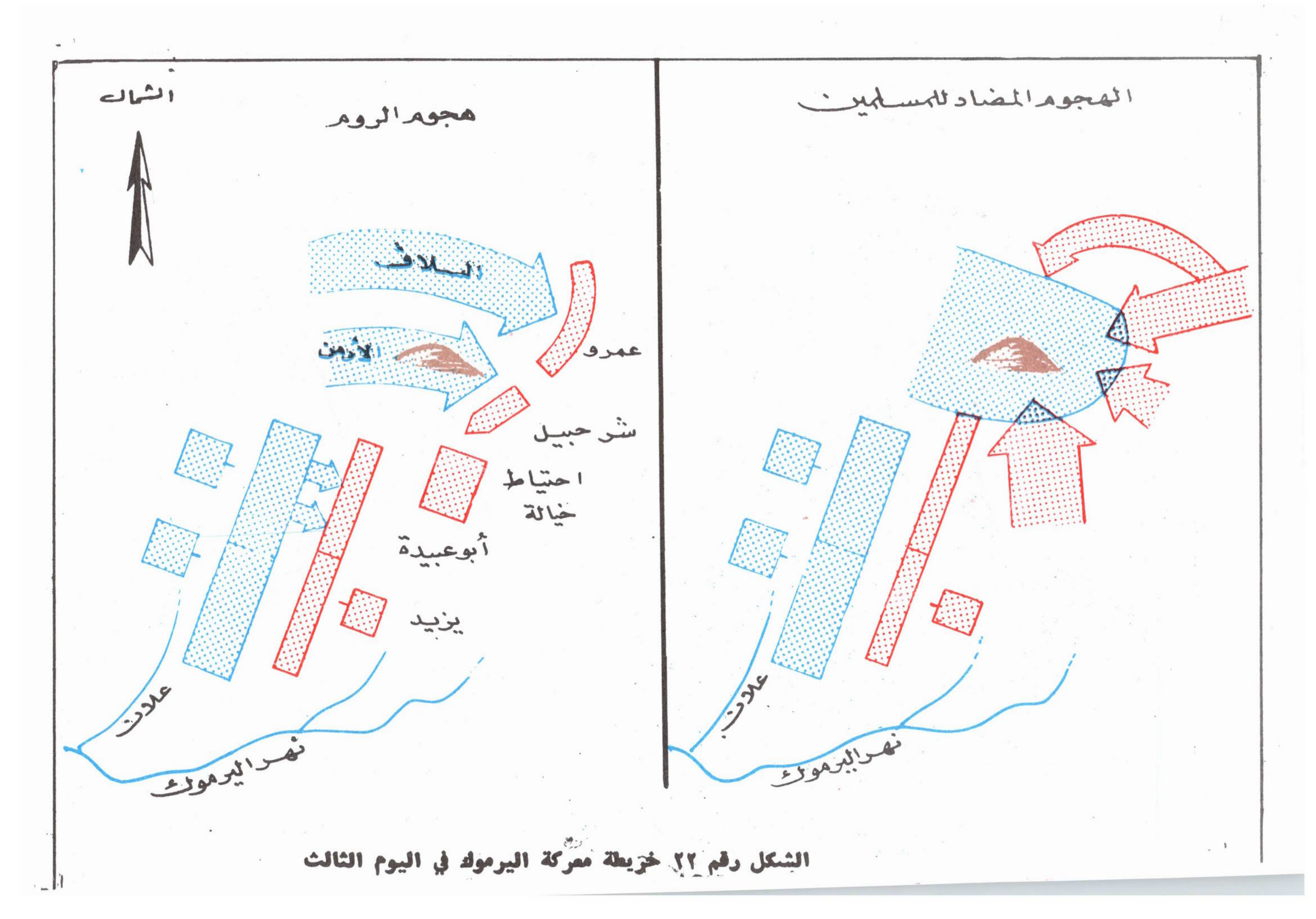
نهر اليرموك

الشكل رقم ٢١ ـ خريطة معركة اليرموك في اليوم الثاني



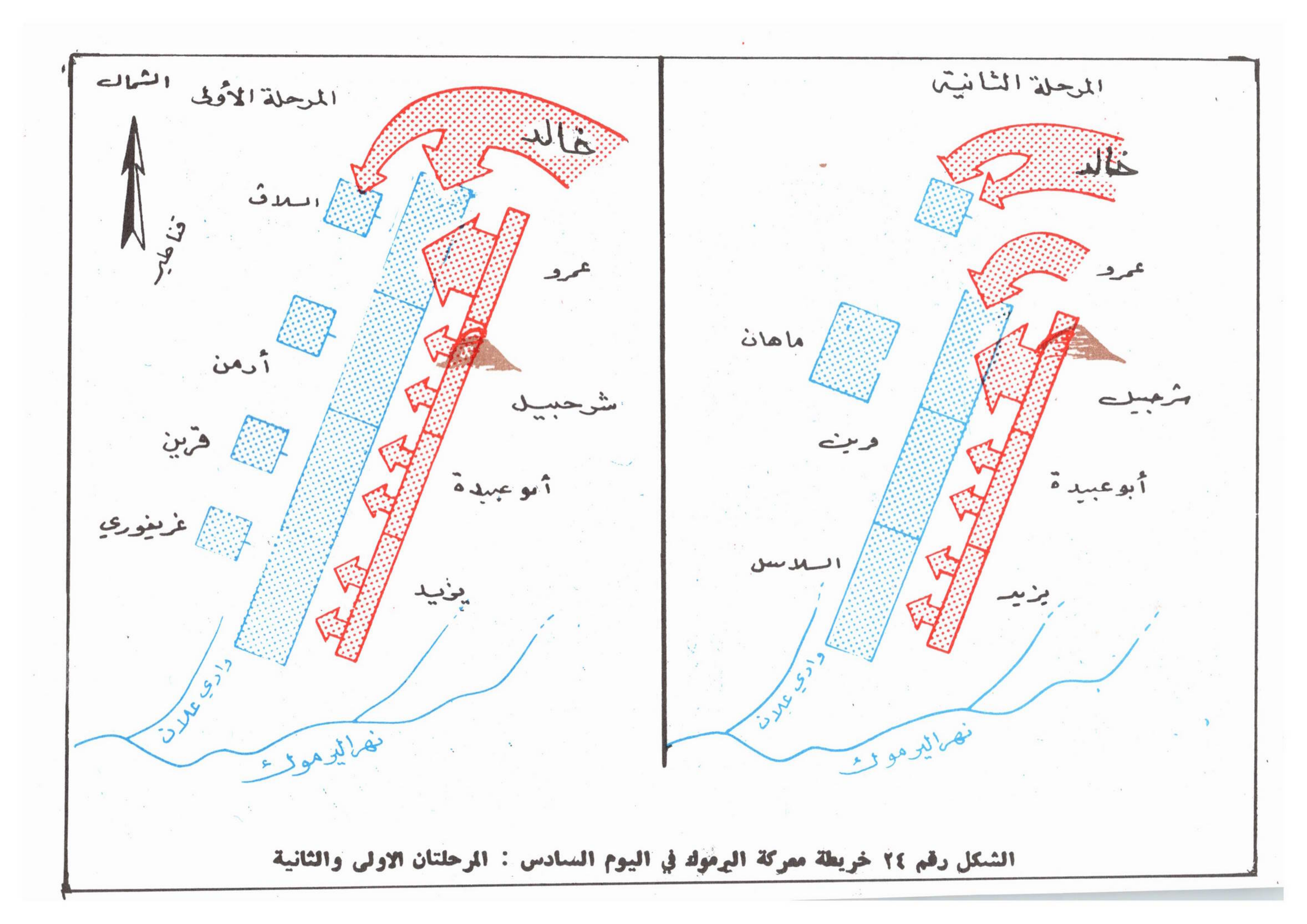
الشكل رقم ٢٠ خريطة ترتيب القتال في اليرموك

الشكل رقم ٢٣ – خريطة معركة اليرموك اليوم – الرابع

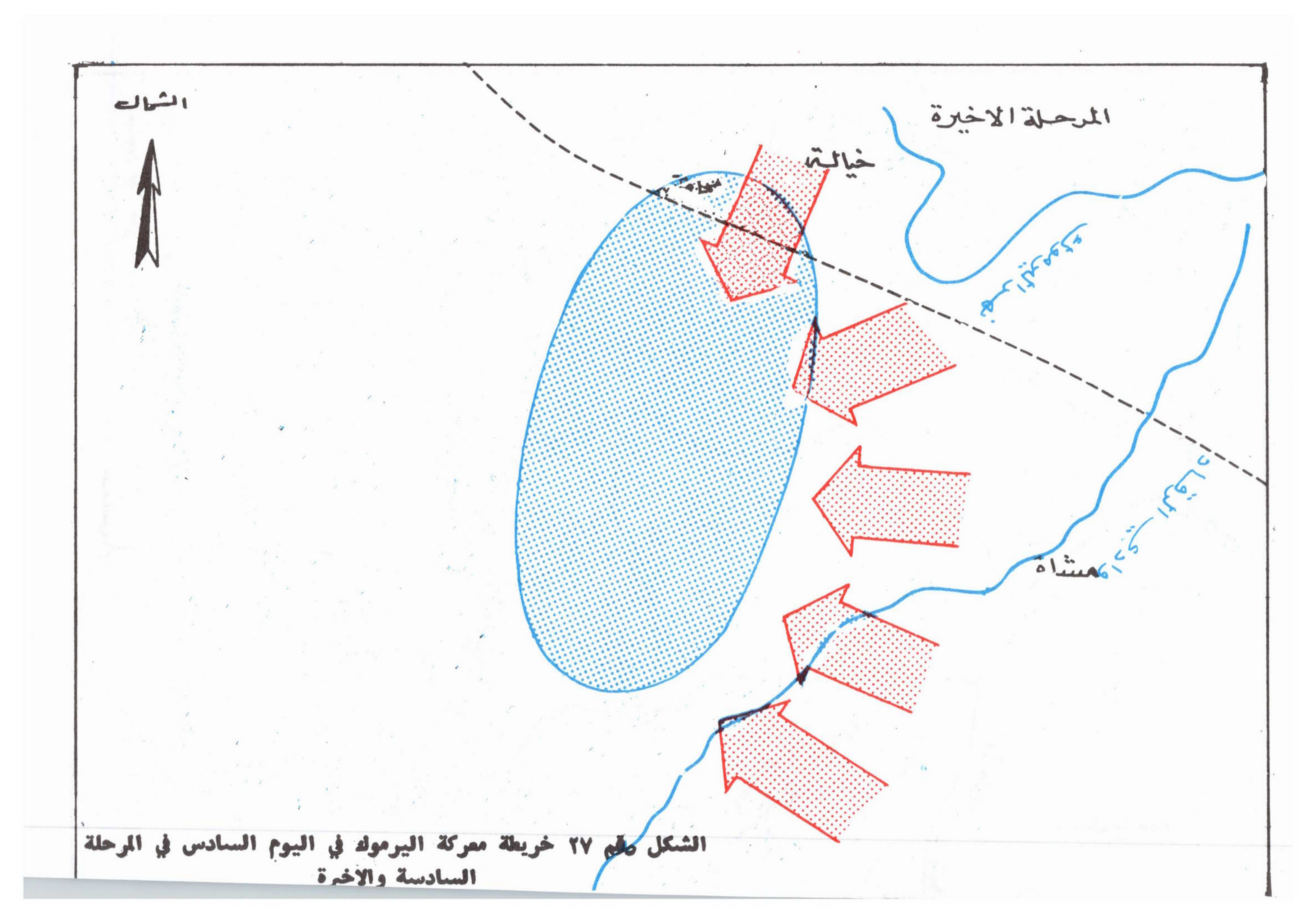


الشكل رقم ٢٢ خريطة معركة اليرموك في اليوم الثالث

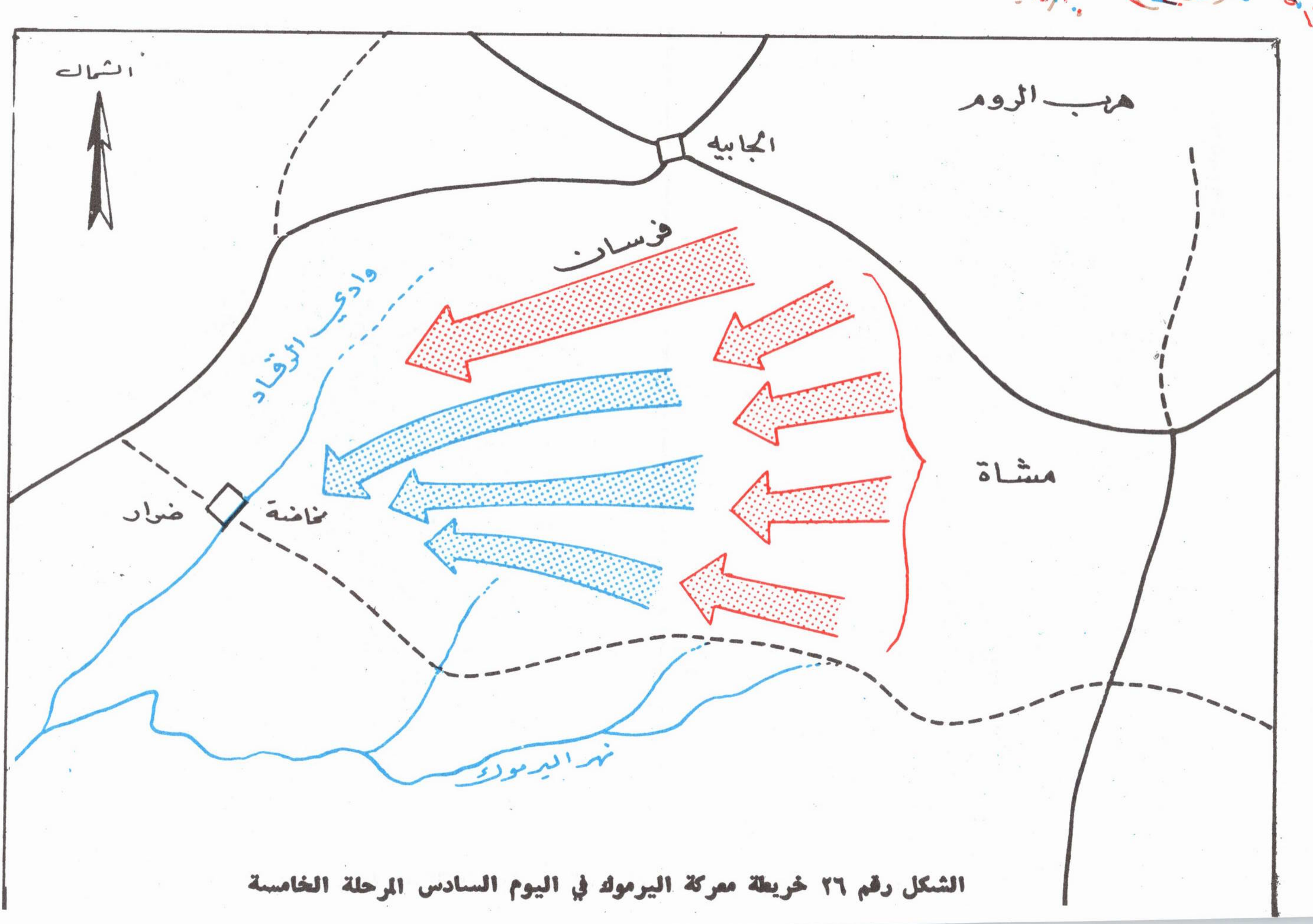
الشكل رقم ٢٥ معركة اليرموك في اليومُ السادس ـ المرحلتان : الثالثة والرابعة



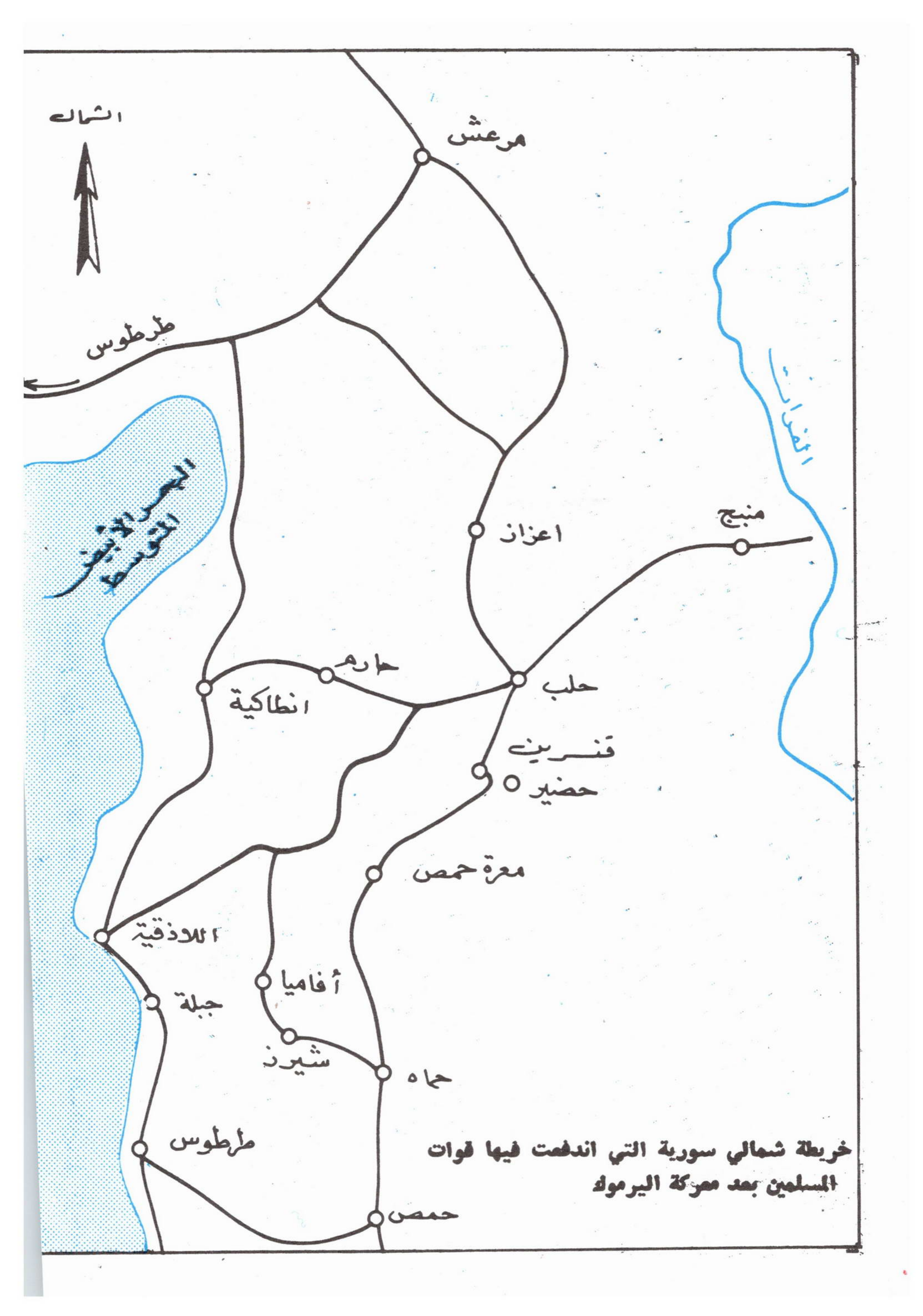
الشكل رقم ٢٤ خريطة معركة اليرموك في اليوم السادس : المرحلتان الاولى والثانية



الشكل رقم ٢٧ خريطة معركة اليرموك في اليوم السادس في المرحلة السادسة والأخيرة



الشكل رقم ٢٦ خريطة معركة اليرموك في اليوم السادس المرحلة الخامسة



خريطة شمالي سورية التي اندفعت فيها قوات المسلمين بعد معركة اليرموك